

(Viaum Pacis) وغنائها، ثم أعقب ذلك غناء مزمو «مبارك هو الرب إله بني اسرائيل» ثم إنه غنى بعض المجموعات الخاصة، وبعد ذلك أضفى تبريكاته، وغادر الجميع بعد ذلك مسرورين كثيراً.

رسائل من الامبراطور إلى الايرل رتشارد أخبره فيها عن انتصاراته على الميلانيين

في العام نفسه، أرسل قبيل عيد الميلاد، ذلك القاهر القدير لأعدائه، الامبراطور الروماني فردريك، رسائل امبراطورية، مختومة بالذهب، كما هي عادته، إلى رتشارد ايرل كورنول، ليخبره، وليخبر آخرين من خلاله، عن النصر الذي منحته السماء إياه على الميلانيين، حسبما ذكرنا، وجاء محتوى الرسالة ومقصدها كما يلي:

«من فردريك، الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى رتشارد ايرل أوف كورنول، ابن ختنه المحبوب، الصحة، وأصدق العواطف: كم كان متهوراً ووقحاً قيام الليغوريين Ligurians [الجنوبيين] في ثورتهم ضد شخصنا الملكي، وقد أخبرت التجربة وقرب المكان، الناس الجيران وحملت أخبار الشرور المتأصلة إلى الناس إلى مسافات بعيدة، ونحن نعتقد أنك على دراية بما يعلمه الناس، عن تجاوزنا المستمر عن ذنوبهم لمدة طويلة، إلى حد إذا ما مضينا هكذا فإن تحملنا سوف يفقد اسم الصبر الحقيقي، وسوف ينال وصمة الجبن الشريرة، وذلك عوضاً عن الاسم الشريف ذي الفضيلة، وبعد تقدير وتأمل لبعض الوقت أن الجراحة التي لا تشعر بأي تأثير من استخدام الكمادات، ينبغي أن تقطع بالسكين، ولذلك فإن الحاجة قد أرغمتنا على اللجوء إلى السلاح، وإلى إيقاظ الامبراطورية النائمة من سباتها، هذا ولم نستطع لا في السنة الماضية، أو خلال السنة الحالية، اقناع رعايانا المتمردين باللجوء إلى مخاطرة مواجهتنا في قتال مكشوف، من أجل

أن ننال على الفور نصراً عليهم، وحدث لدى توفر فرصة سعيدة، أن
الميلانيين مع حلفائهم قد احتشدوا عند حصن بريشيا Brescia وبذلك
حال نهر بيننا وبينهم، وقد أحاط بهم هذا النهر، وكأن خندقاً قد أحاط بهم،
وبناء عليه نصبنا معسكرنا، على الطرف الآخر من نهر أوغليو Oglio
ووقتها عاد الفرسان المخلصين وسكان المدن إلى ديارهم، لأنهم لم يعودوا
قادرين على تحمل التأخير الممل غير المتوقع، وقسوة الموسم، وقد وجهنا
— على كل حال — خطانا مع كتلة منتقاة من جيشنا، فرنا على طول
شواطئ الطرف الآخر من هذا النهر، وقصدنا الجسور التي كان العائدون
إلى ديارهم مرغمون على عبورهم، وبات الميلانيون وحلفائهم غير قادرين
على البقاء مدة أطول في أماكن اختبائهم، وذلك بسبب قلة الحاجيات
الضرورية لديهم، فعبروا نهر أوغليو، بوساطة المخاضات والجسور،
ووصلوا إلى السهل المفتوح ودخلوه، ظانين أن بإمكانهم النجاة منا بالفرار
سراً، ولعلهم لم يتصوروا أننا كنا على مقربة كبيرة منهم، وعندما — على كل
حال — علموا بقربنا، استولى عليهم الرعب والخوف، ونزل بهم نزول
صاعقة من السماء، ولدى رؤية مقدمة جيشنا الامبراطوري، وقبل تمكنهم
من رؤية أعلامنا المنتصرة، والنسور الامبراطورية، نكصوا على أعقابهم،
وشرعوا بالفرار من أمامنا باضطراب كبير، وفوضى عظيمة، وظلوا فارين
حتى وصلوا إلى رايتهم، التي بعثوا بها أمامهم إلى نونفاكروسي Nu-
ovacroce بسرعة فائقة، أي بقدر ما يستطيع حصان سريع حملها، حتى
أن ما من أحد من عساكرنا المطاردة لهم، استطاع أن يلمح وجوه الفارين،
ولأننا اعتقدنا أنه بات من الضروري بالنسبة لنا المبادرة بالاسراع لتقديم
المساعدة إلى القوات الاحتياطية، التي تقدمت وسارت أمامنا بقوة صغيرة،
لذلك زحفنا خلفهم بسرعة كاملة، مع قوى جيشنا، وحيث توقعنا أن
نجدهم قد صدوا بهجوم الأعداء المقاتلين، وجدنا أن تقدمنا معاق بأعداد
الخيول التي كانت تركض هنا وهناك، من دون ركاب، وكذلك بحشد
الفرسان الممددين جرحى أو قتلى، في حين كان الذين بقيوا أحياء إما

واقفين أو متمددين على الأرض، لأنهم كانوا مرتبطين إما بسادة أو بفرسان، كانوا من أتباع مواليهم، وبعد لأي عشنا على رايتهم قرب أسوار نوافكروسي، وهي محاطة بخنادق، ومحمية بمجموعة كبيرة من الفرسان، مع جميع جنودهم الرجالة الذين قاتلوا بشكل رائع في الدفاع عنها، وعند ذلك صرفنا اهتمامنا نحو الهجوم والاستيلاء على هذه الراية، ورأينا أن بعض جنودنا بعدما تمكنوا من شق طريقهم بالقوة إلى ذروة الخنادق، قاموا بشجاعة محمودة فشقوا طريقهم بالقوة نحو عمود الراية، وكانت ظلال الليل على كل حال تقترب، وهو ما تشوق إليه رجالنا بشدة، فتوقفنا عن القتال حتى الصباح الباكر من اليوم التالي، ذلك أننا كنا قد استلقينا للراحة فقط مع سيوف مجردة، ودون أن ننزع سوابغنا ودروعنا، مقررين العودة ليل نصر غير مشكوك فيه، ولنستولي على الراية، ولدى انبلاج الفجر، اكتشفنا على كل حال، أنها كانت مهجورة، وقد تركت وسط حشد من العربات السيئة، غير مدافع عنها تماماً ومهجورة، ورأس القصبه حيث كانت علامة الصليب، كان الصليب قد فصم، لكن يبدو أنه ظهر إلى الفارين ثقيل جداً، لذلك ترك في منتصف الطريق، أما بالنسبة لحامية قلعة نوافكروسي وسكان المدينة، الذين ظننا أنهم سوف يلجأون إلى الاحتباء بها وينجون إليها هرباً من هجماتنا، فقد وجدناهما مهجورين تماماً، ولم ينج رئيسهم الذي هو ابن دوج البندقية من الوقوع بين أيدينا، وهو الذي بأوامره رفعوا رايتهم المأسوفة، ولكي نقدم رواية مختصرة حول هذه المسألة، يقال بأن قرابة العشرة آلاف رجل قد أسروا أو قتلوا، كان من بينهم كثير من النبلاء والقادة للفتات الميلانية، وحول هذه المسائل كلها، قد أرسلنا لكم رسالة لنقدم إليكم السرور، ولكي تروا كيف أن امبراطوريتنا قد ابتهجت بالأخبار التي نرويها لكم الآن.

صدر في كريمونا، في هذا اليوم الرابع من كانون الأول، في الحادية عشرة من الخمس عشرة.

رسالة بعثت إلى النائب البابوي حول أوضاع الكنيسة الرومانية

وكتب في هذا العام نفسه أيضاً، في حوالي عيد الميلاد السيد الكاردينال ج. ل دي كولونا، وكان قوياً ومستشاراً خاصاً للكنيسة الرومانية، إلى النائب البابوي في انكلترا، كما يلي:

«من الأخ إلى أخيه، ومن الكاهن إلى الكاهن، ومن المحب إلى الحبيب، تمنيات الصحة في المسيح — لو أن هذه الرسالة، التي أنا كتبته يمكن أن تبقى سرية عن الغرباء، ولولا أنه بحكم المسافات بين الأماكن، كثير من الأشياء يمكن أن تتعرض للخطر، لأودعت كتابة كثيراً من الأشياء، التي للسان صامت عنها لا يتحدث، ولا يبيحها إلى الصديق، وهذه أمور لا ينبغي لي أن أخفيها عن معاليكم، وهي أن الأم قامت بتشوق، أو بالحري بشكل غير حكيم، بتغطيس نفسها واغراقها بين الأمواج، وعن طواعية واختيار من نفسها، ألقت بذاتها بين فكي الذئب، بوساطة خطط اثنين فقط، مع أن ثالثاً قدم تعاونه، أو بالحري لتكلم بشكل صادق أكثر كان سابقاً بهذه الخطئة، وبما أن الحرية قد ألقي بها جانباً، فقد بدأت العبودية، وغاب نجم القداسة، ونزل الميراث والحظ إلى مرتبة العبودية، وشموخ العالي والقوي نال الثناء، واشتري السجن، وازدري الشرف، وتم السعي وراء الفوضى، وتسليح الاضطراب، وأرغم الهدوء على الفرار، وما من اهتمام صرف نحو ذنوب الرهبان والغرباء، وتلا ذلك وأعقبه نتائج مخزنة، ولحسن حظك أنك ابتعدت عن هذه المشاكل، وأنتك ذهبت إلى بلاد نائية، حتى لا ترى معاناة شعبك وآلامه، ولا تشاهد القديسين وهم يتعرضون للضربات اليومية، ويمزقون بأدوات نحس متواصلة، ولقد رغبنا، وغالباً ما حاولنا أن نقوم بإصلاح أحوال الكنيسة وأوضاعها، ذلك أنها هوت وفسدت وصارت بلا شكل وفي وضع سيء متدهور ومعزول، وأديرت المؤتمرات بشكل عابث، حيث أن الأهواء لم تضبط بضوابط العقلاء، بل أثيرت بعنفها، وبالإضافة إلى كتلة أحزاننا الأخرى، إن العمود النبيل،

الذي جرت العادة أن يدعم بشكل نبيل،، ويسند آلية الكنيسة، وهو مولانا أسقف ساينا، صاحب الذكرى الطيبة، قد اختطف فجأة من بين أوساطنا، فقد أصيب أولاً بالحزن تجاه اضطرابنا، ثم إنه هوجم فيما بعد بمرض بطيء، ومات، ليدخل تحت سلطان الرب، تاركاً مشهداً محزوناً من الدماء لأمة، ورجع الرهبان من بلادهم وهم على خلاف مع رئيسهم، ولم تظهر علامات خطوات نحو السلام، لأن أتباع الخلاف لم يطيعوا العاملين في سبيل السلام، وقد انسحب أسقف أنطاكية من الجماعة، ولم يتوافق مع الذين عادوا، وبودنا يا صديقي لو أن ذلك أحيط بعناية حاشية صغيرة، وأنه بذلك لم يكن عبثاً على الآخرين، وأنه لم يمزق بأسنان المستخفين، ولكن بما أن قوة غمر فيضان المذنبين والعواصف الشديدة قد ازدادت قوة، لقد أصبحت لازماً لأملك، ولذلك أعدّ نفسك للعودة. صدر في فيتربو، في يوم عيد القديسة لوسي».

الإغريق يرفضون الخضوع للكنيسة الرومانية

وعندئذ ظهر من هذا ومن علامات مماثلة، ووضح أن الكنيسة الرومانية قد حصلت على غضب الرب، لأن الرؤساء فيها والأساقفة، لم يسعوا إلى دعوة الناس إلى التقوى، بل لجمع محافظ نقود مليئة بالأموال، وليس لكسب الأرواح إلى الرب، بل للاستيلاء على الموارد، وتكديس الأموال، وللضغط على رجال الدين وظلمهم، ولمصادرة أملاك وتكريسها لاستخداماتهم بوساطة الكفارات، والربا، والسيمونية، وما من تقدير قدم للعدل أو للشرف، وما من انتباه صرف إلى توجيه الجاهل وتعليمه، وحالما ينال أي واحد منصباً لاهوتياً له منافع، تراه يبحث على الفور ليتعرف كم من المال سوف يحصل منه، وآخر سؤال يجري طرحه — هذا إذا طرح — يتعلق بقديسه، أو باسم الذي حملت كنيسته عنوانها، ولذلك فإن اللعنات والشكوى ثارت بين الناس، وأثير غضب الرب يومياً، لسبب صحيح، ولدى مشاهدة الكنيسة الاغريقية هذه الشرور وهذا الظلم، ثارت ضد

كنيسة روما، وطردت امبراطورها، وأظهرت الطاعة نحو رئيس أساقفتها فقط في القسطنطينية الذي كان اسمه جرمان German الذي في ضلاله ابتعد عن الإيمان الكاثوليكي، ودافع بجرأة عن العقائد الخاطئة للاغريق، وعن الأخطاء القديمة وكذلك عن الأخطاء المبدعة حديثاً، وعقيدتهم الحمقاء هي كما يلي:

هم يؤكدون أن الروح القدس لم تصدر عن الابن، بل عن الأب وحده، لأنه وجد مكتوباً في الكتابات المقدسة: «روح القدس التي صدرت عن الأب»، فضلاً عن ذلك هم يكرسون القربان من الخبز المختمر، وهم يعاكسون اللاتين ويخالفونهم في عدد من النقاط، ويمقتونهم، ويدينون الكنيسة الرومانية في عدة نقاط، وهم يولون بذلك أفعالها أكثر من أقوالها، وقام بناء عليه، مثل ابليس آخر، فأسس كرسيه في الشمال، أي أن تقول في القسطنطينية، التي هي المدينة المطرانية للاغريق، وكان بذلك ابناً ممسوخاً وباباً مضاداً، وسماها كنيسته، وأعلن أنها الأكثر جدارة، وقال أيضاً بأن الكنيسة الرومانية هي أختها، وليست أمها، لأن القديس بطرس، رئيس الرسل، كان قد أسس في الأيام الخالية كرسيّاً كاتدرائياً في أنطاكية، التي هي مجاورة للامبراطورية الاغريقية، وتابعة لها، وكان قد فعل ذلك قبل القدوم إلى روما، وأضاف أيضاً بأن أنطاكية أبدت كل التكريم والاحترام الذي كان في طاقتها إلى رسول المسيح، وبناء عليه وبسببه تشرفت بنبيلها اسم «ثيوفيلوس» (Theophilus) في حين قامت روما بعد كثير من الالهانات، وأعمال تمرد كبيرة، فحكمت على بطرس المذكور، وعلى تابعه الرسول بولص بالموت، وهكذا كان الذي ظهر من الجانب الاغريقي وجرى التعبير عنه هو التشريف والاحترام، في حين كان ما ظهر من الجانب الروماني وجرى تقديمه هو عدم الاحترام والالهانة، ولذلك فإن الاغريق يستحقون عن جدارة وبموجب الحق، أن يدعو باسم «الأبناء»، والرومان باسم «أبناء الزوجات»، والذي يمكن استخلاصه من محتوى

الرسائل المقبل ذكرها، أن رئيس الأساقفة جرمان المذكور قد رغب في جمع إغريقه واللاتين — أي الرومان — مع بعضهم، من أجل أنهم بعد سماع الحجج المقدمة من الطرفين المتنازعين، يمكنهما الوصول إلى طريق ما للتفكير، وفقاً له يكون مؤيداً لحجج، أو يكون سلطة تثبت مواقفهم، وبذلك يمكن للكنيسة كلها التي تقاتل في سبيل الرب، أن تدعى كنيسة واحدة ومتحدة، وأنه وفقاً لما رسمه مخلصنا، يمكن أن يكون هناك راع واحد وقطيع واحد في جميع أرجاء العالم، ولهذا السبب كتب جرمان المذكور، إلى البابا بما يلي:

رسالة جرمان رئيس أساقفة القسطنطينية

إلى غريغوري البابا الروماني

«إلى الأعظم قداسة، والأكثر فخامة، البابا لروما القديمة، وأسقف الكرسي الرسولي، من جرمان، الذي هو بنعمة الرب رئيس أساقفة القسطنطينية في روما الجديدة:

آه يامولاي يسوع المسيح، امنحني الخلاص، وآه يامولاي الرب أعطني نجاحاً طيباً، لأنني أرى فيك، وأعدّك، الشرف، وحجر الزاوية الثمين المنتخب بمثابة أساس لهذه المناقشة التي يمكن أن تجلب الخلاص إلى جميع العالم، لأنني قد تعلمت بوساطة النبي اشعيا، بأن كل واحد يؤمن بك بأنك هذه الحجرة، سوف لن يرتبك بأي شكل من الأشكال، كما لا يمكن تحريكه من أساس أهله، وهذا هو الصدق، وما من أحد يتجرأ على معاكسة ذلك، ما لم يكن تلميذاً لأبي الكذب، وعملك أنت الذي هو حجر الزاوية، أن تتولى توحيد الأشياء التي نأت عن بعضها بعضاً، أو توحيد الذين اختلفوا فيما بين بعضهم بعضاً، وأن تجمع الأشياء التي افترقت عن بعضها في وحدة الإيمان، فأنت الذي بشرت بإنجيل السلام إلى هؤلاء الذين يسكنون في القرب وفي البعد، وأنت الذي برفع يديك فوق الصليب، قد

جلبت نهاية طرف الأرض إلى الاستقامة، وبعد ذلك، حسب عادة الرب رفعتهم فوق كتفيك، وبناء عليه إنني أتوسل إلى رحمتك الواسعة، أنت الذي هو كلمة الأب الكلي القدرة، والذي هو من الجوهر نفسه في حكمة الرب، عمّر في صرح هذه المناقشة، وكن أنت أساسها وسقفها، فأنت وفقاً للقول الرباني ليوحنا، البداية والنهاية، البداية التي لا يسبر غورها، والنهاية لكل شيء، فهكذا مددنا صلواتنا، وهكذا رفعنا في المقام الأول أبصارنا إلى الجبال السماوية، التي صلينا من أجل أن تأتينا المساعدة منها، ثم نتوجه بعد هذا بحديثنا إليك أيها البابا الأعظم قداسة، الذي حصلت على رئاسة الكرسي الرسولي، تلتطف وانزل قليلاً من مجدك العالي، واصغ إلى كلماتي، أنا الذي ذي قيمة صغيرة، والتعيس في كل من الحياة والطريق، إذا كنت —كما أقول— تشابه الذي يسكن في عليين كرب، وينظر نحو الأسفل على الأشياء الموجودة هنا تحت، ومن هاهنا أنا سوف أبدأ:

إن الحكمة المبهمة للرب، التي عملت من لاشيء كل شيء، قد أبقتهم دوماً داخل الحدود، وحكمتهم بشكل عقلائي، قد عملت منذ زمن مضى عادة في أقل المناسبات، لبناء أشياء عظيمة على ذلك، وكأن الأساس قد أرسى منذ زمن طويل مضى، فيوسف قد بيع في مصر مقابل فضة، بعدما أُلقي في الحب، ورمي به بعد ذلك في السجن، والأحداث التي تلت، وكم كانت مجيدة ومشرفة، وكيف تمجد الرب في وسط ذلك، هي معروفة بشكل جيد من قبل الفهم الحكيم لعقلكم، أيها الأب الأعظم قداسة، والذي يريد هذا الخطاب أن يشير إليه، ويقصده ويستهدفه، هو الرهبان الذين هم موجودين، والذين عددهم يساوي عدد العذارى الحكيمات، والذين اجتماعهم الخطير، وسجنهم غير العادل قد لفت انتباهنا له، وهذا مأسوف نبيّنه إلى قداستك، ذلك أن مصباح أعمالهم، مع النور الصادر عنه، أشع نحو الأمام من أجل مجد الأب السماوي، وهم بحكمة يزودونه دوماً بزيت الأعمال الطيبة، حتى لا ينطفئ نورهم، ولكي لا يفرقوا هم

أنفسهم في الكسل، وبذلك يرفض قبولهم إلى الملكوت، وهم جميعاً بلا عصي، وبلا نعال، ولكل واحد منهم ملابسه الخاصة، وأنا أعتقد الآن —وفقاً للرسل— أن أقدامهم جميلة، حيث أنهم يبشرون بانجيل السلام بين الاغريق واللاتين، وهم من الممكن باختصار دعوتهم، وكأنهم بلا أي عبء، أكثر الساعين رشاقة وأسرعهم، مبادرين بسرعة نحو الرب، الذي هو هدف جميع الرجال الصالحين، وعند وصولهم إلى الهدف، سوف يتوقفون عن الركض، ويتسلمون جائزتهم التي تشوقوا إليها كثيراً، وهؤلاء الرجال، الذين بالنسبة للرب يدعون بالفرنسيكان، لكونهم متحدين برغبة واحدة، وبمقصد واحد، ولأنهم مثل ذلك قد امتازوا برقم خمسة، هؤلاء قد ظهروا بمثابة شارة طيبة، وأعطوا أملاً جديداً —برضا الرب— بالوحدة والوئام، لأنهم تأسسوا بين خمس بطريكرات، وهؤلاء الرهبان أنفسهم، قد التحقوا ببيتنا، كما أعتقد بموجب الحكمة الربانية، التي توزع جميع الأشياء لخير الفوائد والمنافع، وبعد مرور مناقشات من على الطرفين بيننا، اتجه الخطاب وتحول قبل كل شيء، نحو الشقاق القائم منذ أمد طويل، في ثوب التقوى الذي لانظير له، والذي نسج هكذا من الأعلى إلى الأسفل، وهو الثوب الذي ألبست به أيدي الرسل الكنيسة الكاثوليكية للمسيحية، ولم تكن أيدي الجنود هي التي أقدمت على تمزيقه وتقسيمه، بل خلافات اللاهوتيين هي التي فعلت ذلك، والتصددع كبير، وله سنين طويلة قائماً، وليس هناك من أحد لديه رحمة نحو قرينة المسيح، المرتدية لثوب ممزق، أو التي سوف تبكي على تعاستها، وهذا —كما أعتقد— قد رثاه داوود أيضاً في ميراثه، حيث قال في كتاب المزامير: «لقد تفرقوا دون ندامة»، وإذا ما أردنا أن نشعر بالندامة، ينبغي أن نحزن وأن نشعر بالأسف، وإذا كنا سنواجه الاضطراب والحزن، علينا أن نتوجه بالدعاء إلى اسم الرب، ومادما ننشد عون، سوف يقدم إلى مساعدتنا، وكأنه وسط تلاميذه، يجلب الهدوء والسكينة إلى الذين هم على خلاف، ويقوم عدم الوفاق في أفكارهم، أو لم تكن أحشاؤه هي التي تمزقت؟ أوليسوا هم

آسفين بسبب عدم اتفاقهم؟ نعم هم كذلك كثيراً، لأنه هو الأب، والأعظم قداسة بين جميع الآباء، ولا يمكنه تحمل رؤية أبنائه ليكون بشكل متبادل، ويدمر أحدهم الآخر، وفق هذه الطريقة العدوانية، وأن يرى أحدهم وقد إلتهم من قبل الآخر، على طريقة الأسماك، لأن العظيم قد ارتقى فوق الأدنى، والأعظم قوة يظلم الضعيف، فهل مثل هذا تعلمنا من قبل صياد السمك ذاك، الذي هو بطرس، والذي هو على عكس متقدميه، اقتاد الذين أمسكهم بشبكته من الموت إلى الحياة؟ وأسفاه، من الذي سوف يعطي ماء إلى رأسي، ونبعاً من الدموع إلى عيني، حتى أبكي ليل نهار على دمار القدس الجديدة، خارج أمم الكنيسة المجتمعة؟ وكيف نحن الشعب المختار من الرب قد انقسمنا إلى يهود واسرائيليين، ومدينتينا إلى القدس والسامرة؟ والحال نفسه كما وقع في قضية قابيل وهابيل، أو عيسو ويعقوب، اللذان كانا أخوين بالولادة، ولكن عدوين بالعقل، وهكذا عادى أحدهما الآخر، الحال هذا نفسه واقع الآن بيننا، وأنا حزين لإقحام هذه الأشياء في رسالتي، خشية أن أبدو وكأنني أجرح أولوية أخوتك، أو أن يظن بأنني أسعى للاستيلاء على حق الولادة للمولود الأول، وعلى كل حال، لم يصبح «أبي» مسناً، كما أن عينيه لم تغدوا غير بصيرتين، لكنه يسكن في السماء، وبوضوح يرى جميع الأشياء، وعلى الذين ظلموا بشكل غير عادل، قد أضفى تبريكاته، وهذه الأشياء في الحقيقة مؤلمة، وإلى انسان ذي فهم، هي الدودة التي تقرض عظامه، إذا ما استحضرت مراراً إلى الذهن، والذي بقي ليقال هو أكثر مرارة وحدة، وأكثر مضاء بالقطع من أي سيف ذي حدين، ضد أية طائفة من الناس جرى توجيهه، سواء أكانوا إغريقاً أم لاتيناً، وماذا هذا؟ دعونا نسمع الذي قاله بولص: «وسواء أكننا نحن، أو ملاك من السماء، يبشر بانجيل آخر إليكم، غير الانجيل الذي بشرنا نحن به، فليلعن»، ولقد ضرب بالسيف الذي هو من هذا النوع أكثر من مرة، وهو من الممكن أن يجلب علينا حزناً أعظم، للمرة الثانية أيضاً، بضربة ثانية، والذين يخافون الموت على أرواحهم، يطلبون الطبيب، وبعد هذا ماذا

يمكنني أن أقول أكثر؟ دعونا نطرد كل اهتمام آخر وقلق من عقولنا، مثلما ننفض الغبار من على أقدامنا ودعونا نستخدم كل مساعينا، لنكتشف من الذي أصابه هذا السيف المرعب، وذي الحدين، والذين فصلهم عن اتحادهم بأطراف الكنيسة، التي المسيح هو رأسها، فإذا كان قد أصابنا نحن الاغريق، أرونا الحز، وأزيلوا الدم من الجرح، واستخدموا رباطاً روحياً لربطه، واحفظوا إخوانكم الذين هم في هذا الخطر، خشية أن يهلكوا، وهكذا اتفقوا مع سليمان الذي ضرب هذا المثل «الصديق وقت الضيق»، ودعونا أولاً وبشكل رئيسي نصغي إلى الرب نفسه، الذي أعطى حكمة إلى سليمان هذا المذكور، والذي قال من خلال النبي:

«كل من يفصل الثمين عن الرخيص سوف يكون وكأنه عظمي»، ولكن إذا كنا نحن الاغريق من دون ندبة ومنتحررين من الجرح بهذا السيف، سيف اللعنة الكنسية، وإذا كان قد جرد ضد الايطاليين واللاتين، وقد رفع من أجل قتل البعض ولتدميرهم، نحن نعتقد أنكم لن تسمحوا لأنفسكم بالانفصال عن جانب الرب، من خلال الجهل، أو العناد الشرير، فكل واحد منكم يؤثر عن طوعية تحمل عشرة آلاف موت، إذا كان ذلك ممكناً، على هذا الانفصال، وبما أن كل من الخلاف الكبير، والتباين بالمواقف والتضاد بالآراء، هي المدمرة للأحكام الشرعية، أو المغيّرة للعادات التي أورثنا إياها آباؤنا، وهي أيضاً مواد السياج التي فصلت هذه الأشياء، التي كانت من قبل متحدة بروابط السلام والوئام، فالعالم كله سوف يعلن بصوت واحد، وهو يدعو الرب، والسموات والأرض لأن تشهد بأننا رجونا بأعظم إخلاص لأن نتحد يداً بيد معكم، أو أنتم معنا، بالقيام بتقص يقظ، وأن نمحص بحثاً عن الحقيقة حتى القعر، وأن نطلب مساعدة الروح القدس، حتى لانكون عرضة مدة أطول إلى شقاق مخز مماثل، وأن يتحدث بسوء عنا من قبل اللاتين، أو أنتم تشتمون من قبل الاغريق، وأن تتمكن من الوصول إلى اللب الحقيقي للصدق، فإن عدداً

كبيراً من الرجال الأقوياء والنبلاء سوف يطيعونكم، إذا كانوا لا يخشون الظلم غير العادل، وطلب استخراج الأموال الذي تمارسونه، والخدمات غير المستحقة التي تطلبونها من الذين هم خاضعون إليكم، ونظراً لأن الحروب الوحشية تقوم بين واحد ضد آخر، فهي مصدر دمار المدن، وإنه لهذا السبب وضعت الأختام على أبواب الكنائس، ونظراً لنشوب الانشقاقات بين الرهبان، فإن عمليات خدمات الكهنة قد توقفت، ولذلك فإن الرب لا يمجّد في البلاد الاغريقية وفق الطريقة الصحيحة المتوجبة، وواحد من الأشياء — كما نعتقد — قد منح منذ زمن طويل، ووصف إلى الاغريق من عليين، هو حتى الآن مطلوب، وهو زمن الشهادة، وعلى هذا إن الوقت الذي قد بات الآن وشيكاً هو وقت افتتاح منابر القضاء، وأن توضع أختام المنازل، من أجل تدفق الدماء، ومن أجلنا نحن لكي نصعد إلى ميدان الشهادة، وأن نقاتل قتالاً جيداً حتى نتسلم تاج المجد من اليد اليمنى للرب القدير، وإن جزيرة قبرص الشهيرة تعرف أن الذي أقوله هو صدق، فهي تعرف، وهي قد أنتجت شهداء جدد، ورأت جنود المسيح، الذين عبروا أولاً البحر، وتطهروا في حمام الدموع، وبالتعرق اجتازوا أخيراً، وعبروا حتى من خلال النار، واقتيدوا من قبل الرب — الذي أشرف على قتالهم — إلى مكان الاستراحة السماوية، أوليست هذه الأشياء جيدة أيها البابا الأعظم قداسة، وخليفة الرسول القديس بطرس؟ وهل فرض بطرس التلميذ اللطيف والمتواضع للمسيح هذه الأشياء؟ وهل هكذا وجه الشيوخ عندما كتب: «إنني أحث الشيوخ الذين بينكم، ذلك أنني أنا شيخ، وشاهد على آلام المسيح، وكذلك شريك في المجد الذي سوف يظهر؟ أطمعوا قطيع الرب الذي هو بينكم، واعتنوا به، ليس بالكره بل بالطوعية، ليس من أجل ربح قدر، بل بعقل جاهز، وليس على شاكلة سادة على ميراث الرب، بل بمشابة مثل للقطيع، وعندما سيظهر الراعي الرئيس، سوف تتسلمون تاجاً للمجد لا يخبو ولا يتلاشى»، فهذه عقيدة بطرس والذين لا يطيعونه سوف يرونها، وقد نلنا تهديئة كافية وترضية

بذلك الجزء من رسالته، التي أمر فيها الحزينين، لأن يكونوا مسرورين تحت مغوياتهم المتنوعة، بقوله: «بأن محنة إيماننا أغلى بكثير من الذهب الذي يتلف، علماً بأن المحنة بالنار، يمكن أن تلقى المديح، والتشريف، والمجد، عند ظهور يسوع المسيح»، وامنحني عذراً، أيها السيد الأعظم قداسة، والأكثر رحمة بين جميع أسلافك لروما القديمة، وتحمل كلماتي، مع أنهم يحملن كثيراً من المرارة، لأنهن تنهدات قلب متألم، وقد منح الغفران إلى الرجال المستقيمين، الذين بسبب الحزن العظيم في القلب، انفجروا يتفوهون بكلمات مزيجية بالتنهدات، وبناء عليه احزم أمرك واشدد عزمك، وأضئ مصباح رشدك، وانشد الدرهم المتعرض للتلاشي من أجل وحدة الايمان، وسوف نكون متعاطفين مع قداستك، وسوف لن نوفر جسدا الضعيف، ولن نسامح أنفسنا من مرافعة العصر القديم ولن نغفيتها، كما أننا لن نشكو من الرحلة الطويلة، لأنه كلما كان العمل الذي نقوم به متعباً، كلما توفر هناك سبب من أجل عدة تيجان من المجد، لأن كل واحد سوف ينال مكافأته وفقاً لتعبه، كما قال بولص بأن المصارع العام في الحلبة مع منتصر خاص ينالان تاجاً للمجد، ونحن لسنا جاهلين، أيها الأب الأعظم قداسة، أنه كما نحن الاغريق، في الطريق نفسه، نسعى نحو مراعاة العقائد (الأرثوذكسية) المستقيمة والتقوية في كل شيء، وكذلك حتى لانضل فنبتعد عن أحكام الرسل والآباء المقدسين، كذلك تفعل كنيسة روما القديمة، حسبما نعرف بشكل جيد، فهي تناضل من جانبها حتى ترى نفسها لم تخدع في أية نقطة، وهي تؤكد أنها ليست بحاجة لا إلى الانقاذ ولا إلى التقويم، وهذا نعرفه، لأنه قد قيل في كنيسة الاغريق، وكذلك في كنيسة اللاتين، ولأن ما من أحد يمكنه أن يرى شيئاً قبيحاً في وجهه، ما لم ينظر في المرأة، أو يجري إخباره من قبل شخص آخر، كيف يبدو هو في وجهه، سواء أكان قبيحاً أم غير ذلك، ولدينا الكثير من المرايا الواسعة، وأعني بذلك الانجيل الواضح للمسيح، ورسائل الرسل، وكتب الآباء المقدسين، ودعونا ننظر فيهم، فهم يظهرون كيف يشعر كل انسان، سواء أكان بشكل

غير شرعي أم شرعي، هذا وإن كل من يستدعى إلى المرأة ليقوم بمحاولة، سوف عندما يتعد يعترف — وإن كان من غير رضى — بأن وجهه قد تشوه، وأن رب السلام، سوف يكدم الشيطان تحت قدميه بعد وقت قصير، الذي هو صانع الخلاف، والذي هو السلام، الذي هو سبب جميع المحاسن، سوف يكدم الذي يكره الصلاح، ويسبب الخزي، ولعل الذي هو رب السلام أن يرسل إلينا، الذين هم رعاة لشيأهه العاقلة، وملائكة السلام لتعلن الفرح العظيم، كما فعلت من قبل لرعاة الشياه البهيمية، عند ولادة المخلص بالجسد، وأن يجعلنا جديرين بأن نغني أغنية المدح تلك، أي: «المجد للرب في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وحسن الإرادة نحو الناس»، ولأن يحبي الواحد الآخر بقبلة مقدسة، وليكن معكم مجد مولانا يسوع المسيح، وسلام الرب الأب، والصلة الحميمة للروح القدس. آمين».

رسالة منه نفسه إلى الكرادلة

«من جرمان الذي هو بنعمة الرب، رئيس أساقفة القسطنطينية، روما الجديدة، إلى الكرادلة المشهورين، والأعظم قداسة واستقامة، شرف الكرسي الرسولي:

إنه بالفعل هناك فائدة كبيرة إلى العالم، ونافع جداً إلى جميع الناس، لأن نجتمع معاً، ونعقد مجمعاً، من أجل ترتيب المسائل، لأن ما أخفاه الرب أحياناً عن انسان ما، قد أباحه وكشفه إلى آخر، وهكذا إن كل ما كشفه من صلاح إلى أي انسان، إنه عندما يجلب لمنفعة الجميع ومعرفتهم، يجري تداوله، بدرجات متزايدة لصلاح الحشود التي هي رعية له، ولئن كانت هناك عدة من المختلفين بالرأي، لكنهم رجال متعلمين ومخلصين عاقلين، كم كان عظيماً الربح، وكم كانت كبيرة المنافع التي حصلت إلى جماعة الخاضعين لهم؟ لأن الانسان الذي يعمل من دون مشورة يعاكس نفسه، كما قال سليمان بصدق: وعلى هذا إنه من جهة أخرى، كل من لديه نصيحة

طيبة يجذب أصدقاءه إليه، ويدني أعداءه ويقربهم من الصداقة معه، وكون هذا هو خطة ربانية وسماوية، النبي اشعيا هو شاهد على ذلك، حيث دعا الجوهر المتجسد لكلمة الأب، والملاك العظيم للحكمة، بأنه المستشار محط الاعجاب، حتى يمكن أن نفهم حقاً وبالواقع، كم هو ضروري في مسائل تتعلق بالرب، تمييز الفوارق بين الأشخاص، لأنه تبعاً للطبيعة اللاهوتية، هناك إرادة واحدة للأب، والابن والروح القدس، ولذلك يحصل كثيراً من التشريف إلى الذين ينصحون بأشياء جيدة، لأنهم من هذا يحصلون على اسم بالاشتراك مع الرب، إذا ما أعطوا مشورة من أجل الخلاص البشري وفقاً لما هو مقبول منه، وعلى هذا، مع موافقة الحكمة في عليين، التي توزع الأشياء كلها، تبعاً لأحسن المنافع، نجد أن روما قد وضعتكم في السلطة عليها، كجديرين بعظمتها ومجدها، وقد تفوقتم على جميع الكرادلة الآخرين من أسلافكم في الحكمة والتدين، وذلك حسبما أخبرنا إخواننا رهبان الطوائف الدينية، وبتواضع كما نحن، إنني أرجوكم القيام للدخول في الصراع الروحي، والبسوا دروع وسوابع الروح، ودمروا حاجز العداء القديم القائم بين كنيسة الاغريق وبين كنيسة اللاتين، لأن أسلحتكم قوية لتدمير أعمال من هذا النوع، وبعد إزالة هذا الحاجز طمئنوا الأطراف الممزقة، واربطوها مع بعضها في وحدة السلام، والخير، والإيمان المشترك، وتلك الأشياء التي فرقنا لسنوات طوال، وكونوا أنتم أيضاً نصحاء جديرين بالشناء ومقبولين لدى الرب، أمام البابا المقدس والسامي، الذي هو رجل متوافق مع رغباتكم، معروف عنه أنه مسالم، ولطيف بالروح، وتبعاً لاسمه، هو دائماً متيقظ، ودائم الصلاة، ومداوم على خدمة مولاه، حيثما تحرك، حتى يجعله جديراً بأعلى مراتب السعادة، والذي هو في بساطة قلبه يغذي أفراد شعب المسيح، وبوساطة يديه سوف يقودهم إلى مراعي الجنة، لأنه بالأيدي كما تعلمون، وحسبما جاء في الكتابات المقدسة، صممت العملية، ونحن في الحقيقة في الآمال والوعد الصحيح للمسيح، الذي أكمل الصديق في ضعفنا، وقد شرعنا بأعمال الوحدة، ونحن مرسلون

رسائل إلى صاحب القداسة البابا، واني أصلي لملك السماء، الذي ارتدى شكل العبد، لصالحنا نحن عبيده الذين بلا فائدة، والذي صلب، والذي رفع إلى مستواه الذين سقطوا في أعمال التعاسة، ليزيل من قلوبنا كل تكبر بالتفكير، هذا التكبر الذي رفع ذاته معادياً لاتحادنا الأخوي، ونأمل أن ينير أفهامكم بنور المعرفة، حتى نتكلم موحدين والشيء نفسه، وأن لا يكون بعد الآن تمزق بيننا، وأن نستمر نحن فنلقى التوجيه بعقل واحد هو العقل نفسه، وأن لا يقال بيننا كما قيل بين المسيحيين القدماء: «أنا من أتباع بولص، وأنا من أتباع أبولو، وأنا من أتباع كيفاس Cephاس وأنا من أتباع المسيح»، بل أن نكون جميعاً من أتباع المسيح، بحكم أننا نعرف باسم المسيحيين، لعلنا أيضاً نبقي نتلقى التوجيه من قبل واحد ومن قبل العقل نفسه، وأن نمارس تقديم الصدقات، التي هي تبعاً لشرعية المسيح، أن نضع في أفواهنا كلمات الانجيل التي هي: «رب واحد، إيمان واحد، وتعميد واحد» ولعلنا تتمكن من الاعتراف بالصدق، وأن نجعل منكم أصدقاء لنا، حتى تتمكنوا أيضاً من الاعتراف بها، كما كتب «إن كلمات الانسان الحكيم، الذي يقول الصدق، ويبرهن على الصدق مثل المسامير تثبت في الأعلى»، وغالباً ماينجب الصدق الأعداء، وذلك ومع أنني أخاف، ولكن سوف أعترف، بأن فصم اتحادنا قد نشأ عن طغيانكم وعن ظلمكم، وعن الإملاء القسري للكنيسة الرومانية التي عوضاً عن كونها أمّاً صارت زوجة الأب، ومثل طائر جشع جرى طرده عن فراخه، وطرده فراخه وأبعدهم عنه، وكلما ازدادوا تواضعاً، ونزعوا نحو الطاعة، كلما ازداد دوساً عليهم، وزاد من معاملتهم بالشر، والنظرة إليهم نظرة سوء، دون الاصغاء إلى قول الانجيل بأن «الذي زاد من تواضعه، استحق الرفعة أكثر»، وبناء عليه دعوا الاعتدال يضبطكم، ومع أن الشره الروماني قد استقر فيكم لوقت قصير، دعونا نهبط إلى أمان الصدق، وبعد أن نقوم بفحص دقيق بالصدق، بالنسبة لما يتعلق بطرفي المسألة، دعونا نعود إلى اتحاد ثابت، لأننا كنا كلنا نحن الاغريق واللاتين، منذ وقت مضى، نتبع الإيمان نفسه، ونتقيد

بالأحكام الشرعية نفسها، في فرض السلام بيننا أنفسنا، يقاتل كل منا في سبيل الآخر، ومسبيين الفوضى لأعداء الكنيسة، وعندما رأت الشعوب التي قدمت أيضاً إلّا، ما بيننا من الشرق، أنها وجدت مكاناً آمناً للالتجاء إليه، هربت بكل سرعة إلينا، وقسم منهم إليكم، أي إلى روما الكبيرة، بحكم كونها حصن حصين لا يتزعزع، وتلقوا الطمأنينة من على الجانبين، وهكذا باحسان متبادل جرى تلقي الأخ في صدر الأخ، وعندما جرى الاستيلاء على روما من قبل شعوب أخرى، تولت الامبراطورية الاغريقية تحريرها من طغيانهم، وقد فرّ آغابتوس Agapetus وفيجيلوس Vigil-ius لبعض الوقت إلى القسطنطينية، بسبب الخلافات في روما، واستقبلا بحفاوة ومنحها الحماية، مع أنكم لم تقدموا لنا قط مأوى، ولم تمدونا بالمساعدة، عندما كنا في وضع صعب، وإنه — على كل حال — واجبنا أن نتصرف بشكل جيد حتى نحو الجاحدين، لأن البحار هادئة من أجل القصرصان، والرب يجعل الشمس تشرق على المستقيم وغير المستقيم، وأأسفاه، ووأأسفاه، بأي انفصام مرّ قد انفصلنا، فابتعد أحدا عن الآخر، وتجنب كل واحد التحالف مع جيرانه، وكأنه معرض لخطر، وماذا بعد هذا يمكن أن نقول؟ إذا سقطنا، أقيمونا وانهضوا بنا، ولا تعملوا مجرد عمل جسدي بالهوض بنا من سقوطنا، بل اعملوا معنا أيضاً من أجل خلاصنا الروحي، ولربما سوف نعرف بأننا ندين لكم بالشكر، لكن إذا كان الاثم والشروع بالعدوان قد جاء من روما القديمة، ومن خلفاء الرسول بطرس، اقرأوا كلمات القديس بولص التي خاطب بها الغلاطيين حيث قال:

«لكن عندما قدم بطرس إلى أنطاكية واجهته وجهاً لوجه لأنه كان سيّلام»، وهناك أشياء أخرى قالها بولص فيما بعد، فيما يتعلق ببطرس، لكن ينبغي أن نعتقد بشكل تقوي، أن مقاومة هذا النوع لم يكن السبب في أي خلاف، أو نزاع حاد، بل كان بالحري تفحصاً ومناقشة عميقة، أثارت

لطافة دنيوية، ذلك أنهم كانوا متحدين بالمسيح بروابط عاطفية، وبإيمان متماثل وعقيدة متشابهة، ولم يتعدوا عن بعضهم بموجب أي طموح أو شره، ونحن في هذه المجالات نشابههم ومثلهم، ولكن ذلك بعث تفكيرنا نحو العدوانية، بأنكم فغرتم أفواهكم سعياً وراء الممتلكات الأرضية، كلما استطعتم جرفها وجمعها مع بعضها، وجمعتم الذهب والفضة، ومع ذلك أنتم تقولون بأنكم تلاميذ الذي يقول: «أنا ليس لدي لذهب ولافضة»، فأنتم ترغمون ممالك لأن تكون تابعة لكم ودافعة للجزية إليكم، وأنتم تكدسون الأموال بالمقايضات المشبوهة، ولا تعملون بأفعالكم التي بشرتم بها بأفواهكم، ولذلك دعوا الاعتدال يضبطكم، حتى تكونوا مثلاً لنا، وكذلك للعالم أجمع، وأنتم تعلمون كم هو عمل صالح أن يعان الأخ من قبل أخيه، وإنه الرب وحده هو الذي لا يحتاج إلى نصيحة أو عون من أي واحد، لكن الناس يتطلبون أن يعان كل واحد من قبل جاره، وبها أنني أحترم بطرس الرسول العظيم، الذي هو رأس رسل المسيح، وصخرة الإيمان، أود أن أعيد إلى ذاكرتكم كيف أن هذه الصخرة قد هزت إلى أساسها، وحركت من قبل امرأة منحطة، وذلك بإذن المسيح، وذلك وفقاً لأحكامه التي تنبأ بها بجميع الأشياء، وأحكامه هذه عميقة جداً، وهو الذي بضوت الديك، أعاد إلى ذاكرة بطرس كلمات النبوة، وأيقظه من نوم اليأس، ولدى استيقاظه، غسل وجهه بالدموع، واعترف إلى الرب، وإلى جميع العالم، وصار مثلاً بالصبر، حاملاً لفاتيح ملكوت السماء، ويركض بحضور جميع الناس وهو يقول: «أوليس الذي يسقط ينهض ثانية؟ انهضوا أنتم يامن سقطتم، وانظروا إليّ وأطيعوني، وأنا مبادر مسرع إلى الجنة اللاهوتية، التي امتلكت السلطة لفتح أبوابها»، وأنا أكتب هكذا إلى قداستكم، وإنني أذكر هذه الأشياء لأعيدها فقط إلى ذاكرتكم، لأنني أعلم أنكم قد وهبتم الحكمة كلها والمعرفة، وتتفوقون مع سليمان الذي كلماته هي هذه:

«أعط الفرصة إلى رجل حكيم، وهو سوف يكون أكثر حكمة، وعلم رجلاً صالحاً، وهو سوف يكون متشوقاً للتلقي»، وقد بقي شيء واحد سوف أضيفه، وعندها به سوف أنهي حديثي، وهو أن هناك شعوباً كثيرة تتفق معنا بالتفكير، وتتوافق في جميع النقاط معنا نحن الاغريق، وأول هؤلاء الأثيوبيين الذين يسكنون في الأجزاء الأولى من الشرق، ثم السريان، وآخرين هم أكثر نفوذاً وفضائلاً، مثل: Hyberians واللازي Lazi واللان، والقوط، والخزر، وحشود لاتعد ولاتحصى من شعب روسيا، والمملكة المنتصرة للبلغار، وهؤلاء جميعاً مطيعين لأمننا، ومابرحوا محافظين لايتزحزون في أورثوذكسيتهم القديمة، ونرجو الرب المقدس، الذي من أجلنا أصبح انساناً، وقد وضع على رأس الكنيسة، أن يقوم بجمع الأمم ثانية، وحشدنا في وحدة الإيمان ولم شملنا، وأن يجعل الكنيسة الإغريقية تتحد مع أختها في روما القديمة، لتمجيد المسيح أمير السلام، بوحدة للإيمان من أجل إعادة الأورثوذكسية، التي عليها اتفقوا منذ وقت طويل مضى، نأمل أن تعطيكم يد الرب القدير، أيها الكرادلة الأعظم قداسة، عواطف أخوية، وأن تقودكم جميعاً، حتى تصلوا ببهجة إلى ميناء السلام، ولتكن نعمة الرب معكم، آمين».

رسائل من البابا

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أخيه جرمان المحترم، رئيس أساقفة القسطنطينية، تمنيات الصحة، والمباركات الرسولية: لقد جرى تقديم رسائلك الأخوية إلينا وإلى إخواننا، من قبل رسولك، ولقد استقبلناهم بمشاعر طيبة ومناسبة، وتم فهم مقاصدهم تماماً، وقد عملنا ترتيبات لأن نرسل إليكم بعض رجال الدين من ذوي المعارف المجربة، ليحملوا إليكم كلام الحياة، وليشرحوا لكم ببيان أوفى رغباتنا، ولكن بقدر «مايصدر عن الأكل اللحم، وعن القوي تصدر الحلاوة»، أو خشية أن يصدر عن فم الميت أسد، نحن نخجل أن نكتب بأن قرص العسل الذي

قدمه الأب قد ازدري، ولقد ارتأينا من المفيد أن نرسل بضع كلمات في جواب، خشية أننا إذا لم نفعل ذلك، قد يبدو بأن رسائلك قد ازدريت، لأنه عندما يصغي الرجل العاقل سوف يصبح أعقل، وإنه إذا ما فهم، سوف يستحوذ الحكومة، ومع أن محتويات رسالتك تعيد إلى ذاكرتنا بأن المسيح هو الأول، والأساس الرئيسي للإيمان، وهذا ما نعترف به، فبدون ذلك مامن شيء من الممكن إرساله، نحن نود أن نذكر في المقام الثاني، وذلك كأساس ثاني، الرسل، والأنبياء، وأساسات صهيون في الجبال المقدسة، وسكان القدس السماوية، التي قيل بأنها تأسست على أسس الرسل والأنبياء، والأول بين هؤلاء والرئيس هو بطرس المبارك، وذلك ليس من دون سبب، وبامتياز خاص قد سمح له بأن يسمع من الرب قوله: «أنت سوف تدعى كيفاس، الذي ترجمته: الصخرة»، وبما أن قوة المشاعر الجسدية الكاملة مركزة في الرأس، الذي منه تتدفق من خلال معابر سرية أجزاء إلى كل عضو من الأعضاء، مثلما يصدر النهر عن النبع، وكذلك الطوائف الثلاث للإيمان، وهم: نوح، ودانيال، ويعقوب، يعني أن تقول الأساقفة من كل من الرهبان، والأشخاص المتزوجين، الذين قيل بأن حزقيال، الذي قيل بأنه شوه كآشخاص لينقذوا، فبطرس الذي جرى تعيينه الصخرة، التي عليها قد بنى الرب ليس بيتاً من الخشب من جبل لبنان، وليس رواقاً من الأعمدة، وليس بيت ابنة فرعون، بل كنيسة من أجل الناس المؤمنين، الذين وقعوا في شباكها، وكأنهم من جميع كتلة السمك، أي من جميع الأنواع، فهو قد كان فعلاً أول الأوائل، الذي شرب من أنهار من ينابيع فهم ربنا، التي لا بد أن وسائل الخلاص قد صدرت عنها، وبكل الصبر، والتبشير ليس بتمرد، وليس بمقاومة متعجرفة، لا بد لظلام الخطيئة أن يزول، والذي ذكرته لا يتعارض مع هذا، إذا ما قامت بالتمييز بين الزمان والمكان، وأن بولص قد وقف في وجه بطرس، مادام بإمكاننا أن نقرأ بأن هذا قد عمل من قبل الآباء الأورثوذكس، فبطرس، بمعرفته بالشرعية الموسوية قد سعى لأن يريح اليهود، وأبعد بولص الختان

بكل الوسائل التي كانت في طاقته، وناضل ليكسب الشعوب ويبعدهم عن هذه العقيدة الزائفة، وغير ذلك يمكن المحاجة بأن بولص عندما كان مسافراً خلال سورية وكنيكية، وصل إلى دربه ولستره، فختن تيموثاوس، الذي ولد من أب من الأميين، ومن أرملة ذات إيمان صحيح، وفي المكان الثاني والثالث، من الممكن أن نستخرج من المناقشة، بأن بولص عندما أبحر إلى سورية وكان بصحته بريسيلا وأكويلا، قد حلق شعره في قيسارية، خوفاً من اليهود، ووفقاً للشريعة هو حلق هناك الشعر الذي أطاله بسبب نذر كان قد عمله، والذي يفعله النصارى بالعادة، الذين عملوا نذراً، وفقاً لأوامر موسى، وإذا ما فهمت يا أخي فهماً كاملاً سر عظمة ومنصب سلطة بطرس وبولص، وإذا ما قدرت غيرتهما، التي التمسّت أرواح الناس، سوف تجد أن هذين الرجلين الذي حوّلها الإيوان الواحد، والمعاناة الواحدة، إلى قرييين — بالحقيقة — أحدهما من الآخر، لم يختلفا في العقيدة، لا أثناء حياتهما، أو من بعد موتهما، لأنه مع أن بطرس وبولص قد مارسا عملهما بلغات مختلفة، وبطقوس مختلفة، حيث قدما الحليب إلى الأطفال، واللحم إلى الذين كانوا متقدمين بالسن أكثر، فقد عمل الأول بين العبيدين من سكان اليهودية، وعمل الآخر بين الشعوب، ومع ذلك حينما حل الميعاد واكتمل الوقت، عمل الاثنان مع بعضهما بالروح نفسها، وبشرا لرب واحد، ولإيمان واحد، ولتعמיד واحد، مع بقية أركان العقيدة، وفقاً للنعمة التي أضفيت على بطرس من قبل الرب، وذلك تبعاً لكلمات الرب، الذي تحدث إلى بطرس وإلى بقية الرسل قائلاً هذه الكلمات:

«كل الذنوب التي أنت تحللها، هم يحللونها منها، وكل ذنب أنت تبقيه، هم سوف يبقونه»، وكان بولص مرتبطاً مع بطرس، يتولى ممارسة أسرار وظيفته، ووفقاً للكلمات التالية، أعطيت السلطات نفسها إلى بطرس بشكل خاص: «إن كل ما ستربطه على الأرض سوف يربط في السماء، وكل ما تحله

على الأرض، سوف يحل في السماء»، وهكذا اعترف بمقام بطرس، ولذلك قدم إليه عاداً إياه الرئيس ونبع انجيل الرب في القدس، وبشر بعد ذلك بالاتحاد معه ومع آخرين بالانجيل وفقاً للوحي، حتى «لا يكون قد ركض عبثاً»، وقد تأكد الحال نفسه بكلمات ربنا التي تحدث بها إلى بطرس وحده، والتي فيها فرض: «إذا الأخ أذنب ضده، عليه أن يغفر له، ليس فقط سبع مرات، بل سبعاً وسبعين مرة» وإليه وحده فقط، وبشكل واضح، عهد بشياحه، وقد امتلك فضيلة عظيمة في عمل المعجزات، حيث جرى وضع المرضى على أرائكهم وعلى فرشهم في الطرقات، وقد شفوا بظله، وتثبتت سلطته أيضاً بقوة أعظم بكلمات ربنا، عندما قال له: «أبحر نحو الأعماق»، وأتبع ذلك بوضوح أكبر عندما قال له: «ألق بشباكك لرمية واحدة»، وإنه بناء عليه، وعلى أساس سمو إيمانه، الذي صدقاً اعترف بطبيعتين في مسيح واحد، عندما قال: «أنت المسيح، ابن الرب الحي»، بطرس تسلم وحده على الأرض مفاتيح ملكوت السموات، وبما أن هناك رب واحد، وإيمان واحد، وتعميد واحد، وبداية واحدة، وجسد واحد للكنيسة المحاربة، وأن جسداً برؤوس عدة، يعدّ أمراً غير عادي، وواحداً من دون رأس، هو من دون بداية، ويبقى بالنسبة لحكومة الكنيسة العالمية، التي جمعها بطرس المذكور بالاتحاد مع بولص من بين الاغريق واللاتين والبرابرة، أنه من المتوجب — كما سلف القول — أن يتولى الرب تعيين رئيس لها، وأن يوضح من الذي سيخلفه، وهو — على كل حال — رأى متنبئاً بأن الكنيسة سوف يداس عليها من قبل الطغاة، وسوف تتمزق بواسطة الهرطقات وسوف تتفرق بالانشقاقات، فقال له: «إنني صليت من أجلك يا بطرس، حتى لا ينهار إيمانك، فأنت عندما تحولت متنت إخوانك»، ويستخلص من هذا بكل وضوح أن جميع قضايا الإيمان ينبغي أن تحال إلى كرسي بطرس، ولكن لنستخدم كلمات رسالتك الخاصة، نحن نقول بأسف إن الثوب الطويل والذي لادرزة له ليوسف الحقيقي، قد جرى الاقدام على تمزيقه، ليس بأيدي الجنود، بل بعواطف أشخاص لاهوتيين، ولذلك دعنا نرى

من الذي مزقه، حيث أنه ما أن انفصلت الكنيسة الاغريقية عن الاتحاد والكنيسة اللاتينية، حتى بادرت على الفور إلى خسران امتيازات حريتها اللاهوتية، وهي التي كانت من قبل حرة، صارت عبدة للسلطة المدنية، وهكذا كان بقدر من الرب، أن الكنيسة التي لا تعترف لبطرس بالأولوية اللاهوتية، عليها أن تتحمل الحكم المدني، وإن كان ذلك من دون رضا، وفي ظل هذا القدر، انزلت أشياء كثيرة مكروهة — ليست من دون أهمية — بدرجات، وآمنت واعترفت بإيمان لاقيمة له، وجمدت فيها المشاعر الأخوية، وعادت مسرعة إلى حقل الفساد والفوضى، وعلى هذا — دون أن نوجه اللوم إلى أي واحد — أخفت ماهو شرعي تحت ماكان غير شرعي، وابتعدت عن معبد بطرس، وكأنها قد طردت من قبل الرب من قاعته، التي لم يقيم يوحنا — بالتوافق مع تحریم الرب — بقياسها بعصاه، لأنها أعطيت إلى الأميين، وهي كما ترى بوضوح جلبت إلى الاكتمال، وبسبب أن السامرة، أيضاً انفصلت عن معبد الرب، وعن يهوذا، وعن الاعتراف بالايمان الصحيح، وأصبحت وثنية، فقد تلاشت بسبب الحروب المتواصلة، وانحدرت وتهاوت بسبب ثقل أوزارها وذنوبها (مع أن إيليا واليشع أشرقا هناك مثل مصباحين في مكان مظلم)، وأعطيت إلى الشعوب، وطردت عقوبة لها على تمردها وعلى وثنتها، لأنها بذلك فصلت نفسها عن الرب، هذا وإذا كانت الكنيسة الاغريقية، تعدّ نفسها بأنها تمتلك سلطة بولص، عليها إظهار ذلك، أو التعرف إليه، عندما ظهر مع بطرس، وبوساطة خليفة بطرس، ونائب يسوع المسيح، في كنيسة الرسل، التي بنيت من قبل قسطنطين، وقد أشير أيضاً إلى أسرار وظيفته، مع أنك في رسالتك قد ورد ذكر ذلك بمثابة سبب للنقد والملامة، من أن بطرس أنهض ثلاث مرات وأوقف بصراخ الديك، وقد جعل حاجب اللجنة، من أجل أنه سوف يمتلك الأمر، يمكنه أن يعرف ويعاني ويتعاطف، وبفضيلة سلطته ردد ثلاث مرات: «لا تطعم نفسك، أطعمني، وأطعم شياهي» — وليس شياها الآخرين — حتى يتمكن أن ينقل إلى خليفته ويقدم له المثل

عن الراعي الحقيقي، وروح الرفق، وتقويم إفراط الناس، وإعادة وحدة الكنيسة، وأن يعطى إلى الشيطان أولئك الضائعين، وأن يعيد الشياه، وإن كان ذلك عن غير رضا، إلى الحظيرة الحقيقية، لكن إذا ما عدت — من منطلق الرحمة — كإسراييلي حقيقي، إلى أولوية الكرسي الرسولي، وإذا ما تحركت أحشاؤك بندم حقيقي، من أجل تقديم رداء يوسف الذي بلا درزة، ومن أجل استخراجهم، نحن نتعاطف مع آلامك، ومع الرسول نشاطك حزنك، ونحن نقف لتقدم الشكر إليه الذي فتح عيني الابن الأعمى، وتوسل بتواضع إلى الذي أعاد الرؤية إلى عيني طوبيا، وذلك بوساطة مرهم صنع من صفراء سمكة، لإضاءة قلوب أتباع الكنيسة الاغريقية، وكذلك قلبك، وأن نعود بوساطة الحكمة الربانية، في أيامنا وفي أيامك إلى حظيرة واحدة، وإلى راع واحد، وبناء عليه قم يا أخانا العزيز، فخذ الكتاب الذي تقدم ذكره، والذي عمل من قبل يوحنا في رؤاه، وانظر فيه باخلاص، ومع أن ذلك سيؤلم معدتك بأشواك الندم، التي تنفذ في البداية فيها، إنها سوف تكون حلوة مثل العسل في فمك، وفقاً لكلمات العريس في المزامير قوله: «سوف تتردد كلماتك وترن في أذني، لأنها كلمات حلوة»، وبناء عليه، استشر ماتمليه عليك حكمتك، من دون أية أوهام، وعندما تنار، سوف تجد أن الكنيسة الرومانية، هي رأس جميع الكنائس وسيدتها، وتبين أن لاشيء في المرأة، التي أتيت على ذكرها، أي في انجيل الرسل، أو في عقائد الرجال المتعلمين الآخرين، التي لم تأخذ لاتأويلاً أو تدبيراً، غير متوافق مع أحكام الآباء المقدسين، ومع الوحدة بالروح، وعند فتحك لهذا الكتاب، سوف تجد أن الخبر الروماني قد صار كل شيء إلى جميع الناس، حتى يكون الجميع سالمين، ومدعوين إلى محطته، ليس من أجل دراهمه القدرة، أو في سبيل رغباته، بل بوساطة أخوته، من خلال إلهام رباني، ومن أجل أن يصبح على الفور عبد عبيد الرب، هو قد وضع نفسه مع اخوانه، وقدمها بمثابة سور لإخوانه الرهبان، وأتباعه الأساقفة، وإلى الذين خاضعين لهم، في تصد للهراطقة، والمنشقين، والطغاة، وفي سبيل الدفاع

عن الامتيازات اللاهوتية، ومع أنه قد يكون هناك بعض الاستثناءات، مع ذلك إن كنيسة روما تتنفس في الأيام الحالية، متحررة من جميع غارات الفرقاء وحملتهم، لكن إذا كانت كنيسة الاغريق تستطيع (وأستخدم هنا كلامك) أن تتحمل بصبر الكلمات التي تغيظها، بالاضافة إلى المخاطر على الأرواح، التي تنشأ عنها، فإن هذه الاضطرابات يتوجب أن تكون كافية لإعطائهم حكمة كافية وإعادةتهم إلى رشدهم، لأنه بأيديهم، قد انقسم النظام اللاهوتي إلى عدة أجزاء لشعوب متعادية في الشرق، وضعت نتيجة ذلك في أحوال فوضوية، ظلمت فيها حرية الكنيسة، أما كرامة رجال الدين فقد ديس عليها وصارت تحت الأقدام، وليس هناك من أحد بين أبنائها الأعزاء يقوم بمواساتها، لأنها — كما هو الحال — من دون رأس، وهم يرفضون العودة إلى رأس الكنيسة: «آه، عد بناء عليه، عد ياشوناميت Shunamite حتى يمكننا أن نعتني بك، لأنه وقتها، بالفعل يمكن للأخ أن يستعين بأخيه، وللابن الذي يعيش منعزلاً، وقد استهلك كل ماله، أن يستيقظ بإلهام من الرب، ويقول: «أبي، لقد أذنبت ضد السماء، وأمامك، وأنا لست جديراً بأن أدعى ابنك، اجعلني بمثابة واحد من خدامك المستأجرين»، ووقتها يركض الأب لاستقباله، ليس كخدام، بل كابن عائد، و«يقدم إليه أجمل ثوب، ويذبح أسمن عجل»، ويعمل احتفالاً عاماً لجميع المؤمنين من أتباع المسيح، ويعلن بكل سرور وبهجة، بأن الأخ والابن الذي كان ميتاً، قد عاد إلى الحياة، وقطعة المال التي فقدت، قد وجدت، وهكذا سوف نحن نستقبلك في صدر أمك الكنيسة، وأنت سوف ترى بوضوح الصدق في مرآة الصفاء، التي لا تتقبل الدنس أو الوسخ. صدر في ريت Reate الخ، في السنة السادسة [لحبريتنا]].

رسالة أخرى من البابا

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى المبجل رئيس أساقفة الاغريق، تمنيات بالصحة ومباركات رسولية:

إنه لمن المقرر، أنه وفقاً لشهادة الحق، يمكن للخطيئة أن تقع، ويمكن أن يكون هناك جهل بالكتابات المقدسة، لذلك موائم للجميع أن يقرأوهم أو أن يسمعوهم، لأن كل ما أقحمته الالهامات الربانية فيهم، من أجل توجيه الأجيال المقبلة، قد رغبت بمناولته بمثابة وسيلة انذار إلى شعوب العصور الحاضرة، فانقسام القبائل في أيام يربعام — الذي كما قرأنا: «قد سبب أن تذنب اسرائيل» — يشير بوضوح إلى انشقاق الاغريق، وإلى الحشود البغيضة للسامرة، ويبين بشكل واضح حشود الهراطقة المتنوعين، الذين انفصلوا الآن عن عبادتهم وعن تبجيلهم للهيكل الصحيح، الذي هو كنيسة روما، هذا وإن وجود خريسوستوم Chrysostom ونازيانزن Nazianzen وباسيل الكبير، وسيريل Cyril الذين تميزوا في مجالس المنشقين، كان برهاناً على الحكمة الإلهية، مثل إقامة إيليا واليشع، وأبناء الأنبياء بين الكفار الوثنيين، وبما أننا أوضحنا لكم بمزيد من التفاصيل، في الرسالة التي بعثنا بها إليكم مؤخراً، حول هذه القضية وقضايا أخرى، بشأن الأسباب التي أثرت أولوية كنيسة روما، نحن نضيف الآن هذه الفكرة، وهي إنه وفقاً لقراءة الانجيل، نحن نحمل السيفين العائدين إلى الحبر الروماني، فعندما كان يسوع المسيح يتحدث إلى تلاميذه حول استحواذ السيف الروحي، أروه سيفين، كانا موضوعين هناك، وكانا عائدين إلى ربنا، وكانا يعدان كافيين لإرغام كل من العدوانين الروحي، والجسدي، وبما أنك تعترف بأن السيف المادي عائد إلى السلطة الدنيوية، أصغ إلى مقالته مولانا بطرس في انجيل القديس متى: «ضع سيفك في مكانه»، وبقوله: «سيفك» قصد السيف المادي، الذي به ضرب بطرس خادم الكاهن الأعلى، أما بالنسبة للسيف الروحي، فما من أحد يمكنه أن يرتاب حول منحه له، وكان ذلك بوساطة السلطات ذات النوع الروحي التي عهد بها الرب إليه (أي القديس بطرس) أي سلطة الحل والربط، ولقد عهد بهذين السيفين إلى الكنيسة، لكنها استخدمت فقط سيفاً واحداً، أما السيف الآخر فيكون تجريده، لصالح الكنيسة من قبل السلطة المدنية، أي

واحد يستخدم من قبل الكهنة، ويستخدم الآخر بناء على إرادة الكهنة من قبل الجنود، وإنه بناء على هذه المعطيات، ومعطيات أخرى، وبعد فحص دقيق للحقيقة، ولكي يكون من الممكن أن نجلب عواطف حقيقة بدلاً من الانقسام، رأينا من الموائم أن نرسل إليكم كحاملين لهذه الهدايا، الراهبين: هيوج وبطرس، من طائفة المبشرين (الدومينيكان) والراهبين: هيمون Haymon ورالف من طائفة الفرنسيسكان، وهم رجال مشهورين بشكل رائع من أجل تدينهم وفضائلهم، وهم مشهورين باستقامة أخلاقهم، كما أنهم موهوبين بمعارف الكتابات المقدسة، وفق فحوى الرسائل التي تقدمت تسميتها أعلاه، ولذلك إذا ما ناقشتهم بجرأة، وتحادث معهم بلطف حول جميع النقاط التي هي موضع الاهتمام والمتعلقة بالقضية موضع المناقشة، من الممكن أن تسمع صوت العاصفة في العجلة، التي ظهرت تحت عجلة حزقيال، وأن تشاهد، في البحر الزجاجي، بأن آدم واحد قد وضع في الجنة ليتمتع بها وليعتني بها، وأنه اتخذ لنفسه زوجة واحدة، وكذلك مولانا يسوع المسيح قد خلق في عدالة واحدة، واتخذ لنفسه قرينة واحدة، هي الكنيسة وكيف أن لامخ، الذي معنى اسمه «التواضع» عندما قسم زوجة واحدة إلى اثنتين، أصبح رجلاً دموياً، وقتل رجلاً لإيذائه، وكذلك عندما نقرأ عن سفينة واحدة، قد وجهت فوق الطوفان من قبل بطيريك واحد، وأبقى أحياء عدداً صغيراً، لكن منتخباً من الأرواح، وكيف أن الرب أعطى للمرة الثانية شريعة لتكون مختلفة، مع أنها هي نفسها، وكيف أن وجهي اثنين من الكرويين، اللذان يظللان عرش الرحمة، لا يتزحزان عنه، بل ينظر أحدهما إلى الآخر، وكيف أنه كان لدى يوسف ثوب واحد، وأصل إلى قدميه، وكان لدى مولانا ثوباً بدون لفقة، وعلى كل حال، إذا كان اعتقادك يختلف عن اعتقادنا، وأعطيت منطقاً لازدواجية قداس القربان، قدر بأن الاغريق واللاتين يحتفلون بأسرار خلاصنا بالطريقة نفسها، من خلال رب واحد هو يسوع المسيح، الذي خضع للآلام الانسانية، عندما اتخذ لنفسه طبيعة

انسانية من أجلنا، ولكن بعد موته تحرر من جميع الآلام، ويتبع الاغريق مثل التلميذ الصغير، وهم غير واعين للرحمة التالية، وهي الرحمة التي تذكر يومياً برحمة الرب، في أنه أصبح خاضعاً للآلام البشرية، وذلك باستخدام كميات من الخبز المختمر، في سبيل — وفقاً للرسول — أن الخبز المختمر يمكن أن يمثل الفساد الذي كان مولانا خاضعاً له، قبل قيامته، لكن اللاتين يتبعون أمثلة الرسول الأكبر، الذي هو القديس بطرس، الذي كان الأول في دخول الضريح، ونظر بالحري إلى القماش الكتاني الذي أحاط بجسده المقدس، أي الكنيسة، والمنديل الذي كان حول رأسه، ويحتفلون بقديس جسده الممجد بشكل أكثر روعة، بوساطة خبز فطير من الاخلاص، وكلاهما على كل حال خبزان صرفان قبل القربان، ولذلك لا يمكن التفريق بينهما كفطير أو مخمر، لكن الأول من هذين هو الذي من المعتقد أنه خبز الحياة الذي نزل من السماء، وأعطى حياة إلى العالم، وهذه هي العقائد التي علمها الروح القدس، والمنطق الصحيح إلى الكرسي المقدس، وأنا أصلي، أنكم أنتم الذين تتبعون أمثلة التلميذ الأصغر، والذين رأوا واعتقدوا، أن تتمكنوا أخيراً من الدخول، وأن تفهموا كل شيء، حتى تغنوا معنا مزمو داود ذاك الذي جاء فيه: «قدروا كم هو أمر ممتع للإخوان ليسكنوا مع بعضهم في وحدة». صدر في اللاتيران، في السابع عشر من أيار، إلخ، إلخ.

كيف تخلى الاغريق عن الطاعة كلها للكنيسة الرومانية

مع أن الاغريق قد سمعوا هذه التحذيرات الودية، لم يهتموا بها، كما أنهم لم يخضعوا أنفسهم إلى الكنيسة الرومانية، ربما بسبب الخوف من طغيانها وشرها، أو لأمر آخر، فكانوا متمردين، وذلك تبعاً لكلمات الانجيلي، من أن الذين دعوا إلى العشاء لم يقدموا «لكن قدّموا بالإجماع الاعتذار»، فهم متواضعون في اعتذاراتهم، ولكنهم متكبرون ومتمردون في ممارسة أعمالهم، وحول هذا قام البابا وكرادته بإجراء مناقشات ومداولات، وحول هذه

المسألة، وقرروا ارسال جيش الصليبيين كله ضدهم، وبناء عليه جرى التبشير بحملة صليبية، وحمل بعضهم الصليب للزحف ضد الاغريق، وبشكل خاص ضد القسطنطينية.

وأصل هذا الشقاق، والخلاف بين الاغريق والكنائس الرومانية كان كما يلي:

كان هناك رئيس للأساقفة قد جرى انتخابه بشكل قانوني لتولي منصب رئاسة الأساقفة السامي لدى الاغريق، أو بالحري جرت تسميته هناك، فذهب إلى روما من أجل التثبيت، لكنه لم يتمكن من الحصول على سماع هناك من دون وعد بدفع مبلغ كبير من المال، مقابل الحصول على الذي طلبه، لكنه رفض السيمونية من ذلك البلاط المرتزق، وغادر دون الحصول على ماأراده وابتغاه، وأخبر بواقع الحال جميع النبلاء الاغريق، وجرى تقديم براهين أخرى من قبل آخرين كانوا قد ذهبوا إلى روما، وتحدثوا عن حالات مماثلة، أو أكثر سوءاً، ولذلك قاموا جميعاً، في أيام غريغوري هذا، بسحب أنفسهم من كل أنواع الخضوع للكنيسة الرومانية.

وفي الأسبوع الذي تقدم على عيد الميلاد، أقلع إدموند، رئيس أساقفة كانتربري وذهب إلى روما، ولم يرغب بالعودة، مع أن النائب البابوي استدعاه، ونتيجة لهذا أصبح منذ ذلك الحين معادين أحدهما للآخر.

وكان المناخ، خلال هذا العام كله عاصفياً، وغير مستقر، ومؤذياً للناس، وغير صحي، ولا يوجد في ذاكرة أي انسان، أنه تألم مثل هذا العدد من الناس من الحمى الربعية.

زواج سيمون دي مونتفورت من إليانور أخت الملك

سنة ١٢٣٨، التي كانت السنة الثانية والعشرين من حكم الملك هنري الثالث، وفيها عقد بلاطه في لندن، في ويستمنستر، حيث حدث أنه في اليوم التالي لعيد الغطاس، الذي كان يوم خميس، اقترن سيمون دي مونتفورت

بشكل مهيب بإليانور، ابنة الملك جون، وأخت الملك هنري الثالث، وأرملة وليم مارشال، إيرل بيمبروك، وجرى الاحتفال مع قراءة القداس في بيعة الملك الصغيرة، الموجودة في زاوية من حجرته، وعمل ذلك وولتر قسيس البيعة الملكية للقديس ستيفن في ويستمنستر، وقدم الملك شخصياً العروس إلى سيمون المذكور، الذي تلقاها وهو عظيم الامتنان، وذلك بسبب حبه للنزاهة، ولجمالها، وللشرف العالي المرتبط بها، ولسمو الانحدار الملكي لها كسيدة، لأنها كانت ابنة شرعية لكل من الملك والملكة، وبناء عليه إن الذين سيلدون من هذه السيدة النبيلة سوف يكونون من الأصل الملكي، وأعطاه صاحب القداسة البابا إعفاء معها، كما ستبين الرواية المقبلة ذلك.

وفي العشرين من كانون الثاني من هذه السنة، سمع رعد خفيف، قد ترافق مع رياح قوية، وغيوم كثيفة.

الامبراطور فردريك يكتب إلى الإيرل رتشارد بشأن قلقه

حول الحملة الصليبية

وفي حوالي الوقت نفسه، كان الامبراطور فردريك قلقاً حول تقدم الصليبيين، وإعداداتهم حول الزحف، وبشكل خاص فيما يتعلق بتقدم الايرل رتشارد، فكتب إلى الايرل المذكور كما يلي:

«من فردريك، الذي هو بنعمة الرب امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى ابن ختته المحبوب، رتشارد إيرل كورنويل، تمنيات الصحة، وعواطف خالصة:

غالباً ما أقنعنا التقدم العام للأرض المقدسة ومنفعتها، الأمر الذي يعتمد على جهود الصليبيين، أن نقوم بوساطة الانذار لهم، وتوجيه الرجاء إليهم، وأن نحثهم على تأجيل عبور الصليبيين في مملكة فرنسا والأجزاء الأخرى من العالم، حتى انتهاء موعد الهدنة المقررة من قبل، أي من شهر آب المقبل

حتى نهاية السنة التالية، حيث نعتقد أن ذلك سوف يكون موافقاً لمساعدة الأرض المذكورة، ولمنفعتها، وأيضاً لكرامة الذين سوف يعبرون إليها، ذلك أن عبور حشد ذي أعداد كبيرة جداً ينبغي أن يكون في وقت موافق، أي بعد الاحتفال المقبل بعيد القديس يوحنا المعمدان، يعني حتى ذلك العيد في العام المقبل، ويتوجب أن لانمر بهذا كله صامتين، بما أن ثقل أعمال تحرير الأرض المذكورة يقع على أكتافنا، أكثر من وقوعه على أكتاف أي أمراء آخرين في العالم، وفي سبيل ذلك المقصد، نحن ملتزمون بتقديم المساعدة، وأن نصرف أموالنا، أي بأن نأخذ النصيحة مسبقاً، عندما يكونوا أنفسهم قد استعدوا بشكل كامل من أجل خدمة المسيح، مقدرين بشكل كامل جميع الظروف من دون اسقاط أي احتمال من الاحتمالات، وهؤلاء الأشخاص الذين أوقفوا قلوبهم وأجسادهم على خدمة الصليب، والذين يرغبون بتقديم مساعدة مفيدة إلى المصلوب، قد سألناهم حول هذه القضية من قبل رسلنا ورسائلنا، وقد أجابوا بحكمة وعقلانية على اقتراحاتنا، أنه حتى انتهاء الهدنة المتقدمة الذكر، سوف يستجيبون لطلبنا، ولذلك وافقنا مع كثير من الشكر على الحكمة التي ظهرت في جوابهم، وبناء عليه إنه صدوراً عن عواطفنا الأخوية في رؤيتكم شخصياً، وفي أن نحصل لكم على عبور مشرف، نحن نرغب إليكم ونرجوكم — إذا كنتم أحياء — أن تعملوا عبوركم في وقت موافق من خلال مملكتنا في صقلية، لأنه سوف لن يكون مرضياً لنا، إذا ما قمت برحلتك عبر أي طريق آخر، دون أن نراك، لاسيما وأن مملكتنا قائمة بشكل موافق جداً، ومن السهل أكثر، ومن المناسب فيها تأمين معابر من خلالها إلى بلدان ما وراء البحر. صدر في فيرسيلى Vercelli في ١١ شباط في الحادية عشرة من الخمس عشرة».

استدعاء النائب البابوي إلى روما وعدم عودته

وفي تلك الآونة، سمع قداسة البابا وبلاط روما كله، بأن اضطرابات

كثيرة قد تفجرت - في انكلترا، بسبب أعداد الأجانب الذين استدعاهم الملك، وبشكل غير حكيم أرسل خلفهم، وبسبب وصول النائب البابوي إلى هناك، الذي أيضاً جذبته الملك إلى انكلترا، من أجل إفقار رعاياه، وبسبب الرسائل الكثيرة الغاضبة ضده، لذلك جرى استدعاء النائب البابوي المذكور بسرعة كبيرة، لكنه لطف من قسوة اجرائه بالكتابة إليه كما يلي:

«من غريغوري، إلخ، إلى ابنه المحبوب أوتو، الكاردينال الشمس للقدّيس نيقولا، في سجن توليان، ونائب الكرسي الرسولي، تمنيات الصحة، والتبريكات الرسولية:

لقد فهمنا بأن هناك بعض رجال الدين في مملكة انكلترا، الذين بين أيديهم عدة منافع، والذين من غير الممكن السير ضدهم، وفقاً لمراسيم المجمع العام، من دون إثارة الاضطراب في المملكة، وتسبب سفك الدماء، ومرد ذلك إلى قوة أقربائهم، وبما أننا نرى أنه لا يجوز اقتراف الذنب حتى في سبيل تجنب الفضيحة، وأن العمل الطيب المتوجب صنعه يمكن أحياناً أن يتأخر لهذه الغاية، وإننا بهذه الرسائل الرسولية نفرض على استقامتكم، إذا كنتم لا تستطيعون السير ضد رجال الدين المذكورين من دون التسبب باقتراف الذنوب، أن تقوموا بتأجيل المسألة في الوقت الحالي»، وخشية من حدوث أي شيء سيء له، قام البابا بالرسالة نفسها، أو برسائل أخرى، باستدعائه للعودة على الفور، وكان النائب البابوي، يفضل على كل حال - أن يطيل البقاء في انكلترا، وأن يجني ما لم يكن قد زرعه، وببراعة تمكن من إعداد رسالة ومن ثم إرسالها إلى البابا، وهي تحمل أختام الملك، وأخيه الايرل رتشارد، وجميع الأساقفة، فهؤلاء جميعاً قد وضعوا أختامهم بمثابة برهان على صدق ما ذكره وصرّح به، من أن إطالة إقامته في انكلترا، كان فيها فائدة عظيمة إلى الملك، وكذلك إلى المملكة، وإلى كنيسة انكلترا، وعندما أرسلت هذه الكتابة إلى البابا جعلت عقله يرتاح.

إرسال الامبراطور رسالة إلى الإيرل رتشارد حول ولادة ابنه

وقام الامبراطور رتشارد في هذه الآونة، تعبيراً عن عواطفه، فكتب الرسالة التالية إلى الإيرل رتشارد، يخبره عن سروره، حيث أن ولداً قد ولد له، من قبل الامبراطورة ايزابيلا، التي كانت أخت الإيرل المذكور:

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى ابن خنته رتشارد، إيرل كورنويل، تمنيات الصحة، وكل الأمان الطيبة:

لقد حدثت حادثة بهيجة، وهي حادثة تطلع الانسان إليها مع رغبات الجميع بشكل عام، وهي أعطية، لابل هي أعظم العطايا حمداً بين الأعطيات التي تلقيناها من كرم الطبيعة وهي التي بوساطتها تباركت صولجانات الملوك، ومع رغبة الخلافة، رأينا أنه من الموائم أن يكون معلوماً لديك مبكراً، ذلك أنه بسبب جدة البهجة، لم يسمح لنا ذلك بالتأخير، لأنه توجب علينا أن نوصل إليكم أخباراً جيدة، ونحن نفعل ذلك الآن مع هذه التقديمات، وهي أنه بتقدير وعطاء من عند الملك الأعظم، الذي يعطي المزيد والصحة إلى الملوك، في اليوم الحادي عشر من شهر شباط، قد ولد لنا صبي من الرحم المثمر لقريتنا الأوغسطة، وحفيد جديد قد أعطي لنا، ويشير ميلاده إلى مجد أبيه وخاله، ويجدد بهجة أمه، ويؤكد آمال رعايانا، وبهذا تمتنت العواطف الصحيحة المتبادلة، التي ارتبطنا بها بروابط المصاهرة، وهي تشير إلى زيادة ازدهارنا، وتحولت جودة قيصر مع الوقت إلى سرور وشرف الجماعة كلها، وحدث ميلاد هذا الطفل في وسط سرورنا، أثناء زحفنا السعيد في إيطاليا، التي تخضع الآن لسلطاننا، وعند انتصارنا على أعدائنا المنهزمين، رافق نجم سعيد هذه الأحداث الميمونة، وبما أن هذا الولد المنتظر طويلاً قد ولد في وسط هذه الأحداث السعيدة وانتصاراتنا، ونحن نثق به، الذي بعد ولادة ابنة من قريتنا المثمرة، أي أختك، قد منحنا ولداً ذكراً، وبذلك زاد بكرمه المجد القديم

لامبراطوريتنا، الذي كان قد تلاشى في الأوقات الماضية، وهو الآن قد نهض متجدداً بولادته، في سبيل شرفنا ومجدنا، وازدهارنا، ونحن نرغب لك، أنت الذي نعلم أنك تمنيت منذ وقت طويل ولادة هذا الابن الأخت المتوقع، أن تشاركنا بسرورنا، وبسرور قرينتنا الأوغسطة. صدر في تورين، في اليوم الثالث من آذار، في الحادية عشرة من الخمس عشرة».

هيجان النبلاء الإنكليز ضد الملك

وشعر الايرل رتشارد بسرور عظيم تجاه هذه الأخبار، وأعطى الحمد للرب، ذلك أنه كان يأمل، أنه سيحدث له مع مرور الأيام تقدم عظيم شخصياً ومنفعة كبيرة للمملكة انكلترا، من خلال هذه الحادثة، ولكن وفقاً لتقلب الشؤون البشرية، هو استثير من جهة ثانية، ووصل إلى حد الغضب، لأنه سمع بأن هذا الزواج قد جرى تتيته بشكل سري، أي من دون معرفته، أو الحصول على موافقة النبلاء، وقد غضب كثيراً بشكل محق، وخاصة وأن الملك قد خرق أيمانه وحنث بها، ولا سيما يمينه عندما وعد بأنه لن يفعل شيئاً له أهميته، من دون الحصول على نصيحة رعاياه الطبيعيين ولا سيما هو نفسه، ولذلك هاجم الملك وحمل عليه بانذارات وتهديدات، وبذلك أعطى منفذاً إلى رفع شكاوى كبيرة، وعدم رضا ضد الملك، لأنه بتهور أدار الأعمال الهامة للمملكة، آخذاً بنصائح هؤلاء الأجانب، الذين كان قد أقسم من قبل على إبعادهم كلياً عنه، وأنه سوف يصرف الآخرين من جانبه، وهو لم يصغ فقط إلى مشورة وآراء سيمون دي مونتفورت، وج. ل. ايرل لنكولن، بل قام من دون تغاضي نبلائه، وفرض زواجاً غير مقبولة، فقد عمل سيمون، كما تقدم القول، وتدبر زواجاً ليس شرعياً بينه وبين كونتيسة بيمبروك، وأخته، وجون ايرل لنكولن، ورتشارد دي كلير ابن كونت بولون، وابنته — ج. ل. الايرل المذكور — من دون معرفة الملك.

وعندما ثار الايرل رتشارد ضد الملك، التحق به الايرل غيلبرت

المارشال، وجميع ايرلات وبارونات انكلترا، والمواطنون والناس بشكل عام، وكان المأمول وقتها بثقة عظيمة أن يقوم الايرل رتشارد بتحرير البلاد من العبودية التعيسة، التي ظلمت بها من قبل الرومان، ومن الأجانب الآخرين، وقام جميع الفرقاء من الرجل الشيخ إلى الطفل بتكديس الآمال عليه، وما من أحد وقف إلى جانب الملك، باستثناء فقط هيوبرت ايرل كنت، ولم يتوفر خوف منه، وذلك بسبب أنه أقسم أنه لن يحمل سلاحاً قط، وكذلك بسبب تقدمه بالسن، وبسبب حذره الذي تبرهن في مناسبات متنوعة.

وعندما وجد الملك، كيف قامت القضايا، شعر بالذعر وأظهر ذلك، وأرسل رسلاً إلى كل واحد من نبلاء المملكة، وعمل بحثاً دقيقاً ليعرف إن كان بإمكانه الاعتماد عليهم من أجل المساعدة، وإليه أجابوا جميعاً، وبشكل خاص سكان لندن، بأن الذي بدأ به الايرل رتشارد، قد أعلن آخذاً بعين التقدير كرامتهم، ومنفعة المملكة كلها، مع أنه، أي الملك، لم يوافق على مساعيه، وهم بناء عليه لن يقفوا ضد نواياه، وعندما وجد النائب البابوي هذا، ورأى بأن الخطر بات وشيكاً، شغل نفسه بأعظم يقظة واهتمام لمصالحه الملك مع رعاياه الطبيعيين، ونصح بشكل سري الايرل رتشارد الذي كان المحرض الرئيسي على هذا العنف، بأن يقلع عن مقصده، واعداداً بأن الملك سوف يعطيه أملاً كأكبر، وأن البابا سوف يثبت الذي منح إليه، مضيفاً أيضاً، أنه من الممكن أن تشور المملكة كلها ضد الملك، الذي هو أخوه، لكن الذي عليه هو الوقوف إلى جانبه من دون كلل أو ملل، ضد جميع الناس، وعلى هذا أجابه الايرل رتشارد:

«مولاي النائب البابوي، إنه بالنسبة لتثبيت أراضى العلمانيين، لا شأن لك ولا عمل، عليك الالتزام شخصياً بالمسائل المتعلقة بالكنيسة، ثم لا تندعش كون أوضاع المملكة قد أثارتني، لأنني أنا ولي العهد الوحيد، لأنه مع أن الملك كان مسؤولاً عن جميع الأسقفيات تقريباً، وعن كثير من

مواريث الدولة، مع ذلك لم تظهر على خزينته أية زيادة، في سبيل الدفاع عن المملكة، مع أننا محاطين بمختلف الأعداء من كل جانب، بالإضافة إلى هذا إن كثيرين أصيبوا بالدهشة، لكون الملك الذي دوماً هو بشكل رئيسي في حالة عوز، وحذر، لم يتبع آثار الرجال الواعين، فهو لم يتبع أثر الامبراطور، الذي إليه أعطينا أختنا بالزواج، مع مبلغ كبير من المال أملين بأن ذلك سوف يكون لمصلحتنا ومنفعتنا، لكنه احتفظ فقط بزوجته، وأعاد حاشيتها، من دون أن يضفي على أحد أرضاً أو مالاً، مع أنه كان مليئاً بالثروة والغنى، ومثل آخر يمكن ذكره هو في قضية الملك الفرنسي، الذي تزوج من الأخت الكبرى للمكتنا، غير أن ملكنا الانكليزي هو على العكس قد سمّن جميع آل وأقرباء زوجته، بالأراضي، والممتلكات، والمال، وعقد نوعاً من الزواج، لا يمكنه معه أن يكون أكثر ثروة، لكن بالحري أكثر فقراً، ولذلك لا يمكنه الحصول على عون قوة عسكرية، إذا كان ذلك ضرورياً، وعلاوة على ذلك، سمح بالاستيلاء على الموارد وعلى المنافع اللاهوتية، التي كان أجدادنا الأتقياء قد منحوها (خاصة إلى رجال الدين) أو بسلبها، ومن ثم أن يجري توزيعها على الأجانب، مع أن هذه البلاد نفسها مليئة بالرجال المناسبين لتسلمهم، وباتت انكلترا، وكأنها كرم من دون سور، منها يجمع العنب كل من يعبر الطريق».

النائب البابوي يسعى إلى إقامة سلام بين الملك وبين نبلائه

ولدى سماع النائب البابوي هذه الكلمات، ذهب إلى الملك، ومعه بطرس أسقف وينكستر لتشجيعه، ولنصيحته، القيام بالخضوع إلى إرادة النبلاء وطاعتهم، وهم الذين نهضوا ضده لسبب عادل، وكذلك يسعون إلى تقويمه مرة أولى وواحدة بالتهديدات، ومرة ثانية بالانذارات، ومرة ثالثة بالالتماسات، ثم إن الملك عندما رأى أن حملاته لم تلق التأييد، وأن جميع الفرقاء قد مالت نحو أخيه الايرل رتشارد، حاول استخدام كل الدهاء الذي هو ممكن، وطلب وقتاً للتفكير

والتداول، من أجل أن يعطي جواباً أكثر مواءمة لطلباتهم، وبناء عليه واستجابة لطلب الذين سألوا ذلك (مع أن ذلك كان بعد صعوبات جمّة) منح وقتاً، حتى اليوم الأول، بعد الأحد الأول في الصيام الكبير.

إنتهاء المشاورات كلها إلى لاشيء

ثم اجتمع النبلاء في لندن، في اليوم المحدد، بغية ترتيب هذه المسائل، وقدم كثير منهم مجهزين بالخيول والسلاح، من أجل أنه إذا مارغب الملك بالانسحاب من وعده، يمكن إرغامه على تنفيذ الشروط التي تقدم ذكرها، ثم إنه بعد كثير من المناقشات والحوارات بين عدد كبير من الحضور، أخضع الملك نفسه إلى تدبير بعض الفئات الأكثر قوة، وأقسم على الالتزام بقرارها، الأمر الذي جرت الموافقة عليه، وجرى تدوينه كتابة، ووضع عليه أختام النائب البابوي والنبلاء الآخرين، حتى تتم مشاهدته من قبل جميع الفئات بشكل عام، وقبل الفراغ من إكمال ترتيب هذه المسائل، وعندما كانوا معلقين ينتظرون، أخضع سيمون دي مونت فورت نفسه وتواضع لايرل رتشارد وبوساطة كثير من الوساطات، وبعض الهدايا، حصل على قبلة السلام من الايرل المذكور، الحال الذي أغضب كثيراً بعض النبلاء الآخرين، الذين جرت هذه المحاولة من دون رضاهم، والذين الآن بجهودهم تطورت القضية تطوراً عظيماً، وقام ايرل جون أوف لنكولن، وفق الطريقة نفسها، فأطفأ غضب الايرل رتشارد، وبوساطة الالتماسات وكذلك الرشاوى، وأعطى ضماناً أنه سوف يعرض عليه من جميع الجوانب حول كل ماوقف به ضده، وبوساطة هذه الإجراءات غير النظامية، أعيقت الأعمال كلها إعاقه كبيرة، ولم تنل التنفيذ، بل زادت من تعاسات المملكة، ولطخت بالسواد، إلى درجة كبيرة سمعة الايرل رتشارد وظللتها، وبذلك صار عرضة للشك، وهو الذي كان من قبل محور قوتهم.

موت جوهانا ملكة سكوتلندا

وفي هذه الآونة، وفي الرابع من آذار، أغلقت جوهانا Johanna ملكة سكوتلندا، وأخت ملك انكلترا، التي قدمت إلى انكلترا لزيارة أخيها، حياتها، وقد دفنت في تيرنت Tarente الذي كان ديراً للراهبات، كان المبجل رتشارد، الأسقف الثاني لدرم الذي حمل هذا الاسم، قد أسسه، وبناه، ومنحه إلى الملكة إليانور، عندما قدمت إلى انكلترا. [لحق النص الأصلي هنا بعض الاضطرابات والخطأ، ومرد ذلك إما إلى النساخ أو إلى المؤلف نفسه].

سيمون دي مونتفورت يعبر بشكل سري من انكلترا

ورأى سيمون دي مونتفورت، أن قلبي الملك والاييرل رتشارد، وكذلك قلوب جميع النبلاء قد تغربت عنه وجفته، ووجد أن الزواج الذي عقده مع أخت الملك، قد نظر إليه من قبل عدد كبير من الناس، وكأنه لم يكن موجوداً أو ملغياً، ولذلك انسحب وتوارى وهو حزين جداً، وبعدما استحوذ على سفينة، أقلع بها خلصة، بعدما استخرج كمية كبيرة من المال من كل جهة من الجهات، ومن سكان ليسترشاير Lei- cestershire ومن سيمون دي كورلافاش Curlevache وقد جمع مبلغ خمسمائة مارك ثم إنه ذهب إلى بلاط روما، آملاً أن يتمكن بأمواله، أن يقنعه، ويحصل منه على إذن يسمح له بالتمتع بزواجه غير الشرعي، وقام أولاً بالخدمة تحت ظل الامبراطور، في سبيل أن يرضيه، وحصل منه على رسائل ليأخذها إلى البابا حول القضية، وجلست في الوقت نفسه كونتيسة بيمبروك مخفية نفسها، وكانت حاملاً، وأقامت في قلعة نيلوورث Kenilworth تنتظر نتيجة الواقعة.

حكم البابا في مسألة رهبان روكستر

صدر في هذا العام قرار حكم من البابا في قضية رهبان روكستر،

وذلك فيما يتعلق بالخلاف الذي نشب بينهم وبين رئيس الأساقفة إدموند، فيما يتصل باختيار أسقفهم، وصدر قرار الحكم لصالحهم، وكذلك فيما يتعلق بمسألة الإدعاء حول الممتلكات، وفي يوم عيد القديس كوثبرت Cuthbert جرى تثبيت انتخاب الأسقف المنتخب رتشارد أوف ويندوفر، وجمع رئيس الأساقفة هذا الرهبان، وقد أنهكهم التعب، ولم يبق معهم مال بسبب النفقات، وكانوا فضلاً عن هذا، قد عبروا الألب، حتى يمكن تسوية هذا الخلاف بشكل صحيح، حسبما يفرض القانون.

ومثل هذا، صدر في الوقت نفسه حكم ضد رئيس الأساقفة المذكور، الذي كان موجوداً آنذاك في بلاط روما، في مسألة خلافية مهمة، هي النزاع بينه وبين إيرل أوف آرونديل Arundel وأدين في القضيتين معاً بالنفقات، بحوالي ألف مارك، وقرار الحكم الذي كان صادراً ضد الايرل المذكور قد سحب، لأنه كان له عدو قوي جداً، تمثل في النائب البابوي أوتو، الذي كان قد حرض بفعالية الملك على هذا.

وصول امبراطور القسطنطينية إلى انكلترا

وقدم في العام نفسه إلى انكلترا، بلدوين امبراطور القسطنطينية، والابن الشاب لبطرس كونت أوكسري Auxerre ليطلب المساعدة، بعدما خلع ونفي من امبراطوريته، لكن عند رسوه في دوفر، أخبر باسم الملك، إنه كان عملاً غير لائق، ونصيحة سيئة لمثل هذا الأمير الكبير، أن يتطفل بالدخول إلى مملكة أجنبية، دون أن يعرف رأي الملك، ومن دون إذنه، وأن هذا قد بدا أشبه بالاستخفاف والتكبر، وكان هذا الوصول أيضاً غير مرض في نظر الملك ومستشاريه، لأنهم تذكروا كم من التشريفات والمنافع قد أضفتها انكلترا على الملك جون دي بريين أثناء قدومه إلى هناك، وكيف أنه لدى عودته إلى فرنسا، تصرف تصرف رجل شرير وبلا وفاء، وخطط بشكل خياني ضد مملكة انكلترا، وكان

على كل حال، لدى مغادرته فرنسا، ولاستدعائه تحت طالع سيء، لاستلام السلطة الامبراطورية للإغريق، لم يتمكن من تنفيذ خطته الخيانية.

وإثر إخبار امبراطور القسطنطينية بهذه المسائل، بات أسفاً جداً لقدمه إلى انكلترا، واستعد لعودة سريعة، واشتكى في الوقت نفسه وعبر عن براءته إلى الملك، وعرض بتواضع أسباب رحلته، وبعدما سمع الملك هذا، وبعد مشاوره حول الموضوع، بعث برسالة إليه، قال فيها بما أنه لم يقدم كعدو يمكنه دخول المملكة، والقدوم إلى لندن، حيث هو شخصياً سوف يستقبله بتكريم مناسب ولائق، وبناء عليه، وصل الامبراطور في الثاني والعشرين من نيسان إلى لندن، والتقى بالملك في وودستوك، ونال منه قبلة السلام، وشرح إلى الملك، وإلى الايرل رتشارد سبب قدمه، ولدى فراقه لهما، أغني بكثير من الهدايا الثمينة، وحمل معه حوالي السبعمئة مارك.

خلاف بين النائب البابوي وبين باحثي اكسفورد

ووصل في هذه الآونة النائب البابوي إلى اكسفورد، واستقبل بتشريف هو الأعلى، وذلك حسبا هو جدير به، واحتفي به في بيت الكهنة الذي كان في أوسني أبي Oseney Abbey إلى حيث أرسل إليه السائحون الكهنة قبل وقت الافطار، هدية تكميمية، على شكل لحم وشراب، وساروا بعد الافطار إلى مكان إقامته ليقدموا تحياتهم إليه، وليزوروه صدوراً عن الاحترام، ولدى وصولهم كان هناك بواب من بلاد ماوراء الألب، فقام بطريقة غير لائقة وبسلوك فج، فرفع صوته حسب طرائق الرومان، وترك الباب مفتوحاً قليلاً، وقال: «ماذا أنتم تريدون؟» وعلى هذا السؤال، رد الكهنة قائلين: «نحن نريد سيادة النائب البابوي، حتى نستطيع تقديم احتراماتنا له»، لأنهم اعتقدوا أنهم سوف يتلقون تشريفاً مقابل تشريف، لكن البواب رفض السماح لهم

بلغة مهينة وبفظاظه، وأهانهم بعجرفة وتشامخ، ولدى رؤية الكهنة ذلك اندفعوا نحو الأمام بغضب وشقوا طريقهم بالقوة، في حين سعى الأتباع الرومان إلى ردهم فضربوهم بقبضاتهم وبالعصي، وفي الوقت الذي كان فيه الطرفان مشتبهين يتبادلان الضربات والشتائم، حدث أن كان هناك شماس إيرلندي فقير، واقفاً عند باب المطبخ، وكان يفتش بحرارة عن شيء ليعطى إليه، باسم الرب، وفق طرائق الرجال الفقراء والجائعين، ووقتها سمعه رئيس الطباخين لدى النائب البابوي (الذي كان أخوه، وكان قد وضعه على رأس تلك الوظيفة حتى لا يدس السم إليه، الأمر الذي كان النائب البابوي يخشاه كثيراً) لكنه لم يعبأ بطلبه، وعندما صار غاضباً من الرجل المسكين، رمى على وجهه بعض الماء المغلي الذي نضحه من فوق مرجل حيث كان لحم سمين يطبخ، ولدى رؤية هذا الأذى الذي لحق بالرجل الفقير، صرخ بصوت مرتفع واحد من الكهنة، وكان من سكان حدود ويلز: «عيب علينا تحمل أي شيء من هذا القليل»، وفوق قوساً كان يحمله (لأنه عندما ازدادت الفوضى، حل بعض الرهبان ماوصل إلى أيديهم من سلاح)، ورمى بنشابة منه، فحرق جسد الطباخ، (الذي دعاه الكهنة بطريقة هجائية باسم «نابوزردان Nabuzardan» ومعنى ذلك رئيس الطباخين)، ولدى سقوط الرجل ميتاً، ارتفع الصراخ، فأصيب النائب البابوي بالدهشة، وتلبسه الرعب، الذي يمكن أن يستبد بأشجع الرجال، فحمل نفسه إلى برج الكنيسة، مرتدياً لغطاء رأسه الشرعي، وأغلق الأبواب خلفه، وعند حلول الظلام، وقيام الليل بإنهاء الفوضى، خلع ثيابه الشرعية، وبسرعة امتطى أفضل خيوله، وقام تحت توجيه وارشاد بعض الأشخاص الذين يعرفون أكثر المخاضات الخاصة، فعبر النهر واجتازه من أقرب منطقة منه، ومع أن ذلك قد ترافق مع كثير من الخطر، فقد كان مقصده الفرار طيراناً إلى تحت حماية جناحي الملك، بأكبر سرعة ممكنة، لأن الكهنة الذين تعاضم غضبهم، تابعوا البحث عن النائب

البابوي في أكثر المخابىء سرية، وكانوا يصرخون:

«أين ذلك السيموني المرابي، الناهب للموارد، المتعطش للمال، والذي أفسد الملك، ودُمّر المملكة، وأغنى الأجانب بأسلاب أخذها منا؟»، وعندما كان النائب البابوي يسمع هذه الصرخات من مطارديه، قال في قرارة نفسه:

«عندما تركض الحماقة بسرعة كاملة

يطلب الرجل الحكيم ممراً لينأى بنفسه».

وبصبر تحمل هذه الأشياء كلها، وصار أشبه برجل لم يسمعهم، وكأنها ليست لديه قدرة على صدهم، وبعدما عبر نهر مع صعوبات جمّة (حسبما ذكرنا أعلاه)، ومعه عدد قليل من المرافقة، بسبب صعوبة المجاز، بقي الآخرون في الدير، وقد وصل إلى الملك مقطوع الأنفاس، وفي حالة ذعر، مع الدموع والتنهدات تقطع حديثه، وقد شرح للملك وكذلك إلى حاشيته سلسلة الأحداث التي وقعت، مقدماً شكوى جادة حول القضية، وحزن الملك لدى سماعه هذه الحكاية المؤسفة، وتعاطف كثيراً معه، وأرسل إيرل وارني Warrenne مع قوة مسلحة إلى أكسفورد، بكل سرعة لانقاذ الرومان الذين كانوا متخفين هناك، وللقيام باعتقال العلماء، وكان بين هؤلاء الأخيرين، واحد اسمه المعلم أودو، وكان محامياً، وقد اعتقل بخشونة، وأودع مع ثلاثين آخرين السجن بشكل مهين في قلعة وولنغفورد، على مقربة من أكسفورد، وبعدما تحرر النائب البابوي من المصيدة المحطمة، جمع إليه بعض الأساقفة ووضع أكسفورد تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وحرّم كنسياً جميع المحرضين على هذا الاثم العظيم، وبات السجناء الآن تحت تصرف النائب البابوي، فجرى نقلهم بعربات مثل لصوص إلى لندن، وهناك أودعوا سجناً ضيقاً، وقد حرّموا من مواردهم، وربطوا بالكفّير والحرمان.

مصالحة جامعة أكسفورد مع النائب البابوي

وكان النائب البابوي، الذي انطلق برحلة نحو شمال انكلترا، قد حوّل اتجاهه وعاد إلى لندن، وهناك نادراً ما تجرأ على الإقامة في المقر الملكي التابع لأسقف وينكستر حيث كان يقيم بالعادة، وأرسل الملك رسالة إلى مدينة لندن، بأن يقوم عمدة لندن مع جماعة سكان المدينة كلها، مع كتلة من الرجال المسلحين بحراسة متواصلة على النائب البابوي المذكور، وأن يحرسوه حراسة بؤبؤ أعينهم.

ثم استدعى النائب البابوي بفضل السلطة التي توفرت لديه، رئيس أساقفة يورك، وجميع أساقفة انكلترا، للاجتماع به في لندن، في السابع عشر من أيار للبحث هناك في أحوال الكنيسة، وفي الوضع الخطير لرجال الدين، واجتمع الأساقفة في اليوم المتقدم على التاريخ المحدد، وتباحثوا حول الوسائل التي يمكن بها انقاذ مجموع رجال الدين كلهم، وكأنهم كنيسة ثانية، وتلطف النائب البابوي نحوهم أيضاً، واستعطفهم من أجل انقاذ الكنيسة الرومانية، حتى لا يقال نقداً، بأنه قدم من أجل إصلاح رجال الدين والكنيسة، لكنه بالحري أفسدهم، وأخيراً اقترح على النائب البابوي من قبل الأساقفة مع جميع رجال الدين الحضور، بأن ينطلق النقاش حول جماعته الشخصيين، ولكن لدى نهاية النقاش حصل رجال الدين على النتيجة السيئة، لأنه بناء على أوامره، ألقي شطر كبير منهم في السجن، أما البقية منهم، فكانوا على استعداد لطاعة أوامره، وكانوا جاهزين للتواضع والخضوع إليه، في مكان على سفر ثلاثة أيام من أكسفورد، فهناك — بناء على التماس عدد كبير من الرجال العظماء — يتوجب على عقله وتفكيره أن يميل نحو الرحمة، وأخيراً تمّ الاتفاق، بأن يمنح النائب البابوي رحمته، إنما على شرط، أن يقوم جميع الباحثين الذين اجتمعوا هناك بالسير على أقدامهم، بصحبة الأساقفة، أيضاً على الأقدام، من كنيسة القديس بولص، التي كانت على مسافة

تقارب الميل بعداً عن مقر إقامة النائب البابوي، وذلك حتى يصلوا إلى مقر إقامة أسقف كارآيل، وعليهم أن يذهبوا من هناك من دون أغطية رأس وأقبية، وحفاة، إلى مقر إقامة النائب البابوي، حيث سوف يلتمسون هناك العفو، الذي سوف يمنح إليهم، وسوف يصبحون متصالحين، وجرى تنفيذ هذا، ولدى رؤية النائب البابوي هذا التواضع والتذلل، استقبلهم ثانية في حظوته، وأعاد الجامعة إلى مقرها الإقليمي، وسحب برحة منه التعليق من شراكة المؤمنين مع قرار الحرمان الكنسي، ومنحهم رسائل، أنه من جانبه من غير الممكن تلطيخ سمعتهم في أي وقت من الأوقات.

وبعد عيد الفصح مباشرة في هذا العام، أرسل ملك انكلترا قوة من الجند، تحت قيادة هنري دي تربلفيل Troubleville الذي كان عسكرياً بارعاً جداً، لمساعدة الامبراطور ضد رعاياه العصاة في المقاطعات الايطالية، وأرسل مع هذه الوحدة العسكرية ج. ل مانسيل Mansel ووليم هاردل Hardel وكان محاسباً من سكان لندن، وقد بعث الملك معه مبلغاً من المال، حتى يوزعه بين المرتزقة، وبشجاعة قاتل جيش الملك هذا من أجل الامبراطور أثناء الصيف كله، حيث قهروا سكان بعض المدن التي قاومت، وأعادوا المدن إلى الامبراطور، وكان بين الذين ميزوا أنفسهم ج. مانسيل المذكور، وغضب البابا غضباً عظيماً تجاه هذا، وفي تلك الآونة أرسل ملك انكلترا رسالة إليه، رجاء فيها أن يتعامل بلطف أكبر مع الامبراطور، وجاءت ردة فعله على هذه الرسالة غاضبة بشكل جاد، وذلك بشكل غير معتاد الصدور عنه، وأثير وبلغ به الغضب إلى حد دفعه إلى الاستمرار به إلى وقت طويل، وإلى تعليق القضايا التي لها علاقة بالانكليز، وكان أسقف بلنسية عندما سمع بأن مثل هذا الجيش على وشك الإرسال إلى ايطاليا، قام بمكر وبراعة بالالتحاق باللورد هنري تربلفيل، كدليل لهم، وأبحر معه.

وعاد في العام نفسه بلدوين امبراطور القسطنطينية، الذي تقدمت الإشارة إليه أعلاه، بعدما حصل على مبلغ خمسمائة مارك من الملك، وعلى مبلغ كبير من الايرل رتشارد، إلى بلاده، وفي تلك الآونة أيضاً، وجد الأسقف المنتخب لبلنسية أن إقامته في انكلترا لم تعد موائمة ولا مقبولة فقام إما رغماً عنه، أو عن طواعية، فأقلع مسافراً ومغادراً البلاد، لكن ليس من دون حذر مناسب لأن خيوله كانت محملة، وكانت سروج دوابه مليئة بأواني ملكية من الذهب والفضة.

موت السلطان الأعظم قوة

وفي هذا العام نفسه، عندما كان السلطان [الكامل محمد] الذي كان السلطان الأعظم قوة على وشك الموت، وزع بكرم أعطيات وافرة، ومبالغ كبيرة من المال على المسيحيين المرضى، الذين كانوا قد بقيوا في دار الاستبارية، وأطلق سراح عدداً كبيراً من الأسرى المسجونين، وعمل أعمالاً أخرى كثيرة قدم فيها الصدقات، ثم لفظ أنفاسه، مما سبب الحزن إلى الكثيرين، لأنه وإن كان وثنياً، كان — صدقاً نقول — رجلاً سخياً، كما كان (بقدر ما سمحت له صرامة عقيدته وشكوك جيرانه) رجلاً رحيماً نحو المسيحيين، وعندما سمع الامبراطور الروماني بهذا، بكى موته بدموع، لمدة طويلة، ذلك أنه كان يأمل — كما كان ذلك السلطان نفسه قد وعد — بأنه سوف يتسلم العمد، وأن المسيحية، سوف تتلقى بوساطته في وقت أو آخر كثيراً من الزيادة في ازدهارها.

سفر سيمون دي مونت فورت

من عند الامبراطور إلى البلاط الروماني

وحمل في الوقت نفسه سيمون دي مونتفورت نفسه، مع الرغبات الطيبة للامبراطور، ومع رسائل توصية منه، وتوجه إلى البلاط الروماني، وحصل هناك، بوساطة مبالغ لا حد لها من المال، والوعود،

على مرسوم من البابا — مع أن تعهده المهيب أمام ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، كان ضد ذلك — أن بإمكانه التمتع بزواجه غير الشرعي، وكتب قداسته، إلى النائب البابوي أوتو، آمراً إياه أن يعطي مرسوماً خاصاً لصالح سيمون دي مونت مونتفورت، ولدى سماع الراهب وليم دي أبيנגدون Abiingdon من طائفة المبشرين، بهذا مع رجال متعلمين آخرين، كانت لديهم غيرة على الرب، وكانوا واضعين لها، أمام أعينهم، رفعوا أصواتهم عالياً بلوم هذا القرار، مؤكدين بصدق، بأنه قد فرض فرضاً على قداسة البابا، وأن ذلك يعرض الأرواح للخطر، وأن هذا يثير المسيح ويدفعه للغيرة، ومع أن الفئة المعارضة قد أعلنت، بأن المرأة مشار النقاش، قد تكون لم تقدم على ارتداء الثوب والحجاب، لكنها أخذت الخاتم، الذي به تكرست، أو بالحري زوجت نفسها للمسيح، وبالتالي اتحدت اتحاداً لا يمكن فصله بالمسيح الذي هو قرينها، وذلك كما هو واضح في الكتابة الأصلية في مراسيم المعلم بطرس، في رسالته حول «التعهدات» في الكتاب الرابع، الذي فيه بعدما قدم الأسباب وسلطات القديسين والشرائع مضى ليقول:

«يبدو من هذه الأشياء أن العذارى أو الأرامل اللاتي ربطن أنفسهن بعهد منع الذات عن الشهوة الجنسية، سواء أخذن الحجاب أم لا، لا يمكنهن الزواج بأي حال من الأحوال، وهذا يتوجب فهمه وفق الطريقة نفسها، بالنسبة إلى جميع اللاتي عملن عهداً بمنع الذات عن الشهوة الجنسية، والذي كان قانونياً قبل النذر، سوف يكون غير قانوني بعده»، ولعل البلاط الروماني قد امتلك — على كل حال — وجهة نظر أعمق بمعانيها مما يمكننا فهمه.

التتار يحتاجون البلدان الشمالية

وجرى في هذه الآونة، إرسال رسل خاصيين من قبل المسلمين،

وبشكل خاص من قبل شيخ الجبل، ولصالحه، إلى الملك الفرنسي،
لاخباره بأن جنساً من البشر مربعاً وغير انساني البتة، أخذ بالتدفق من
المناطق الجبلية الشمالية، وقد استولى على البلدان الكثيفة السكان والغنية
في الشرق، وقد أفرغ هؤلاء هنغاريا الكبرى من السكان، وأرسلوا
رسائل تهديد، مع سفارات مرعبة، وأعلنوا بأن رئيسهم هو رسول
الرب من عليين، قد أرسل لإخضاع جميع الشعوب التي تمردت ضده،
ولهؤلاء القوم رؤوس كبيرة جداً، غير متناسبة تماماً مع أجسادهم،
ويعيشون على الأسماك غير المطبوخة، لابل حتى على لحوم البشر، وهم
رماة لا يمكن مقارنتهم، ويعبرون أي نهر بقوارب صغيرة معمولة من
الجلود، وهم رجال أقوياء البنية، وضخمة هي أجسادهم، وغير أتقياء،
وصلبين عنيدين، ولغتهم غير معروفة لدى جميع من نعرفهم، ولديهم
قطعان كثيرة، ومواشي، ويربون الخيول، وخيولهم سريعة جداً، وقادرة
على انجاز رحلة ثلاثة أيام في يوم واحد، ويتسلح الرجال منهم بشكل
جيد من الأمام، وليس من الخلف، حتى لا يفرون، ورئيسهم رجل
شرس جداً، اسمه خان، ويسكن هؤلاء في المناطق الشمالية، إما في جبال
بحر قزوين، أو في المواضع المجاورة، ويعرفون باسم «التتار» وذلك
اشتقاقاً من نهر «تار»، وأعدادهم كبيرة جداً، ومن المعتقد أنهم أرسلوا
بمثابة طاعون لبني البشر، ومع أنهم تدفقوا مهاجمين في المناسبات
الماضية، بيدون في هذا العام في حالة هياج حادة أكثر مما هو معتاد،
وسكان بلاد القوط Gothland، والفريزيين، مرعوين من
حملاتهم، لذلك لم يقدموا إلى يارماوث Yarmouth، في انكلترا، كما
هي عادتهم، في أيام صيد سمك الرنكة (من أنواع السردين)، حيث
كانت سفنهم تحمل به بالعادة، ولهذا السبب، عدّ سمك الرنكة في هذا
العام بلا قيمة، نظراً لكمياته الوافرة، وقد بيعت حوالي أربعين أو خمسين
سمكة، من النوع الجيد جداً مقابل قطعة واحدة من الفضة، حتى في
أماكن بعيدة جداً عن البحر، وقدم هذا الرسول المسلم والنبيل القوي

الذي وصل إلى الملك الفرنسي، باسم جميع أفراد شعب الشرق، ولصالحهم، للإخبار بهذه الأشياء، وقد طلب المساعدة من الشعوب الغربية، من أجل صد هجمة المغول المرعبة، وخضد شوكتهم، وقد أرسل أيضاً رسولاً مسلماً من جماعته إلى ملك انكلترا، وهو الذي وصل إلى انكلترا وروى أخبار هذه الوقائع، وليقول بأنهم أنفسهم، إن لم يستطيعوا الصمود أمام حملات مثل هؤلاء الناس، لن يبقى شيء يمنع اجتياحهم لبلدان الغرب، وذلك وفقاً لقول الشاعر:

«لأنه عندما يحترق بيت جارك،

سوف بدورها تستولي النار على دارك».

وبناء عليه طلب المساعدة في حالة الطوارئ السريعة والعامّة هذه، حتى يتمكن المسلمون بمساعدة المسيحيين من مقاومة حملات هؤلاء الناس، وصدف أن كان أسقف وينكستر حاضراً آنذاك، وكان مرتدياً علامة الصليب، فقاطع خطابه، وأجاب مازحاً مستهزئاً قائلاً:

«دعونا نترك هؤلاء الكلاب يلتهم أحدهم الآخر، حتى يؤكلوا جميعاً، ويهلكوا، ونحن عندما سنزحف ضد أعداء المسيح الذين سيقتلون، سوف نقتلهم وننظف وجه الأرض منهم، وبذلك سوف يكون العالم كله، خاضعاً لكنيسة كاثوليكية واحدة، وسوف يكون هناك راع واحد لقطيع واحد».

موت بطرس دي روشي أسقف وينكستر

وفي التاسع من حزيران من العام نفسه، مات بطرس دي روشي Roches أسقف وينكستر، وكان قد أغلق حياته، بعدما حكم كنيسة وينكستر لمدة اثنتين وثلاثين سنة، وأيضاً بعدما قام بحجه بشكل معلن، إلى الأرض المقدسة، بصحبة أسقف إيكستر Exeter وكان كذلك قد بنى عدة بيوت لأشخاص دينيين، وعمل عهداً نبيلاً، وكان

عندما مات متقدماً بالسن، وحدثت وفاته بعزبة فارنهام Farnham وقد دفن في كنيسة وينكستر، حيث كان خلال حياته، واختار قبراً متواضعاً، وبوفاته، فقد مجمع المملكة الانكليزية كله من ملكيين إلى لاهوتيين خسارة لاتعوض، وينبغي أن لانسقط من الذكر، أن جميع التشريفات والمنافع التي منحت إلى الكنيسة، سواء أثناء السلام، أو أثناء الهدنة، أو حتى أثناء الحرب في الأرض المقدسة، عندما ذهب الامبراطور فردريك إلى هناك، كله تحقق بشكل نبيل وحكيم، وجرى تنفيذه بمشورة هذا الأسقف نفسه ومعونته، وإلى جانب هذا عندما تفجر الخلاف فيما بعد بين البابا وبين الامبراطور، وهدد حظ ومصير الكنيسة كلها، أعاد هو بسعادة، وبفضل نعمة الرب، السلام بين هذين الشخصيتين المشهورتين، وأسماء البيوت الدينية التي بناها، أو منحها ممتلكات، وأبنية، وموارد هي كما يلي:

في هيل Hales, لطائفة الـ Praemonstratensians, وتيكيفورد Tykeford للطائفة نفسها، وسيلبورن Selburn لطائفة القديس أوغسطين، يعني لكهنة نظاميين، والمشفى المشهور في بورتماوث، وفي الأرض المقدسة أيضاً، حوّل كنيسة القديس توماس الشهيد، من مكان غير لائق، إلى موضع مناسب، وغيّر طائفة الرهبان في تلك الكنيسة إلى طائفة أكثر جدارة وقوة، فاعتماداً منه على مساعدة بطريرك القدس، فإن هؤلاء الذين كانوا من قبل علمانيين بالفعل واللباس، حملوا الآن الصليب على صدورهم، وهم خاضعين لطائفة الداوية، وحصّن يافا، وجدد مكان لجوء للصليبيين، وقد عمل ميثاقاً رائعاً، وقدم مبلغاً كبيراً من المال، لكل من الأماكن المتقدم ذكرها، وإلى بيت القديس توماس في عكا، الذي كان أصغر مبلغ منحه إياه هو خمسمائة مارك، وبالإضافة إلى هذا ترك إلى خليفته أسقفية غنية، واسعة في حقوقها وقطعائها، وعندما سمع الملك بوفاة بطرس أسقف وينكستر،

تدبر تعيين وليم أسقف بلنسية المنتخب ليجري تعيينه في تلك الأسقفية، لكن المستشار رالف دي نيفيل، أسقف شيلستر، طلب بشكل محق — ضد رغبة الملك — من قبل دير وينكستر، الذي إليه يعود حق الانتخاب، وقام الملك بصرف هذا الذي رغبوا به من مستشاريته ومن بلاطه، وذلك بعدما أخذ منه الختم الذي كان معهوداً به إلى ذلك المستشار المذكور، بموجب نصيحة الملكة كلها، وتمكن بواسطة محاميه المستقرين في روما، وبانفاق مبلغ كبير من المال، من إلغاء طلب ذلك الدير، من قبل البابا.

حصار مدينة ميلان

وفي الوقت نفسه من العام، تابع الامبراطور حصار ميلان، وأثناء ذلك أرسل إليه تقريباً جميع أمراء المسيحية عساكر إضافية، فقد بعث إليه ملك انكلترا — ابن ختته — مائة فارس، مجهزين بشكل جيد بالخيول والسلاح، تحت إمرة هنري دي تربلفيل، مع مبلغ كبير من المال، وبأمر أيضاً الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي أجاد معرفة الأسلحة الدنيوية، أكثر من الأسلحة الروحية، إلى هناك مع الفرسان الذين بعث بهما كونتا طولوز وبروفانس لمساعدة الامبراطور، ومن المدهش لكثيرين ان الامبراطور، الذي أحاط به ذلك الحشد الكبير من النبلاء، قد بدد وقتاً طويلاً في الحصار، مع خسائر كبيرة، باستثناء أنه في معركة واحدة، استطاع فيها هنري دي تربلفيل، مع الراية المنتصرة لملك انكلترا، ويتبعه الجنود الانكليز الذين كانوا تحت إمرته، بشجاعة وتمكن من صدّ حملات الأعداء، وأرغمهم على فرار بلا أمل، ولذلك أعاد الامبراطور الشكر إلى الملك بواسطة رسالة بعث بها إلى الملك، وأعلن بها بأن ذلك القتال الشجاع، كان السبب بسلامته وكرامته، وبعد أمد وجيز، توجه مع جيش كبير لإلقاء الحصار على بريشيا Brescia فأهالي ذلك المكان كانوا يمدون الميلانيين بالمساعدات، أثناء وضعهم المتأزم آنذاك، ولم يكن

الميلانيون، في الوقت نفسه كسالى، حيث أحاطوا مدينتهم بخنادق عميقة، وتابعوا مراراً تقديم العون إلى سكان بريشيا، وهكذا جرى تبديد فصل الصيف، وعلى هذه الصورة انتهى، وبناء عليه لدى اقتراب الشتاء، تمّ الاتفاق على عقد هدنة، بموافقة كلا الطرفين، والذين جاءوا لتقديم المساعدة إلى الامبراطور، غادروا دون أن يحققوا هدفهم، وغدا الامبرطور نفسه الذي لم يتمكن من قهر مدينة بريشيا، واخضاعها لتكون تحت حكمه، مع أنها كانت مدينة صغيرة بالمقارنة مع المدن الأخرى، غدا أقل إخافة لأعدائه، وأدنى احتراماً من قبل أصدقائه.

عودة ادموند رئيس أساقفة كانتربري من بلاط روما

وعاد في حوالي ذلك الوقت نفسه، ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، من بلاط روما، ووصل إلى انكلترا، ومع أنه غادر انكلترا مع موافقة المجمع الديري، فقد حصل من البابا على مرسوم لصالحه، وضد رهبان كانتربري، وبسببه نشب خلاف متقطع وغير معلن بين الراعي وقطيعة، وعانت الكنيسة من كثير من الخسائر، وقلة الكرامة، والتعليق، ووصمة العار، وسوء السمعة، وبناء عليه جرت دعوة النائب البابوي لتصحيح هذا الشقاق، وأثناء ترؤسه هيئة الكهنة في كانتربري، وبسبب أن كتاباً كان يحتوي على الامتياز الذي تمّ الحصول عليه في أيام القديس توماس، جرى حرقه بشكل أحرق من قبل بعض الأشخاص، قام بعزل رئيس الرهبان في ذلك المكان، وبعث به إلى طائفة أكثر قسوة وخشونة، حتى يقوم بممارسة أعمال توبة مستمرة، وأبعد أحد الرهبان لأنه (كما قيل) قد أزال بشكل سري من الامتياز المتقدم ذكره، الأشياء التي ظهرت بشكل واضح أنها ضد الرهبان، وأقحم أشياء أخرى بدت بأنها تخدم مصالحهم، ولأن مثل هذا المسح في ذلك الكتاب الأصيل لم يكن لينجو من ملاحظة الأشخاص الذين فحصوه بدقة، قام أحد الرهبان بشكل أحرق بإحراق ذلك الكتاب، وذلك حتى لا ينال الدير

وصمة العار والتزيف، وبناء عليه عندما أشار رئيس الأساقفة إلى ذلك الكتاب، وطلبه، وعندما لم يتم العثور عليه، عملوا اعترافاً صحيحاً بالذي وقع، واشتعل النائب البابوي — وهو محق — غضباً، وعقوبة على مثل هذه الغلطة العظيمة (حسبها تقدمت الإشارة أعلاه) طرد رئيس الرهبان وعزله من منصبه، وأبعد بعضاً من الرهبان الذين ظهروا بأنهم مجرمين، وأمرهم بأن يعيشوا بانضباط أعظم، وبتوبة مستمرة، وبعد ذلك، لأن رئيس الرهبان دخل إلى بيت الكهنة مع بعض العلمانيين لعمل انتخاب ضد العادة المعمول بها بالبيت، انتخب مجمع الدير رئيساً عليهم من دون موافقة رئيس الأساقفة، ثم سمع رئيس الأساقفة بهذا، فلم يوافق عليه، وألغى الانتخاب، ولم يكتف بانزال عقوبة التعليق، بل إنه حرم كنسياً رئيس الرهبان المنتخب مع الناخبين، لكن مجمع الدير، ترفع بجرأة واشتكى حول هذه القضية إلى البابا ضد رئيس الأساقفة.

الملك يسعى لتثبيت انتخاب وليم الأسقف المنتخب لبلنسية ليكون أسقفاً لأسقفية وينكستر

واستخدم الملك في هذه الآونة (مع أنه غالباً ما أقسم من قبل على صرف الأجانب وعلى عدم تقديم العون لهم) كل الوسائل الممكنة، وأكثر مما ينبغي، وبالوسائل غير الصحيحة، في سبيل ترقية وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، وانتخابه (وهو الرجل الذي وصف بأنه كان دموياً) لتسلم أسقفية وينكستر، لكن هذا رفضه الرهبان بين أنفسهم، وهم الرهبان الذين إليهم يعود حق الانتخاب بشكل معلوم، وذهبوا إلى الملك — كما جرت العادة، يطلبون الاذن بانتخاب أسقفهم — وقبل أن يعطيهم الملك أي جواب، رجاهم انتخاب وليم، الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي دعاه باسم عمه، ولم يوافق الرهبان، وطلبوا منحهم وقتاً للتداول حول القضية مع بقية أعضاء المجمع الديري، الذي يعود إليهم حق الانتخاب، وشعر الملك أنه بمنحهم هذه المهلة فإن التماساته سوف

تسقط من دون تأثير، فتحول إلى مكره المعتاد، وفي رد على التماس الرهبان قال:

«لقد أخبرت بأن اثنين من شمامسة أسقفيتكم في وينكستر متوجب عليهما الحضور أثناء انتخابكم، وأنا لأرى هذين في القضية الحالية، ولذلك لايمكنني الاستجابة إلى التماسكم»، وعلى هذا رد الرهبان بأنهما «وإن كان من المتوجب حضورهما أثناء الانتخاب (الذي يبدو لنا أنه سخيـف ولايتماشى مع العدالة) هما لا يحتاجان للحضور أثناء التقدم بالطلب للانتخاب»، ومع أن الملك وقف عند هذا الأمر طويلاً وتفكر به، هو لم يستطع معارضة مطلبهم، لكن بعد مضي بعض الوقت، علم بشكل يقيني بأن الرهبان يرعون بشكل جاد فكرة انتخاب وليم دي ريل Raele وكان رجلاً جديراً كله بالثناء، ليكون أسقفهم، فغضب غضباً عظيماً، وأجابهم بسخرية: «أنتم رفضتم الأسقف المنتخب لبلنسية، قائلين بأنه كان رجلاً دمويّاً، وانتخبتم الآن وليم ريل، الذي قتل بلسانه رجالاً أكثر مما قتله أي انسان آخر بالسيف»، وبتكبر واستخفاف أقسم أنه لن يتحمل هذا بأي شكل من الأشكال، ولهذا خاف الرهبان من غضب الملك، فتخلوا عن نيتهم، ودمر الملك في الوقت نفسه ممتلكات وتحسينات الأسقفية، وغالباً ما جلس في العزب التابعة لها، مع أعداد كبيرة من الأتباع كانوا يحيطون به.

الملك يتدبر إلغاء انتخاب رالف أسقف شبيستر

ولدى رؤية الرهبان وقتها التأثير المضر للتأخير، شرعوا بنشاط متواصل يفكرون حول اختيار رئيس لأنفسهم، وعندما سمع الملك بهذا، بادر مسرعاً وعلى الفور إلى هناك، ودخل إلى بيت إدارة الكهنة بنشاط وحماس أكبر مما هو معتاد، وطلب من الرهبان بالوعد والوعيد، بأن عليهم انتخاب عمه، الأسقف المنتخب لبلنسية، وقد حاولوا ببراعة، ورغبوا في إزالة غضب الملك، وسعوا لتهديئة عنفه غير المحق

بوساطة التأخير، وكانوا غير راضين بالموافقة على مطالبه غير العادلة، وقد وافقوا بالاجماع على المطالبة برالف دي نيفيل، أسقف شيلستر، ومستشار الملك، ليكون أسقفهم، والمسؤول عن أرواحهم، ووجد الملك أن التماساته، قد أخفقت مجدداً في التأثير عليهم، فعارض الطلب المحق للرهبان، وكدس كثيراً من الشناعات على الأسقف المذكور، وقال عنه بأنه كان قليل الصبر، وسريع الغضب، ورجلاً فاسداً، ثم وسّمهم بالحماقة لأنهم طلبوه ليكون أسقفاً لهم، وبالإضافة إلى هذا، انتزع بعنف ختمه، الذي كان الأسقف المذكور قد تسلم المسؤولية عنه، بناء على رغبة عامة من المملكة، وعهد بالعناية به إلى الراهب غيوفري الداوي مع جون لكسنتون، وذلك مع العطاء المعدّ للمستشارية، والمورد المعين للأسقف كمستشار، وتابع إجراءاته العدوانية، كما كان بدأها، فبعث سيمون النورماندي والاسكندر، وهو علماني، وكلاهما محامين مستأجرين، إلى بلاط روما، الذي قام بوساطة هدايا كبيرة، ووعود من المال، فحرم رجلاً مستقيماً من حقه، وألغى قراراً محقاً، وألغى بشكل فاسد، الطلب المتقدم ذكره.

الميلانيون يرغبون بالتصالح مع الامبراطور فردريك

وفي هذه الآونة خاف الميلانيون من المقدرة الامبراطورية، فبعثوا إلى الامبراطور، يرجونه بكل الالتماسات الممكنة، بعدما أعلنوا أنه مولاهم الحقيقي وسيدهم الطبيعي، أن يزيل غضبه عنهم، وأن يوقف قتاله ضدهم، وأن يرفعهم، وأن يحميهم، بمثابة كونهم رعيته التابعين له، والموضوعين تحت جناحي حمايته القديرة، وأعلنوا أنهم سوف من الآن فصاعداً، كما فعلوا من قبل، يخدمونه بمثابة مولاهم وامبراطورهم، مع الاحترام كله، وكبرهان على طاعتهم، ومن أجل أن ينالوا حمايته بوساطة أسلحته وعواطفه، وفي سبيل نسيان عصيانهم السالف الذكر، ولعدم تذكره، وعدوا عن طواعية من أنفسهم أن يقدموا له جميع

المدخرات الأساسية التي يمتلكونها من ذهب وفضة، وعلاوة على ذلك، وكعلامة على خضوعهم وطاعتهم، وعلى نصره الامبراطوري، إنهم سوف يجمعون جميع راياتهم، ويحرقونها عند قدمي الامبراطور، وأنهم بالاضافة إلى هذا، عندما سيستأنف الامبراطور ثانية القتال في خدمة الصليب في الأرض المقدسة، سوف يزودونه سنوياً بعشرة آلاف جندي، في سبيل تقدم الكنيسة، وفي سبيل كرامته، شريطة أن يتولى محبة سكان المدينة من دون شوائب أو أذى، وأن تبقى حالة المدينة وسكانها كما هي محافظ عليها.

لكن الامبراطور، رفض بشموخ جميع هذه العروض، وطالب بشكل قطعي، أن يقوم السكان بشكل عام مع مدينتهم، ومع جميع ممتلكاتهم، بالتخلي عن أنفسهم وعن إرادتهم ووضع ذلك طوع رغباته، ورد السكان بموافقة عامة على هذا السلوك الطغياني، بأنهم لن يفعلوا هذا بأي حال من الأحوال، وقالوا:

«لقد تعلمنا بالخبرة، وبالخوف من وحشيتك، أن نفضل الموت تحت ترستنا، بالسيف، أو الرمح، أو بالنشاب، على الموت بالخيانة، والجوع، واللهب»، وبدأ الامبراطور منذ ذلك الحين يفقد الخطوة لدى الكثيرين، لأنه قد أصبح طاغية، ونال الميلاونيون لتواضعهم التشجيع، وحصلوا على القوة، وذلك وفقاً لكلمات الانجيل في قوله: «يقاوم الرب المتشامخ، ويعطي النعمة إلى المتواضع»، ووقتها رأى الميلاونيون أن المسألة مسألة موت أو حياة، فتولوا تحصين مدينتهم بمزيد من النشاط أكثر مما هو معتاد، بالسلاح وبالخنادق، وبالدخول بتحالفات مع مدن أخرى.

واقعة الراهب جون من طائفة المبشرين

وفي هذه الآونة نفسها، نبغ واحد من طائفة المبشرين، واسمه الراهب جون، وكان رجلاً متعلماً، وفصيحاً، وممتعاً في عمله كمبشر، وقد تمتع

بسمعة عظيمة واحترام كبير في ايطاليا، إلى حد أنه أطفأ الحروب بين السكان، وقد عمل الرب معجزات له، حيث أنه عبر الأنهار حافياً، وأرغم الطيور الجارحة الطائفة في الهواء على النزول إلى الأرض، بناء على أوامره، وأخيراً أصبح على كل حال، بوساطة مكر الشيطان متشاكساً بشهرته، وضعف بالعلاقة الجسدية الشهوانية لأصدقائه، وبذلك استحق فقدان محبة الرب، والتشريف لدى البشر، والاحترام لدى رجال الدين.

محاولة أحد الأشرار قتل الملك في قاعة نومه

ووقعت في السنة نفسها، واقعة مرعبة للملك، جعلت الناس كلهم يرتعبون، ففي اليوم الذي جاء بعد ميلاد القديسة مريم، قدم واحد من السادة المتعلمين — كما قيل — إلى بلاط الملك في وودستوك، وتظاهر بأنه كان مجنوناً، وقال للملك: «استقل من الملك لصاحي، وسلمني حكم المملكة الذي اغتصبته بشكل غير عادل، والذي حرمتني منه لزمن طويل»، كما أنه أضاف بأنه يحمل شارة الملك على كتفه، ورغب رجال حاشية الملك بضربه، وبطرده من الحضرة الملكية، لكن الملك منع الذين كانوا منقضين عليه من استخدام العنف ضده قائلاً: «اتركوا الرجل المجنون يهذي كما يريد، وحسبما يأتيه، لأن كلام هؤلاء الناس ليس له تأثير الصدق»، وفي منتصف الليل — على كل حال — دخل هذا الرجل نفسه إلى قاعة نوم الملك من النافذة، حاملاً بيده مديّة مفتوحة، واقترب من فراش الملك، غير أنه أصيب بالاضطراب لعدم وجوده هناك، وبدأ على الفور يبحث عنه في عدد من قاعات النوم في مسكنه، وكان الملك، بفضل الرب نائماً مع الملكة، وكان هناك بالصدفة واحدة من وصيفات الملكة مستيقظة، وكان اسمها مرغريت بيزث Bis-eth وكانت تغني ببعض المزامير على ضوء شمعة (لأنها كانت وصيفة مقدسة، وواحدة مكرسة للرب)، وعندما رأت هذا الرجل المجنون، يفتش في الأماكن الخاصة، ليقتل الملك، وهو يسأل بصوت

مرعب عن المكان الذي فيه الملك، ارتعبت كثيراً، وأخذت ترد صراخها، ولدى سماع صراخها المرعب، استيقظ حراس الملك، وقفزوا من أسرهم بكل سرعة، وركضوا نحو المكان، وفتحوا الباب بالقوة، الذي كان اللص قد أغلقه بإحكام، واعتقلوا اللص، على الرغم من مقاومته، وربطوه وغلوه بقوة، وضمنوه.

وقد اعترف هذا الرجل بعد بعض الوقت، بأنه قد أرسل إلى هناك، ليقتل الملك وفق طرائق الحشيشية، من قبل وليم مارش، ابن غيوفري مارش، وأفاد بأن آخرين قد تأمروا لإقتراف الجريمة نفسها، ولدى معرفة الملك بهذا، أمر به، بحكم كونه مجرمًا بمحاولة قتل جلالة الملك، بأن يمزق طرف منه عن الطرف الآخر بوساطة الخيول في كوفنتري، وكان بذلك مثلاً مخيفاً ومشهداً مؤسفاً لكل من يتجرأ على التآمر لإقتراف مثل هذه الجرائم، وجرى سحله أولاً وهو ممزق إرباً إرباً، ثم جرى قطع رأسه، وتقسيم جسده إلى ثلاثة أقسام، ثم إنه جرى سحل كل جزء خلال إحدى المدن الرئيسية في إنكلترا، وبعد هذا جرى تعليقه على المشنقة المعدة للصوص.

عاصفة من الريح ثقيلة

في حوالي يوم عيد القديس متى (٢١ - أيلول) ثارت عاصفة من الريح بعنف مدمر، ومن دون أن أذكر الأضرار التي تسببت بها والتي لا يمكن تعويضها، غرقت أكثر من عشرين سفينة في بورتموث.

عودة سيمون دي مونتفورت إلى إنكلترا

وفي يوم عيد القديس كاليكستوس Calixtus (١٤ - تشرين أول) عاد سيمون دي مونتفورت من القارة، واستقبل من قبل الملك، ومن جميع الحاشية الملكية بقبلة السلام، ثم إنه انطلق بكل سرعة نحو زوجته إليانور، التي كانت مقيمة في نيلوورث Kenilworth وهي على وشك الولادة.

دعوة رعاة رهبان الطائفة السوداء

للمثول أمام النائب البابوي في لندن

وفي العام نفسه، استدعى النائب البابوي أوتو، بناء على تفويض من البابا، جميع رعاة رهبان الطائفة السوداء، للمثول أمامه، في كنيسة القديس مارتن في لندن، ليتولى تقدير الدرجات التي أمر بها صاحب القداسة البابا — بعد مناقشة كافية — من أجل إصلاح الطائفة الرهبانية.

إصلاح أحكام رهبان الطائفة السوداء

وعندما اجتمع جميع رعاة طائفة الرهبان السود، نهض النائب البابوي، وحثهم ليكونوا جميعاً صبورين، ثم شرع بإلقاء خطبة منمقة كانت كما يلي:

«باسم مولانا يسوع المسيح، والأب والابن والروح القدس، آمين، إنها المهمة عظيمة وصعبة القيام بتحسين مدينة الرب، التي هي الكنيسة، بمراسيم جديدة ومتطورة، ضد مصائد العدو الخبيث، الذي يسعى باستمرار ببذع قديمة وجديدة لإخضاعها، وقمنا نحن أوتو، الذي بفضل رحمة الرب، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا، في سجن تولىان، والنائب للكرسي الرسولي، صدوراً عن واجبات النيابة البابوية المفروضة علينا، وتقديراً لأنفسنا بأننا مسؤولين عن تقديم المساعدة في مثل هذا العمل المفيد، فتدبرنا جمع وتدوين بعض الأحكام من نظام الأب المقدس بندكت، وكذلك من المجامع المقدسة، والمراسيم الشرعية، وكذلك من أحكام رعاة الرهبان التابعين لطائفة بندكت المذكور، التي إذا ما تولوا رعايتها سوف تخدم في مساعدة ديانتنا المقدسة والدفاع عنها».

الذين يجري قبولهم في الطوائف الدينية

«ورسمنا في المقام الأول، أنه من الآن فصاعداً، لن يجري قبول أي واحد للقيام باحترافه وتكريس نفسه للرهبانية، قبل إكماله سن العشرين، ولا لإختبار التأهيل قبل إكماله التاسعة عشرة من عمره».

عند انتهاء سنة اختبار التأهيل يبدأ التكريس للرهبانية

وكذلك كل من جرى قبوله لاختبار التأهيل، سوف، فور انتهاء سنة اختبار التأهيل، يقوم بأعمال التكريس للرهبانية، أو سوف يغادر الدير، وخلافاً لهذا، إن كل راعي دير، أو رئيس للرهبان سوف يحتفظ بأي واحد بعد عام من دون القيام بالتكريس للرهبنة، سوف يتلقى عقوبة حادة، من قبل رؤساء الهيئة الكهنوتية، ومع هذا سوف يعدّ المترهبين مرغماً على عمل التكريس، ولسوف يعدّ وكأنه مكرس للرهبنة».

لا يجوز قبول أحد شرطياً أو مقابل دفع

«وكذلك لا يجوز استخراج أي مال من أي واحد يرغب بدخول الدير، والذين يقبلون سوف يجري قبولهم فقط من أجل الرب، ومن دون أي التزام، ومع ذلك، إذا ما جرى تقديم أي شيء مجانياً، من دون أي إلزام، أو استخراج، أو ضريبة، من الممكن قبول ذلك من دون ملامة».

لا يجوز لأحد أن تكون لديه أية ممتلكات خاصة به أو ذاتية

«وكذلك، إنه من الآن فصاعداً، لا يجوز لأي راهب أن يستحوذ أي شيء خاص به، وإذا ما كان لديه أي شيء يتوجب عليه، على الفور التخلي عنه إلى رئيسه».

لا يجوز لأي واحد السكنى وحده في عزبة أو كنيسة

«وكذلك، لا يجوز من الآن فصاعداً، لأي راهب الاقدام على تسلم

أية عزبة من رئيسه، أو أية ممتلكات أخرى، للضمان، وإذا فعل ذلك سوف يعدّ ممتلكاً، وبالتالي سوف يعاقب، وكذلك لا يجوز للرهبان السكنى في العزب، ولا حتى في الكنائس، ما لم يكن هناك أكثر من واحد، أو على الأقل اثنين».

على المطيعين تقديم حساب عن إداراتهم

«وسوف كذلك يجري تعيين المستقيمين، والرجال الموثوقين في بعض المناصب، وعلى هؤلاء أن يقدموا ثلاث مرات في العام حساباً صحيحاً عن إداراتهم ومناصبهم، إلى رئيسهم، وذلك بحضور بعض الشيوخ، وعند ذلك إن كل ما يزيد يمكنهم أخذه، مهما تضمن، سواء أكان مالاً أو أية مقتنيات أخرى، إنهم سوف يأخذونها من دون مناقشة أو خلاف، وأن يضعوا جانباً كل غش، ثم أن يتخلوا عن ذلك إلى رئيسهم أو يعهدون به إليه، وكل من يتصرف على عكس هذا، سوف ينال العقوبة لكونه ممتلكاً».

ومثل هذا على رئيس الرهبان تقديم حساب

«وعلى راعي الرهبان أيضاً، أو رئيس الرهبان، في حال عدم وجود راعي، أن يقدم حساباً وافياً، على الأقل مرة واحدة في السنة، حول وضع دير، وحول إدارته للمجمع الرهباني، أو أن يقوم بذلك بعض الشيوخ الذين جرى تفويضهم وإنابتهم من قبل المجمع الديري لهذه الغاية».

من المتوجب التفوه بقرار الحرمان الكنسي

ضدّ الممتلكين بشكل علني

«ونحن نرسم أيضاً، أنه يتوجب على الرؤساء المشرفين، أن يتفوهوا على الأقل مرة واحدة في العام، بشكل علني بحكم الحرمان الكنسي

ضد الممتلكين، أو معاقبتهم بطرق أخرى إذا لم يثوبوا إلى رشدهم، وبشكل رئيسي بعار عدم الدفن».

وجوب الالتزام بالصمت وفقاً للأمر

«ونحن نرسم أيضاً، أنه وفقاً للنظام، تتوجب مراعاة الصمت، في بعض الأماكن المخصصة، والأوقات، والساعات المحددة، وعلى الجميع أن يسعوا لمعرفة الشارات الضرورية».

تحريم أكل اللحوم

«وبالاضافة، إلى هذه الأشياء، إنه فيما يتعلق بأكل اللحوم، قد جرى تحريمها على رهبان الطائفة السوداء، بموجب أحكام نظام القديس بندكت، وحكمنا، وكذلك حكم الهيئة العامة للرهبانية برئاسة رعاة الديرة في انكلترا، ونحن في سبيل إزالة جميع مناسبات وقضايا الشكوى من بين هؤلاء الرهبان الذين اعتادوا فيها على إثارة الفوضى من أجل أكل اللحم، نأمر الرعاة والرؤساء بشراء — حسب إمكانيات بيتهم — وتزويد الرهبان، ببعض المواد الغذائية المناسبة عوضاً عما هو محرم عليهم».

وجوب تقديم ملابس مناسبة وكافية

«قرار بوجوب امتلاك الرهبان ملابس مناسبة وكافية، لكل من أجسادهم وأسرتهم، وأن يزودوا بذلك وفقاً لنظام البيت وإمكاناته، لكن لا يجوز لهم ارتداء قمصان من الكتان، أو أغطية رأس».

على الرهبان النوم مع بعضهم

«ويتوجب كذلك نوم الرهبان مع بعضهم، وأن يمتلكوا أسرة وفقاً للنظام، ولا يجوز أن يكون مهجع نومهم من دون ضوء».

وجوب مراعاة الضيافة

«نحن نأمر ونرسم، بوجوب مراعاة الضيافة، من قبل كل من الرؤساء، ومن الذين هم أدنى منهم، وفقاً لقداسة النظام ولإمكانات المكان، وأن يكون ذلك مصحوباً مع كل الإحسان والسرور، وأن يجري دوماً ندب راهب لطيف وأديب من أجل هذه الغاية، ونحن نرسم أيضاً بوجوب مراعاة الشيء نفسه نحو الرهبان المرضى».

على الرهبان جميعاً الحضور أثناء القداسات الكبرى والصغرى

«وكذلك يتوجب على الجميع أن يكونوا حضوراً في ساعات القداسات الدينية، لاسيما أثناء القداسات الصغرى والكبرى، ما لم يمتلك أحدهم عذراً جيداً للتغيب، بأن يكون مشغولاً مع ضيوف، أو بموجب إذن خاص من رئيسه، حيث يعدّ ذلك سبباً موجباً للغياب».

وجوب تجنب الاسراف

«ويتوجب على الأساقفة السعي لتحديد عدد خيولهم ومرافقيهم بقدر ما يستطيعون».

وجوب تدوين الأحكام وفقاً للنظام

«ونحن نرسم أيضاً، أن يتدبر رعاة الديرة ورؤساء الرهبان يومياً تدوين — وفقاً للنظام — مراسيم الأخبار الأعظميين، ولاسيما التي تشير بشكل خاص إليهم وإلى طائفتهم، والواردة في مجموع صاحب القداسة البابا غريغوري التاسع، والتي كتبت تحت العناوين الواردة أدناه وهي: «حول المدنيين الذين على وشك الدخول إلى البيوت الدينية» الخ، «حول دورك» الخ، «خشية الدين» الخ، «حول أوضاع الرهبان» الخ، «في كل منطقة» الخ، «الأشياء التي من أجل كرامة الدين» الخ، «حول السيمونية — أي حول التلوث بالسيمونية» الخ،

«حول قرار الحرمان الكنسي» الخ، «الجسد كله» الخ، «حول التحليل من هذه الأشياء كلها» الخ، «حول الراهبات» الخ، «حول الثبات— أي التأكد» الخ، «حول المدفوعات» الخ، «حول أي شيء كان».

الأشياء التي يجري بالغالب تكرارها

«ونحن نفرض أيضاً بكل دقة على جميع رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، أن يقوموا بدراسة الأحكام المتقدم ذكرها أعلاه وتعلمها، وهي أحكام نظام القديس بندكت، والمراسيم والنظم التي كتبت أعلاه، وأن يحتفظوا بهم دوماً على مقربة منهم، وأن يجعلوا شغلهم الشاغل ألا تكون هذه الموضوعات غير معروفة من قبلهم».

قراءة ماورد أعلاه مرة واحدة في اليوم

«ونحن نرسم أيضاً، ونأمر بمراعاة مايلي بكل دقة، وهو قراءة النظام الذي تقدم ذكره أعلاه، والمراسيم، مرة واحدة في كل يوم، في ساعة موائمة، في الدير بحضور جميع الرهبان، وأن يجري شرحهم إلى الذين لا يفهمونهم».

قانون البابا أونوريوس الثالث المتعلق

بالذين يدخلون البيوت الدينية

«لقد تقرر من جهتك مايلي، الخ: من أونوريوس الثالث إلى أسقف أريزو Arezzo: من المعروف ان هناك بعضاً، مع أنهم ارتدوا منذ سنين طويلة ثياب الرهبان، هم لم يقوموا بالتكريس المطلوب ليكونوا رهباناً، ولذلك عندما يجري اتهامهم من قبلكم، أو من قبل آخرين، بأن لديهم ممتلكات، وأنهم يعيشون بشكل نظامي، هم لا ينجلون من القول بأنهم غير ملزمين، أو غير متعهدين في أن يكونوا من دون ممتلكات خاصة، وفي سبيل الامتناع عن الشهوات، والأحكام الانتظامية

الأخرى، إنه ليس الرداء الرهباني هو الذي يعمل الراهب، بل التكريس النظامي، الخ، الخ، ولذلك إننا نأمر أخوتكم، بموجب الروادع الكنسية، أن ترغموا الخاضعين إليكم بموجب القانون الأسقفي، والذين يتجرأون على دخول الأرض بطريقتين، وفق المنهج الذي تقدم ذكره، أن يقوموا بتكريسهم الرهباني المطلوب، وأن يراعوا النظام، وفقاً لأشكال الطائفة، وذلك بعد ارتدائهم للباس الرهباني لمدة سنة واحدة.

مرسوم البابا غريغوري التاسع حول الأمر نفسه

«نحن نرسم، بأن المترهبين في أيام اختبارهم، وقبل ارتدائهم لرداء الرهبة، الذي يعطى بالعادة إلى الذين عملوا تكريسهم المطلوب، هم أحرار في أن يغادروا ويعودوا إلى أوضاعهم المتقدمة، وذلك خلال سنة، اللهم مالم يظهر بشكل واضح بأن مثل هؤلاء الأشخاص قد اتخذوا قرارهم بشكل حاسم بتغيير طريقتهم في الحياة، وأن يخدموا الرب في تكريس تقوي مستمر، الذي معه يمكن أن يكون مفيداً التخلي عن ذلك الذي معروف أنه أضيف على فضائله الخاصة، ومع هذا نحن نرسم — في سبيل إزالة كل شك — بما أن أردية المترهبين، في بعض البيوت الدينية لا يمكن تمييزها عن أردية المكرسين، ينبغي أن تجري مباركة الملابس التي تعطى إلى المكرسين وقت التكريس، وبذلك يمكن تمييز ألبسة المترهبين عن ألبسة المكرسين».

المزيد حول الموضوع نفسه

«خشية من أن يتعرض بعض رجال الدين في بعض المناسبات إلى السفر، ومن ثم الحصول على بعض الأذى بالنسبة لصحتهم، وأن تجري المطالبة بدمائهم على أيدي رؤسائهم، نحن نرسم، بأنه يتوجب على الرؤساء، أثناء شغلهم لمنصب رئيس الهيئة الرهبانية، وذلك تماشياً مع قانون المجمع العام، سواء أكانوا آباء، أو رعاة ديرة، أو رؤساء كهنة،

البحث بدقة كل سنة عن الرهبان الذين هربوا، أو الذين طردوا من طائفتهم، وإذا ما أمكن فيما بعد استقبالهم وفقاً للنظام القائم، أن يجري استقبالهم في ديرتهم، وأن يتم بموجب الروادع اللاهوتية إرغام رعاة ديرهم أو رؤساء رهبانياتهم، على استقبالهم، وذلك وفقاً لنظام الطائفة، لكن إذا كانت الطائفة لاتسمح بفعل ذلك، على الرئيس المذكور، القيام بموجب سلطاتنا، تأمين عزلهم في ديرة تابعة للطائفة نفسها، وفي أماكن مناسبة، على شرط أن يعمل ذلك من دون أي فضائح، وينبغي تأمين الضرورات المعاشية، وتزويد مثل هؤلاء الأشخاص بها في البيوت الدينية الأخرى للطائفة نفسها، ليقوموا هناك بالتوبة، لكنهم إذا وجدوا عدم طاعة من أي نوع، سوف يتولون حرمانهم كنسياً، وسوف يعلن عنهم أمام الملاك ويشهر بهم على أنهم محرومين كنسياً، من قبل رؤساء الكنائس، حتى يعودوا بكل تواضع لدى استدعائهم».

وضع الرهبان

«لن يجري قبول الرهبان في الديرة بوساطة دفع المال، كما لن يكون لديهم أية ممتلكات خاصة بهم، وسوف لن يجري توزيعهم واحداً واحداً فيما بين الكنائس في البلدان المختلفة، وفي القرى، حتى لا يكونوا هم أنفسهم بين المدنيين، لانتظار الصراع من الأعداء الروحيين، لأن سليمان قد قال: «ويل له، الذي يكون وحيداً عندما يقع، لأنه ليس لديه آخر ليساعده على القيام»، وإذا ما قام أي واحد لدى سؤاله، فأعطى أي شيء في سبيل القبول، إنه سوف لن يرتفع إلى الطوائف المقدسة، وسوف يجري تعليق المتسلم وإيقافه عن عمله، وكل من سوف يبقى أي شيء لنفسه، ما لم يكن قد سمح له من قبل راعي الدير، من أجل بعض الخدمات المفروضة عليه، سوف ينقل مبعداً عن المشاركة بقداس العشاء الرباني عند المذبح، وإذا ما وجد أي انسان، في لحظته الأخيرة، مع أي ممتلكات خاصة، ولم يقيم بالتوبة بشكل موثم، سوف لن تعمل أية

تقدمة إليه، كما أنه لن يتلقى دفناً بين جميع الطوائف الدينية، وليعلم راعي الدير الذي سوف لن يحترس بعناية ضد هذه الذنوب، بأنه سوف ينال الحرمان من منصبه، كما أنه لا يجوز إعطاء رئاسات الرهبان أو المناصب، إلى أي واحد مقابل الدفع، وإذا حدث ذلك، فإن كلا من المعطي والمتسلم سوف يجري طردهم من مناصبهم، أما بالنسبة لرؤساء الرهبان، فإنهم بعد تعيينهم بشكل قانوني في كنائس ديرية، بوساطة الانتخاب من قبل هيئاتهم الرهبانية، لن يجري تغييرهم، إلا لسبب واضح ومعقول، مثل التخريب، أو الفسوق أو شيئاً من هذا القبيل يبدو أنها تؤهل للعزل، أو أيضاً إذا جرى نقلهم بناء على نصيحة رهبانهم إلى منصب أعلى».

المزيد حول الموضوع نفسه

«ونحن نمنع من الآن فصاعداً، بكل دقة، أيّاً من الرهبان، من ارتداء قمصان كتانية، كما اننا نحرم أيضاً على أي من الرهبان، بحكم فضيلة طاعتهم، وتحت تهديد الحساب اللاهوتي من امتلاك أية مقتنيات بأية طريقة من الطرق، وعلى الذي لديه أي شيء خاص به، التخلي عنه على الفور، وإذا ما وجد فيما بعد، لديه أية ممتلكات خاصة، وكان ذلك بعد تسليمه انذاراً نظامياً، سوف يطرد من الدير، كما لن يسمح له ثانية بالقبول به، ما لم يكن قد قام بالتكفير، وفقاً لأنظمة الدير، وإذا ما جرى اكتشاف وجود أية مقتنيات، عند موت أي واحد، سوف يجري دفنها معه، في كومة من القاذورات، وذلك وفقاً لما قاله المبارك غريغوري وفعله، وبناء عليه إن أي شيء سوف يجري إرساله إلى أي واحد، بشكل خاص، يتوجب عليه عدم التجرؤ على استلامه، بل عليه تسليمه إلى راعي ديريه أو إلى رئيس رهبانته، ويتوجب الالتزام بصمت مستمر في القلاية، وفي المطعم، وفي مهجع النوم، وفي الدير في بعض الأوقات، وفي بعض الأماكن، وذلك وفقاً للعادة القديمة للدير، ولا يجوز لأحد

أن يأكل لحماً في المطعم، ولا في المناسبات العامة الوقورة، حسبما كانت العادة أحياناً في الدير، ولكن على الراهب أن يترك قليلاً في المطعم، وأن يخرج مع الراهب ليأكل لحماً في الخارج، لأنه في هذه الأيام تتوجب مراعاة نظام خاص بدقة أعظم، ومع ذلك على الرهبان أن لا يعتقدوا أنه مسموح لهم بأكل اللحم خارج المطعم، ما لم يكن ذلك في مأوى المرضى، مع أنه يمكن أحياناً لراعي الدير، عن طريق الرعاية، أن يدعو بعض الرهبان إليه، أحياناً واحداً، وأحياناً واحداً آخر، ليقدم لهم وجبة خاصة في غرفته، بالإضافة إلى هذا يمكن للرهبان المرضى والضعفاء الذين يحتاجون للتقوية، أو لبعض الأدوية، أن يتسلموا كمية مناسبة، مما هو ضروري لهم، من كل من اللحم ومن الأشياء الأخرى، وإذا كان أحدهم ناقهاً، أو حتى ضعيفاً، ولا يمكن أن يكتفي بالطعام العام، ينبغي تدبر ذلك له هكذا، من دون فضائح بالنسبة للآخرين، أي إذا مارغب راعي الدير أو رئيس الرهبان، أن يقدم له معروفاً خاصاً في المطعم، يمكنه أن يتدبر تقديم كمية كافية من الطعام أو جلبها له، لكن ليس أمام الناس المرضى، بل أمامه نفسه، ومن ذلك يمكن للرجل المريض أن يأخذ كمية صغيرة ليدعم الطبيعة، ويتوجب تعيين مثل هؤلاء الأشخاص لتأدية واجبات الدير بشكل مخلص وأمين، وما من منصب، يجوز أن يعهد به إلى أي واحد، ليحتفظ به إلى الأبد، أي كأنه عين له مدى الحياة، لكن عندما يتوجب عزله، هو سوف يعزل من دون أية معارضة مهما كان نوعها، وسوف يكون رئيس الرهبان هو التالي لراعي الدير، وينبغي أن يكون فوق البقية، مؤثراً في أعماله وفي كلامه، وبذلك يمكن بمثل حياته، وبكلام عقيدته، أن يكون قادراً على توجيه رهبانه نحو ما هو خير، وأن يبعدهم عما هو شر، وأن تتوفر لديه الغيرة على الدين، وفقاً لمعارفه، وذلك حتى يتمكن من تقديم الرعاية اللطيفة، وأن يعتني بنيل طاعة مريجة، وراعي الدير هو الذي على الجميع إطاعته في جميع القضايا، ويتوجب أن يكون دوماً — بقدر ما هو ممكن — مع

رهبانه في الدير، وأن تكون لديه رعاية يقظة، واهتمام متواصل بشأن جميع الرهبان، حتى يتمكن أن يقدم إلى الرب حساباً صحيحاً عن المنصب الذي أسند إليه، ولكن إنه إذا ما سيكون خائناً لطائفته، أو مستخفاً بها، أو مهملاً، أو مبدداً، عليه أن يعرف بشكل مؤكد، أنه لن يخلع فقط من منصبه، بل إنه سوف يعاقب بطريقة أخرى، وفقاً لذنبيه، وكأن ذلك ليس ذنبه الخاص، بل ذنب الآخرين، فهو سوف يكون مطلوباً على يديه، ولا يجوز لأي راعي دير أن يفكر بأن بإمكانه إعطاء أي راهب ترخيصاً بامتلاك مقتنيات، لأن التخلي عن المقتنيات، والمحافظة على الإحسان أمران مرتبطان تماماً مع الأنظمة الرهبانية، ذلك أنه حتى الحبر الأعظم لا يمكنه أن يمنحه ترخيصاً في هذه القضايا».

المزيد حول الموضوع نفسه

سوف يكون في كل مملكة، أو مقاطعة — كل ثلاث سنوات — باستثناء امتياز أساقفة الأبرشيات — اجتماع عام للهيئة العامة لرعاة الديرة ولرؤساء الرهبان، الذين ليس لديهم رعاية ديرة مرتبطون بهم، والذين غير معتادين على عقد مثل هذه الهيئات، حيث يتوجب أن يجتمع فيها جميع الذين ليس لديهم معيقات قانونية، في واحد من الديرة يكون مناسباً لهذه الغاية، مع التحذير التالي الذي يقضي بأن لا يجلب أي واحد منهم معه أكثر من ست عربات وثمانية أشخاص، وعليهم أيضاً لدى شروعاتهم بهذه المسألة الجديدة، استدعاء اثنين من رعاية الديرة المجاورين من طائفة السسترشيان، لإعطائهم فرصة للنصيحة، ومساعدة، بحكم أنهم، منذ زمن بعيد معتادين، ولديهم معارف أفضل في عقد هيئات من هذا النوع، ودعواهم يوحدوا مع أنفسهم أي اثنين يرون أنهما موثوقين، وليقم هؤلاء الأربعة بالترؤس على الهيئة كلها، وبذلك لا يمكن لأي واحد منهم أن يدعي لنفسه الرئاسة الأسقفية، وعندما يكون موثوقاً، من الممكن عمل تغيير، بعد تداول وتفكير دقيق،

ويتوجب عقد اجتماع هذه الهيئة الرهبانية يومياً، لمدة عدة أيام، وفقاً لعادة طائفة الرهبان السسترشيان، ويتوجب الدخول في الاجتماع المذكور للهيئة الرهبانية بمناقشات دقيقة حول إصلاح الطائفة، والمراعاة المنتظمة للنظم، وكل مايجري تقريره مع التعاون مع هؤلاء الأربعة، سوف تجري مراعاته من دون أي تحفظ، أو معارضة، أو مرافعة استثناف، لكن مع تقرير موعد عقد اجتماع الهيئة الرهبانية في الحقة المقبلة، والذين سوف يجتمعون هناك، سوف يعيشون مع بعضهم، وسوف يتوازعون فيما بينهم المشاركة بالنفقات بشكل عام، ولكن إذا لم يكن بإمكان الجميع العيش في البيت نفسه يمكن لعدد منهم العيش مع بعضهم في بيوت متنوعة، وسوف يجري أيضاً في هذا الاجتماع للهيئة الرهبانية تعيين أشخاص دينيين وواعين، عوضاً عنا، ووفقاً لنظام جرى تعيينه من قبل لهم، للقيام بزيارات تفقدية لكل رعية في المملكة المذكورة أو في المقاطعة، ليس فقط للرهبان، بل للراهبات أيضاً، حيث يقومون بتقويم وإصلاح، كل مايعتقدون أنه يحتاج إلى الإصلاح والتقويم، وإذا ما وجدوا أن القسيس في أي مكان ينبغي عزله كلياً من منصبه، عليهم القيام على الفور إعلام أسقفهم بقرارهم بعزله، وبذلك يقوم هذا الأخير بادخال العزل حيز التنفيذ، وإذا ماتقاعس الأسقف ولم ينفذ، على الزوار التفقدين رفع القضية إلى الكرسي الرسولي، ونحن نقضي ونأمر، أن على جميع الكهنة النظاميين —تبعاً لطوائفهم— مراعاة هذا النظام نفسه، وإذا ماانبعثت في هذه المسألة الجديدة، أية مصاعب، من غير الممكن إزالتها من قبل الأشخاص المتقدم ذكرهم، يتوجب إحالتها، من دون أي أذى، إلى الكرسي الرسولي، حتى يجري حلها، وبالنسبة لجميع الأشياء الأخرى، التي من الممكن الاتفاق حولها بشكل اجماعي، من المتوجب مراعاتها من دون موارد، وزيادة على هذا، يتوجب على أساقفة الأبرشيات السعي لإصلاح الديرة الخاضعة لهم، من أجل أنه عندما يصل الزوار التفقديون، يمكنهم أن يجدوا أنهم

يستحقون المزيد من الثناء، وليس التقويم، وعليهم أيضاً الاحتراز بالعناية الأعظم، حتى لايجري تحميل الأديرة المذكورة، واثقالها بحمولات غير مستحقة، لأننا نرغب بمراعاة امتيازات الرؤساء بقدر عدم رغبتنا في أن يتعرض الأدنى مرتبة للأذى، وبالإضافة إلى هذه الأشياء، تقضي إرادتنا أن يقوم أساقفة الأبرشيات وكذلك الأشخاص الذين يترأسون على اجتماعات الهيئات المذكورة، بأن يلقوا جانباً جميع مرافعات الاستئناف، وأن يمنعوا جميع المحامين، والنصرأء، والقسس من خارج الأبرشيات، والكونتات، والنبلاء، والفرسان، وجميع الآخرين، من الإقدام على انزال الأذى بالديرة سواء في الأشخاص أو في المقتنيات، وإذا صدف وألحقوا بهم الأذى شخصياً، لإرغامهم من دون تقاعس على عمل التكفير، وذلك من أجل أن يتمكنوا من عبادة الرب بحرية أكبر، وهدوء أعظم».

المزيد حول الموضوع نفسه

«هذه أشياء هي من أجل كرامة الدين، النخ، النخ: علاوة على ذلك، بعدما يكون قد جرى تعيين الزوار التفقيدين، وفقاً لقانون المجمع العام، من قبل الهيئة العامة لرعاة الديرة، عليهم الاقلاع للعمل على شغل مناصبهم كزوار تفقيدين، وهنا يتوجب عليهم البحث بكل عناية في أوضاع الرهبان، وفي مدى التزامهم بالأنظمة، ومن ثم تقويم وإصلاح كل مايعتقدون من المتوجب إصلاحه وتقويمه، سواء في المسائل الروحية أو المسائل الدنيوية، بشكل حكيم، بحيث يجعلون الرهبان المذنبين يجري تقويمهم من قبل راعي المكان، وأن تفرض عليهم العقوبة المدنية وفقاً لنظام القديس بندكت، وأنظمة المؤسسة الرسولية، وليس وفقاً لأنظمة العادات الشريرة، التي نمت حتى عدت بمثابة شريعة في بعض الكنائس، ويتوجب على هؤلاء الزوار التفقيدين، أن يضرّبوا، بالنيابة عنا بأنظمة المعاقبات والروادع الرهبان الذين

يجدونهم متمردين وعصاة، وذلك وفقاً لدرجة ذنوبهم، وذلك دونما تقدير للأشخاص، وأن لا يوفرُوا الأشخاص العصاة على أساس العلاقات والقربات، أو قوة أصدقائهم، بل سوف «يلقون بالشاة المريضة خارج القطيع، حتى لاتعدي الشياه الصحيحة»، وإذا ماتين أن الرعاية أثناء تنفيذهم للعقوبات، وفقاً لأوامر الزوار التفقيدين، وللقوانين المرعية، مهملين، إما في أنفسهم، أو بالنسبة للرهبان، سوف يعلن عنهم، ويعتقلون ومن ثم يعاقبون لدى الاجتماع العام للهيئة، حتى تأتي عقوبتهم بمثابة مثل رادع للآخرين، وإذا ما وجد راعي دير، هو ليس معفياً، من قبل الزوار التفقيدين، مهملاً، ومتغافلاً، عليهم القيام من دون تأخير، بشجبه، وإبلاغ ذلك إلى أسقف المكان نفسه، حتى يتولى تعيين معاون لذلك الراعي يكون مستقيماً وحريصاً، حتى يجري عقد اجتماع الهيئة العامة، وإذا كان مخرباً، أو يستحق العزل لسبب من الأسباب، يتوجب بعد اخبار الأسقف عنه، عزله من منصب حكم رعية الدير، ومن الدير من دون هياج أو محاكمة، وأن يتولى في الوقت نفسه مدير موائم تسيير الشؤون الدنيوية للدير، حتى يجري تزويده براعي، لكن إذا مرفض الأسقف أو أهمل تنفيذ هذه الأوامر، يتوجب على الزوار التفقيدين، أو على رئاسة الهيئة الرهبانية العامة، عدم التراخي عن الإعلان عن هذا التقاعس الذي قام به الأسقف، وإعلام الكرسي الرسولي به.

ونحن نأمر بعمل هذه الأشياء نفسها في مسألة إعفاء رعاة ديرة، بعدم عزلهم من قبل الزوار التفقيدين، أو من قبل رؤساء الهيئة الرهبانية العامة، محتفظين بعزلهم، للعرض أمام الكرسي الرسولي، وبناء عليه إذا ظهر أن أي راعي دير يستحق النقل أو العزل، هو سوف يتعرض، إما من قبل الزوار التفقيدين، أو من قبل رؤساء الهيئة الرهبانية العامة، إلى التعليق ومن ثم التوقف عن ممارسة الأعمال الادارية لمنصبه، ويتوجب

هنا تعيين اداري موائم لبعض الوقت لشغل ذلك المنصب، وبالنسبة لأخطائهم وللأشياء الأخرى التي تبدو مهمة، وأنها ينبغي أن تعرض على الهيئة الرهبانية العامة، سوف ترسل الرئاسة رسالة إلينا بوساطة رسل مستقيمين وحذرين وعقلاء، يتم صرف نفقات سفرهم بوساطة مبلغ كاف يجري أخذه من الاسهام العام، وذلك وفقاً لإمكانات كل فئة، ويتوجب على الزوار التفقيدين الذين يقدمون فيما بعد، القيام بفحص آثار الزوار التفقيدين المتقدمين بكل دقة، وأن يرفعوا تقارير حول إهمالهم وأخطائهم إلى اجتماع الهيئة الرهبانية العامة المقبل، حتى يتلقوا بشكل معلن عقوبات موائمة، وتتوافق مع أخطائهم، وهذا الشيء نفسه نحن نأمر بمراعاته من قبل رعاة الديرة المترشحين أثناء اجتماع الهيئة الرهبانية العامة، ونحن نأمر أيضاً، بأنه لايجوز لرعاة الديرة أو لرؤساء الرهبان أن يقبلوا في أي دير من الديرة كهنة علمانيين للأوقاف الكنسية، كما أنه لايجوز للذين جرى من قبل قبولهم في الديرة السعي للدعاء لأنفسهم، والحصول على مكان، أو صوت في الهيئة الرهبانية العامة، أو في مهجع النوم، أو في المطعم، أو في القلاية، كما لايجوز لهم ممارسة اختلاط غير منطقي في تجمعات الرهبان، بل المتوجب أن يسلكوا بأنفسهم بشكل شريف، وأن يكونوا راضين بالمنافع الممنوحة إليهم، وأن يقدموا بشكل صحيح تعبداتهم الموسمية في الديرة، وعليهم أن لا يطلبوا، أو أن يغتصبوا أي شيء أكثر، سواء في مجالات الأمور الروحية أو الدنيوية في الديرة، وإذا ما وجد أي من هؤلاء مذنباً أو مسيئاً من قبل الزوار التفقيدين، سوف يجري حرمانهم من المنافع المذكورة، ويكون ذلك بوساطة الأسقف، في الديرة غير المعفية، وبوساطة الزوار التفقيدين، أو بوساطة رؤساء الهيئة الرهبانية العامة في الديرة المعفية، ونحن نأمر أيضاً بمراعاة جميع هذه الأحكام في الديرة التي ليس لها رعاة ديرة خاصين بها، بل لها رؤساء رهبان فقط، وكذلك في ديرة الراهبات، وذلك في جميع النقاط الموائمة لراعيات الديرة وللراهبات».

حول السيمونية

«وبما أن وصمة السيمونية قد لوثت بالعدوى عدداً من الرهبانيات النسائية، إلى حد أن هذه الرهبانيات نادراً ماتقبل أي راهبة من دون دفع، وسعياً منا لتلطيف هذا الشر الذي لايمتثل، والفضيحة لكل الدين، بالدعوة من أجل الفقر، نحن نمنع كلياً من عمل هذا من الآن وصاعداً، ونرسم أنه إذا ما أقدم انسان ثانية على اقتراف مثل هذه الجريمة (سواء أكان من مرتبة عليا أو دنيا) من كل من المستقبلية والراهبة المقبولة، سوف يجري طردها من الرهبانية النسائية من دون أي أمل بأن يتم قبولها ثانية، بل سوف تحتجز في مكان له أحكام أكثر دقة وأكثر قسوة، للقيام بالتوبة، أما بالنسبة للآثي جرى قبولهن من قبل على هذه الصورة، قبل هذا المرسوم الصادر عن المجمع الديني، نحن نأمر بطردهن من الرهبانيات التي جرى إدخالهن بها بشكل طائش، ومن ثم قبولهن، وأن يوضعن في بيوت أخرى تابعة للطائفة نفسها، ولكن إذا حدث أنه بسبب عددهن الكبير، من غير الممكن وضعهن بشكل موائم، في مكان آخر، من الممكن استقباهن، ومن ثم توزيعهن في الرهبانيات النسائية نفسها، لمنعهن من الجولان ثانية في العالم ومن ثم دمارهن، وبهذا تكون أماكنهن الماضية قد تبدلت، وجرى توزيعهن وتعيينهن في أماكن أدنى منزلة، وهذا نرسم بمراعاته أيضاً بالنسبة للرهبان وللتنظيمات الأخرى، ولكي لا يكون بإمكانهم تسويغ أنفسهم بإدعاء السذاجة، أو الجهل، نحن نأمر أن يقوم أساقفة الأبرشيات في كل سنة بتأمين نشر هذا بشكل مخلص وأمين، كلمة كلمة».

حول قرار الحرمان الكنسي

«في أية طريقة من الطرق يقوم فيها واحد من الرهبان، أو من الكهنة النظاميين، بضرب أحدهما الآخر في الدير، ليست هناك حاجة لهذا السبب للإرسال إلى الكرسي الرسولي، بل ينبغي اخضاع المتضاربين

للنظام تحت الاشراف العقلاني المتحفظ لراعيهم، وإذا لم تكن عقلانية الراعي غير كافية لتقرير عقوبتهم، لابد له من تلقي المساعدة من حكماء أسقفيته».

بند حول الموضوع نفسه

«لقد سمعنا السؤال الذي أثير من قبل جماعتكم، حول هل الرجل العلماني الذي يقدم على مدّ يده بالضرب بطيش لرجل دين، أو لراهب، أو لمختلس، بناء على توجيه أو أمر الرجل الذي يعمل في خدمته، هل سينال عقوبة الحرمان الكنسي، لاسيما إذا لم يكن هناك من سبب لضرب المضروب، يبدو لنا أنه — ما لم يكن قد وجّه الضربة أثناء القيام ببعض التدريبات الدورية النظامية — يتوجب على الراعي شخصياً، أن يتفوه بالحكم، أو في حال الضرورات المستعجلة، عليه أن يؤمن التفوه بالحكم من قبل أحد الرهبان، أو واحد من رجال الدين ذوي المرتبة الدنيا، ويتوجب عدم نجاة الذي أمر بالضرب للذين ضربوا، وكذلك الذين مارسوا عملية الضرب (حتى لو توفر سبب لفعل ذلك) من عقوبة الحرمان الكنسي مع الحرمان من شراكة المؤمنين، حتى يصلوا إلى الكرسي الرسولي نفسه».

حول الموضوع نفسه

«مع أن تحليل هؤلاء الذين مدّوا أيديهم بالعنف على رجال الدين، ونالوا مهانة عقوبة الحرمان الكنسي — باستثناء بعض القضايا من قبل أسلافنا — محفوظة للكرسي الرسولي، فإن بعض الواقعين تحت الحرمان الكنسي، يقومون من دون مبالاة بقرار الكنيسة، فلا يخافون من أخذ طوائف مقدسة، وغالباً ما جاء السؤال إلى الاستفتاء الرسولي، حول ماالذي ينبغي فعله بالنسبة إليهم، وبالنسبة إلى هؤلاء، نعتقد أن علينا القيام بعملية تمييز، لمعرفة هل مثل هؤلاء الناس يعرفون أنهم مقيدين بأغلال الحرمان الكنسي، أو أنهم لا يتذكرون الحقيقة التي من أجلها

وقعوا تحت حكم القرار الصادر، أو أنهم على الرغم من معرفتهم بالحقيقة، هم يجهلون الشريعة، ولا يعرفون أنهم لذلك مقيدون بها، ونحن نقدر أنهم إذا كانوا أولاً علمانيين، يتوجب عزلهم بشكل أبدي من جميع الطوائف التي تسلموها، وفي الحالات الأخرى على رؤساء الأساقفة والأساقفة أن يعرفوا أنهم لا يمتلكون السلطة بمنح التحليل من دون وصاية الكرسي الرسولي، وأن منح الغفران لمثل هؤلاء الأشخاص هو مدمر كلياً إليهم، وأن المسائل الكبرى، يتوجب أن يفهم أنها محظورة على الذين محظور عليهم بشكل واضح المسائل الصغرى فقط، وقضايا من هذا النوع من المتوجب نقلها إلى أذني الحبر الروماني، حيث منه فقط يمكن الحصول على جواب، وفقاً لصرامة القضية، أو عدالتها، وذلك حسبما تراه حكمته مناسباً، لكن إذا ما اقترف الرهبان جرائم من هذا النوع، ومع أنه قد رسم من قبل البابا الاسكندر، أن الرهبان والكهنة النظاميين، أينما ضرب أحدهم الآخر في الدير، لا يجوز إرسالهم — لهذا السبب — إلى الكرسي الرسولي، بل ينبغي إخضاعهم للنظام، بموجب حكمة الراعي وحسن تدبره، وإذا لم يكن حسن تدبر الراعي كافياً لتقرير العقوبة، يتوجب مساعدته من قبل حكمة الأسقفية، ومع أنه قد قال في مكان آخر، بأن هؤلاء الذين فرّوا من الدنيا، ولبسوا الرداء الديني في الدير، والذين اعترفوا فيما بعد، بين أشياء أخرى، بأنهم اقترفوا مثل هذا الذنب، وأنهم نتيجة لمواجهة هذه الحقيقة قد نالوا عقوبة الحرمان الكنسي، ولكن من دون اذن الحبر الروماني، لا يمكن للراعي ولا يجوز له تحليلهم، مع أنه يستطيع معاقبة المذنبين بتقويم موائم، ونحن في سبيل مصلحة الدين، ومن أجل سحب مادة المراوغة، نرغب في اظهار أكبر مراعاة لهم، ولذلك نمنح الإذن إلى أساقفتهم، في منح منفعة التحليل إلى مثل هؤلاء الأشخاص، مالم تكن ذنوبهم كبيرة، وهائلة (من ذلك مثلاً إذا أقدموا على مدّ أيديهم بعنف على أسقف أو على راعي دير، من أجل تشويه أطرافه، أو من أجل

سفك دمه) فوقتها لا يمكنهم المرور بمثل هذه الجرائم وتجاوزها من دون فضيحة، وإذا ما مدّ أي واحد من سكان الدير، يديه بعنف ضد أي رجل دين من دير آخر، من الممكن تحليله من قبل راعيه وراعي الشخص الذي تعرض للأذى، ولكن إذا ما ضرب علماني رجل دين، هو فقط (في سبيل تجنب الفضيحة) سيحصل على نعمة التحليل من خلال الكرسي الرسولي، لكن إذا —وفقاً للتمييز الذي تقدم ذكره— حدث بأن هؤلاء الأشخاص قد جرت ترقيتهم إلى الطوائف، فإن الذي يعرف أنه نال التكريس، على الرغم من نظام الكنيسة، نحن نرسم بوجوب استمرار تعليقهم عن ممارسة واجبات الطائفة التي تسلموها، أما بالنسبة للآخرين الذين إما أنهم لا يتذكرون الحقيقة، أو أنهم جاهلين بالشرعية، وهنا مقدرين الاستعمالات التي حدثت حتى الآن للديرة، يمكن لراعيهم، بعد فرض توبة نظامية عليهم، وبعد قيامهم بتنفيذها، أن يمنحهم تحليلاً، ما لم تكن الجريمة جادة وجريمة متميزة بضخامتها، أو أن الذي اقترفها قد تقدمت به السن، وصار في عمر مميز، وأنه بالتالي عندما اقترف الذنب، اقترفه من دون نسيان أو جهل، ونحن نفرض على جميع الرعاة الالتزام بكل دقة بهذا النظام، وإلا إذا ما قام أي واحد منهم بإساءة استخدام السلطة الممنوحة لهم، سوف يستحق خسارة امتيازها».

بند حول الموضوع نفسه

«وبالنسبة للراهبات، فإن اخوتكم قد سألتنا، بوساطة من تضيي عليهن منفعة التحليل، إذا ما حدث، وأقدمت إحداهن بطيش بمدّ يدها بعنف ضد واحدة أخرى، أو ضد رجل مختلس، أو ضد مختلسهن، أو حتى ضد رجال دين، وفي ردّ على سؤالكم هذا نحن نجيب، ونرسم بشكل ثابت، ونقرر، بأنه يتوجب تحليلهن من قبل الأسقف الذي يوجد ديرهن في أسقفيته. البابا انوسنت الثالث، في المجمع العام».

حول الضمانات

«إن الذي جرى تحريمه من قبل الكرسي الرسولي بالنسبة إلى بعض البيوت الدينية، نحن نرغب ونأمر بمدّه إلى الجميع، وأن تجري مراعاته من قبل كل واحد، ومن قبل الجميع، أي أنه لا يجوز لأي رجل دين، من دون إذن الأكثرية من الهيئة الرهبانية، ومن راعيه، أن يصبح ضامناً لأي واحد، أو أن يستلم مالاً كقرض من أي واحد، أكبر من المبلغ المفروض من قبل المجمع العام، وإذا كان الأمر كذلك، فإن الدير لن يكون مسؤولاً بأي حال من الأحوال، أو مرغماً على التسديد عنه، ما لم يكن واضحاً، أن المقصود من ذلك كان منفعة البيت نفسه ولصالحه، وكل من يحاول العمل معاكسة هذا القانون، أو أن يعمل ضده، سوف يكون خاضعاً لعقوبة نظامية قاسية».

حول المدفوعات

«إذا أي واحد، الخ: نحن نمنع بدقة أي واحد من الإقدام على تحميل الكنيسة المعهود بها إليه ديون آخرين، أو أن يعطي بذلك كتابة إلى أي واحد، أو أن يضع الأختام على أي شيء، يمكن به للكنيسة أن تثقل، ونحن نرسم بكل دقة، ونأمر، بأن أي واحد سوف يعمل العكس، سوف تكون الكنيسة غير ملزمة بدفع هذه الديون، وأي واحد، يمكن أن يقدم من الآن فصاعداً على معاكسة الأحكام المتقدم ذكرها، عليه أن يكون متأكداً من أنه سوف يعلق ويوقف عن إدارة المسائل الروحية».

قبول القوانين

بعد الفراغ من قراءة هذه القوانين، سمع رعاية الدير ورؤساء الرهبان المجتمعين بأن الديانة المقدسة، بعد إصلاحها على هذا الشكل، سوف تتلقى زيادة سعيدة، وبناء عليه تلقوا بتشوق، وبموافقة عامة،

هذا المنهج، وكأنه منحة أرسلت من السماء وأمروا بنشره في جميع هيئاتهم الرهبانية، وإنزال العقوبات النظامية الصارمة على جميع المتجاوزين لهذا، وتدبر كثيرون كتابة المراسيم في كتب الشهداء، من أجل أن تتم تلاوتها في بيت الهيئة الرهبانية، وفقاً لأحكام القديس بندكت، من أن يدخلوا إلى قلوب الذين سمعوه.

تضييق الحصار على بلنسية المدينة الإسبانية

وشنّ في هذا العام النبيل والمسيحي الممتاز، ملك أراغون مع حلفائه، الحرب، بنشاط متميز ضد مدينة بلنسية العظيمة، حيث جرى تضييق الحصار عليها من جميع الجهات، حتى أنها ضعفت وقاربت على الهلاك.

تكريس بعض الكنائس الفخمة

وجرى في حوالي الوقت نفسه تكريس بعض الكنائس الديرية الفخمة من قبل روبرت أسقف لنكولن، في مارش Marsh في أسقفية لنكولن، وكان ذلك في: رامسي Ramesy وبورغ Burg [بيتر بورا Peter borough] وسوتري Sautery وجرى تكريس كنيسة رامسي في ٢٢- أيلول، وكان ذلك يوم عيد القديس موريس ورفاقه، وكنيسة بورغ في ٢٨- أيلول، وكنيسة سوتري في الأسبوع نفسه، وكنائس أخرى كثيرة في جميع أرجاء انكلترا، وفقاً للمؤسسات والأحكام التي نشرت في لندن من قبل النائب البابوي أوتو.

بلدوين امبراطور القسطنطينية يزحف في بلاد الإغريق

مع قوة مسلحة

وانطلق في هذه الآونة الامبراطور بلدوين، امبراطور القسطنطينية،

يريد المقاطعات الاغريقية مع قوة كبيرة، واستهدف اخضاع الذين ثاروا ضده شخصياً، وضد الكنيسة الرومانية، تحيط به قوة كبيرة، وذلك بقدر ما أمكن لحلفائه وأقربائه أن يمدّوه به، وفي سبيل تزويد خزينته بالمال، باع أكثر آثاره قيمة إلى الملك الفرنسي، ورهن بعض أكثر مقتنياته ثمناً، لأنه (كما تقدم الذكر أعلاه) قد جاء من النبالة الفرنسية، وقام البابا، في سبيل ازعاج منافسه واغضابه، أي الامبراطور فردريك، فقدم إليه يد المساعدة، بقدر ما أوتي من قوة.

ولادة ولد ذكر لسيمون دي مونتفورت

ومع مقدم العام الجديد، عندما كان أ. A أسقف شيلستر يسير متوجهاً إلى لندن بناء على استدعاء من الملك، ولد الابن الأكبر لسيمون دي مونتفورت من إيلانور زوجته في نيلوورث، وذلك ليزيد من قوة المملكة وسعادتها، لأنه كان يخشى بأن تكون الملكة عاقراً، وبناء عليه، ولكي يزيد الأسقف من مكانته شخصياً لدى الملك، أقام هناك بعض الوقت، وقام بتعميد الطفل، وحمل في اليوم نفسه إلى فراشه، لأنه هوجم من قبل مرض شديد، وأوصله إلى حافة الموت.

رئيس أساقفة أنطاكية يدعي التفوق على الحبر الروماني

وفي العام نفسه، قام رئيس أساقفة أنطاكية (مع موافقة جرمان، رئيس أساقفة القسطنطينية، والمحامي عن الاغريق، ونائب البابا المضاد) فأقدم بطيش وعنف واندفع بوقاحة كبيرة، وأوصلته إلى حد أنه أعلن من خلال سلطات فارغة عن الحرمان الكنسي للبابا، مع جميع الكنيسة الرومانية وبلاطها، وبشر بوقار بالتجديف، ووضع نفسه وكنيسته أمام قداسة البابا والكنيسة الرومانية، في مجالي العمر والرتبة، أي أن كنيسته كانت متفوقة على الكنيسة الرومانية، لأن القديس بطرس قد تولى في المقام الأول حكم كنيسة أنطاكية لمدة سبعة أعوام مع التشريف الأعظم،

لأنه قد استقبل هناك بأعظم احترام ممكن، ومثل ذلك جرى تنويجه بشكل مشرف، لكنه تعرض في روما للمضايقة الشديدة، وأوذى مراراً، ووجه إليه اللوم، وأخيراً بعدما عانى وتألم مع تابعه الرسول بولص، في أيام الامبراطور نيرون، أنهى تعذيبه بموت مرعب، وبناء عليه الاستحقاق جدير بالمدينة والمقاطعة مع أهلها وسكانها، الذين كانوا الأعز والأكثر محبة لدى القديس بطرس، وبالذين أظهروا نحوه الاحترام، وليس للذين أنزلوا به العذاب، وأهانوه، وهكذا كان من الواضح أنه أضفى بكرم منه سلطة الربط والحل على الكنيسة الاغريقية، وليس على كنيسة روما، التي تلطخت الآن بوصمة السيمونية، والربا، والشر، وذنباً أخرى كثيرة.

وبوساطة هذه المناقشات الخرافية وسواها، أغلق البابا المضاد المذكور مواضيع تشوهات وأخفاها، من أجل دماره، وعمل تسويغاً لذنوبه، لكن عمود الكنيسة، وهو البابا الصحيح، والخليفة لبطرس الرباني (مع أنه غير مقلد له تماماً) قد بقي ثابتاً دون أن يتحرك، واحتفظ بجميع انتقاماته حتى يوم الحساب.

فيضان للأنهار غير اعتيادي وغير طبيعي

وفي العام نفسه، تدفقت الأنهار بشدة، وفاضت فوق عدد كبير من الحقول والأراضي المستوية، وجاء ذلك بشكل غير اعتيادي وغير طبيعي، وكانت الأماكن التي غمرتها ليس فيها ماء من قبل وجافة تماماً، وازدادت فجأة، وبشكل سريع مرعب، إلى حد أن الأسماك سبحت في أرجائها، وسببت قسوة الأنواء وأمراضها سريان كثير من الأوبئة المتنوعة، وبذلك كانت قسوة الأنواء أشبه بطاعون على الأرض، وشعر شعب المنطقة مع المزارعين، وكذلك الفرسان، والنبلاء، ورجال الدين بسوط عذاب الرب هذا.

كيف أودع روبرت بيغر

وهو راهب ومحقق مع الهراطقة السجن الدائم بسبب وحشيته

وكان هناك في هذا الوقت نفسه راهب من طائفة المبشرين (الدومنيكان) اسمه روبرت بيغر Bugre وكان رجل علم وأدب، وكان قديراً وفصيحاً في عمله بالتبشير، وقد اكتشف وجود عدد كبير من الناس في مملكة فرنسا، قد تلطخوا بشرور الهراطقة، وبشكل خاص في فلاندرز، حيث بوساطة عادة قديمة، كان السكان مشهورين دوماً بشرور الربا، أكثر من أي شعوب أخرى، ولذلك غالباً ماتولى تفحص هؤلاء الناس بكل دقة بشأن إيمانهم، فوجدهم قد ابتعدوا أو بالحري ضلوا عن الطريق الصحيح، وبالتعاون مع السلاح المدني، مع عون ملك فرنسا، تدبر الراهب روبرت المذكور احراقهم، وقد تميز هؤلاء جميعاً وعرفوا باسم عام هو «البيغريين»، سواء أكانوا: بطرسيين، أو يهوديين، أو ألبينيين، أو تلوثوا بهرطقات أخرى، وكان روبرت هذا نفسه قبل أن يرتدي الرداء الرهباني من جماعة «البيغريين»، ونتيجة لهذا عرف جميع رفاقه من الطائفة نفسها، فأصبح المتهم لهم، والمطرقة، والعدو الخاص، وأساء أخيراً استخدام السلطة التي أسندت إليه، وأصبح متشاكساً، وقوياً، ومرعباً، مزج الصالح بالطالح، وعاقب الأبرياء وذوي العقول الساذجة، ولذلك منع من متابعة ممارسة غضبه، في ذلك المنصب الرهيب، ولكن بما أن جرائمه (التي أعتقد أنه من الأفضل السكوت عنها بدلاً من حكايتها) أصبحت فيما بعد واضحة أكثر، ومشهورة، أدين وحكم عليه بسجن أبدي.

كيف بهت شهرة الامبراطور فردريك

وفي خلال العام نفسه، أعتمت شهرة الامبراطور فردريك وتلطخت من قبل الأعداء الحسودين والخصوم، فقد عزي إليه أنه كان متشككاً

بالعقيدة الكاثوليكية، أو بالحرى قد ضلّ وابتعد عن الطريق القويم، وقد تفوه في بعض خطبه بما يمكن أن يستخرج منه ويشك، بأنه لم يكن فقط ضعيفاً بالإيمان الكاثوليكي، بل إن الجريمة التي كانت أعظم وأشدّ خطورة هي أنه كان فيه هرطقة كبيرة جداً، وتجديف مخيف وكفر مكروه من قبل المسيحيين كلهم وملفوظ، لأنه قد روي بأن الامبراطور فردريك قد قال (مع أنه ربما من غير الموائم ذكر ذلك) بأن ثلاثة مشعوذين، قد قادوا براءة متناهية، وضللوا معاصريهم ليحصلوا لأنفسهم على سيادة العالم، وكان هؤلاء هم:

موسى، ويسوع، ومحمد (صلى الله عليه وسلم)، وأنه قدم بشكل غير تقوي بعض الهذيان الشرير، والذي لا يمكن تصديقه مع التجديف، فيما يتعلق بالقربان الأعظم قداسة، ليكن هذا بعيداً، وليكن نائياً، عن أي رجل مستقيم، على الأقل هو مسيحي، بأن يفتح فمه ويحرك لسانه للتفوه بمثل هذا الهذيان، التجديفي، ولقد قيل أيضاً من قبل منافسيه، بأن الامبراطور وافق، لابل آمن بشريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) أكثر من إيمانه بشريعة يسوع المسيح، وأنه عمل بعض العاهرات المسلمات خليات له، وسرت اشاعة بين الناس (لاسمح الرب أن تكون صحيحة بالنسبة لمثل هذا الأمير العظيم) بأنه متحالف منذ زمن طويل مضى مع المسلمين، وأن صداقته نحوهم أعظم من صداقته مع المسيحيين، وأن خصومه الذين يسعون نحو تشويه سمعته، قد حاولوا أن يؤكدوا هذا بعدة براهين، وسواء أأذنبوا أم لا، وحده الذي هو غير جاهل بشيء يعرف.

روبرت الناسك يصبح مشهوراً

وفي العام نفسه، أصبحت أيضاً شهرة روبرت الناسك معروفة في الخارج، لأن قبره في نيربورا Knaresborough أخذ — كما قيل — يرشح زيتاً دوائياً بكميات كبيرة.

نهاية السنة

كان الشطر الأخير من هذا العام كثيف الغيوم وممطراً، واستمر ذلك حتى مضي الربيع، عندما تداعت كل الثقة بالموسم، وخلال شهرين أو أكثر من أشهر الصيف، كان المناخ جافاً إلى أبعد الحدود، وبشكل غير اعتيادي، وحاراً، ومع اقتراب الخريف أصبح المناخ رطباً، وممطراً، وبذلك استرد الموسم بشكل رائع، وأينعت نباتات جديدة مكان النباتات التي ذبلت، وكانت هناك كميات وافرة من القمح، وفي نهاية الخريف، حدث على كل حال، أن الذين أخروا قطفهم قد حرموا من مواسمهم، بسبب تساقط أمطار غزيرة متواصلة، حتى أن القش والقمح قد تعفن، وتسبب هذا الخريف غير الاعتيادي، الذي عدّ بشكل عام جافاً وبارداً بسرّيان عدة أنواع من الأمراض الخطيرة، وما من أحد قد رأى من قبل مثل كثرة الذين أصيبوا بالحمى الربعية، ويتوجب أن نوضح أيضاً، أنه في هذا العام كان حرف يوم الأحد هو ب. B وأن يوم الاستعداد كان يوم جمعة، وقد دعي يوماً مقدساً، وأن اليوم التالي قبل عيد الفصح (عند اليهود) كان يوم بشارة مولانا، وكذلك يوم آلامه، واليوم الثالث بعد الفصح الحقيقي هو يوم قيامة ربنا، لأن ربنا قام ثانية في السادس والعشرين من نيسان وتؤكد في اليوم الرابع [كذا] قبل ذلك، أي في الرابع والعشرين من نيسان، وهكذا وقع كل شيء في هذا العام في وقته الصحيح.

خلاف بين الملك وبين غيلبرت الإيرل مارشال

في سنة النعمة ١٢٣٩، التي كانت السنة الثالثة والعشرين من حكم الملك هنري الثالث، عقد الملك بلاطه في عيد الميلاد في وينكستر، مع وفرة عظيمة من التشريف الصحيح، والسخاء الكبير، لأن الكنيسة في ذلك المكان استمرت بالحصول على مايكفي وتزويد الملك به، لا بل بوافر الحاجيات من أجل جميع هذه النفقات الخاصة بالقصف والشرب،

وهذا لم يكن الملك أسفاً البتة من أجله، لأنه من أجل هذا العمل، لو كان لديه موبخ صادق، وله نفوذه، ودقيقاً، لاستحق عليه ملامة شديدة، ولولا أن أعطيات صدقاته، التي استمر يمنحها بشكل واسع وبكرم (التي كما ورد في كتاباتنا المقدسة تغطي ذنوبنا) أنقذت مثل هذه الأعمال، لسببت رعباً عظيماً له نفسه وللمملكة، وذلك بإثارة غضب الرب ضده، وعندما —على كل حال— أقيم القداس في يوم عيد الميلاد، وأكمل بشكل مهيب، وبصورة فخمة، ومن أجل أن لاتأتي بهجة هذا العالم من دون شوائب، إن عدم النظر إلى الحادثة أزعج تماماً جميع سرورهم وقصفهم وأفسده.

وعندما عمل الملك ظهوره في قصره الملكي ليتناول طعام افطاره، وصل غيلبرت، الايرل مارشال إلى الباب، مع أتباعه الفرسان، ليحصل على قبول، لكن عندما صعد نحو الباب، ورغب بالدخول، حرمه حفظة أبواب الملك والمارشالات بفجاجة من الدخول، وردوه بعصيتهم مع حاشيته بمهانة وازعاج، وعندما رأى الايرل ذلك، شعر عن قناعة بأن بعض النمامين قد زرع بذور الخلاف بينه وبين الملك، وأن هذا الذي فعل لم يكن من دون تفويض الملك، وقام هو —على كل حال— فكبت مشاعره، وعاد إلى بيته في المدينة، ثم إنه في سبيل استمرار هدوء العيد، ولكي لايفسد وئامه، دعا بوساطة صوت البوق، ليس فقط أصدقائه، بل عدداً كبيراً من الآخرين، اختارهم للاجتماع على مائدته، من أجل تناول طعام الإفطار، وفي صباح اليوم التالي، أرسل —على كل حال— بعض الرجال من ذوي المراتب العليا إلى الملك، وطلب منه أن يعلم لماذا أنزل به من دون سبب مثل هذا الأذى العظيم، مع أنه الايرل الذي كان خاضعاً باخلاص له، وهو صاحب أصل نبيل، ولاسيما في مثل ذلك اليوم، وأعلن أنه على استعداد لتبرئة نفسه بالمحاكمة، حول جميع النقاط التي أثرت ضده، وضد جميع الذين أثاروا العداوة بين مثل

هاتين الشخصيتين المشهورتين، وأجابه الملك وهو غاضب:

«من أين حصل الايرل غيلبرت على قرنيه؟ وكيف حدث أنه يهدد برفع كعبه فوقى، ضدي أنا الذي من الصعب بالنسبة له أن يرطم؟ وأخوه ايرل رتشارد الذي كان خائناً دموياً، وقد ثار ضدي وضد مملكتي، أنا جعلته سجيناً، عندما اشتبك بصراع مميت ضدي في ايرلندا، وقد جرد من ممتلكاته، ووضع في السجن وهو جريح، حتى أنهى انتقام الرب، الذي استحقه، حياته، وإلى الايرل غيلبرت هذا منحه ميراثه، بناء على الالتباسات المستمرة لادموند رئيس أساقفة كانتربري، وقد منحه ذلك كمعروف، وليس لأنه استحق ذلك البتة، مع أنني أرغب بسحبها منه».

ولدى سماع الايرل هذا، ارتعب إلى درجة كبيرة جداً، وسحب نفسه إلى المقاطعات الشمالية، لأنه الآن بدأ يعاني من غضب الملك المعلن، كما أنه بعد هذا لم يجب الملك، هو أو أخوه وولتر بعاطفة صادقة، كما فعلا من قبل، كما أنهما لم يعودا يتمتعان بالازدهار.

موت إدموند أسقف شيبستر

في يوم القديس اسطفان، أغلق ادموند، أسقف شيبستر حياته.

الملك يمنح كونتية ليستر إلى سيمون دي مونتفورت

في يوم طهارة العذراء المباركة، منح الملك كونتية ليستر إلى سيمون دي مونتفورت، وكان قبل ذلك قد استدعى أخاه الأكبر ايرل أماريك Almaric وطمأنه وأرضاه حتى لا يثير في أي وقت أي خلاف حول هذه المسألة.

استدعاء الملك ستيفن سيغريف إلى مجالسه

وفي هذه الآونة، استدعى الملك، ستيفن سيغريف إلى مجالسه.

النائب البابوي يستدعي رعاة طوائف الرهبان السود

للاجتماع في لندن

وفي الوقت نفسه، استدعى النائب البابوي جميع أساقفة انكلترا، للاجتماع في اليوم الذي يغنى فيه مزمور: «دعوا القدس تبتهج» في لندن، ليناقشوا هناك شؤون الكنيسة، وهناك أعطى بعد مداولات دقيقة، إلى رهبان الطائفة السوداء، بعض القوانين، القصيرة والمحكمة، حتى تنفذ من قبلهم من دون جدل، وقد لطف النظام الشديد لديهم، في عدد من النقاط.

إلغاء انتخابي الأسقفين المنتخبين لنورويك وشيستر

وفي الوقت نفسه جرى بتدخل من الملك (بسبب أن هدفه بانتخاب وليم الأسقف المنتخب لبلنسية لم ينجح) إلغاء انتخاب الأسقف المنتخب لنورويك، الذي كان رئيس رهبان البيت نفسه، وكان رجلاً جديراً بالاحترام، من جميع الجهات، ومستقيماً، وفعل الشيء نفسه بالنسبة لانتخاب أسقف شيستر، أي ر. R مستشار الملك، الذي طُلب ليكون أسقفاً لوينكستر، وكان رجلاً صادقاً، ومستقيماً، وكان وحده تقريباً ركيزة الصدق بين رجال البلاط.

انتخاب وليم دي ريل أسقفاً لشيستر

وفي هذه الآونة، رأى رهبان كوفنتري أن الملك استمر دوماً يعيق الكهنة النظاميين ويمنعهم من القيام بانتخابهم، وأنه لم يوافق على أي واحد جرى انتخابه من قبلهم، مالم ينل الخطوة الملكية والقبول، ولكي لاتعاني كنيستهم من خسائر لايمكن تعويضها، ومن الأذى من خلال التأخير والتأجيل المتواصل والتوقعات، قاموا في حوالي أيام عيد القديس متى، فانتخبوا بالاجماع وليم دي ريل، وكان كاهناً خاصاً لدى الملك، وكان رجلاً مستقيماً، وواحداً من البارعين في شريعة البلاد، ولقد

انتخبوه ليكون أسقفهم والراعي لأرواحهم، لأنه بدا أنه كان رجلاً غير ملطخ بأي سوء، يمكن أن يثير الرفض أو الاعتراض.

استدعاء النائب البابوي للعودة إلى الوطن لكنه بقي في انكلترا بناء على طلب الملك

وفي تلك الآونة كان صاحب القدااسة البابا، يسمع بشكل متواصل، بالبحري يومياً، ويتلقى اتصالات، بأن الفضائح التي تسبب بها الطمع الذي لا يعرف الكفاية مع شره الرومان، قد ازدادت يوماً من سيء إلى أسوأ في انكلترا، فاستدعى نائبه أوتو، وطلب منه العودة فوراً إلى روما، وبناء عليه دعا النائب البابوي أساقفة انكلترا للاجتماع في لندن، للتباحث حول عودته، وللترتيب من أجل أمان مروره، وعندما سمع الملك بهذا، بات مرعوباً كثيراً على نفسه، من الاجتماع العام الذي كان على وشك الانعقاد في ثمانية الفصح، وذلك عندما كان متوقفاً وصول أسقف بلنسية المنتخب، ووضع ثقته كلها بالنائب البابوي، لأنه كان حاضراً، ومع ذلك كان حزينا جداً وخائفاً، خشية أن يشور النبلاء والرجال ذوي المراتب في المملكة ضده باتفاق عام، بسبب تجاوزاته المتنوعة، وأعمال خروقاته المتكررة ضد القوانين التي طالما وعد وأقسم على مراعاتها والحفاظ عليها، ولذلك تقدم بالتماسات سريعة وملحة إلى النائب البابوي، حتى يرسل أكثر الرسل مواءمة، بكل سرعة ممكنة إلى البابا، لكي يبقى في انكلترا، حتى يمكن بوسائطه قمع الاضطراب الوشيك، وبقي النائب البابوي، لأنه لم يرغب في ازعاج الملك برفض طلبه.

بطرس المسلم يقدم إلى الامبراطور

مبلغاً كبيراً من المال مقابل فديته

وعرض في هذه الآونة بطرس المسلم، الذي احتجزه الامبراطور

فردريك أسيراً لديه، دفع مبلغ عشرة آلاف باوند استيرليني فدية، ولكي يحصل على خطوة الامبراطور، وبذلك يجري إطلاق سراحه ويتحرر، وكان الامبراطور قد وافق على هذا، على شرط أن يصبح صديقه ملك انكلترا، ضامناً من أجل دفع مثل هذا المبلغ الكبير من المال، وأن لا يقوم بطرس المسلم المذكور ولا أي من أتباعه، منذ ذلك الحين فصاعداً، بتسبب إلحاق الضرر بالجلالة الامبراطورية، بأي شكل من الأشكال، ثم إن بطرس المذكور كتب إلى صاحب القداسة البابا، وإلى أصدقائه الآخرين، يرجوهم، بما أنه كان دوماً على استعداد، وجاهزاً وراضياً بانفاق أمواله في سبيل رفع شأن الرومان ومصالحهم، لحث ملك انكلترا المذكور، بوساطة كل من النائب البابوي، وأصدقائه المقربين الآخرين ليتعهد باسمه شخصياً وباسم مملكته بالقبول بالشروط المذكورة.

وعندئذ صار النائب البابوي وسيطاً نشيطاً، ووكيلاً في هذا العمل، وقال بأنه لا يستطيع بشرف أن يرفض تقديم المساعدة لرسوله السجين، لكن الملك رأى أن الفخ كان منصوباً له، وعرف مقدار الخطر الذي يمكن أن يحيق بمملكته، وأن ذلك ليس من شأن الرومان، مادامت مقتنياتهم محفوظة إليهم، وانفجر متفوهاً بكلمات غاضبة، وأقسم أنه آسف لأنه تخلى عن الرجال الانكليز الأمناء، واستدعى النائب البابوي إلى انكلترا، وهو الذي بدد ثروات البلاد، ومزج الصواب مع الخطأ، وفي ظل مثل هؤلاء الحكام أصبحت انكلترا آنئذ — وبالفعل كانت كذلك — كرماء، كل من يمر على الطريق يلتقط منه عناقيد، لأنه ليس له سور يحميه ويحيط به، ولا حارس يجرسه، لأن الذي حرّمه اللاهوتيون مرة بحرارة، سمحوا به مرة أخرى.

إعطاء سردينيا إلى الامبراطور

في هذا العام، عندما كان الامبراطور يمضي الشتاء في إيطاليا، أعطيت له الجزر الغنية، الواقعة في البحر المتوسط، والمجاورة لمدينة بيزا، والتي

كانت أكبرها وأعظمها قوة جزيرة سردينيا، وتمّ التخلي له عنها، وقد قيل بأن امتياز هذه الجزيرة، كان يعود بشكل خاص إلى ميراث القديس بطرس ووقفه، لكن الامبراطور أكد أنها تعود منذ زمن قديم إلى الامبراطورية، إنما بسبب انشغالات الأباطرة، ولكثرة الضغوط الأخرى والضرورات الامبراطورية قد جرت خسارتها، وأنه قام الآن باستردادها إلى جسم الامبراطورية، وقال:

«لقد أقسمت، كما يعرف العالم تمام المعرفة، بأنني سوف أسترده الأجزاء المتفرقة من الامبراطورية، وهذا لن أكون متراخياً في انجازه»، وبناء عليه هو لم يعبأ بتحريم البابا، وبعث ابنه، لتسلم حصّة الجزيرة المتقدم ذكرها، التي منحت إليه، وعندما سمع البابا بهذا امتلاً بأعظم الغضب، ونهض للقيام بانتقام علني، لأنه عدّ فقدانها خسارة عظيمة، لأن جزيرة سردينيا — كما قيل — كانت في الحقيقة، مكان لجوء للتجار، وموضع راحة للناس الذين جنحت سفنهم، وملأذاً للمنفيين، وقد حكمت من قبل أربعة مقدمين، هم الذين أطلقوا عليهم اسم قضاة، وكانت الخسارة ثقيلة، لكن طريقة خسارتها كانت أثقل في تحملها، وقد بدت كإيذاء كبير، وظهر أن الكراهية التي تفجرت بين الامبراطور وبين البابا، كانت أشبه بجرح قديم، أنتج قضايا قدرة.

رئيس أساقفة كانتربري يرهق الرهبان

وفي هذه الآونة ألقى ادموند رئيس أساقفة كانتربري يده بثقل أكثر على رهبانه، وجرى وضع رهبان كانتربري تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، كما أن رئيس الرهبان الجديد الذين انتخبوه، قد وضعه أيضاً تحت الحرمان الكنسي، وكذلك وضع الذين انتخبوه.

خلاف بين أسقف لنكولن وبين كهنته

وأصبح أسقف لنكولن أيضاً مطرقة ومعذباً وحشياً للرجال الدينيين

في أسقفيته، لأنه ثار بدون تردد ضد الكهنة النظاميين العائدين لكنيستته الكاتدرائية، الذين أوجدوه، وطالب بكل حرارة بعزل عميد لنكولن، وأنهم ينبغي زيارتهم زيارة تفقدية من قبل الأسقف نفسه، وذلك على عكس ما كانت عليه عادة الكنيسة منذ زمن مغرق بالقدم، وتقدم الكهنة على كل حال بشكوى مستعجلة، وقاموا بعد أعمال تأخير واعاقة طويلة، وخلافات كبيرة، فأحالوا القضية إلى محكمين هم: وولتر أسقف ووركستر، ورئيس شماسة المكان نفسه، والمعلم أ. A. أوف بكل Beccles وأنهم إذا لم يقوموا بالاجراءات بشكل قانوني، جرى السماح لكل واحد من الطرفين بالترافع ثانية إلى البابا، وفي الوقت نفسه توقفت الفتان عن الزيارة، وبهذه الإضافة، أي «توقف الفريقان في الوقت نفسه عن الزيارة» كان معنى هذا أن فريق الرهبان كان في خطر، لأن الأسقف لم يزرهم قط، والذي لم يبدأ قط لا يمكن إيقافه، لأنه كما جاء بالأمثال، الذي ليس لديه قرنين، لا يمكن أن يخسر أياً منهما، ومع هذا أن يتوقف العميد عن الزيارة، الأمر الذي كان في سبيله يناضل الكهنة، قد ظهر بذلك أنه قد جرد من ممتلكاته، ولو للوقت الحالي، وبذلك ازداد الخلاف، ونشأت فضيحة كبيرة، وهكذا ثار الخلاف والصراع فيما بينهم، ووصل بذلك إلى حد إثارة مشاعر الغضب، فلم يسمح الكهنة للأسقف بالدخول إلى هيئة رهبانيتهم، أو القيام بأية زيارة تفقدية بينهم، وأعلنوا بوضوح أمام الأسقف نفسه بأنهم كانوا آسفين جداً، أنهم أوجدوا أسقفاً من مثل هذا الشخص الدنيء، ونشب خلاف كبير، وبعد قليل من الإنفاق بلا فائدة من على الجانبين، عملت مرافعة لتقديمها إلى البابا، وجرى تعيين المعلم أودو دي كنكلني Kinkelný محامياً عن الهيئة الكهنوتية، وفي أحد الأيام وقعت واقعة مذهشة:

عندما كان واحد من الكهنة المؤيدين لموقف الهيئة الكهنوتية، يعظ

الناس في بناء كنيسة لنكولن الفخم، قدّم إليهم جميعاً شكوى جادة ضد ظلم الأسقف، وتفوه بالكلمات التالية:

«نحن وإن كنا صامتين، فإن الحجارة سوف تصرخ رافعة صوتها عالياً»، وعندما تفوه بهذه الكلمات، تحطم جزء كبير من الكنيسة وتهاوى.

عواصف جديدة من المطر

ومع اقتراب الربيع، وفي حوالي أيام عيد الفصح، توقفت عواصف الريح، والأمطار الغزيرة، وذلك بعدما استمرت بشكل متواصل لمدة أربعة أشهر، عاملة الوحل على الأرض، إلى حد أن البحيرات والمستنقعات، كادت تنحق القمح، وتفسد الأجواء.

مقتلة المسلمين في إسبانيا

وفي العام نفسه، في يوم الثلاثاء بعد الفصح، عملت مذبحة كبيرة بين المسلمين في منطقة قرطبة، من قبل ملك قشتالة، أخو بلانشي، ملكة فرنسا، وأم الملك.

وفاة وليم دي كانتلوب

وفي تلك الآونة نفسها، وبالتحديد في السابع من نيسان، مات البارون الشهير، وليم دي كانتلوب Cantelupe والد أسقف ووركستر، عن عمر متقدم.

الملك يسعى لإعادة مستشاره

وفي هذه الآونة، وبالتحديد، في الأسبوع الذي أعقب عيد الفصح، أصبح الملك أسفاً، بسبب عمله غير النظامي وغير المستقيم، في انتزاعه ختمه، وإبعاده عن نفسه وعن بلاطه مستشاره، أسقف شيلستر، الذي شغل من قبل ولمدة طويلة منصبه بأمانة، وقد سعى الآن بوساطة

مختلف وسائل الجذب والوعود إلى إعادته، لكنه كان — على كل حال — يؤثر التقاعد والاعتزال، والهدوء للعناية بنفسه، والاستمرار بربحه ونجاته من خطر حمل الخاتم، ولذلك رفض الوقوع ثانية بالمصائد التي نجا منها مرة، وتذكر كيف أنه دعي وجرت تسميته لأسقفية وينكستر، وكيف أن انتخابه قد ألغى من قبل الملك، الذي كان قد خدمه لمدة طويلة بكل اخلاص، وهو أيضاً قد خدم والده في منصب آخر.

ملك اسكوتلندا يتزوج من ابنة اينغلرام دي كوسي

وفي هذه الآونة اقترن الاسكندر، ملك اسكوتلندا بابنة اينغلرام دي كوسي Engelram de coucy وكان باروناً نبيلاً من المملكة الفرنسية، وكانت فتاة جميلة اسمها مريم، وجرى الاحتفال بالعرس بشكل مهيب في روكسبورغ Roxburgh في يوم أحد الشعانين.

عدم مغادرة النائب البابوي بناء على طلب الملك

كان النائب البابوي، وكأنه على وشك المغادرة، والعودة إلى البلاط الروماني، ولذلك استأذن الملك بتواضع، وكذلك رؤساء الأساقفة، والأساقفة، وسكان لندن، في قداس أعدّه خصيصاً لهذه الغاية، وقد باع الخيول الأصيلة التي أعطيت له، بشروط جيدة، واشترى خيولاً عادية مكانهم، وأعدّ حقائبه، وهياً سرج ظهور المطايا، وكان الملك يعتقد أنه سوف يموت بغيابه، فبذل جميع الجهود التي كانت بطاقته، لاقناعه، بالمكوث ولو لمدة صغيرة أطول، ذلك أنه كان قد بعث إلى البلاط الروماني واحداً من محاميه، الذين احتفظ بكثيرين منهم (مثلما يحتفظ الصياد بكلاب الصيد) ليبقي منتخبى الأساقفة متفرقين، وكان هذا المحامي هو سيمون النورماني، وكانت مهمته الحصول من البابا على أمر إلى النائب البابوي ليظل مكوثه في انكلترا، ليتحاشى كثيراً من المخاطر

هناك، ولم يكن في هذا الرأي مخدوعاً، لأنه عندما كان جميع أثاث النائب البابوي وحقائبه قد اكتمل إعداداه، رجع سيمون النورماني، جالباً معه رسائل، حصل عليها بما يتوافق مع رغبة الملك، ولدى إطاعة النائب البابوي لمحتوياتهم غلب السرور على الملك، أما النبلاء الذين كانوا يعرفون تقلبات الملك مثل مراوغة الشعب، فقد غادروا غاضبين، دون أن يحققوا هدفهم، ومقتوا كلام الملك مثل مقتهم كلام المغالطات السوفسطائية.

انتخاب وليم دي ريل إلى أسقفية نورويك

وكان رهبان كوفنتري قد فرغوا الآن من إعداد شروط مشرفة من أجل انتخاب الأسقف مع كهنة كنيسة ليشفيلد Lichfield ووافقوا — كما ذكرنا من قبل — بالاجماع، على انتخاب وليم ريل، ليكون أسقفاً لهم، وذلك من خلال الخوف، أنهم إذا ما انتخبوا أي واحد آخر، غير محظي لدى الملك، سوف يعارضهم الملك مواجهة، وسوف يسبب لهم الاضطراب، كما هي العادة، وفي الوقت الذي بقي فيه وليم المذكور في حالة تردد، وتعليق، ومثل رجل حكيم ومجرب، يزن حوادث المستقبل بميزان العقل، رأى رهبان نورويك، أنهم قد انتظروا لوقت طويل، لأنهم لم ينتخبوا وليم المذكور، أسقفاً لأنفسهم، ذلك أنهم بهذا الانتخاب سوف لن يزعجوا الملك ولا أي واحد آخر، ولذلك اجتمعوا على الفور مع بعضهم، وانتخبوا وليم دي ريل المذكور بمثابة أسقف لأنفسهم، وعند ذلك رفض وليم المذكور الأسقفية الأخرى التي حصل عليها بالخطوة وقبل أسقفية نورويك، ذلك أنه فضّل البقاء في انكلترا مع الانكليز، على الذهاب إلى ويلز، والبقاء مع الويلزيين غير المدجنين.

تحصين برج لندن

وجرى في هذا العام تحصين برج لندن، مما جعل سكان لندن يخشون

بأن يتحول هذا لإيذائهم، ولدى تقديمهم شكوى حول هذه المسألة إلى الملك، أجاہم بأن ذلك لم يكن للإضرار بهم أو لإهانتهم، وقال:

«بل إنني سوف أسعى، من الآن فصاعداً، بإعادة بناء قلاعي، لأن أقلد إخواني، الذين أفادت عنهم التقارير، أنهم أكثر حكمة مما أنا عليه».

تزايد العدوانية والكراهية بين الامبراطور وبين البابا

وفي أيام الصوم الكبير من العام نفسه، رأى البابا المسيرة الطائشة للامبراطور، وسمع كلامه الذي سوغ به ذنوبه، حيث أنه بتقديمه الخطوة والمساعدة لبعض نبلاء سردينيا وقضاتها، استمر حتى استولى عليها، وأدخلها في حوزته، ومازال مستولياً على أرض وقلاع أسقف سردينيا، وقد أعلن باستمرار، بأنهم حصّة من الامبراطورية، وأنه يمينه الرئيسي والأول قد أعلن أنه سوف يحافظ على حقوق الامبراطورية، بقدر ما أمكنه من قوة، وأنه سوف يجمع الأجزاء المتفرقة منها، وأنه بعمله هذا قد زاد الغضب عنفاً ضده، ورفع ضده بعض الشكاوى الثقيلة والدعاوى، وغالباً ما كتب بجرأة وبدقة إليه، وكثيراً ما نصحه بوساطة عدد كبير من الرسل الخاصين، الذين كانت سلطاتهم تستوجب أن ينالوا منه، أعظم الاهتمام، وأن يقلع عن حرمان الكنيسة من ممتلكاتها، التي منحت إليها بوساطة سجلات قديمة، وتعامل معه مثل الطبيب الماهر، الذي أستخدم أحياناً الكمادات، ولجأ في وقت آخر إلى استخدام أداة الكي، ومزج التهديد مع الاقتناع، والرسائل الصديقة مع الانتقادات المرعبة، وبقي الامبراطور — على كل حال — عاصياً رافضاً لطلبه، وعلل أعماله وسوغها على حجج تأسست على المنطق، وبناء عليه قام صاحب القداسة البابا في أحد السعف، بحضور عدد كبير من الكرادلة، وفي حالة كان يغلي بها من الغضب في روحه، فحرم بشكل مهيب كنسياً الامبراطور فردريك المذكور، وكأنه كان يريد أن يخلعه من

منصبه الامبراطوري على الفور، وألصق به تهماً كثيرة، وأعلن أنه سيظل مملوكاً من قبل الشيطان حتى وفاته، وفي استخدامه لهذه الكلمات، التي كان وقعها مثل صواعق غضبه، أثار الرعب في قلوب جميع الذين سمعوه.

نص قرار الحرمان الكنسي الذي أعلن ضد الإمبراطور فردريك

«باسم الرب القدير، الأب، والابن، والروح القدس، وبوساطة سلطتي الرسولين: بطرس، وبولص، نحن نحرم كنسياً، ونحرم من شراكة المؤمنين الامبراطور فردريك المذكور، لأنه أثار عصياناً ضد الكنيسة الرومانية في المدينة، وحيث سعى لطرده الخبر الروماني وإخوانه من كرسيهم، كما قام في معاداة للإمتيازات، وللمرتبة، وللأشخاص، فداس على حرية الكرسي الرسولي، وعلى الكنيسة أيضاً، وذلك بوساطة العنف الطائش للقسم الذي ربط به هذه المسألة بالنسبة للكنيسة الرومانية، ونحن أيضاً نحرم كنسياً، ونحرم من شراكة المؤمنين الامبراطور المذكور، لأنه أمر بعضاً من رعيته، فأقدموا على حرمان أخانا المبجل أسقف برانستي Praeneste ونائب الكرسي الرسولي، من ممارسة أعمال نيابته التي عهدنا بها إليه، في مقاطعات الألبينيين، في سبيل تثبيت الإيمان الكاثوليكي، ومجدداً إننا نحرمه كنسياً، ونحرمه من شراكة المؤمنين، بسبب أنه لم يسمح لإحدى الكاتدرائيات وكنائس أخرى شاغرة لأن تملأ، وبهذه الوسائط تعرضت حرية الكنيسة للخطر، ومات الإيمان، لأنه لم يعد هناك من أحد يعرض كلمة الرب، أو يحكم أرواحهم بغياب راعي الأرواح، وأسماء الكنائس الشاغرة هي كما يلي:

كاتانا Catana، وريغيو Reggio، وأكريفيارا Accriviara، وسكويلاتا Squilata، وريسا Resa، وبوتنزا Potenza، وأوترانتو Otranto، وبوليكاسترو Policastro، وساريتينا Saretina، وأفيرسانا Aversana، وفالفا Valva،

ومونوبولي Monopoli, وبولوغناغو Polognagno, وملفي Melfi, ورايلا Rappella, وكريوتو Cributo, وألفانا Alifana, ومزارا Mazara, وفيجيليرا Vigiliara, وفرثينا Frethina, مع الديرة في فينوسيا Venusia, والمخلص المقدس في مسينا Messina, ومجدداً نحن نحرم كنسياً الامبراطور المذكور، ونحرمه من شراكة المؤمنين، لأن الكهنة في مملكته يعتقلون، ويسجنون، ويحكم عليهم بالموت، ويقتلون، ومن جديد نحن نحرمه كنسياً، ونحرمه من شراكة المؤمنين، لأن الكنائس المكرسة في مملكته للرب قد دمرت ودنست، ومجدداً إننا نحرمه كنسياً، ونحرمه من شراكة المؤمنين، لأنه لم يسمح بترميم سورانو Sorano, ومجدداً نحن نحرم كنسياً الامبراطور المذكور، ونحرمه من شراكة المؤمنين، لأنه عندما كان حفيد ملك تونس قادماً إلى كنيسة روما لتلقي قداس التعميد، احتجزه، ولم يسمح له بالوصول، ومجدداً إننا نحرم الامبراطور المذكور كنسياً، ونحرمه من شراكة المؤمنين، لأنه اعتقل، ووضع بالسجن بطرس المسلم، مع واحد من نبلاء سكان روما، عندما كانا قادمين إلى الكرسي الرسولي لصالح ملك انكلترا، ومجدداً إننا نحرمه كنسياً، ونحرمه من شراكة المؤمنين، لأنه استولى على أراضي الكنيسة في:

فيرارا Ferrara, وبنغوغوما Pingnogoma, وبولونا Bologna, وأسقفية فيرارا، وأسقفية بولونا، وأسقفية لوكا Lucca, وكذلك مقاطعة سردينيا، بعنف طائش وخرق لليمين الذي ارتبط به إلى الكنيسة حول هذه المسألة، ومجدداً نحن نحرمه كنسياً، ونحرمه من شراكة المؤمنين لأنه استولى على أراضي بعض نبلاء مملكته وعاث فيها فساداً، وذلك حيث الحكم للكنيسة، ومجدداً نحن نحرمه كنسياً، ونحرمه من شراكة المؤمنين، لأنه حرم بعض الكنائس الكاتدرائية من مقتنياتها، وهي:

كنيسة مونت رويال، وسيفيلادا Cephelada، وكساتانا Catana، وسكويلا تا Squilata، وأيضاً ديرة:

ميليتو Mileto، والقديسة يوفيميا Eufemia الكبير،
والقديس يوحنا في لامنتانو Lamentano، ومجدداً نحن نحرم
كنسياً الامبراطور المذكور، بسبب أن كثيراً من الكاتدرائيات، وكنائس
أخرى، وديرة في مملكته قام بموجب تفتيش غير عادل، بحرمانهم من
جميع مقتنياتهم تقريباً، ومجدداً نحن نحرمه كنسياً ونحرمه من شراكة
المؤمنين، لأن الداوية والاستتارية في مملكته الذين حرّموا من ممتلكاتهم
المتحركة وغير المتحركة، لم يتم تعويضهم تماماً، وفقاً لشروط السلام،
ومجدداً نحن نحرمه كنسياً ونحرمه من شراكة المؤمنين، بسبب أن
قساوسة الكنائس، ورعاة طائفة رهبان السسترشيان والطوائف الأخرى
في مملكته، مرغمين شهرياً على دفع مبلغ محدد من المال، في سبيل بناء
قلاع جديدة، ومجدداً نحن نحرم كنسياً الامبراطور المذكور، ونحرمه من
شراكة المؤمنين، لأنه بمخالفته لبنود السلام، أرغم الذين وقفوا إلى
جانب الكنيسة، على مغادرة مناطقهم، وكأنهم قوم محكوم عليهم
بالإعدام، وذلك في الوقت الذي جرى فيه وضع زوجاتهم وأولادهم
في السجن، ومجدداً إننا نحرمه كنسياً، ونحرمه من شراكة المؤمنين، لأنه
بسببه تعطلت الحملة الصليبية، وكذلك استرداد الامبراطورية الرومانية،
وبالنسبة إلى جميع الذين مرتبطين به بموجب يمينهم بالتابعة، هم
محللون من مراعاة ذلك اليمين وتطبيقه، ونمنعهم بكل دقة من مراعاة
مسألة تابعيتهم إليه، وذلك مادام مغلولاً بسلسلة الحرمان الكنسي، وأما
بالنسبة لظلمه وأعمال الإيذاء الأخرى التي أنزلها بالنبلاء، والفقراء،
والأرامل، والأيتام، والآخرين في المملكة، الذين لصالحهم كان
الامبراطور فردريك المذكور، قد أقسم على الالتزام بأوامر الكنيسة،
نحن ننوي أن نخلعه، وبالنسبة لهذه المسألة، سوف نسير بعون الرب،

وفقاً لما توجهه العدالة علينا أن نفعل، وإنه علاوة على ذلك، بالنسبة لجميع الذنوب المتقدم ذكرها أعلاه، جماعياً وإفرادياً، والتي من أجلها كان فردريك المذكور قد جرى تنبيهه من قبلنا بكل دقة، وغالباً ما جرى لومه، ومع ذلك هو لم يكلف نفسه القيام بطاعتنا، إنه من أجل هذا كله نحن نحرم كنسياً فردريك المذكور ونحرمة من شراكة المؤمنين، ومجدداً لأن فردريك المذكور قد ساءت سمعته بشكل جاد بأفاعيله هذه، فإن عدداً كبيراً من الناس يصرخون، في جميع أنحاء العالم، بأنه لا يلتزم بالرأي الصحيح فيما يتعلق بالإيمان الكاثوليكي، وبعون الرب، سوف نسير في هذه القضية في وقتها المناسب، ومكانها الموائم، وذلك وفقاً لأحكام الشريعة».

كيف اشتعل غضب الامبراطور ضد البابا

ولدى سماع الامبراطور بهذا اشتعل بغضب عنيف، وغالباً ما ردد اللوم، واتهم الكنيسة وحكامها بعدم الوفاء له، وأنهم أعادوا إليه الشر مقابل الخير، وذكرهم، كيف أنه عرض نفسه وممتلكاته إلى الأمواج العاتية الكبيرة، وإلى ألف نوع من المخاطر، في سبيل تقدم الكنيسة وازدهارها، ومن أجل زيادة الإيمان الكاثوليكي، وأكد أن جميع التشریف الذي تمتلكه الكنيسة في الأرض المقدسة، قد جاء الحصول عليه بفضل جهوده وتعبه، ثم قال:

«لكن البابا غيور من مثل هذه الزيادة السعيدة، لأنه تم الحصول عليها لصالح الكنيسة بوساطة رجل علماني، والذي يرغب بالذهب والفضة أكثر من رغبته بزيادة الإيمان، كما يشهد على ذلك أعماله، والذي يستخرج المال من جميع البلدان المسيحية، باسم العشور، قد بذل كل الإمكانات التي توفرت له، وعمل كل مايمكنه، لأن يخلعني ويحل آخر محلي، وحاول حرمانني وسعى في سبيل ذلك عندما كنت أقاتل في سبيل الرب، معرضاً جسدي لأسلحة الحرب، وللأمراض، ولمصائد أعدائه،

وبعد التصدي للأمواج العاتية المدمرة، انظروا أي نوع من الحماية التي قدمها لنا أبونا، وأية أنواع من المساعدة وقت المصاعب، قدمت لنا من قبل نائب يسوع المسيح! والآن لم يقنع غضب هذا المضطهد، بل رأى أن عليه أن يربكني ويدمرني، ولهذا نصب أمامي رجلاً معادياً لي هو جون دي بريين، الذي كان من قبل ملك القدس، والذي عرف أنه جريء في الحرب، وبارع في النظام العسكري، وحاول أن يجعل منه أكثر الأعداء مرارة لي، وذلك في وقت لم يكن لدي أي تصور لشيء من هذا النوع، كما أنه أغنى نفسه بمبلغ كبير من المال، استخرج بظلم من قساوسة الكنيسة الفقراء في جميع أنحاء العالم، وليس من السهل أن أكشف أية نحيب، وأية دموع، أنتجه هذا الأسى ووضعه في قلبي، عندما سمعتُ بهذه الأشياء من ريعتي، وهو لا بد أنه يعرف الذي لا يجهل شيئاً، وقيمتُ وقتها على الفور بإخفاء هذه الآلام التي شعرتُ بها بالقلب، وتحت ملامح هادئة، بدأت أفاوض من أجل السلام، وتمت الموافقة على هدنة، وبادرت مسرعاً بالعودة، وذلك خشية من أن يحدث فيعلم عدونا بهذا، فيصبح أكثر حماساً بنجاحاتهم، وبذلك يغدو أكثر عدوانية بالنسبة لنا، وعندما عدتُ إلى الوطن وجدتُ أراضي مستولى عليها، وهي محتلة من قبل أقرباء البابا وأصدقائه، الذين كان قائدهم جون دي بريين المتقدم الذكر، ولقد اعتقلت هؤلاء، ومع عون الرب المنتقم لي، توليتُ معاقبة الذين أعاقوا شؤون الصليب، حسب استحقاقاتهم، وليكن الرب الحكم بيني، الذي أنا جندي، وبين البابا نائبه، والمسيح يعرف، والعالم يعرف بأنني لم أبتعد عن جادة الصواب، وهذا هو جذر، وأصل كراهيته، ولقد نشب خلاف بين الناس، وانقسموا، لكن بوجود سيدهم الطبيعي، أي الامبراطور، عاودوا الاتحاد، وتم استرداد قوة الامبرطورية في وقت قصير».

كيف وصل رهبان مونت كازينو إلى البابا في روما

ووصل في العام نفسه رهبان مونت كازينو Monte Casino، (حيث غرس القديس بندكت ديراً) الذين بلغ تعدادهم ثلاثة عشر راهباً، إلى البابا، في ثياب عتيقة وممزقة، وبشعر أشعث، ولحي غير مهذبة، والدموع في أعينهم، ولدى إدخالهم إلى حضرة قداسته، سقطوا على قدميه، وقدموا شكواهم بأن الامبراطور قد طردهم من بيتهم في جبل كازينو، وكان هذا الجبل لا يرام، وفي الحقيقة لا يمكن لأي واحد الوصول إليه، إلا بموافقة الرهبان، وبموافقة الآخرين الذين يسكنون عليه، غير أن ر. R غويسكارد Guiscard استطاع الاستيلاء على قلعة الرهبان، بحيلة تظاهره بأنه كان ميتاً، وقد حمل إلى هناك على محفة، وبذلك استولى — كما قلنا — على القلعة، وعندما سمع البابا بهذا أخفى أساه، وسأل عن السبب، وعلى هذا أجابه الرهبان: «بسبب أننا في طاعة لك حرمانا كنسياً الامبراطور»، وعندها قال لهم البابا: «إن طاعتكم سوف تنقذكم»، وبعد هذا ذهب الرهبان دون أن يتلقوا أي شيء زيادة من البابا.

كتابة مدهشة

وظهرت في العام نفسه لواحد من الرهبان من طائفة السسترشيان، يد بيضاء مكتوب عليها جسدياً الكلمات التالية:

«سوف يقطع الأرز العالي للبنان، وسوف يسيطر المريخ على زحل والمشتري، وسوف يعمل زحل مصائد للمشتري في كل شيء، وسوف يكون هناك رب واحد، أي ملك، فقد جاء الرب الثاني، وسوف يجري إطلاق سراح بني اسرائيل من السبي خلال أحد عشر عاماً، وشعب عدّ بلا قائد سوف يصل أثناء تجواله، وأأسفاه على رجال الدين، إذا ماسقطوا، فإن طائفة جديدة سوف تزدهر، ووأأسفاه على إيمان الكنيسة،

وعلى الشرائع، وعلى الممالك، التغيير سوف يقع، وسوف يجري دمار أمة الإسلام».

كسوف الشمس

كان في الثالث من حزيران، من هذا العام كسوف للشمس، في حوالي الساعة السادسة من النهار، وفي حوالي الوقت نفسه من العام، جرى استدعاء وليم، الأسقف المنتخب لبلنسية بتدخل من البابا (الذي رغب — كما قيل — بتعيينه قائداً للجيش ضد الامبراطور)، إلى الحلف الأسقفي بشأن الاحتفاظ بالحصول على الكرسي البلنسي، وكأنه غير ملطخ بتهمة القتل، ولذلك إنه لا عجب أن الناس قد اعترتهم الدهشة لدى سماع هذا، وأنه ما يزال يسعى وراء كرسي وينكستر، وقد عيّن ملك انكلترا وكيلاً متحمساً لتأمين هذا الهدف، وأسفاه، وأسفاه، كيف أن كمية من المال جعلت بلاط روما يميل إلى إعطاء موافقته وإذنه.

ولادة إدوارد الأول ابن الملك هنري الثالث

في ليلة السادس عشر من حزيران، ولد صبي في ويستمنستر للملك من زوجته الينور، وبمناسبة هذه الحادثة قدم جميع نبلاء المملكة تهانيم ولا سيما سكان لندن، لأن الصبي قد ولد في لندن، وتجمعوا على شكل جماعات من الراقصين مع طبول ودفوف، وأضاءوا في الليل الشوارع بمصابيح كبيرة، وقام أسقف كارلايل بطقوس تلقين الطفل، وتولى النائب البابوي تعميده مع أنه لم يكن كاهناً، لكن ادموند رئيس أساقفة كانتربري قد ساندته وثبته، وبناء على رغبة من الملك أعطي له اسم ادوارد، وجرى إرسال عدد كبير من الرسل لنقل خبر هذه الحادثة، وقد عادوا وهم محملين بهدايا ثمينة، وقد بهت الآن بعمق سمعة الملك بسلوكه، لأنه عند عودة الرسل إلى الملك، سأل كل واحد منهم عن الذي تسلمه، والذين كانوا قد تسلموا الأقل، مع أنهم جلبوا معهم

هدايا ثمينة، أمر بإعادتهم مع غضب ولم ينطفئ غضبه، حتى أعطى كل واحد هدايا مرضية بناء على طلب الرسل، وعلى هذا علق أحد النورمان الأذكياء بقوله: «الرب أعطانا هذا الطفل، لكن الملك باعه إلينا»، ولم يعف النائب البابوي أيضاً من الحصاد الذي لم يجنه، فأعطى الشخص الذي جلب له الأنبياء على حساب الآخرين، وكما قلت من قبل، جرى تعميد هذا الطفل من قبل النائب البابوي في اليوم الرابع من ميلاده، ورفع من الأمام من قبل الأسقف روجر أسقف لندن، ومن قبل وولتر أسقف كارلايل، وكذلك من قبل وليم الأسقف المنتخب لنورويك، وأيضاً من قبل رتشارد إيرل كورنول، أخو الملك، ومن قبل الأيرلات:

سيمون إيرل مونتفورت، وايرل ليستر، وهوغ دي بوهون Bohun
ايرل هارتفورد واسكس، وكذلك من قبل سيمون النورماني، رئيس
شمامسة نورويك، والنبييل بطرس دي مولاك Maulac وألماريك
دي سينت أماند Almaric de Amand وبحضور عدد كبير
من النبلاء والسيدات.

وفي هذه الآونة، قام رالف دي ثوني، وهو بارون نبيل، بتوديع
أصدقائه، وغادر في سبيل الحروب الصليبية مع عدد كبير من النبلاء،
وخاصة من مملكة فرنسا، وبعد استعدادات كبيرة انطلق بجرأة في رحلته
إلى القدس، من أجل أن الناس عندما يجازون في اليوم الأخير من أجل
أعمالهم الصالحة، يمكن أن يتوجوا بأكاليل الغار، ويحصلوا على
مكافأتهم النهائية.

انتخاب المعلم نيقولا أوف فانهارم أسقفاً لشيستر

وفي العام نفسه، بعدما جرى استدعاء وليم دي ريل، ومن ثم
انتخابه ليتولى حكومة كنيسة نورويك، بموافقة من رجال الدين

والناس، قام رهبان كوفنتري على الفور، فساروا في إجراءات قضية انتخاب أسقف موائم لأنفسهم، حتى لا يتعرضوا للمزيد من الغضب بالقيام بانتخاب يكون عرضة للروادع والرفض، ولذلك انتخبوا المعلم نيقولا أوف فارنهام Farnham وكان رجلاً مزيناً بكثير من الفضائل، وصاحب قامة جميلة، وفصيحاً في خطاباته، وناضجاً ومتواضعاً في سلوكه، وتصرفاته، ولذلك كان لا يمكن لحديث تجريحي أن يقف في طريق مقاصدهم، ولكن بعدما قبله الملك وكذلك رجال الدين والناس، رأى المعلم نيقولا، وكان رجلاً عميق الفهم، أن المسألة عرضة لخلاف شرعي مكشوف، وأن الأسقفية موجودة على أقصى حدود انكسار، وقدر بمثابة رجل متواضع ومستقيم، أنه غير قادر على تحمل مثل هذا العبء الثقيل، وأنه سيكون خطيراً بالنسبة له تقديم حساب عن المسؤولية عن مثل ذلك العدد من الأرواح، لذلك رفض قبول العرض ولا بشكل من الأشكال، ورفض بشات أن يتحمل ثقل هذا المنصب، واستقال من شرفه، لأنه كانت هناك قضية خلاف بين الرهبان والكهنة، لأن فريق الكهنة قد أكد أن أفرادهم الذين ينبغي أن ينتخبوا الأسقف هذه المرة، وذلك وفقاً لشروط الاتفاقية، التي بها جرت تسوية الخلاف فيما بينهما، وهي أنه بعد عمل انتخاب أول من قبل الرهبان، فإن مسؤولية الانتخاب الثاني تقع على عاتق الكهنة، لكن عندما عرض الكهنة هذا الإدعاء، ردّ عليهم الرهبان، بأن الانتخاب قد ألغي، ولم يصل إلى أية محصلة، وأنهم لم ينالوا ما أرادوه، ومردّ ذلك إلى حادثة غير متوقعة، تسببت ليس بتصميم منهم، بل بالقضاء الرباني، الذي يقضي بجميع الأشياء حسبما يشاء، وقال الكهنة في رد على هذا:

«نحن نرغب منكم أن تعرفوا، أنه ليس أسقفكم المنتخب هو الذي لا يرضينا، ذلك أنه أهل تماماً لمثل هذا الانتخاب الرفيع، بل هو شكل

انتخابكم هو الذي لم يرضينا، بما أن دور الانتخاب يقع علينا، وليس عليكم، وهذا قد برهنا عليه بشكل جيد بوساطة أعمالنا، لأننا انتخبنا عميدنا بمثابة أسقف لنا، وحارساً لأرواحنا»، ثم إنه عندما ارتفع صوت الاضطراب، الذي هدد بأن يجلب خلافاً مدمراً، قام العميد الذي كان رجلاً تقياً، برغبة منه لوضع حد لعدم الاتفاق، فقال بصوت مرتفع أمام الناس:

«ليكن معلوماً، وليكن معلوماً، أنني لا أدري على أية أسس انتخبتموني أنا الذي تماماً لست أهلاً لحمل أعباء منصب الأسقفية، ولذلك إنني من صميم قلبي وعقلي أعارض مثل هذا الانتخاب، وأتنازل عنه، ولنعمل على إنهاء هذا الاضطراب، ودعونا الآن جميعاً في هذا الوقت الحالي، بموافقة عامة نقف إلى جانب ذلك الرجل الجيد، الذي أفاد التقرير عنه بشكل طيب»، وفي سبيل المحافظة على حق كنيستهم من على الجانبين، قاموا جميعاً أي الرهبان وكذلك الكهنة فاتفقوا بالاجماع، فبعثوا إلى المعلم نيقولا المتقدم الذكر، وأخبروه أن جميع الذين لم يوافقوا من قبل، قد اتخذوا الآن قرارهم بالاجماع، وقد انتخبوه، وهم بتواضع يرجونه أن يتكرم بقبول هذا الشرف، مهما كان ثقيلاً، وعرضوه عليه وقدموه إليه باسم الرب ونيابة عنه، وردّ عليهم المعلم نيقولا، وأجابهم قائلاً:

«وهو يصفق بيديه، إنني أعيد إليكم شكري أضعافاً مضاعفة، يا أصدقائي ومعلمي من كل من الكهنة والرهبان، الذين كنت بأعينهم بالنهاية مستحقاً لأن تنتخبوني لأن أكون راعياً لكم، لكن يا أصدقائي إن وضعي الحالي يكفيني، وعبء المنصب المعهود به الآن إليّ يثقلني ويضغط عليّ بشدة، وإن العناية، والمسؤولية، وكذلك الحساب الذي ينبغي تقديمه إلى الأرواح التي عهد بها إليّ يزعجني ويخيفني، ولذلك توقفوا يا إخواني الأحباء، توقفوا عن متابعة تعذيبي وإغصابي في هذه

المسألة، وأود أن أخبركم بوضوح، سواء أوافقتم على ذلك أم لم توافقوا، أنا لا أوافق على هذا الانتخاب»، ولدى سماع هذا تشاور الآخرون، وفقاً للشكل الذي تقدم ذكره، وانتخبوا ليكون أسقفاً لهم، وحارساً لأرواحهم، المعلم هوغ دي بيتهل Pateshull (الذي كان ابناً للنobil المشهور سيمون دي بيتهل، الذي بآرائه الحكيمة حكمت انكلترا من قبل في بعض الوقت الماضي) وكان كاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، ومستشاراً للملك، وكان هو أيضاً مثل أبيه، ورجلاً مستقيماً، وبعد تقليب طويل للقضية، وتفكير حول قول الرسول: «كل من يريد أن يكون إدارياً جيداً، عليه أن يحصل لنفسه على مرتبة جيدة»، وقوله في مكان آخر: «إذا مارغب إنسان بمنصب الأسقف هو قد رغب بعمل جيد»، وبعد طويل وقت تحركت عاطفته بسبب الوضع السيء للكنيسة وبكى بدموع المتضرع، ووافق على حمل العبء، والعناية بنفقات المنصب، حتى يتحول أسفهم إلى بهجة.

آلام اليهود

وفي العام نفسه، في يوم عيد القديس ألبان، رائد الشهداء في انكلترا، وفي اليوم التالي، وقعت مذبحه كبيرة، ولحق دمار كبير باليهود، بناء على أوامر من غيوفري الداوي، الذي كان مستشاراً خاصاً للملك، فقد تولى ظلمهم، وسجنهم، واستخرج المال منهم، وأخيراً وبعد كثير من الآلام، قام هؤلاء التعساء اليهود، في سبيل التمتع بالحياة والهدوء، وبسبب دمارهم واضطرابهم، فدفعوا إلى الملك ثلث جميع أموالهم، وديونهم وكذلك أثاثهم، وكان السبب الأساسي لهذه النازلة اقتراف جريمة قتل مفضوحة من قبل يهود المدينة، وماحدث ليس بعد هذا بوقت طويل، وتعلق بالصبي الذي جرى ختانه من قبل اليهود، ولقد أدين نتيجة ذلك أربعة من أغنى أفراد تلك الطائفة بشكل واضح، وشنقوا في نورويك.

وقوع رالف بریتون بالأسر

في مجريات أحداث السنة التي منح الرب فيها ولداً ذكراً للملك، وذلك استجابة لشكاوى الملك، وكذلك لرغبات الكثيرين، جاء هذا الولد وسط كثير من التهليل، وبما أن كأس هذه الحياة لا يحتوي شيئاً صرفاً بلا مرارة الصفراء، قد كان هناك واحداً من رسل الملك اسمه وليم، قد أدين بعدد كبير جداً من الجرائم المضاعفة، وحكم عليه بالموت، ولدى جلوسه في سجن مضيقاً عليه قذف عدداً من نبلاء انكلترا وجاهة بتهم زائفة هي تهم الخيانة، وكان بين الكثيرين الذين وجه التهم ضدهم باقتراف الجرائم رالف بریتون Briton وكان رجل دين وكاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، وكان لبعض الوقت صديقاً مقرباً من الملك، لابل كان خازنه، ولدى سماع الملك بهذا، أمر به بوساطة رسالة إلى عمدة لندن وليم غرومر Gromer (أوجيرارد بات Gerad Batt) ليلقى القبض عليه، وليسجن في برج لندن، وفضل العمدة إطاعته على إطاعة الرب، وحمل أوامر الملك ووضعها قيد التنفيذ، وجرّ رالف المذكور بعنف من بيته، في جوار كنيسة القديس بولص، وسجنه في البرج، ووثقه بسلاسل تدعى الخواتم، وعند سماع عميد لندن، المعلم غ. G دي لوسي Lucy بهذا العمل، قام مع أتباعه من الكهنة (لأن الأسقف لم يكن حاضراً وقتذاك) فتفوه بقرار حكم عام بالحرمان الكنسي ضد جميع الذين مارسوا هذا الاضطهاد والتجاوزات، ووضع كنيسة القديس بولص تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وصحیح أن الملك جرى تحذيره من قبل الأسقف، غير أنه لم يصحح هذه الأخطاء، بل إنه تابع بالتهديد تكديس الشرور على الشرور، وبناء عليه كان الأسقف على وشك وضع لندن كلها، التي كانت خاضعة له، تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، لكن عندما كان رئيس أساقفة كانتربري، وكذلك النائب البابوي،

وأسقف لندن، وعدد كبير آخر من القساوسة قد استعدوا لإلقاء يد ثقيلة على المدينة، أمر الملك، وهو مكره، بإطلاق سراح رالف المتقدم ذكره، وسمح له بالمغادرة بسلام، وعندما كان قد رغب بإضافة شرط، بوجوب الاحتفاظ به، ليكون جاهزاً لتقديم توضيح، عندما يختار الملك توجيه الاتهام إليه، ردت الكنيسة بأنها لن تقبل بأي حال من الأحوال بإبقائه هكذا على هذه الصورة وكأنه رجل سجين، وهي تقبل فقط بتسلمه بمثابة رجل حرّ تماماً، مثلما كان حاله عندما قام أتباع الملك بانتزاعه بالقوة من بيته، وعندما جرى إطلاق سراح رالف على هذه الصورة، وهو الذي تعلم بالتجربة ماذا يمكن لتقلبات الحظ أن تلحق أتباعها، انسحب بعد هذه النازلة، من بلاط الملك، أما ستيفن سيغريف، الذي غالباً ما عانى من مثل هذا الظلم فقد مزج نفسه مع شؤون البلاط، دون أن يقيم وزناً لعمره، وأصبح هذه المرة المستشار الرئيسي للملك، وتمكن بوساطة براعته الأصيلية من ممارسة قيود أكثر مما هو معتاد على خطط الملك، وبعد ذلك بوقت قصير، جرى شنق ذلك الشرير الذي تقدم ذكره، والذي كما ذكرنا أعلاه إتهم النبلاء مع رالف المتقدم ذكره، وجاء شنقه بشكل مهين خارج مدينة لندن، ووضع معلقاً على أداة التعذيب التي اسمها المشنقة، وكان عندما رأى أن موته بات حقيقياً ومؤكداً، قام — مع أن ذلك جاء متأخراً — فاعترف بشكل مكشوف أمام الناس وأمام منفذي العقوبة به، بأنه عمل الاتهامات الزائفة المتقدم ذكرها من أجل إطالة حياته.

نشر قرار الحرمان الكنسي ضد الإمبراطور فردريك

وفي هذه الآونة، تمّ بناء على أوامر من البابا، إعلان قرار الحرمان الكنسي ضد الإمبراطور فردريك المذكور، وجاءت إدانة الإمبراطور هذه في كنيسة القديس بولص في لندن، وكذلك خلال جميع أرجاء أسقفية لندن، وبعد ذلك في جميع أرجاء المملكة كلها، ولم يتوفر هناك

ولا واحد ليرفع ترس المعارضة ضد ذلك، مع أن الملك كانت لديه أسباب وجيهة لفعل ذلك، أمام جميع أمراء العالم، وذلك بسبب قرب العلاقات القائمة بينه وبين الامبراطور.

رسائل من الإمبراطور إلى شيوخ روما وشعبها

وفي العام نفسه، عجب صاحب الجلالة الامبراطورية من الضعف الشديد لقوة الرومان، ومن تراجعهم ونكوصهم عن ثباتهم في مراعاة خضوعهم باخلاص له، حسبا كانوا قد وعدوه من قبل، وذلك بسماحهم لقرار الحرمان الكنسي بأن يجري التفوه به ضده، وهو مولاهم، في مدينتهم، فكتب إلى كرادلة بلاط روما، وكذلك إلى شيوخ المدينة، وكذلك إلى سكانها كما يلي:

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى شيوخ المدينة وأتباعه الرومان، تحيات:

بما أن روما هي رأس امبراطوريتنا وسلطانتها، وأن الامبراطور عرف باسم الروماني من اسم مدينة روما، وبما أننا ندين لها بتقديم اسمنا وبسمعته، دهشنا دهشة عظيمة كيف أنه حدث، حيث من المتوجب رفع شأن شرفنا، وصدّ الإهانات الموجهة ضدنا، أن نواجه معاملة مضادة، بين الذين متوجب عليهم، والذين واجبههم، أن يعرضوا أنفسهم بمثابة سور للدفاع عن عرشنا الامبراطوري، والعجب أن يحدث هذا وهم أنفسهم يسمعون ويخفون الحقائق، وبناء عليه نحن في غاية الأسى، لأن الأسقف الروماني — كما روي لنا — قد تجرأ على أن يتصرف في المدينة، ضد الأمير الروماني، بطريقة ما كان له ليتجرأ على عملها في مكان آخر، وقام بشكل غير تقوي بتكفير الامبراطور الروماني، أساس المدينة، وجالب المنفعة للشعب الروماني، من دون أية مقاومة من قبلهم، وبناء

عليه، يمكننا أن نقول صادقين بأن نبلاء روما وكذلك الشعب الروماني، الذي من أجلهم درسنا تقديم ما يحتاجونه بكرم، ويجود تطوعي، ومازلنا نكافح في سبيل استمرار تقدمهم، إلى حد أننا بتنا غير مهتمين بمنافعنا، قد لازمتمهم بلادة النوم، ولذلك لم يكن بينهم، ولا حتى رجل واحد بين ذلك العدد الكبير من النبلاء، وذلك الحشد كله من السادة، أو بين الآلاف المؤلفة من الشعب الروماني، قد نهض للدفاع عنا، أو تكلم بكلمة واحدة لصالحنا، أو كان مواسياً لنا ومتعاطفاً معنا أثناء تعرضنا للأذى، مع أننا نتابع الاضافة إلى شرف المدينة، ونزيد شهرتها بالانتصارات القديمة والأعجاد، بوساطة انتصاراتنا المتوالية الآن، ومازلنا مستمرين في توجيه اهتمامنا لتقويم الاسم الروماني، وجعله كما كان في العصور القديمة، وأن نرفع من شأن وأوضاع الامبراطورية الرومانية، وبناء عليه لقد دفعتنا الضرورة لأن نطلب منكم بتحذير وحث لكم، إذا كنتم قد عملتم بعض التقصير من خلال الاهمال أو البلادة أن تظهروا الآن أنفسكم بأنكم جاهزين، وبالكلمة وضرب المثل أن تقوموا باقناع الآخرين بالنهوض فوراً، أفراداً وجماعات، للانتقام للأذى الذي أنزل بنا، وبكم بشكل عام، لأن المسيء إلينا ما كان ليتجراً في مكان آخر على التشهير باسمنا وتكفيرنا، وما كان له ليتفاخر بأنه حرض على مثل هذه الأشياء ضدنا، سواء أرغبنا أم لم نرغب، لولا أنه عزا إليكم نكران المعروف حول كل ما فعلتموه، قبل حقيقة معارضته، وبعد حقيقة أنكم كنتم تتجنبون الانتقام لأذانا وأذاكم العام، لأننا كنا نحن وأنتم مرتبطون من الجانبين، بأن نقوم نحن بالدفاع عن الشرف الروماني، ويقوم الرومان بالدفاع عن شرفنا، وإذا ما وجدناكم ووجدناهم معكم مهملين في هذه القضية، كنا سنجد أنفسنا مرغمين، على سحب إحساننا من جميع الذين أظهرناه نحوهم حتى الآن، لأنه ليس الخوف من الرومان هو الذي أرغمنا على إضفاء المنافع عليهم، بل بالحري كان لطفنا هو الذي أقنعنا أن نفعل

ذلك. صدر في تريفيسو Treviso في اليوم العشرين من شهر نيسان».

وكان الامبراطور قد كتب أيضاً قبل وقت قصير مضى إلى الكرادلة، وسعى إلى إثارة الرومان في تلك الجهة، وقد حثهم بعنف أكثر في الرسالة التالية:

رسائل أخرى من الإمبراطور إلى الكرادلة

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب أغسطس، وامبراطور الرومان، وملك القدس وصقلية، إلى أصدقائه الأحباء، جماعة كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة، تمنيات الصحة وعواطف خالصة:

بما أن المسيح هو رأس الكنيسة، وباسم بطرس قد أسس كنيسة على صخرة، وعيّنكم بمثابة خلفاء للرسول، هكذا عمل بطرس القداس من أجل الجميع، وأنتم الذين هم شموع الكنيسة، قد وضعتهم فوق رابية، وليس تحت ستارة، حتى يمكن بأعمالكم الصالحة أن: «تعطوا الضوء إلى كل البيت»، وأن لاتسعوا بموافقة عامة بأن تسحبوا أنفسكم من الصوت العام للعالم، بما أنه قدر أنكم أهل لحمل حصة مساوية لأي واحد سوف يترأس على كرسي بطرس، ومهما اقترح أن يعمل، أو قرر أن يعلنه إلى العالم، مالم تكن الأوضاع المتقدمة للكنيسة، والرغبة الجامحة بتجنب عدوان عام، سوف تقترح تحذيراً لكم من أجل المستقبل، لأنه من الذي لن يتساءل بأن الذي هو جالس على عرش الكنيسة، والذي قد قوي بوساطة الاجتماع العام لمثل هذا العدد الكبير من الآباء المحترمين، (والمتوجب أن يكون قاضياً عادلاً) سوف يعمل هكذا بشكل غير مستقيم؟ وليس عجباً بأنه سوف يتخذ موقفاً — بناء على مجرد انفعال — ضد الأمير الروماني، مع أنه هو المحامي عن الكنيسة، والذي واجبه هو الحفاظ على التبشير بالانجيل، وذلك بوساطة تجريد

السيف الروحي بشكل غير عادل لصالح العصاة اللومبارد؟، ودون أن نعبأ بهذا، وبوساطة المعايير السلمية، فإن جميع الإساءات ضد الكنيسة التي ترفع من أجلها، مهما كانت عناوينها العامة مغیظة وتضاعفت في أعمال فردية، هي إما أنها تلقت التقويم، أو أنها بوساطة تفكيرنا جرى الإعداد لها وهي على طريق الإصلاح، لأن أوامرنا قد قضت بذلك، ولسوف يتلو ذلك تعويض كامل، لأنه بوساطة رسائل موثقة من القساوسة الذين عيّنتهم الوصاية الرسولية بمثابة مشرفين، هناك شواهد من النوع نفسه قد أعطيت، ومرسومنا الجاري فيما يتعلق بإعادة دعوة القساوسة الذين عانوا من الأذى وتقديم توزيع ثاني لهؤلاء القساوسة، يعطي برهاناً واضحاً على المصادقية وذلك بوساطة رسائل رئيس أساقفة مسينا المبجل، التي أرسلت إلى مقومنا، المعين لهذه الغاية، وبناء عليه، إنه ليس من دون سبب جيد أن نتحب لأن الأب الرسولي يسعى بشكل جاد جداً للاعتداء علينا، وعندما ينزل مثل هذا الأذى الكبير على رجل شجاع، مع أننا نرغب بتحمل ذلك بصبر، إن ضخامة الاعتداء لا تسمح لنا بأن نفعل ذلك، لابل إن عنف الفعلة يرغمنا على الانتقام، وهو ما اعتاد القياصرة أن يفعلوه ويمارسوه، لكن لدى تقديرنا لإنعدام الصبر لدى الذي يسير على هذا الطريق ويبارس هذا المنهج، والوضع الصعب للمدافع، علينا تقديرها أكثر تحملاً، لو أنه سمح لنا بحيادية أن نمارس انتقاماً خاصاً على الشخص الذي تسبب بالعدوان، وبذلك نتمكن من إنزال جزاء على الذين هم من دمه، وهذه المحاولة لإيذاء الكرسي سوف ترتد عليه وعلى آله، لكن بما أنه لا هو ولا جميع آله هم الذين سيعانون لهذا السبب، لهم أهميتهم، حتى تشوق الكرامة الامبراطورية للانتقام منهم، ولأن سلطات الكرسي، تركت أعنة سلطاتها مرخية، وعمدت أن تظهر جماعة الرهبان المحترمة كلها وكأنها تؤثر ذلك في إصرارها، آلمنا هذا الاضطراب عقلياً، لأننا أثناء الدفاع عن أنفسنا ضد المضطهدين لنا، علينا في دفاعنا عن أنفسنا أن نكون

أكثر حدة في قتال الذين يقفون ضدنا، باستثناء قداسة الكنيسة من جميع الجوانب، التي نجلّها بتعبد مقدس وباحترام جدير بها، وبناء عليه نحن نلتمس من جماعتكم الجليلة، وصدوراً عن مداولاتكم اللطيفة أن توقفوا إجراءات الخبر الأعظم، التي من الواضح أنها كما يعرف العالم، هي غير عادلة، وبلا مسوغ، وأن تهيئوا الأوضاع من أجل تقديم سلام لعقولنا، لأننا وإن كنا مرتبطين بإيثار رفع شأن أعمالكم الصالحة جميعاً، نحن لا يمكننا أن نفعل ذلك بتوازن في التفكير متمنع عن العدوان تجاه الأذى الذي يعمل ضدنا، كما أننا لن نكون قادرين على إيقاف البدايات، كما أن الأذى الذي لا يمكن رده وإرجاعه، يمكن بتسوية صده بأذى آخر. صدر في بادوا Padua في العاشر من آذار من الإحدى عشرة الأولى من الخمس عشرة.

كتابات تكهنية

وفي هذه الآونة، استدعيت بعض الكتابات التي ظهر أنها تتكهن بالمستقبل، إلى الذاكرة، وغالباً ما ذكرت، وذلك بسبب المخاطر العظيمة للوقت، والخلاف الذي تفجر بين مثل هذه الشخصيات القوية، والتي لم يكن يعادها بالقوة أي واحد، وكانت إحدى هذه الكتابات كما يلي:

«سوف تثار روما ضد الرومان، وبدل روماني سوف يفرغ روما من الرومان، وستصبح عصي الرعاة مضيئة، وسوف تكون راحتهم في اطمئنان، والحريص سوف يضطرب، وسوف يصلي، ودموع الحشود سوف ترتاح هناك، وسوف يلعب الرجل الضعيف مع المجنون، والمجنون سوف يكون منطفئاً، وسوف يصبح لطيفاً، وسوف يزحف قطع جديد إلى الرابية، والذين كانوا يستحقون منذ القدم، سوف يعلفون على طعام خفيف، والمستثنون من الثقة قد دمروا، والطمأنينة التي تنتج راحة هي مستقرة، والذين ساروا في الظلام سوف يعودون إلى الضوء، والأشياء التي كانت منفصلة وموزعة في الخارج سوف تتمتن،

وغيمة كبيرة سوف تبدأ بالامطار، لأن مغيراً للعالم قد ولد، والحمل سوف يحل محل الأسد، وسوف تفرس الحملان الأسود، وسيثور الجنون ضد ذوي العقول الساذجة، وسوف تتنفس السذاجة وهناً، وسوف يتحول الشرف إلى عار، وسرور الكثيرين سيصبح حزناً، وجرى التفوه بهذه الكلمات في سنة النعمة ١١١٩، وقد فهمت لتعني بأن التهديدات المذكورة كانت بالفعل قد وقعت.

وهناك كتابة أخرى، يبدو أن الامبراطور قد حصل عليها، قد قيل بأنها ذكرت الصدق، فقد قيل بأن أبيات الشعر التالية قد وجدت مكتوبة في غرفة نوم البابا، لكن كيف حصل هذا ومن الذي كتبهم؟ أمر غير معروف:

تقضي النجوم والمنايا وطيران الطيور

بأن عالمنا هذا سوف يضرب

روما تقاد مترنجة وسط أكوام من الآثام

وفي العالم سوف تتوقف أن تكون الرئيسة

وبما أن الامبراطور مع كثير آخرين قد فسروا هذه الأبيات على أنها تبشر بدمار البابا وعزلته مع البلاط الروماني، ردّ قداسته بالأبيات التالية ضد الامبراطور:

الشهر، والكتابات المقدسة، وذنوبك تخبر بصوت مرتفع

أنك بعد الموت سوف تلقى العذاب مؤبداً في جهنم

الامبراطور يبريء نفسه بوساطة مرشدين

ولدى رؤية الامبراطور في هذه الآونة أن سمعته الآن عرضة للخطر، وفي سبيل البرهنة على براءته، جعل بعض الرسل الذين كانوا

ذوي مكانة عظيمة، ولهم سلطان خاص يكتبون إلى البابا عارضين براءتهم مع براءة الامبرطور، وعدالتهم وعدله.

رسائل الرسل

«إلى الأب الأعظم قداسة في المسيح، غريغوري، الذي هو بنعمة الرب، الحبر الأعظم، يرسل إليكم عبيدكم المخلصون، أساقفة ويتزبورغ Wirtzburg ووورمز Worms وفيرسلي Vercelli وبارما Parma تحياتهم بتواضع، وبجميع احتراماتهم المخلصة:

مع جميع الاحترام المستحق والاخلاص قد تسلمنا رسائل قداستكم الرسولية، التي أرسلت لتقريع صاحب السمو الأمير الروماني حول بعض النقاط، التي ورد ذكرها في الرسائل المذكورة، وقمنا نحن كما يفرض علينا الواجب — ومع ذلك شاكين فيما إذا كان سيتلقى تحذيراتنا بصبر — وذهبنا إليه باحترام وتقوى، وبعد شرح كل نقطة وردت في هذه الفقرات، وبعدما أعطيناه نسخة عن رسائلنا، وبنعمة من الرب، الذي يحكم قلوب الملوك ويوجهها بإرادته، أظهر نفسه بتقوى رائعة، وبتواضع غير متوقع جاهزاً لأن يصغي لانتقاداتنا، ومالت أذنا سيادته الامبراطورية نحونا، وعندما مثلنا أمامه كان هناك أيضاً موجوداً رئيس أساقفة بلرم «باليرمو» ومسينا، وأساقفة:

كريمونا، ولودي Lodi ونوفارا Novara، ومودينا Modena، وراعي دير القديس فينسنت Vincent إلى جانب عدد من الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان، الذين جمعوا من قبله، وقد ردّ على اقتراحاتنا واحداً تلو آخر، حسبما هو وارد بشكل كامل ومتميز في السطور المقبلة، ووفقاً للوصاية الرسولية، نحن نخبركم في الرسائل الحالية، ونحن على استعداد للبرهنة على صحة ذلك».

«قضية الكنيسة: إن كنائس مونت رويال، وسيفيلدي Cephaledi،

وكاتانيا Catania, وسكويلا تا Squillata, وأديرة مايليتو Mileto, والقديسة يوفيميا Euphemia, وتيرا- ماجوري Terra- Magiore, والقديس يوحنا في لاما Lama, قد جردت من جميع مقتنياتها تقريباً، وكذلك تقريباً جميع الكاتدرائيات والكنائس الأخرى والأديرة، قد حرمت بتفتيش غير عادل، من جميع متعلقاتها.

جواب الامبراطور: فيما يتعلق بالأذى الذي لحق بالكنائس، اللائي ورد ذكرهن بدون تحديد، فإن بعض ذلك قد اقترب من خلال الجهل، وقد صدر الأمر بانقاذهن من دون تأخير، وبعضهن قد جرى إصلاحه، كما هو واضح من تقرير رسولنا المخلص والعامل وليم دي توكتو Tocto, الذي أنيب من أجل الغاية الخاصة، والذي أمر أيضاً بالذهاب إلى البلاط الروماني، وبعدما حصل على نصيحة المحترم رئيس أساقفة مسينا، في أن يسير وفقاً لنصائحه، في إصلاح تلك الأشياء التي من الممكن أن يجدها بشكل مكشوف خاطئة، وبعد دخوله المملكة، وجد في تلك المناطق بعض الأشياء التي كانت بين أيدي بعض الأتباع الامبراطوريين، وإلى هؤلاء لم يظهر رحمة، بل جردهم على الفور، وأعاد الذين قد جردوا من قبلهم، علماً بأنه كان قد أمر بأن يأخذ من الخزينة الامبراطورية كل الذي يجده قد تم الحصول عليه بشكل غير شرعي، وهكذا عندما وصل التقرير عما فعله إلى بلاط روما، يقال بأن البابا قد وافق على بصيرة المرسل، وعلى يقظة الشخص الذي أرسل، ولكن بما أن المملكة مقسمة إلى مقاطعات، لم يكن بإمكانه الترحال خلالها جميعاً لإصلاح الذي اعتقد أنه بحاجة إلى الإصلاح.

ومجدداً، في إجابة إلى التهمة المتعلقة بكنيسة مونت رويال، لقد أفاد أنها لم تتلق أي ضرر على أيدي الامبراطور، ما لم يرغب بالاشارة إلى المسلمين الذين استولوا على مقتنيات الكنيسة أثناء الحرب، وأنهم لم يعترفوا لا بالامبراطور، ولا بالكنيسة، وأنهم لم يوفرُوا شيئاً وصل إلى

أيديهم ووقع تحت سلطانهم، حتى أنهم دمروا تلك الكنيسة ونهبوها إلى حد أنهم تركوها مجرد جدران عارية، وهم أيضاً لم يوفرُوا أحداً في صقلية، ولذلك كان الذين بقيوا من المسيحيين في تلك الجزيرة عددهم قليل، هذا إن بقي أحد.

واعترف الامبراطور بالواقع، بأنه محق هؤلاء الناس وأزالهم كلية من صقلية، وذلك بعد كثير من الاضطراب والنفقات، وإذا عدّوا ذلك إلحاق ضرر بالكنيسة، فإنه لا يعرف قط أنه آذاها بأية طريقة من الطرق، كما أنه لم يرغب بإيذائها، ولقد قال الشيء نفسه فيما يتعلق بكنيسة سيفيلدي التي هي أفضل قلعة محصنة على ساحل البحر، وقائمة على حدود سردينيا، وهذه تملكها دوماً ملك صقلية، وكان البابا انوسنت —صاحب الذكرى الطيبة— قد أعطى أوامر إلى نائبه الذي كان آنذاك في صقلية، في خدمتنا، بأن يتسلمها من الأسقف، الذي وهي بين يديه أصابها الاضطراب، وليس بموجب الحق، وتدبر ذلك النائب، أثناء طفولتنا الاستحواذ عليها، والحفاظ عليها من أجلنا، وهي لم ترد إلى ذلك الأسقف، أو إلى الأسقف الحالي، كما أنه لا ينبغي أن تعاد، لأنها لا حق لهما فيها، وإلى جانب هذا، لقد أدين بوساطة بينات واضحة بأنه رجل زائف، ولوطي، وخائن، ومنشق، ولهذا إذا كان لديه أي ادعاء في القضية، (لاسمح الرب بذلك) ليس من الضروري بأن تعطى إليه، وكذلك بالنسبة لكنيسة كاتانا، لقد قال الشيء نفسه، وأنه ما لم يكن رجال حاشية الملك هم المشار إليهم، هم الذين ذهبوا في أيام الحرب إلى كاتانا، بسبب حصانة المكان وخصبه، وأعلن الامبراطور بأنه قد استدعاهم إلى عزبته الخاصة، فوفقاً لبنود القانون العام للمملكة، يتوجب على الإيرلات، والبارونات وجميع رعايا المملكة، استدعاء رجال عزبهم، حيثما وجدوهم، سواء على أراضي الكنائس أو في مدن الامبراطور، ومع ذلك لقد صدرت صيغة مرسوم حول هذه القضية،

وجرى تحديد وقت وتثبيتته وقبوله بناء على طلب الخبر الأعظم، كما ظهر من الرسائل الوصائية لبطريرك أنطاكية، ورئيسي أساقفة باليرمو (بلرم) ومسينا، ومجدداً إنه بالنسبة لقضية كنيسة مايليتو، والقديسة يوفيميا، مع أنه كان تغيير مواعيد، وتبديل جرى تنفيذه مع رعاة ديرة ورهبان تيرا— ماجوري، وذلك بناء على رغبة القساوسة أنفسهم مع الجماعات الديرية، وفقاً لصيغة الشريعة، وهم أنفسهم حتى الآن بين أيديهم الممتلكات البديلة ومستحوذون عليها، وفيما يتعلق بقرية القديس سيفريوس Severius، التي هي ليست بشكل مطلق تابعة لراعي دير تيرا— ماجوري صاحب أنكونا Ancona، بل هناك فيها بعض الحقوق الموجودة في إقطاعية الامبراطور، وقد كانت بعد محاكمة قد دمرت لسبب صحيح، لأن سكان ذلك المكان، قد قتلوا أثناء الاضطرابات رجلاً اسمة بولص أوف لونغوثان Longothan، وكان حاملاً لعلم الامبراطور ونهبوا مواشي الامبراطور، ومع ذلك، وحسبما تقدم الذكر، أعطي بديل إلى راعي الدير والجماعة الديرية، وكان البديل لصالحهم، وهم مايزالون يحتفظون به حتى هذا اليوم، وموضع «لاما» هو مغلق وفقاً لقرار صدر عن راعي دير القديس يوحنا المستدير، وقد يكون من العدل الدعوة إلى اجتماع من أجله وفقاً للشريعة المدنية واللاهوتية، وذلك حسبما يكون من أجل ممتلكات إقطاعية جيدة، في البلاط الامبراطوري.

قضية الكنيسة: لقد حرم الداوية والاستتارية من ممتلكاتهم المتحركة وكذلك من مقتنياتهم الثابتة، ولم يعوض عليهم بشكل كامل، وفقاً لشروط السلام.

جواب الامبراطور: صحيح أنه بموجب قرار الأنظمة القديمة لمملكة صقلية أن بعض الأراضي الإقطاعية والمدنية قد سحبت من الداوية والاستتارية، وهي قد كانت بين أيديهم بمثابة منحة من غزاة المملكة،

الذين إليهم قدموا الخيول، والسلاح، والميرة، والخمرة، والأشياء الأخرى الضرورية بكميات وافرة، عندما كانوا يغيرون على الامبراطور، وقد رفضوا تمام الرفض تقديم جميع أنواع المساعدات إلى الامبراطور، الذي كان آنذاك مجرد ملك في أيام التلمذة والعطالة، وقد سمح لهم بالاحتفاظ ببعض الأراضي الاقطاعية والمدنية التي كانوا قد حصلوا عليها، وكانت بين أيديهم قبل وفاة الملك وليم الثاني، أو التي كانت بين أيديهم كمنحة من قبل أي واحد من أسلافه، ولكن بعض الأراضي المدنية، التي كانوا قد اشتروها، قد سحبت منهم، وفقاً للقانون القديم لمملكة صقلية، لأنه من غير الممكن عمل أية منحة أرض مدنية بين الأحياء، من دون موافقة أميرهم، كما لا يمكن توريثهم بموجب وصية دائمة، دون أن يكون مشروطاً أن يباعوا أو يمنحوا إلى مدني علماني آخر، إلا بعد مرور سنة، وشهر، واسبوع ويوم، وهذا القانون قد عمل من قبل القدماء للسبب التالي، وهو أنه لو سمح لهم من دون قيود وبشكل دائم بشراء أو بتسلم أراضي مدنية، لأمكنهم في وقت قصير شراء مملكة صقلية كلها، التي كما يبدو هي بموجب جميع قوانين الدنيا ومفاهيمها مناسبة لهم كأحسن ما يكون، وهذا القانون نفسه قيد التنفيذ فيما وراء البحار.

قضية الكنيسة: وكذلك هو لم يسمح للكاتدرائية وللكنائس الأخرى الشاغرة بأن تملأ، وبهذا تعرضت حرية الكنيسة للخطر، ومات الإيمان، وبغياب الراعي، ليس هناك من أحد يتولى عرض كلمة الرب، ويتولى حكم أرواحهم:

جواب الامبراطور: وفي جوابه قال الامبراطور بأنه يتمنى ويرغب، بأن يجري تكريس الكاتدرائية والكنائس الأخرى، مع شرط المحافظة على الامتيازات والمراتب التي تمتع بها الملوك من أسلافه حتى وقته هذا، الأمر الذي استخدمه بكثير من الاعتدال، فاق به أسلافه، وهو لم

يعارض قط ملاً الكنائس.

قضية الكنيسة: فيما يتعلق بالضرائب والمكوس التي تستخرج من الكنائس والديرة، بشكل معاكس لما قضت به بنود السلام.

جواب الامبراطور: إن العشور والضرائب التي تجمع من الأشخاص اللاهوتيين، هي ليست مفروضة على المقتنيات الكنسية، بل على الممتلكات الاقطاعية والوقفية، وفقاً للقانون العام، وهذا مطبق في جميع أنحاء العالم.

قضية الكنيسة: لا يتجرأ القساوسة على الترافع بالشكوى ضد المرايين، لوجود مرسوم امبراطوري.

جواب الامبراطور: لقد صدر مرسوم عام من قبل الامبراطور ضد المرايين، به أدينوا بشكل علني مع جميع سلعمهم، وقد جرت قراءته بحضور القساوسة، وبناء عليه إنهم غير معاقين ويمكنهم الشكوى بفعالية.

قضية الكنيسة: إن رجال الدين عرضة للاعتقال، والسجن، والقضاء عليهم بالاعدام، والاعدام.

جواب الامبراطور: إنه لا يعرف شيئاً عن رجال دين قد اعتقلوا، وسجنوا، ما لم يكن بعضهم قد جرى اعتقاله من قبل الموظفين الامبراطوريين، وسوف يسلمون للمحاكمة من قبل الأساقفة، وفقاً لطبيعة جرائمهم، أما بالنسبة للذين قتلوا، إنه بسبب استثناء رجال الدين والرهبان من العقوبة، فإن كنيسة فينيوسيوم Venusium، قد بكت لوفاة قسيسها، الذي قتل من قبل واحد من رهبانه، وفي كنيسة القديس فينسنت قتل راهب راهباً آخر، ولم يتبع ذلك لا إنتقام ولا عقوبة قانونية على الجريمة.

قضية الكنيسة: ما يتعلق بتدنيس الكنائس المكرسة للرب وتهديمها.

جواب الامبراطور: أوضح أنه لا يعرف شيئاً مطلقاً، ما لم تكن الإشارة قد عملت هنا إلى كنيسة لوسيريا Luceria، التي قال بأنها انهارت من نفسها، بسبب العمر، وهي التي لن يسمح الامبراطور فقط بإعادة عمارتها، بل كان أيضاً جاهزاً، من أجل شرف الرب، والكنيسة، شخصياً، لتقديم مساعدة مناسبة للأسقف، من أجل إعادة بنائها.

قضية الكنيسة: إنه لم يسمح بترميم كنيسة سورانو Sorano.

جواب الامبراطور: إنه قد سمح فقط لكنيسة سورانو بالترميم، وليس المدينة، وذلك على الأقل في أيامه، لأنها قد دمرت بموجب حكم قانوني.

قضية الكنيسة: إنه مراغمة لبنود السلام، جرى تجريد الذين وقفوا إلى جانب الكنيسة في أيام الخلاف، من مقتنياتهم، وطردهوا إلى المنفى.

جواب الامبراطور: إن الذين وقفوا إلى جانب البابا ضد الامبراطور، أثناء الخلاف، يسكنون في المملكة بأمان، ربما باستثناء الذين كانوا متسلمين لمناصب، أو كانوا من مسؤولي القضاء، فإنهم لخوفهم من تقديم حساب، قد بقيوا خارج المملكة، أو من الآخرين الذين مكثوا في الخارج حتى لا يدعون للمثول أمام القضاء من أجل أسباب إجرامية، وبالنسبة إلى هؤلاء إن الامبراطور على استعداد لقبول عودتهم آمين، إذا ما قدموا حساباً إليه، وإلى الآخرين الذين اشتكوا ضدهم (ليس — على كل حال — لوقوفهم إلى جانب قضية الكنيسة)، وينبغي — على كل حال — التذكر، أنه عندما جرى إعداد بنود السلام، قام البابا مراغمة لهذه البنود، وفي موقف معارض لآراء جميع الرهبان تقريباً، فاحتفظ بمدينة كاستيلانا Castellana، ولاحتفظ بها، ولايذاء الامبراطورية، تسلم مالاً، وذلك في الوقت الذي كان فيه الامبراطور

يعمل في خدمته ضد الرومان، ففي هذا المجال أنفق أكثر من مائة ألف مارك من الفضة، وحصلت الكنيسة على منافع كبيرة، وكذلك أيضاً من الأراضي التي أخذت من الرومان، أعيدت إلى الكنيسة، وكذلك من استرداد امتياز الكنيسة في المدينة، على أساس مرافعة الخدمة المتقدمة الذكر.

قضية الكنيسة: فيما يتعلق بحفيد ملك تونس، من أنه لم يسمح له بالوصول إلى الكرسي الرسولي، لحضور قداس التعميد، بل احتفظ به سجيناً.

جواب الامبراطور: لقد هرب حفيد ملك تونس من بلاد المغرب إلى صقلية، ليس من أجل التعميد، بل للنجاة من الموت، الذي هدد به من قبل عمه (خاله)، وهو لم يحتفظ به أسيراً، بل ذهب بموجب خياره من خلال أبوليا، ولدى سؤاله عما إذا كان يرغب بالتعميد، أنكر قبول ذلك كلياً، وإنه إذا كان — على كل حال — لديه رغبة بالتعميد، فإن الامبراطور قد سمح بذلك بكل سرور، وهذا ما كان قد ذكره من قبل حول هذه المسألة إلى رئيسي أساقفة باليرمو (بلرم)، ومسينا.

قضية الكنيسة: فيما يتعلق ببطرس المسلم، الذي هو خادم مخلص للكنيسة والذي احتفظ به سجيناً، وهو في رحلة لصالح الكنيسة، وكذلك فيما يتعلق بالراهب جوردان، الذي احتفظ به أيضاً سجيناً.

جواب الامبراطور: إن بطرس المسلم قد اتخذ سجيناً من قبله، لأنه عدو، ومفتري ضده في المدينة وفي كل مكان آخر، وهو لم يقدم بمهمة عمل لصالح الملك الانكليزي، بل جلب فقط رسائل منه، يتوسل إلينا، أنه إذا ما حدث وأخذ أسيراً، أن يبدي الرحمة نحو الأسير، لكننا لم نول الاهتمام لهما، لأن ذلك الملك لم يعرف أية خيانة قد تأمر بها بطرس المذكور ضدي، وفيما يتعلق بالراهب جوردان، أوضح الامبراطور أنه لم

يعتقله، أو أمر باعتقاله، مع أنه قد أساء إليه في قداساته، لكن بما أنه ظهر لبعض رعيته، أن وضعه وإقامته في تخوم تريفيسو ولومبارديا سوف يكون مؤذياً للامبراطور، وبعدها قدم ضمانه بأنه لن يبقى في التخوم أو في لومبارديا، أمر هو — الامبراطور — بإطلاق سراحه، وتسليمه إلى رئيس أساقفة مسينا، إذا كان على استعداد لتسلمه، بناء على الشروط الذي ورد هنا ذكرها.

قضية الكنيسة: إنه أثار اضطراباً في المدينة ضد الكنيسة، كان بوساطته يسعى لطرد الحبر الروماني وإخوانه من كرسيهم، وحاول بشكل مضاد لامتيازات، وكرامة، وشرف الكرسي الرسولي، أن يدوس على حرية الكنيسة.

جواب الامبراطور: أنكر أن أي اضطراب قد أثير في المدينة ضد الكنيسة من قبله، ذلك أنه واحد من الرعايا الصالحين في المدينة، مثلما كان أسلافه، كل من الأمراء الرومان وملوك صقلية، ومثلما اعتادوا أن يعملوا، لأنه يحدث في بعض الأحيان أن بعض الشيوخ الذين انتخبوا من قبل أعدائهم، بذلوا جهودهم لمعاداتهم، لذلك وقف دفاعاً عنهم، كما يتوجب عليه أن يفعل في قضايا مماثلة، وذلك حسبما يكون في الغالب مناسباً، ولكن عندما ينتهي السبب، أي عندما يجري انتخاب شيخ آخر بموافقة عامة، يتوقف الاضطراب المذكور أعلاه، حسبما ظهر من القضية نفسها، وفقاً لشهادة رئيسي أساقفة باليرمو (بلرم)، ومسينا.

قضية الكنيسة: إنه أعطى أوامر إلى بعض رعيته من أجل حبس أسقف برانستي Praeneste، الذي كان نائب الكرسي الرسولي.

جواب الامبراطور: إنه بالنسبة لإعطاء أمر باعتقال أسقف برانستي، هو لم يأمر قط بذلك، ولا حتى حلم بفعل شيء من هذا القبيل، مع أنه يمتلك التسويغ لفعل مثل ذلك له، لأنه عدوه، فهو مع أنه أرسل بمثابة

رجل دين من قبل البابا، قام على الرغم من ذلك بناء على أوامر البابا، كما قال، بشكل مضر، فأثار جميع لومبارديا إلى حد كبير ضده — أي الامبراطور — وشجع اللومبارد على الوقوف ضده، بقدر ما امتلك من قوة.

قضية الكنيسة: أعيقت الحملة الصليبية من قبله، بسبب الخلاف الذي وجد مع بعض اللومبارد، مع أن الكنيسة كانت مستعدة لتقديم عونها، وكانت تسعى بشكل فعال لإرضائه شخصياً ولكي ترضي كرامة الامبرطورية بشكل فعال، بسبب الاعتداءات التي اقترفت ضده من قبل اللومبارد، لابل حتى اللومبارد أنفسهم، كانوا مستعدين لفعل هذا، ومن المتوجب سؤاله حول هذه النقاط ومن ثم إعلامنا بجوابه.

جواب الامبراطور: قال الامبراطور: إنه بالنسبة لقضية لومبارديا، بأنه قد أحالها مراراً إلى الكنيسة، غير أنه لم يحصل على أية فائدة من ذلك، اللهم مالم يكن أنه في المناسبة الأولى قضي على اللومبارد، أن يقدموا أربعائة فارس، أمر البابا بأن يزود بهم، بطريقة أنه أرسلهم إلى المملكة ضد الامبراطور نفسه، وفي المناسبة الثانية، أغرموا بخمسمائة جندي، هو لم يأمر بإرسالهم إلى الامبراطور، الذي ضده اقترف العدوان، بل أمر بإرسالهم إلى ماوراء البحر، تحت حماية البابا والكنيسة، وبناء على أمرهما، مع أن البابا لم يكن معرضاً للعدوان، ومع ذلك هذا لم يحدث، وفي المناسبة الثالثة، وبناء على طلب من الكاردينالين وهما: الأسقف المتقدم لسابينوم Sabinum، والمعلم بطرس أوف كابوا، اللذان منحهما البابا سلطات كاملة، فقد أحيل العمل المذكور إلى الكنيسة، ولم يقل بعد ذلك ولا كلمة واحدة حول القضية، باستثناء أنه عندما علم البابا، بأن الامبراطور — الذي غالباً ما خدع من قبله — كان مستعداً للنزول مع جيشه من ألمانيا إلى إيطاليا، عندها رجاء بحرارة بأن يعهد بالقضية ثانية إليه، ومع أن الامبراطور، غالباً ما عانى من جنوح السفينة، في اسناد

المسألة المذكورة إلى الشخص نفسه، كان مع ذلك على استعداد لإحالتها له في يوم محدد، على شرط أن تثبت لصالح شرفه، ولصالح منفعة الامبراطورية، وهذا الشرط، كما ظهر من رسائل البابا، قد رفض أن يقبله، مع أنه يقول الآن في رسائله، بأن الكنيسة كانت مستعدة لتقرير القضية، أي بأن تحافظ على حق الامبراطورية وعلى شرفها، ويظهر من هذا بأن البابا ورسائله يعارض أحدهما الآخر بشكل مكشوف تماماً، ولكي لا يدعى بأن الامبراطور يرغب في تجديد إدعاءاته بايطاليا، من أجل إلحاق الضرر بالأرض المقدسة، كيف إذا حمل صاحب السيادة الامبراطور الصليب، وبعد ذلك لم يهمل الذي تولاه، وهذا واضح برسائله الجوابية التي كتبت إلى مختلف الملوك في جميع أرجاء العالم، وإلى الصليبيين الذين اختاروه سيداً لهم وقائداً، وفي هذه الرسائل هو أيضاً ردّ عليهم حول المسألة المذكورة، بأنه يرغب بإدارة ذلك العمل وتدبره وفقاً لنصيحة الكنيسة، وعلاوة على هذا أضاف الامبراطور في ردّه، بأن الذي هو أكثر فوضوية، وأكثر إثارة للعجب والدهشة لكل من سمع بها، هو أنه بعد مغادرة رئيسي الأساقفة المتقدمي الذكر، أي رئيس أساقفة باليرمو (بلرم) ومسينا، اللذين إليهما كان البابا قد وعد بأن يمدّ خطوة الكنيسة لصالح الامبراطور، وأنه ذكر بأنه يرغب أن تكون له منافع مشتركة، أما الامبراطور، فمن جهته لم يقيم بنشاط كبير لتنفيذ هذا، بعد إعطاء جواب فيه كفاية لرئيسي الأساقفة المذكورين فيما يتعلق ببعض النقاط التي عرضت عليه، كما هو واضح بافادتيهما، جرى إرسال هذه الرسائل وأبلغت هذه العناوين إلى القساوسة، من وراء ظهري رئيسي الأساقفة المذكورين، ولتسبب الارباك لهما، بحكم أنهما كانا جاهلين تماماً بالذي صنع، ومع أن هذه الرسائل تحتوي نوعاً من التحذير، هي تحتوي على براهين فيها تشهير بسمعة الامبراطور، وأخيراً ادعى الامبراطور في جواب عام، بأنه وإن كان غائباً عن المملكة، وكان جاهلاً بأحوالها، هو سوف يصدر أوامر، بأن أية أضرار قد ألحقت

بالكنيسة (بقيت لكي يجري اظهارها) يتوجب إصلاحها تماماً من دون أي خلاف، وعلاوة على ذلك، إنه في سبيل المنفعة العامة، التي تنتج من الاتحاد بينه وبين الكنيسة، هو على استعداد لإعطاء الكنيسة كل الحماية، التي تجعل من الكنيسة والامبراطورية واحداً، وذلك في سبيل شرف ورفعة شأن الإيمان المسيحي، ولحفظ شرف الكنيسة وحريتها سوف يبذل غاية جهده حتى يكون هو وهي واحداً. صدر، إلخ».

شكاوى الإمبراطور من الأضرار

التي ألحقت به من الحبر الأعظم

عندما جلبت هذه الأجوبة إلى البابا، اشتعل غضبه، وفي تسويغ لنفسه، عدّ جميع المناظرات المتقدمة عبثية، ومراوغة عقيمة، واستخف بها ورفضها كأنها مجرد حكاية، ثم إنه كتب إلى أمراء المسيحية وإلى نبلاء العالم المسيحي، من علمانيين ولاهوتيين، وحلّل جميع الذين كانوا مرتبطين بالولاء مع الامبراطور فردريك، من إطاعته على أنه مولاهم، كما أنه تدبر نشر القرار الذي صدر ضد الامبراطور المذكور، بشكل مهيب في جميع البلدان التي كانت مطيعة له، ولاسيما في جميع أرجاء انكلترا، وأساء إليه وشوّه سمعته بشكل جاد، حيث أعلن عنه أنه عدو مكشوف للرب وللكنيسة، ووصلت بالحال أخبار عن هذا إلى الامبراطور وبناء عليه حزن كثيراً، وكتب إلى أصدقائه كما يلي، مقدماً شكاوى ثقيلة ضد البابا.

رسالة الامبراطور

«من فردريك، إلخ، إلخ: نحن نتحدث من دون رغبة، غير أننا لانستطيع المحافظة على سلامنا، لأن الفأس قد وضع الآن على جذر الشجرة، والسيف قد خرق الروح تقريباً، ففتح شفاهاً وأطلقها، وعلينا أن نكتب كيف أن الشرور قد كسبت حق القانون، ونحن نشعر بالحزن

لأن الأناس المتمردين قد رفعوا أيديهم اليمنى ضد أحشائهم، والخطأ مفضل على الصواب، والإرادة قد انتصرت على العدالة، لأن الشعوب تسعى الآن لطرد حاكم إيطاليا، والصولجان الامبراطوري، وهم غير واعين لمنافعهم فرضوا الحرية غير المسوغة وغير المحدودة على هدوء السلام، وفضلوا ذلك على الانصاف والعدل، ولاتظن على كل حال بأن هذا التمرد نحن من تسبب به أولاً، لأننا نحن نقوم بالانتقام للأذى الذي لحق بأجدادنا وبآبائنا، ونسعى لقمع مجمل هذه الحرية المقيتة، التي امتدت إلى مناطق أخرى، ولاتظن، أننا تمكنا بأية وسائل حتى الآن، من اخفاء هذه الأشياء، كما أننا لم نتجاوزهم بأعين القناعة، لأننا ما ان بلغنا مبلغ الرجال، وبدأت فضائل العقل والجسد تتوهج في داخلنا، حتى جرى ترفيعنا إلى المرتبة الامبراطورية، فوق جميع آمال البشر، وبإرادة من الحكمة الربانية وحدها، ووقعت مملكة صقلية، الميراث الطيب من أمنا في حوذتنا، ووجهنا بصيرة عقلنا إلى المسائل المتقدم ذكرها، وبعد أمد، وفي سبيل تحقيق هدفنا، وبسبب المأساة المروعة بفقدان دمياط في ذلك الحين، وبعد التشاور مع الأب المبجل أونوريوس، الحبر الأعظم في فيرولي، وبموافقة عامة، رأينا أنه من الموافق من أجل رفع شأن أحوال الأرض المقدسة، وفي سبيل إصلاح الامبراطورية، أن نعقد بلاطاً خاصاً في فيرونا، على أن نكون نحن وكذلك البابا المتقدم الذكر حضوراً، وتغيرت هذه النية، نظراً لتقلبات المجلس، والحالة المستمرة لاضطراب الأوضاع في ذلك الوقت، ولكن بما أننا لم نكن نرغب في التخلي عن مثل هذه النية الطيبة، وبعد عقد اجتماع آخر مع البابا في فيرينتينو Ferentino، حددنا موعداً لعقد بلاط في كريمونا، إليه دعونا ابننا، وعدداً كبيراً من مقدمي امبراطوريتنا، مع حاشية موائمة من الفرسان، ومع ذلك فقد جلبنا معنا رتلاً كبيراً من الفرسان من المقاطعات الإيطالية، وذلك حسبما هو لائق بشرف المكانة الامبراطورية، ويمثل هذه القضية العظيمة، ومنذ ذلك الحين، بدأ

اللومبارد بالتمرد ضدنا، وضد شرفنا، بروح مضادة، وبمشاعر شاذة، وقد تظاهروا بالخوف، لأننا كنا محاطين برجال مسلحين، وقد رفضوا طاعتنا، بحكم أننا مولاهم الشرعي، وبإغلاق الطرق أعاقوا دخولنا إلى إيطاليا، وأزاحوا ولدنا والمقدمين من أمام أنظارنا، ولزيادة شرورهم، مع أنها خفية وخيانية، أضافوا الاستهزاء، والإهانة المفتوحة، لأنهم في مؤامراتهم ضدنا وضد الامبراطورية، شكلوا — على الرغم من كوننا موجودين بينهم — مؤامرات شائنة، وهكذا أحبطت توقعاتنا في رؤية ولدنا، فعندنا في هذا الحال إلى أبوليا، لأن الوقت قد ضغط آنذاك من أجل عمل استعداداتنا للجواز عبر البحر، الأمر الذي كنا ملتزمين به بعهدنا، وعهدنا بهذه القضية، استناداً إلى الترضية التي عملت لنا وإلى الامبراطورية، لأن يجري تقريرها بموجب قرار من الخبر الأعظم، الذين بقرار منه قد فرض عليهم تزويدنا على نفقتهم بخمسمائة جندي من أجل الخدمة في الأرض المقدسة، وبذروا في البداية الخلاف بين الكنيسة وبين الامبراطورية، فأرسلوهم إلى داخل أبوليا ضدنا، وهكذا بحركة ارتدادية بالترضية ضاعفوا ضررهم المتقدم، وعندما عدنا من مناطق ما وراء البحر، وبعد تسوية الخلاف بيننا وبين الكنيسة، بقينا ملتزمين بغايتنا في إصلاح أوضاع الامبراطورية، وبموجب نصيحة من أبينا الأعظم قداسة، الخبر الأعظم غريغوري، حددنا لعقد بلاط عام في رافينا، وسرنا إلى هنالك مع حاشيتنا المنزلية فقط، ومن دون سلاح، في سبيل إزالة جميع أسباب الخوف الطائشة، من وجود رجال مسلحين، وهناك لم يقتصر عمل اللومبارد المتقدم ذكرهم على عدم تقديم علامات الاخلاص والطاعة، بل ألقوا أمام أعيننا جانباً الاحترام الجدير بشخصنا، ونشروا رايتهم وسعوا بعنف لإهانة مدينة فيرونا، واكسيلينو Eccelino، اللتان انضمتا مؤخراً إلينا، خروجاً عن طاعة الرومان، ومنعوا أيضاً ولدنا من القدوم إلينا، وكذلك نحن من الذهاب إليه، وذلك خلال مناطق الامبراطورية، وبوساطة طرقها (والتي مع أنها لهم،

كانت عامة لاستخدام الجميع)، وهكذا لم تتمكن عين الأب من رؤية الابن، وبتحريض من العاطفة الأبوية، التي لا يمكن كبجها، عهدنا بأنفسنا إلى الحظوظ المريبة لعبور البحر، وذهبنا إلى أكويليا، بغرض رؤية ولدنا الحبيب والمقدمين، وباخلاص منهم قدموا إلينا، ولم نتخل حتى في ذلك الوقت عن رحمتنا الثابتة، بل وضعنا جانباً كل غضب، بسبب هجمات أعدائنا ومجدداً عهدنا بإقرار هذه القضية إلى الكنيسة، وقد رفعنا بينهم أبواق عدم الطاعة عوضاً عن الخطبة فيهم، كما كنا ننوي، لإعطاء مثل عن تواضعنا، ولقد أعطونا تمرداً عوضاً عن الطاعة المستحقة لنا، وعدم إخلاص عوضاً عن الاخلاص، كما أن ما من غضب حول القضايا المتقدم ذكرها أعطاهم فهماً.

ظهور مذنب

وفي العام نفسه، وفي عشية عيد القديس جيمس، ومع حلول الظلام، وقبل ظهور النجوم، شوهد في السماء الزرقاء الصافية، نجم كبير مشتعل، نهض من الجنوب، وطار بشكل مستقيم، لكن ليس نحو الأعلى، ومر خارقاً الهواء، شاقاً طريقه نحو الشمال، ليس بشكل سريع، بل مثلما يطير العقاب، وعندما وصل إلى منتصف قبة السماء، الذي هو نصفنا، اختفى، مخلفاً وراءه دخاناً أو شرراً في الهواء، وكان هذا النجم إما مذنباً أو «دراغون» أكبر بالنسبة للعين من الزهرة، وله شكل سمكة من سمك البوري، مشع كثيراً من معظم أجزائه الأمامية، غير أنه في الجزء الخلفي دخاني وله شرر، وأصيب جميع الذين شاهدوا هذه العلامة الرائعة بالدهشة، ولم يعرفوا بما هي منذرة أو مبشرة، وشيء واحد هو مؤكد، هو أن الموسم بعدما كان على وشك الاختناق بسبب الأمطار المتوالية، تغير هذا الموسم في هذه الساعة بالذات إلى واحد من أكثر المواسم خصباً، وحفظ الموسم الناضج، الذي كان فقط ينتظر المنجل، والقيام بجني المحصول وجمعه.

مغادرة سيمون إيرل ليستر إنكلترا لأنه جنى غضب الملك

وفي حوالي ذلك الوقت، وبالتحديد في اليوم التاسع من آب، وصل إلى لندن بعض السيدات النبيلات لمرافقة الملكة إلى الدير من أجل طهارتها، حسبما كانت هي العادة، وعندما وصل سيمون دي مونتفورت، إيرل أوف ليستر مع زوجته، دعاه الملك باسم رجل محروم كنسياً، ومنعه وكذلك منع زوجته، التي لوئها بشكل دنيء وفاضح، قبل عقد الزواج بينهما، منعه من الحضور أثناء الاحتفالات الوقورة، وبعدما منعه من الاقتراب منه، غادر الايرل مهاناً ومعه زوجته، وبادر مسرعاً عبر الماء إلى بيته (الذي كان قصر أسقف وينكستر المتوفى، والذي بكرم أعاره الملك إياه ليعيش فيه)، وأمر الملك بطردهما على الفور بالقوة، ومع أنها عادا إلى الملك يرجوان عفوهم بدموع ونحيب، لم يتمكنوا من إطفاء غضبه، لأنه قال له:

«أنت أغويت أختي قبل الزواج، وعندما اكتشفت ذلك، أعطيتها لك بالزواج، مع أن ذلك كان ضد إرادتي، حتى أتجنب الفضيحة ولكي لا يعيق نذرهما الزواج، ذهبت إلى روما، ورشوت البلاط الروماني بهدايا ثمينة وبوعود كبيرة، حتى يمنحك الإذن لفعل ما هو غير شرعي، ورئيس أساقفة كانتربري حاضر هنا، ويعرف هذا، وقد أبلغ بحقيقة القضية إلى البابا، ولكن الحقيقة غلبت بالرشوات المتوالية، وهزمت أمام الشره الروماني، وبسبب إخفاقك في دفع الأموال التي وعدت بها، حرمت كنسياً، ولكي تزيد حجم شرورك، قمت بوساطة بينة مزيفة، فسميتني الضامن لك، من دون استشارتي ودون أن أعرف شيئاً حول القضية»، ولدى سماع الايرل هذه الكلمات قهره الخجل، ومع نهاية النهار، ركب في قارب صغير فوق التيمس مع زوجته وحاشية صغيرة، وسار بكل سرعة إلى شاطئ البحر، وأبحر من هناك على الفور من إنكلترا.

عقد مؤتمر في لندن بين أساقفة انكلترا وبين النائب البابوي

وفي هذه الآونة نفسها، وفي التحديد في الحادي والثلاثين من تموز، اجتمع جميع الأساقفة في لندن، للبحث في مظالم الكنيسة، لأن النائب البابوي بعد جبايات يومية، كان الآن يطالب بوكالات، وبعد عقد المؤتمر، أجاب الأساقفة برأي واحد بأن المطالب الملحة للرومان قد أنهكت ممتلكات الكنيسة، ولم يعد بإمكانهم التحمل أكثر مثل هذه المطالب، وقالوا:

«ليقم بإمدادك الذي دعاك من دون استشارة أي واحد حول القضية»، وهكذا تركوا المؤتمر، لكن ليس من دون تمتمة بعدم الرضا.

ذهاب النائب البابوي إلى سكوتلندا

وعمل في هذه الآونة النائب البابوي الاستعدادات، من أجل مغادرة سريعة إلى سكوتلندا، وبعدما قام بالترتيبات الضرورية، وبعدما أرسل أدلاء انكليز، للكشف عما إذا كانت هناك أية مؤامرة خيانية مدبرة ضده، شرع برحلته إلى هناك، مختاراً إقامات منظمة في الرعويات الديرية، وفي الكنائس الكاتدرائية، وقبل أن يدخل إلى الأراضي السكوتلندية، قوبل من قبل ملك تلك المنطقة، الذي لم يكن مسروراً لدخوله إلى مملكته، لأنه قال بأن مامن نائب بابوي قد دخل قط إلى سكوتلندا باستثنائه هو وحده، كما أنه أعلن، أنه ليست هناك من حاجة لفعله هكذا، لأن المسيحية قد ازدهرت هناك، وكانت الكنيسة في أوضاع متنامية، وأخيراً وبعد تضاعف المناقشات، وبعدما أثير الملك إلى حد منعه من الدخول إلى مملكته، تم الوصول إلى اتفاقية مكتوبة، جرى إعدادها بواسطة بعض النبلاء بينهما من كلا المملكتين، كان فحواها بأن مثل هذه العادة لن تصبح مسألة جارية بسبب قدومه إلى هناك، وعلاوة على ذلك يتوجب عليه توقيع هذه الكتابة عند مغادرته، وجرى ترتيب

هذا حتى لا يعود إلى انكلترا بحال مضطرب، وكأنه رجل مطرود، ولم يقيم — على كل حال — بعبور البحر، بل بقي في المدن الغنية على هذا الجانب من البحر، حيث رتب جميع القضايا اللاهوتية حسب رغبته، وجمع مبلغاً كبيراً من المال، وبعد ذلك، وعندما كان الملك في المنطقة الداخلية، قام بالمغادرة بشكل سري، ومن دون إذن الملك، وأخذ الاتفاقية المكتوبة، المتقدم ذكرها، معه.

قراءة قرار الحرمان الكنسي الصادر ضد الامبراطور في إنكلترا

وعندما كان النائب البابوي على طريقه نحو سكوتلندا، ذهب إلى بيت هيئة الرهبان في سينت ألبان، وبعدما قام أولاً بالوعظ بقداس بمناسبة صعود العذراء المباركة (لأن هذا وقع خلال ثمانية ذلك العيد)، تولى حرمان الامبراطور كنسياً، لأن الرهبان كانوا قد حصلوا على رسائل تعفيهم من أداء هذا الواجب، وجرى في الوقت نفسه حرمان الامبراطور المذكور كنسياً بشكل مهيب، ولعدة مرات في كنيسة القديس بولص في لندن، وذلك بوساطة إجازة معتمدة من البابا، جرى إرسالها إلى النائب البابوي.

رسالة حادة من البابا ضد الامبراطور أرسلت إلى النائب البابوي

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى ولده المحبوب أوتو، الكاردينال الشماس لسينت نيقولا في كارسير Carcere، توليانو Tulliano، نائب الكرسي الرسولي، صحة ومباركات رسولية:

الكرسي الرسولي، مثله مثل بقية العالم كله تقريباً، قد علم ببيانات الحقيقة، أن الكنيسة منذ أن تسلمته من رحم أمه، على ركبتيها، قد أرضعت بعواطفها الأبوية الامبراطور فردريك، وحملته بين ذراعيها، وتلقته ليتربى تحت حمايتها، وهو الذي كان من قبل بلا أمل تماماً، ومهملاً، وموكلاً إلى مستقبل مشكوك به، ووقفت بكل قدرتها ضد

جميع غزاة مملكته، الذي ألقوا بأعين الشره على أراضيهم، والذين كانوا قد دخلوا إلى داخل حدود أراضيهم، وكانوا يقدمون إدعاءات بها من دون معارضة، وحميناه من الذين تأمروا ضد حياته، لأنهم حسدوا خلاصه، وكانوا يسعون لوضع حداً لحياته، وليجتثوا ذكره من على وجه الأرض.

وعندما وصل الامبراطور المذكور إلى عمر أكثر نضوجاً، مدافع عنه بوساطة ترس الحماية اللاهوتية لكل من شخصه وللمملكة، وكان قد جرى ندب غ. G, دي غولغانم Gualganem, صاحب الذكرى الطيبة، والكاهن في هيئة كهنة القديس أناستاسيوس، والكاردينال، فقد بقي مناباً لعدة سنوات، ليكون مسؤولاً عنه، وذلك من قبل الكرسي الرسولي، ورفع أخيراً بوساطة الكرسي المذكور إلى قمة المناصب، ولكن يبدو أنه قد فقد منافع العناية التي أضفيت على شخصه، ونسي المتاعب التي عانت منها الكنيسة لصالحه، وذلك منذ أن أصبح ناسياً لمثل تلك المنافع، وغير ممتن لمثل ذلك المعروف العظيم، وكنا نرغب أنه لم يتجاوز حدود النكران للمعروف بشكل متوازن، الذي يكون به مكتفياً بنكران أن تلقى مثل تلك المنافع جانباً، بالإضافة إلى هذا إن كل ذنب يجعل الإنسان يشعر باللدغة المريرة للأسف، وهذا — على كل حال — كيف حل النكران محل الإحسان، وعاد الشر بدلاً من الصلاح، ضارباً بسلاح ثقيل، ومع أن الكرسي الرسولي يحبه، وقد رفعه إلى قمة السلطة المدنية، مع هذا فإنه نظراً لذنوبه الملحة، التي مع أننا في الغالب، حللناه منها، قد رفض التكفير عنها، وهكذا أرغمنا، فأقدمنا ونحن غير راضين على توبيخه، لأنه مع أن الحكمة الربانية قد رفعت آدم إلى أعلى المراتب والسلطة، ووضعت جميع الأشياء المخلوقة تحت سلطانه، مع ذلك لأنه تجاوز أوامر صانعه، لم توفر خطيئته، والتعويضات التي تسلمتها الكنيسة من فردريك المتقدم الذكر على جميع

المنافع التي أضفيت عليه، لانرغب أن تكون جاهلاً بها، وسوف نعرض في هذه الرسالة أمثلة قليلة من بين الكثير.

فقد أثار في المدينة اضطراباً شديداً، وسعى بكل الوسائل التي توفرت لديه وفي قدرته، لمنعنا مع إخواننا واخراجنا من هناك، وبهذا جلب الإهانة إلى الكرسي الرسولي، وداس على حرية الكنيسة نفسها، وخرق بطيش الأيمان التي كان قد قطعها على نفسه، وقد تسبب بإعاقة أخينا المحترم أسقف برانستي، وإيقاف رحلته بوساطة بعض رعيته، وكان ذلك أثناء ارسال ذلك الأسقف إلى مناطق الألبانيين من أجل تقوية الإيمان الكاثوليكي، كما أنه لم يسمح ولا بأي شكل من الأشكال بملأ الكاتدرائيات والكنائس الشاغرة في مملكته، مسبباً بذلك الرعب والأذى الشديد لأرواح المؤمنين، ولم يكتف بهذا بل نهبهم وجردهم وجرد كنائس أخرى من جميع مقتنياتها، وفرض ضرائب واستخرج مكوساً ثقيلة من القساوسة، والرهبان، ومن رجال الدين العلمانيين الآخرين، وجرى انزال النبلاء، والقوم الفقراء، واليتامى، والأرامل إلى أقصى درجات الدمار، ولم تمنحهم قسوة وشدة جباياته ولا حتى فرصة للتنفس، وهكذا أنزل — بقدر ما استطاع — مملكته كلها إلى رماد وخبث، التي هي الوقف الروحي للقديس بطرس، والتي من أجلها هو مرتبط بيمين التبعية للكرسي الرسولي، وهو من مقطعيه، وبما أنه، بعد تلقيه التحذيرات من قبلنا، لم ير أن عليه أن يقوم سلوكه، فإننا سوف نقوم بعون الرب، بالتعامل مع القضية، حسبما نرى ذلك مناسباً، وبالإضافة إلى هذا لقد أعاق قضية الأرض المقدسة والامبراطورية الرومانية، ومع أنه، في الأيام التي كان السلام قد أعيد تأسيسه بينه وبين الكنيسة، قد أقسم على ידי نواب الكرسي الرسولي في أن يطيع أوامر الوصاية التي تلقاها منهم، قد رفض تنفيذ الوصاية التي تسلمها منهم، ولا بأي شكل من الأشكال، أو السماح لهم بشغل الأراضي المصادرة

والتابعة للكنيسة، أو أراضيهم التي استولى عليها ووضعها بين يديه، لابل استولى على أراضي الكنائس، وخاصة أراضي فيرارا Ferrara، وبولونا Bologna، وفوسينانو Fusignano، في لومبارديا، ومنطقة سردينيا، ومسينا، ولوكا، ولقد استولى على الأسقفيات، وخلع الأساقفة، واستبقى الكنائس لنفسه، ونهب أراضيهم وعاث فيها فساداً على الرغم من أن النواب البابويين قد تفوهوا بقرار الحرمان الكنسي ضده، وفي حضوره، وذلك إذا لم يعمل في هذه القضية وفق أوامرهم.

ومجدداً يحتجز هذا الامبراطور سجيناً لديه حفيد ملك تونس، الذي كان قادماً إلى بلاط كنيسة روما، ليتلقى طقوس التعميد، كما أنه فعل الشيء نفسه مع ابننا المحبوب، بطرس المسلم، والمواطن الروماني النبيل، اللذين قد أرسلنا إلينا من قبل ولدنا المحبوب بالمسيح، الملك المشهور لانكلترا، ولقد كانا قادمين إلى الكرسي الرسولي، ومثل ذلك فعل بابن بطرس المذكور، ومع أنه تلقى التنبيه مراراً من قبلنا، لم يشعر بوجوب القيام بالإصلاح المخلص، وبما أن قروح ذنوبه أصبحت أشد قسوة، وصار يقدم يومياً على اقتراف المزيد من الجرائم الأسوأ، وبما أننا لم يعد بإمكاننا التحمل مدة أطول — دون أن نذنب بحق المسيح — ولا أن نمر مرور الكرام بهذه الأشياء ونحن صامتين، وبوساطة نصيحة إخواننا، وباسم الرب القدير (الذي نحن نائبه على الأرض)، وبوساطة سلطتي المباركين: بطرس وبولص، وبموجب سلطاتنا — ومهما كنا غير راغبين — لقد رأينا من المناسب إعلان قرار الحرمان الكنسي، وقرار الحرمان من شراكة المؤمنين والتكفير ضد الامبراطور فردريك المذكور، والعهد به إلى الشيطان، حتى لا يمكن تخليص روحه في يوم الرب، بعد وفاة جسده، وبالنسبة إلى جميع المرتبطين به بيمين الولاء، نحن نرسم بتحليلهم من مراعاة هذا اليمين، مادام مغلولاً بسلسلة الحرمان الكنسي، وطوال بقاءه كذلك، وبناء عليه نحن نذركم، ونحثكم بناء

على اخلاصكم، ونأمركم بوساطة هذه الرسائل الرسولية، أن تتدبروا نشر قرار الحرمان الكنسي والتكفير المتقدم الذكر، بشكل مهيب، في كل يوم أحد، وفي كل يوم عيد، والأجراس تقرر، والشموع مشتعلة، وأن تتدبروا نشر التحليل المذكور مع الحظر، والتفوه بهما في جميع أنحاء نيابتك الرسولية، وحين تنفذ أوامرنا وفق هذه الطريقة، فإن اخلاصكم يستحق المكافأة من قبلنا، ومجدداً بما أن فردريك المتقدم الذكر أصبح مشهوراً بسبب جرائم أخرى عظيمة وثقيلة، نحن سوف نتابع السير في هذه المسائل، في وقتهم المحدد ومكانهم المعين، وذلك حسبما تتطلبه طبيعة القضية، وبما أن صوت الرعب يصرخ دوماً في أذني الشرير، والأشرار دوماً يتوجسون من الخيانة حتى عندما يكونون في أوضاع سلام، لأن الضمير المضطرب يتوقع دوماً الشر، نجد أن فردريك المذكور، حتى قبل إعلان قرار الحرمان الكنسي ضده، قرر أن يرسل بعض الرسائل إلى إخواننا، وهي الرسائل التي أشير جزئياً إليها من قبل، والتي وصلت إلى علمنا وإلى علمهم، بعد صدور القرار المذكور، وبما أن الرب يتولى دوماً كشف الأشياء المخفية والمخباءة في الظلام، وإباحة أسرار جميع القلوب، قد رغب في كشف الأفكار الخفية لقلبه، ذلك أننا استنتجنا من محتويات تلك الرسائل أية تقوى يشعر بها نحو الكنيسة الرومانية التي هي أمه، وأي احترام أو تقدير متوفر لديه للحبر الأعظم ولإخوانه وللكرسي الرسولي، الذي هو من أتباعه الاقطاعيين بالنسبة لمملكته، لأنه كما يبدو قد تأمر ضدنا وضدهم، وظهر من ذلك بما فيه الكفاية أية نوع من الجرائم، وكم هي كبيرة الجريمة التي اقترفها، وكان بين كثير من الأشياء الواردة في رسالته هذه الكلمات المقحمة:

«وبناء عليه نحن نتحجب، ليس من دون سبب مسوغ، لأن الأب الرسولي يسعى بشكل جاد لإلحاق الضرر بنا، لأنه عندما ينزل مثل هذا الأذى على إنسان ثابت، ومع أننا نرغب بتحمل ذلك بصبر، إن

ضحامة الذنب لا تسمح لنا بفعل ذلك، بل إن عنف الواقعة يرغمنا على أخذ الانتقام، الأمر الذي اعتاد القياصرة أن يمارسوه»، وإننا — على كل حال — عندما نقدر انعدام صبر المهاجم، والوضع الصعب للمدافع، وإذا سمح لنا بحياد، أن نضع بالممارسة الانتقام الخاص الذي يمكن أن نمارسه على الرجل الذي كان أصل هذا العدوان وحلفائه بالدم، علينا أن نعتقد أنها أكثر احتمالاً، وأن محاولة إلحاق الأذى بكرسينا سوف تطاله وتنزل به وبالذي له، لكن بما أنه لاهو ولا جميع بني قومه، هم الذين سوف يعانون من أجل هذا، سوف يكون عظيم الأهمية بأن تكون جلالة الامبراطورية متشوقة جداً من أجل معاقبتهم، وبما أن سلطات الوضع قد سحبت كل الموانع من الوقاحة، ويبدو أن وزن العدد الكبير للإخوان المحترمين يدعمه على الثبات في العناد الذي تصوره مسبباً للغضب الذي ما يزال يزعج عقلنا بعمق أكبر، ذلك أننا مادمننا نسعى لحماية أنفسنا من أي مهاجم، نحن قد أرغمنا في الدفاع عن أنفسنا، بأن نعطي هجوماً أعظم بوساطة مقاومتنا. صدر في اللاتيران، في الحادي عشر من نيسان، في السنة الثالثة عشرة لحيريتنا.

الغضب العظيم للإمبراطور ضد البابا وشكائاته الثقيلة ضده

وعندما أخبر الامبراطور بهذا التشويه لأخلاقه، وفي أنه طاغية وليس ملكاً، ثار غضبه — ليس من دون سبب — أكثر فأكثر ضد الميلانيين، وضد الخونة الآخرين له، الذين ساعدتهم البابا بشكل مؤثر، وشجعهم ضده، وأصبح الميلانيون أكثر جرأة، بسبب المساعدة التي قدمها لهم البابا، ووجدوا أن المسألة هي مسألة حياة أو موت، فأقلعوا بهجمات شديدة جداً، يرافقهم نائب بابوي، كان قد أرسل من قبل البابا لمساعدتهم، وعندما كان الامبراطور قد ذهب إلى مناطق نائية، استولوا بالقوة على فيراراً، ومدن أخرى، وقلاع تابعة للإمبراطور، ونهبوا المناطق المجاورة ونشروا الدمار والموت، والذين تعرضوا للحصار، قوبلوا من

دون رحمة، ومع أنهم توسلوا إلى النائب البابوي بدموع، في أنهم إذا ما سلموه مدتهم ومقتنياتهم كلها، ووضعوها بين يديه، أن تستثنى أشخاصهم وحدها باسم الرب، ولم يصغ إليهم، مالم يخضعوا أنفسهم وممتلكاتهم إليه بشكل كامل ومن دون شروط، واعترت الدهشة العظيمة رجال الدين المقدسين والرهبان، الذين سكنوا في المقاطعات المسيحية تجاه انعدام الانسانية والوحشية الدموية التي توفرت في نائب بابوي للكنيسة، وتفوهوا باللعنات ضده، لأنه باستخدامه السيف المادي فقط على هذه الصورة، هو تذكر فقط عدم إبداء الرحمة، وقد استبد الخوف والرعب بقلوبهم، خشية أن يصب المولى رب الحشود غضبه على هؤلاء المخلوقات القساة، وأن تعاني الكنيسة من سقوط كبير، خاصة وأن حزب البابا لم يهتم بالصلوات، أو بالصوم، أو بالمسيرات، كما أنه لم يفرض على الجماعة العمل على تجنب غضب الرب، بتقديم الصلوات إليه، فبوساطة الصلوات تسترد الكنيسة بالعادة أنفاسها في أوقاتها العصبية، وغالباً ما تحصل على الانتصارات على الظالمين لها، لكن بوضعها جميع ثقتها في ثرواتها، وفي السلب جعلها تندفع بدون توقف إلى السيف ولأن تقوم بانتقامها، ومن هذا قام حزن ودمار للمسيحيين، وتهديد للنبلاء، وغضب، وحققد، وكراهية، وعداء بين الكنيسة والامبراطورية، وهددت بدايات هذه الوقائع المحزنة بنهايات أكثر حزناً، وهكذا طعن الامبراطور بآلام حزنه، ولذلك سعى لتسوية نفسه، ولإتهام البابا، ولهذا كتب الرسالة التالية إلى عدد من الملوك والأمراء، وخاصة إلى ملك انكلترا، وإلى أخيه رتشارد إيرل أوف كورنول، بحكم أنه ابن ختنته المحبوب، والذي فيه وضع ثقة خاصة:

رسالة الإمبراطور إلى رتشارد إيرل أوف كورنول

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم وملك القدس وصقلية، إلى رتشارد إيرل كورنول، وابن ختنته

العزیز، صحة وكل المباركات:

ألق عيناك من حولك، وانظر إلى أبناء الناس، وابك على فضائح الدنيا، والصراع بين الشعوب، والإقصاء العام للعدالة، بما أن شرور بابل قد صدرت عن شيوخ الناس، الذين ظهروا بأنهم حكامها، وفي ذلك حولوا القضاء إلى مرارة، وثمار العدل إلى دود الخشب، قف حيث أنت، أيها الأمير، ويا أيتها الشعوب افهمي قضيتك، واتركي أحكامك تصدر تحت نظر الرب، واجعلي عيونك تشاهد الانصاف لأننا نعرف، ونثق في فضيلة القاضي الأعلى، وحيث لا يوجد معك أوزاناً مختلفة، ولا مقاييس مختلفة أيضاً، فإنك بكل تأكيد سوف ترى تسامحنا، والبراءة الموزونة في ميزان حكمك، وكلمات الافتراء صادرة من شفاه المنتقصين لنا، واختراعاتهم السامة وزيفهم، ولكن نحن نعلم إنها ليست الآن المرة الأولى أن عدالة قضيتنا، وشرور الذي هو جالس على كرسي الرب، قد جلبت للعرض أمام معرفة العالم، وإلى جانب بدايات الشهرة السريعة التي غالباً ماتأخذ بريق الجدة من آذاننا، في جميع الحالات الهامة، ونحن أنفسنا نستطيع أن نؤكد بعروضنا التالية، أن الذي هو إشاعة، قد أعلن في الفرصة الأولى، أي كيف جرى تعيين هذا المقاتل الجديد رئيساً لكهنتنا تحت رعاية شريرة، فهو صديقنا الخاص مادام في مرتبة دنيا، لكن فور ترقيته، نسي أعمال المعروف التي أغنت بها امبراطوريتنا الكنيسة المقدسة، وغيّر الإخلاص مع تغيّر الظروف، وبدل أخلاقه مع كرامته، وهو متأثر من بعض الجوانب برغبة شهوانية في إحداث اضطراب عام، فقد شحذ حد خبثه ضدنا، مع أنه هو رئيس الكنيسة وابنها الخاص، وقد اقتنص فرصته، عندما — حتى يتجنب فضيحة كبيرة — تفوه بالحرمان الكنسي ضدنا، وكان ذلك بعدما أخذنا يميناً، وربطنا أنفسنا بالعبور في وقت محدد إلى الأرض المقدسة، ثم إنه بسبب أننا تأخرنا لسوء الصحة (مضيفاً كثيراً من التهم الأخرى، نحن فيما يتعلق بها لم يتقدم قط بتحذيرنا أو بتذكيرنا) قام على الرغم من رغبة

الرب والعدل، فرفض كلياً تسويغنا، واتخذ ذلك سبباً للحرمان الكنسي، ولهذا خضعنا بكل تواضع وكأن الحرمان جرى التفوه به في المقام الأول بناء على رغبتنا، وصليّنا من أجل التحليل، ووعدنا أنه عندما تعود إلينا صحتنا الجسدية، سوف نستعد على الفور لعمل عبورنا، ومع أن شكوانا التي قدمناها بتواضع قد رفضت بشكل مهين، فقد عبرنا لانقاذها، بتنفيذ تقوي لتعهدنا، معتقدين أن نائب يسوع المسيح قد استهدف تنفيذ هذه المسألة، وليس زيادة كراهيته ضدنا، لكن الذي أملنا أن يكون منقذاً فقط للأشياء التي هي بالأعلى، والذي افترضنا أنه يتأمل الأشياء السماوية بعينه، والذي يركز عليهم في تفكيره، وجدناه كلياً على الفور ليس فقط رجلاً فارغاً من الصدق، بأعماله الوحشية، لابل حتى منفصلاً عن جميع مشاعر الانسانية، لأنه إلى جانب المعينات التي رماها في طريقنا في سورية، بوساطة رسله، ونوابه، ومثل ذلك برسائل منه —الحاملين لهم قد ألقينا القبض عليهم، ونحتفظ بالرسائل بمثابة بينات — فقد حذروا السلطان من التخلي لنا عن الأرض، التي أوقفت للعبادة اللاهوتية، ولشرائع مملكة القدس، وعمل دخولاً بالقوة إلى مملكتنا في صقلية، مقدماً سبباً مسوغاً لهذا الصنيع هو أن ر. R, ابن الدوق الماضي لسبوليتو Spoleto, كان يعدّ العدة لدخول أراضي الكنيسة، مع أن ذلك كان من دون موافقتنا، ومن دون معرفتنا، وقدمنا فيما بعد برهاناً على ذلك بمعاقبته، كما أنهم لم يزحفوا إلى هناك كما يفعل الرجال المقدسين، ومن ثم الاستيلاء على الممالك بالإيمان، بل زحفوا بالغدر والحنث باليمين للجميع، وإذا لم يكن من السهولة إيجاد أحد يمكن إغوائه بسهولة بالحنث باليمين بوساطة تأكيد بسيط، لقد كان هناك أولئك، حيث أغويوا على الفور، عندما قام قادة القوات البابوية أنفسهم، في سبيل الحصول بسهولة على أراضينا، فأكدوا باليمين، بأننا كنا أسرى في سورية، ومجدداً بعد عودتنا مما وراء البحار، قمنا ببساطة برد الخطأ الذي وضع علينا، وتمنعنا عن جميع المحاولات

للانتقام لأنفسنا، وفقاً لعادة كرامة وسمعة امبراطوريتنا، ثم قمنا عن طوعية بالاصغاء إلى كلام السلام، الذي دفع به الوسطاء.

ونحن نعلم من اعترافنا بالإيمان الكاثوليكي، أننا قد وجدنا أمماً حقيقية في الكنيسة، لكن أبانا وجدناه دوماً زائفاً، لأنه في اليوم نفسه لصلحنا، اخترع خطة لتدميرنا، حيث نصحننا بكل حرارة بالعودة إلى إيطاليا مع حاشية غير مسلحة وخاصة، محدداً سبباً لذلك الخوف من أننا قد نقدم فرصة لخوف رعيتنا المخلصة، إذا ما قدمنا وبصحبنا — كما كان الأمر من قبل — مرافقة مسلحة، وبالإضافة إلى هذا، لقد أعلن بأنه سوف يعمل كل شيء لتأمين الحماية لنا، وسعى في الوقت نفسه لفعل كل ما هو معاكس لهذا، برسائله وبرسله، كما هو واضح من شهادة عدد كبير من رعيتنا المخلصين، الذين كانوا في ذلك الحين مطلعين على كل شيء، وكأنهم كانوا مشاركين في هذه المؤامرات، وكذلك من مقدمين آخرين من ذلك الحزب.

وبناء عليه، بما أن جميع الطرق العامة كانت مغلقة في كل مكان من قبل رعايانا المتمردين ضد ابننا وبعض مقدمينا، الذين كانوا قادمين إلينا من ألمانيا، علاوة على ذلك، عندما كان ابننا المذكور في أكويليا، ويريد الذهاب من هناك إلى ألمانيا، استرد بصعوبة الحماية لسفنه، ونحن أرغمنا على العودة إلى مملكتنا، بسبب النصيحة — أو بالحرى المؤامرة الماكرة — الصادرة عن أبنينا، التي قد جاءت إلينا، أنه على غير استعداد لضبط تمرد رعيتنا، وهنا مجدداً، عندما كنا إلى بعض الحدود نتنفس بحرية أكبر، وأخذين راحة بعدما أنهكتنا متاعبنا، هاجم أبونا المقدس راحتنا، حيث اتخذ لنفسه سمة المستشار، وحرضنا بحرارة ملتبهة بأن نزحف بكل نشاط ضد الرومان، الذين كانوا مخلصين لنا، وضد رعايا متمردين آخرين تابعين لنا في توسكانيا، كانوا ممسكين بحقوق الكنيسة والامبراطورية، وكنا واثقين من ضمان معروفه، لأنه رغب في مشاركتنا

بما لدينا وبأعباء الامبراطورية، وبناء عليه قمنا تماشياً مع نصيحته المخلصة، بما هو متوجب علينا، فأعلننا الحرب لصالح الكنيسة، ضد الرومان، الذين كانوا في ذلك الوقت يهاجمون فيتربو، وكان هو في الوقت نفسه يرسل رسائل سرية إلى المدينة، بهدف القول، بأننا كنا نعمل على هذه الصورة صدوراً عن كراهيتنا للرومان، وبناء على رغبتنا وإرادتنا، من دون معرفته أو تعليماته، وقام في الوقت نفسه اضطراب في صقلية، وبذلك أرغمنا على زيارة مسينا، حتى تتمكن من مواجهة ذلك، في المراحل الأولى، وكان حزب يتشكل هناك، مقدماً لنا سبباً وحيداً، هو أننا كنا غير راغبين بالتخلي عن جزيرتنا الفخمة صقلية، وحدث في تلك المناسبة، من دون طلب رأينا، لابل في الحقيقة بإخفاء الحقيقة كلها وإبعادها عن معرفتنا، مع أن ذلك كان مضاداً لشريعة الشعوب، التي تقضي، بأن المتحالفين، والمشاركين في مهمة واحدة وعمل عسكري هو نفسه، عليهم عدم التخلي أحدهم عن الآخر، حدث أنه عمل معاهدة مع الرومان، الذين أعلننا ضدهم الحرب، بناء على طلبه، كما ذكرنا أعلاه، وكان هذا أيضاً من دون الاهتمام بحقيقة، أننا بقينا ليس من دون مخاطرة، ورعب على كرامتنا، بقينا بلا دفاع بين الرعايا العصاة والمنشقين، وأننا كنا قد أرسلنا عدداً كبيراً من الجنود الأقوياء لمساعدته، مع أننا لم نكن قادرين على الحضور شخصياً.

بالإضافة إلى هذا، بما أن استقامة ضميرنا، وإخلاصنا النقي الذي شعرنا به نحو الكنيسة، التي هي أمنا، لم يسمح للابن بملاحظة الحماقات غير الطبيعية لأبيه، فعزونا ما حدث إلى الحظ الذي هو عائد إلى المهارة، وكنا باستمرار على استعداد للإشارة إلى تسوية للإعادة المستحقة لنا على تحكيم زوج الأم هذا، الذي تولى في كل مناسبة خداعنا بخشونة أعظم، وسخر منا بمرارة أكبر، وفق نسبة كأن وعوده بتحكيم كامل كانت أكثر حسماً، وفي الوقت نفسه، عندما حكمنا من خلال

خلافاتنا الماضية، وجدنا أنه لم يبق أمل، أو الذي بقي هو شيء قليل لنا من أجل تسوية شؤون إيطاليا، بما يتوافق مع شرف الامبراطور، بوسائط البابا، وعندما كنا متوقعين الاضطهاد نفسه، وفي وقت كنا فيه ننتظر هكذا، اعتقد الجميع بأن الحظ قد ابتسم لنا، لأن الخصام بين الكنيسة والرومان بدأ مجدداً، وفي هذا الخصام كان تصرفنا نبيل جداً، فبإخلاص قدمنا أموالنا، وعرضنا شخصنا، لأننا اعتقدنا بأننا أزلنا تماماً صداً المشاعر الشريرة من قلب رغباتنا السيئة، ولم نكن قانعين بهذا كله، بل رغبتنا بأن نمنح الكنيسة أماناً لاجدل حوله، لأن مشاعرنا اشتعلت بأكثر العواطف حرارة نحوها مع الاخلاص، وكذلك ببواعث الاحسان بالرب، وهكذا ذهبنا شخصياً للمثول أمام هذا الخبر الأعظم، حتى من دون استدعاء، وأخذنا معنا ولدنا العزيز كونراد، المنتخب الآن ملكاً للرومان، والذي هو ولي العهد لمملكة القدس، وهو قد كان في ذلك الوقت الابن الوحيد الذي ترك لنا ل يتمتع بعواطفنا الأبوية، وذلك بعد الاعتداءات الساطعة لأخيه علينا.

وبعدما قدمنا شخصنا إلى الكنيسة، لم نكن نظن أنه نجباً لنا القيام بتقديم ولدنا هذا، ليكون رهينة كاملة إلى الخبر الأعظم، ونسأل بكل تواضع، وندعو الرب ليكون شاهداً على اخلاصنا، أننا كنا نريد اتحاداً كاملاً بيننا أنفسنا وبين الكنيسة، لأن هذا الأسقف على الكنيسة كلها، عندما كان منذ زمن طويل مضى، أسقفاً لأوستيا، قد أقنعنا بأن هذا هو واجبنا الذي علينا أن نطلب، وبناء على ذلك كله، وحيث أن العرض الذي تقدم ذكره لاقى تأييداً طيباً من جانب البلاط كله، وبما أن الخطابات الشاكرة ظهرت أنها تبدي نوايا مخلصه، وذلك من قبل الخبر الأعظم وبالقدر نفسه من الذين هم في بلاطه، وظناً منا بأننا تدبرنا كل شيء معهم بوساطة اقتراح نوايانا المخلصة، وليس أقل اعتماداً على خضوعنا، اعتقدنا أنه من الموائم، أن نشرح — بتقوى عالية — سبب

الخلافات بينا أنفسنا وبين اللومبارد، الذي غالباً ما سبب الحشرة لصدر قاض فاسد، وتسوية الخلاف بينا أنفسنا وبين سكان ونبلاء أنكونا، ونظراً لأننا كنا نشعر بشكل أكيد بتفهم لصالحنا لكل قضايانا، سرنا شخصياً، بنية صالحة لخدمة الكنيسة، مع جيش كبير، كنا بوساطة انفاق ثقیل من خزانتنا قد تدبرنا جمعه من جميع أرجاء ألمانيا، وكذلك من إيطاليا، كما أننا لم نتمكن عن مواصلة تنفيذ هدفنا، قبل أن تكون قوتنا قد أعادت إلى وضعها السالف والصحيح، حرية الكنيسة، التي ديس عليها بالأقدام في المدينة وفي مناطقها، التي جرى الاستيلاء على خارجها، معتقدين بدون أدنى شك أن خضوعنا التقوي سوف يجني لصالحنا الخطوة المستحقة لاستقامتنا، والتي لم نكن قادرين على نيلها.

لكن استمعوا لتعرفوا الربح الذي أعيد إلينا بشكل رائع، وذلك مقابل إخلاصنا العظيم، ومقابل المنافع الكبيرة التي أسديناها، وتثيتنا لمثل ذلك الإخلاص الذي لاشك فيه، الذي أعيد إلينا في كل قضية سعيّاً من قبل نائب المسيح هذا، هذا الذي هو راعي كنيستنا الكاثوليكية، وهذا المبشر بالإيمان.

ولنبداً أولاً حول مسألة ما وراء البحر:

إن جميع الذي جرى ترتيبه بشكل منطقي من خلال وكالة رئيس أساقفة رافينا، وأميرنا المحبوب، والنائب الرسولي، وفقاً للصيغة المعبر عنها التي أعطيت إليه من قبل الكنيسة بشأن إعادتنا نحن أنفسنا، وابنا كونراد المتقدم ذكره، إلى التملك الكامل، كما كان من قبل، لجميع حقوقنا في المملكة، وفقاً للمعاهدة، وذلك فور وصول رئيس الأساقفة إلى قيسارية، من دون انتظار النائب البابوي المتقدم الذكر، أو رسلنا الذين كانوا قادمين إلى البلاط، ومن دون المزيد من التأخير، أكثر من ذلك الذي يمكن أن يعتمد فيه على وصول البيزنطيات (نقود ذهبية) صار العمل كله المتعلق قد تحول إلى غير منتظم كلياً، هذا دون أن نقول

شيئاً عن ترتيب الأمور، كما كان قد وعد، لصالح كرامتنا، وكرامة الامبراطورية، أو أيضاً عن إهماله عندما رجونا وكنا ملحين معه من أجل إعادة استدعاء أعدائنا، كما أنه لم يسمح لنا بالذهاب مع الجنود، الذين — كما قلنا — كانوا معسكرين في تلك النواحي، من أجل الدفاع عن مناطق الكنيسة، كما أنه لم يرغب بإرسال أي رسول أو رسائل، مما نجم عن ذلك سقوط أعداد كبيرة من الرجال قتلى في المعارك التي وقعت، وإحراق الكنائس.

ومجدداً أيضاً، هو لم يكتف بمثل تلك الدناءة غير الاعتيادية، فعندما كنا مقيمين معه في ريت Reate، ونحن نفق آلافاً من الماركات في سبيله، رفض أن يتنازل لنا عن مدينة كاستيلانا Castellana، التي كان قد استولى عليها في بداية خصومتنا، وذلك حسبما كان ملزماً بموجب بنود السلام، وحسبما تلقى النصيحة من إخوانه، لأنه كان قد استلم مبلغ خمسين ألف مارك من ذلك المال فقط، فانظر كيف أحبنا أبانا هذا الأعظم قداسة!

وبعد هذا، وفي منفعتنا جميعاً، ومن أجل تهدئة إيطاليا (خاصة وأنا كنا قد أجبرنا على التخلي عن جميع الآمال بإبداء نوايا طيبة نحونا من قبل أبينا، أو بالحري زوج الأم) حملنا سلاحنا وترسنا، وجمعنا قواتنا من مقاطعات ألمانيا (التي إليها كنا قد دعينا في ذلك الوقت بحكم الضرورات، نتيجة للعب القذر لولدنا)، من أجل غزو إيطاليا وثمانين قضيتنا العادلة بجنود شجعان، لأننا كنا غير قادرين على الوصول إلى غاياتنا بالالتماسات، وعندما وصل هذا إلى علم الخبر الأعظم، قام هو، بناء على التماس الهدنة التي وافق عليها جميع الناس المؤمنين وأمرأء الأرض، وفي سبيل مساعدة الأرض المقدسة، قام برسائل رسولية، فمنع دخولنا إلى إيطاليا، مع قوة مسلحة، ثم إنه نسي هذا، في اليوم نفسه الذي أعلن فيه الهدنة المتقدم ذكرها، وطلب منا بحكم كوننا المدافع عن

الكنيسة والمحامي عنها، بالزحف بقوة ضد الرومان، الذين — كما قال — قد استولوا على بعض مقتنيات الكنيسة، ومع أنه عدّ أمراً ليس شرعياً بالنسبة لنا، أن نسعى لشق طريقنا بالقوة لندخل إلى بيتنا، وإلى ممتلكاتنا التي أعطيت إلينا من قبل آبائنا، والتي أغلقها دوننا بعض العصاة الحمقى من رعايانا المخلصين، مع ذلك اعتقد أنه عدل بالنسبة له أن يعمل وفق هذا المنهج مع الرومان، الذين لم يكونوا مرتبطين بأي شكل من الأشكال بأبيه، أو بجده، أو بأي واحد من أسلافه.

وأضاف أيضاً بالرسائل المتقدم ذكرها، أنه بالنسبة لمسألة لومبارديا، يتوجب علينا من دون تأخير، ومن دون شروط، ومن دون التقييد بكرامة أو إدعاء إلى الامبراطورية، عمل تسوية معه، بها يستطيع أن يمنعنا إلى الأبد من المطالبة بأي إدعاء لنا، أو أنه يستطيع، إذا ما رغب، خنق حقوق وكرامة الامبراطورية، لكن بما أنه لانصيحة مقدمينا، ولاذكرى الخسائر الماضية، أوصتنا بفعل هذا، قام آنذاك باللجوء إلى بدع أخرى، فأرسل ذئباً مفترساً، يلبس ثوب حمل لمقابلتنا، والمعني بذلك هو أسقف برانستي، وقد أوصى به إلينا برسائل رسولية واصفاً إياه كرجل صاحب حياة هي الأكثر قداسة، الذي بوسائله، سحب لصالح حزب الميلانيين الناقضين للعهد مدينة بلاستيا Placentia التي كانت خاضعة لنا، وصديقة، معتقداً بثبات أنه بهذه الوسائل يستطيع بث الاضطراب بشكل عام بين رعايانا المخلصين، وذلك إلى درجة يستطيع بها أن يوهن هدفنا في الزحف إلى إيطاليا، وكان — على كل حال — في هذا الأمل، بفضل الرب، الذي يحمي امبراطوريته، مخدوعاً تماماً، والنار التي انتشرت بين رعايانا المتمردين، ونقص السكان وافراغ المدن الذي تسبب به المجرمون، نادى فوق رأسه بصوت مرتفع، موجهاً اللوم إليه، لأنه بث فيهم روح الثقة في عصيانهم، ولخرقه للصدق، لأنه كان قد وعدهم بأن يساعدهم ضدنا، وضد

الامبراطورية، ولأنه لم يستطع، تجاوباً مع طلبهم، انزال عقوبة الحرمان الكنسي بشكل مسوغ، أثناء الفرصة المتقدمة الذكر، فقام بشكل سري برمي المعينات في طريق زحوفنا في جميع الاتجاهات، بارسال رسائل ورسلاً إلى جميع أنحاء الامبراطورية، وإلى جميع أنحاء العالم، ليضلل كل من يستطيع تضليله عن متابعة الاخلاص لنا، وللتوقف عن إعلان الولاء لنا، لكن بما أن الوفاء الطيب لرعايانا، والعواطف الجيدة لأصدقائنا لم تسمح ببقاء أخبار هذه الأوضاع بعيدة عن علمنا، ولأننا لم نختر أن نغلب بالشر، ولأننا رغبتنا بقهر الشر بالصلاح، قررنا ارسال رسل خاصين إلى الكرسي الرسولي، وبناء عليه بعثنا إلى هناك رئيس أساقفة بلرم المحترم، وأسقف فلورنسا وراتسون، والمعلم ثاديوس دي سيسا Thaddeus de Sessa، الذي هو القاضي لمحكمتنا العليا، والمعلم ر. R أسقف بورتاستيلانا Portastellana، وهو واحد من رعايانا المقربين لنا والمخلصين، وبما أننا منحناهم كل الثقة من قبلنا ولصالحنا، جرت النقاشات لنقض اتهام الهرطقة الذي عمل ضدنا، وكذلك ماتعلق بامتياز الكنيسة، وإعادة تأسيس امتيازات الكنيسة والامبراطورية (وهو أمر مرغوب به منذ زمن طويل ومتطلع إليه بيننا وبين الكنيسة)، وكان الخبر الأعظم آنذاك حاضراً بناء على نصيحة جميع إخوانه، وقد وافق على طلب سفارتنا، في جميع النقاط، ومن خلاهم وبوساطة رئيس أساقفة مسينا، الذي بعث به رسولاً إلينا ليحصل على سلامه، وعدنا بأنه سوف يأمر بإيقاف جميع المعينات في جميع الأنحاء، وهي المعينات التي ألقاها في طرق زحفنا، وذلك حسبما اعترف بشكل مكشوف بحضور إخوانه ورسلنا، وهذه الأشياء كلها مبرهن عليها بوضوح بشهادات رسائل جميع الأساقفة المتقدم ذكرهم.

وهذا الجواب عاد رسلنا إلينا، لكن قبل أن يكونوا على بعد سفر ثلاثة أيام من البلاط، ومن دون معرفتهم، وفي سبيل إرباكهم، منح

منصب نائب بابوي في لومبارديا إلى غ. G دي مونت لونغو - Monte Longo، الذي كان قد أرسله في المقام الأول بمثابة رسول إلينا، وجرى تعيينه فيما بعد لاختصاص مانتوا Mantua، ولتضليل رعايانا المخلصين، معتقداً أنه كلما ازدادت الصلاحيات المعطاة له، سوف يكون أكثر قدرة على رمي المعوقات في طريقنا وطريق أتباعنا، وإلى مقدمينا وإلى القساوسة في إيطاليا وألمانيا، الذين كانوا مقيمين معنا في بلاطنا، أرسل رسائل ليس فيها القليل من التشهير بسمعتنا، مع تضمين بعض الفقرات، التي تعلقت بشكل خاص بالظلم الذي قيل بأننا مارسناه ضد بعض الكنائس في مملكتنا، والتي بشأنها قد أمرنا بإزالتها بوساطة المقدمين المذكورين، وحول جميع هذه القضايا للشكوى، وردودنا حول كل منها، قد بعثنا إليكم برواية عنه، تحت التوثيق العام، من أجل تفحصكم، وجرى إيضاح هذه الأشياء كلها إلى الأمراء والقساوسة، وإلى عدد من رجال الدين من كل طائفة، واحداً بعد الآخر (مع ان الأبناء شعروا بالخلجل في أنفسهم من التقلبات الكبيرة للأب، وصدوراً عن الاحترام له، غطى الخجل وجوههم) ومع ذلك أعدنا بناء على نصيحتهم إلى الكرسي الرسولي رئيس أساقفة بلرم المتقدم الذكر، والمعلم ت. T، والمعلم ر. R، أوف بورتاستيلانا، الذين هم رسلنا، مع رسل مدننا المخلصة، الذين من خلاهم أعلننا أننا أنفسنا جاهزين من دون أي تأخير، أو صعوبة، لتقديم كل ترضية، لكن حتى بوساطة هذا كله، لم يمكن إزاحة غضبه عنا، لكن هذا الذي يدعى باسم نائب المسيح، والمبشر بالسلام، والذي هو بالحقيقة المحرك للانشقاقات وصديق الخلافات، قام بمعارضة من قبله لنصائح الآباء المقدسين، عندما سمع بأن رسلنا كانوا يحملون إليه عرضنا بالطاعة في جميع القضايا، وخشية منه أنهم إذا ما وصلوه سوف يحجز بحواجز العدل وسيكون ربها غير قادر على السير أكثر من دون إثارة فضيحة عامة بادر مسرعاً بشكل كبير، فأبدع خطة مجهضدة، وتصرف على

عكس العادة الخاصة للكنيسة المقدسة الأم، فقذف في أحد السعف بقرار ضدنا، نحن الأمير الأعلى للمسيحية، ثم كرر بعد ذلك القرار نفسه، في يوم عشاء ربنا بموجبه (كما سمعنا من خلال تقرير، ينبغي أن نضع قليلاً من الثقة به) قام — كما قيل — بغلنا بسلاسل الحرمان الكنسي، وذلك بناء على نصيحة بعض الكرادلة اللومبارد، مع أن الشرط الأعقل من إخوانه قد عارضوه، كما أنه قام أيضاً بوسائل محرضيه على الشر، والذين يدورون بفلكه، والذين يعيشون على أوقاف الناس الفقراء، فمنع رسلنا الذين كانوا الآن قد وصلوا، من المثول في حضرته، ومن الظهور أمام الناس، للبرهنة على عدالة قضيتنا، وعلى براءتنا، وفي الحقيقة لتقديم ترضية تصل إلى حد تقديم ضمانة، وإنه فيما يتعلق بها، كان ذلك لسبيين إفرادي وخاص، ونظراً لعدالة قضيتنا، ولسوء سمعة دعواه وإجراءاته، توجب، بشكل مسوغ أن نكون فضّلنا ذلك، ومع ذلك استمر بإجراءاته بطيش وبشكل غير نظامي، لنيل مخرج لشروره، ما كان — ربما من قبل — سيصبح معروفاً، ونحن نحزن ونشعر بالأسى في قلوبنا، بسبب العار الذي تسبب للكنيسة الأم المقدسة، التي عهد بها ربنا يسوع المسيح — تحت ظهور العذراء المباركة — إلى تلاميذه، بميثاق آلامه، وعدا عن ذلك، ولولا ذلك نحن ما كان من الممكن أن نعتقد أن أي أذى كان من الممكن أن يلحق بنا من قبل هذا الرجل، الذي نعتقد — لسبب صحيح — أنه ليس قاضينا، لأنه كان قد أعلن من قبل عن نفسه أنه عدونا الرئيسي، وكذلك قاضينا، بالقول والعمل، ورعى بشكل مكشوف العصاة ضدنا وضد الامبراطورية، علاوة على ذلك لقد حوّل نفسه بجعلها غير جديرة بأن يخضع لها مثل هذا الأمير العظيم، وفي الحقيقة هو غير جدير بالسلطات الخيرية بشكل مطلق، لأنه وقف ضدنا وضد الامبراطورية، وقدم برعايته المكشوفة الحماية لمدينة ميلان، التي هي — وفقاً لشهادة عدد كبير من الناس الموثوقين من رجال الدين — مسكونة في الجزء الأكبر منها من قبل الهراطقة، وكذلك عندما

أصدر أسقف فلورنسا — وهو رجل صاحب حياة مستقيمة، وأخلاق حميدة — عدة أحكام هرطقية ضد ر. R دي مانديلو Mandello، وهو رجل من أهل ميلان، وكان من قبل عمدة ميلان وكليرنيا Clarentia، لم يصغ إليه وذلك صدوراً عن كراهيتنا ومحابة للميلانيين، وعلاوة على ذلك نحن نعتقد أنه غير جدير بأن يعدّ نائباً للمسيح، وخليفة لبطرس، ومحللاً لأرواح المسيحيين، ليس بسبب الأضرار التي ألحقها بكرامتنا، بل للأخطاء الشخصية، وبسبب أعمال التحليل، المتوجب عدم منحها إلاً فقط بعد مداولات كبيرة مع إخوانه، فهو يزن بميزان المقايضة، مثله مثل تاجر، ويمنحها في غرفته، مخفياً آرائه عن إخوانه (الذين متوجب عليه التشاور معهم، وفقاً للنظام اللاهوتي) وبذلك جعل من نفسه الذي يتولى الختم لنفسه، والكاتب، وربما أيضاً المحاسب، ومثل هذا هناك مسائل لانرغب نحن بالمرور بها صامتين، مثل التحليل المدهش، الذي عمله بناء على تسلم مبلغ صغير من المال، وسمح به لسيفا Sipa، ابنة المفوض المتوفى لمملكة قبرص، بأن تصبح زوجة لبالين دي جوسلين، وذلك مراغمة لقرار التفريق الذي تفوه به أسقف نيقوسيا في تلك المسألة، واليمين الذي أقسمه في الوقت نفسه بأنه لن يراجعها ثانية، وسمح كذلك لأخت جون صاحب قيسارية بالزواج من جيمس أوف أميندوليا Amendolia، الذي كان قد تزوج أختها من قبل، وذلك لأن كلاهما خائنين لنا، والامراتين قريبتين له من الدرجة الثالثة، وكل ماهو معيب، رتق بمبلغ المال الذي دفع إليه، لأن هذا قد عمل بموجب درجة كراهيته لنا.

ونحن أيضاً نحزن لذنبه ولما رآه حول حقيقته أن لم يرض بإنفاق المال في سبيل كسب نبلاء ومقدمي الرومان إلى جانبه، ولأن يصبحوا أتباعه ومرتبطين به، لقد بدد مقتنيات الكنيسة الرومانية، التي عهد إلينا بالحماية الخاصة لها، عوضاً عن أن يمنح الرومان القلاع والمقتنيات التي

أعطيت إلى الآباء المقدسين من قبل المؤمنين المسيحيين المخلصين الأتقياء، وبناء عليه يتوجب على الكنيسة العالمية، أو الشعب المسيحي، أن لا يعجب، من أننا لانخاف من قرار مثل هذا القاضي، ليس تحدياً للمنصب البابوي، أو للمكانة الرسولية (التي يتوجب على جميع ذوي الإيمان المستقيم الخضوع إليها، ونحن أكثر من غيرنا نفعل ذلك)، ونحن نلوم مراوغة هذا الشخص، الذي برهن عن نفسه أنه غير جدير بعرش مثل هذه الحكومة الكبيرة، ويتوجب على جميع النبلاء والأمراء الذين يحملون اسم مسيحيين، أن يعرفوا نيتي المقدسة، والغيرة والتقوى المخلصة المتوفرة في، وأنه ليس من الكراهية القذرة، بل انطلاقة من سبب هو الأكثر عدالة، استثير الأمير الروماني ضد الكاهن الأعلى الروماني، لأنه يخشى أن يقاد قطيع الرب، من قبل مثل هذا الراعي، فيقوده خلال عمرات مغلقة، انتبهوا، أننا ندعو برسائلنا ورسائلنا كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة، وبحق دم المسيح، وتحت شهادة الحكم اللاهوتي، أن يقوموا بالدعوة لاجتماع مجمع مسكوني للأساقفة ولآخرين من أتباع المسيح المخلصين، ونبعث نحن أيضاً لرسائلنا، ولبيعة الأمراء، الذين نحن على استعداد أن نقف أمامهم، وأن نشرح، وأن نبرهن كل الذي قلناه، لابل حتى مسائل أسوأ منهم، ولسنا نحن الأقل انزعاجاً، بالسبب المحتمل، لأن حاكم الكنيسة هذا، الذي ينبغي أن يتملك جميع أنواع الفضائل، وأن يكون الأعظم مثابرة، وأن يكون تابعاً منتخباً، من دون وصمة الشره، خشية أن أخطاء الزعماء، تتوالد وتزداد بين الذين هم رعية لهم، سعى لأن يدوس على حقوق الامبراطورية، وذلك على عكس وعده الذي أعطاه بناء على نصيحة إخوانه، وعبر عنه برسائله، حيث وعدنا بأن لا يتخلى عنا، بل أن يقدم لنا النصيحة برأيه، ومساعدته، ورعايته، في استعادة قوة الامبراطورية المذكورة، وهو زيادة على ذلك يكدس التشهير بنا، إن لم نقل يتولى تكفيرنا، وقذف شخصنا، ولاسيما عندما نوازن الأمور في ضميرنا، فلا نجد في أنفسنا لامناسبة

ولاسبب يدفع هذا الإنسان غير الودود، لأن يكون مثاراً إلى هذه الدرجة من الحقد المرير علينا، ما لم يكن أن جلاتنا قد رأى أنه من غير اللائق، وعدّه أنه لا يناسبنا، لأن ندخل معه باتفاقية من أجل زواج حفيدته بابننا الطبيعي هنري، الذي هو الآن ملك توري Torres وغالوري Galluri.

شاركنا بالعزاء —بناء عليه— أيها الصديق العزيز، وكذلك الذين هم أحبّاء لديكم، ذلك أنك أمير سيفيد العالم، ليس معنا فقط، بل مع الكنيسة أيضاً، التي هي مجمع المؤمنين المسيحيين، لأن رأس الكنيسة مريض، وأميرها في الوسط مثل أسد جوال، ونبّيها مجنون، ورجل بلا إيمان، وكاهنها يتولى تلويث معبدها، ويتصرف بشكل ظالم ضد الشريعة، وهنا أن تكون ذنوب هذا الخبر موضع شجب من قبلنا أكثر من قبل بقية أمراء الدنيا، فهذا أمر مسوغ، لأننا الأقرب إليه من حيث مكان الإقامة، والأكثر تحالفاً معه في منصبنا، ولذلك كنا نزيد من تشريفنا له، ونشعر بأعبائه.

هذا وينبغي أن لاننسى أن نذكر هنا، صدوراً عن قرابتكم لنا، أننا نرجوكم أن تقدروا وأن تعدوا الازدراء التي تكدس علينا هو أذى لكم، وأن تبادر مسرعاً نحو بيتكم مع الماء، عندما تكون النيران مستعرة في بيوت الجيران، وانتبه إلى أن سبب إجراءات الخبر ضدنا، لأنه يقدم الرعاية والمحابة للمتمردين علينا، وهذه مسألة، مع أنها غير مذكورة الآن، من الممكن أن نستنتج بسهولة، أن عليكم أن تخافوا، أن مثل هذه الإجراءات من الممكن أن تقام ضدكم في أعمالكم، لأن المعتقد أن إذلال الآخرين والأمراء سيكون أمراً هيناً، إذا ما أمكن أولاً الاطاحة بقدرة قيصر الرومان، لأن ترسه يتحمل هزات رميات نشاب العدو، هذا وإن السبب الحقيقي الذي أثار قلب البابا وجعله يتحرق في داخله، هو مشكلة اللومبارد، وهو لم يتجرأ على جلب القضية إلى العلن، خوفاً

من إثارة فضيحة بيننا وبين جميع الذين سمعوا بها، ومن أجل هذه القضية، بعث إلينا برسول خاص موثوق من قبله (من الممكن جلب شهادة لتكون برهاناً على مصداقية هذا) قد وعد أننا إذا ما تركنا قضية اللومبارد تحل وفق إرادته، هو لن يتوقف فقط عن إلحاق الضرر بجلالتنا في أي شيء، بل إنه سوف يضع تحت استخداماتنا عشر جميع العالم، المكرس لتقديم المعونة الضرورية إلى الأرض المقدسة، ولا عجب حول هذا، لأنه كان مخروفاً بسفستائية اللومبارد المتعجلة والحادة، وإليهم قد وعد — كما علمت من اعترافات بعض القساوسة — بأنه أعطاهم يمينه شخصياً بالعمل ضدنا وضد الامبراطورية، وعندما كنا في الحج في سورية، في خدمة يسوع المسيح، أرسلهم إلى المملكة، لكن عندما جاء وقت الوفاء بوعده المذكور أعلاه، أمكنه بشكل قانوني الحنث بوعده، وتغيير المرسوم الذي كان قد أصدره، ومحابة منه لهم، هو لم يتردد أيضاً عن اقتراح عمل مرعب أن تسمع به، ومفرغ من كل منطق وحكمة، لأنه تولى من خلال غ. G أسقف بريشيا، وهـ. H أسقف كوما Cuma، وآخرين، تقديم النصيحة لنا: إما أن نتلقى ترضية من اللومبارد من خلاله، أو أن نعمل معهم — كما قال — هدنة لمدة أربع سنوات، في سبيل رفع شأن قضية الأرض المقدسة، علماً بأن خمس سنوات كانت قد انقضت منذ عقد الهدنة المذكورة، وأجلنا نحن — على كل حال — البت في المسألة، واحتفظنا بها للوقت الحالي، لتداول حولها مع مستشارينا المخلصين، في حين كانت أعمال التحذير المتعلقة بموافقة النائب البابوي المتقدم ذكره غ. G دي مونت لونغو (الذي كان في الوقت ذاته مقيماً بين الميلانيين) قد وافقت على الهدنة المتقدمة الذكر، وهذه المسائل مبرهن عليها بوضوح بشهادات هؤلاء الأساقفة وقام في الوقت نفسه، من دون انتظار لقرارنا، أو لقيامنا بالتشاور مع مستشارينا، فتقياً ولفظ ضدنا السم الذي كان محقوناً به، كما أوضح أقرباء بعض الأشخاص، وأخيراً، إنه من أجلنا نناشدك

ونسأل مساعدتك، ومساعدة جميع آلك وذويك، وأعيان وأمرء جميع العالم، ليس بسبب أن قوتنا غير كافية لإبعاد هذا الضرر عن أنفسنا، بل ليعلم العالم كله بأن مكانة جميع الأمراء العلمانيين عرضة للخطر، عندما يتعرض أمير واحد للخطر. صدر في تريفيسو في اليوم العشرين من نيسان، في العلامة التاسعة [الثانية عشرة].

حول الفضيحة المؤسفة التي تفجرت من الأعلى

وكان الامبراطور قد بعث بهذه الرسالة مع شيء طفيف من تغيير العبارات، وبعض الكلمات القليلة في النهاية، إلى ملك انكلترا، وإلى أمرء آخرين في جميع أرجاء العالم، من أجل أن يبرهن على براءته، وليظهر خداع البابا، وبدأت الفضيحة تنتشر في جميع أرجاء العالم، وقام البابا الذي عرف بالحقائق التالية من بعض الأشخاص الموثوقين، فشهر بالامبراطور أكثر فأكثر، وكدس الملامات عليه، وأعلن عنه مجرمًا بهرطقة فوضوية، وفي سبيل إدانته، وجعله سيء السمعة في أعين العالم كله، بعث برسالة تنديدية إلى جميع أمرء وأساقفة العالم، هي كما يلي:

رسالة البابا

«من غريغوري، الأسقف وعبد عبيد الرب، إلى أخيه المحترم، رئيس أساقفة كانتربري وإلى أساقفته المساعدين، صحة ومباركات رسولية:

لقد قام من البحر وحش مليء بكلام الكفر، قد صيغ بقدمي دب، وبفم أسد هائج، وكان مثله مثل نمر في بقية أعضائه الأخرى، وقد فتح فمه بالتجديف ضد اسم الرب، وهو مستمر بالمهاجمة بأسلحة مماثلة خيمة عهده، والقديسين المقيمين في السماء، ويسعى هذا الوحش إلى تمزيق كل شيء إلى قطع بفكيه وبأسنانه المعمولة من حديد، ولأن يدوس بقدميه على العالم كله، حيث أعدّ من قبل بشكل سري آلات قذف ضد الإيوان، وهو الآن قد صفّ بشكل مكشوف آلات قذف

الاسماعيليين، صارفاً الأرواح عن الطريق المستقيم، وثائراً ضد المسيح، مخلص العالم، (الذي أفادت تقارير بأنه يسعى إلى تدمير سجلات انجيله بقلم هرطقة شريرة).

وبناء عليه توقفوا، لتعجبوا أنتم جميعاً، ولتسمعوا القذف والتجديف ضدنا، الذي صدر عن هذا الوحش، وإلى أي حد وصل ذلك، وإذا كنا نحن، الذين عبيد للرب في جميع أشكال العبودية، قد هوجمنا بنشاب مغتاب، لاعجب في ذلك، فالرب نفسه ليس بمنجاة من هذه الإهانات، وقفوا واعجبوا، إذا ما كان قد جرد سيف الأذى ضدنا، لأنه يستهدف الآن اجتثاث اسم الرب من على الأرض تماماً، هذا ويمكنكم أن تكونوا أفضل قدرة على التصدي لكذبه بصدق مكشوف، ودحض خداعه بحجج الصفاء، وقوموا بالتفحص بكل دقة، لرأس، ولوسط، وللأجزاء المنخفضة من هذا الوحش فردريك، المدعو باسم امبراطور، وبما أنكم سوف تجدون في كلامه البغضاء فقط والشرور، سلخوا قلوبكم المخلصة بترس الصدق، وقدرُوا كيف أن فردريك المذكور، قد سعى من خلال رسائله التي بعث بها إلى مختلف أنحاء العالم وبلدانه، أن يُلطخ وأن يشوه اخلاص الكرسي الرسولي، وشخصنا بوساطة تصاريحه الملوثة، وهو الذي يعدّ مقترفاً للزيف، وجاهلاً بكل تسامح، ولا يستحي من العار، قد قام بشكل زائف بالتأكيد على أننا بعدما ارتقيناً إلى منصب الرسولية، قد تخلينا عنه، وهو الذي كان صديقاً لنا منذ القدم، منذ أن كنا في مرتبة أدنى، وأننا خرقنا عهودنا، وغيرنا سلوكنا، وأنه عندما كان مقيداً بيمين، وبقرار الحرمان الكنسي الذي كان سيصدر ضده، إذا لم يسر لمساعدة الأرض المقدسة والدفاع عنها، في الوقت الذي جرى إعدادُه، وأنه كان غير قادر على الذهاب بسبب المرض، وأننا حاولنا أن نفرض عليه الحرمان الكنسي ونوجب تنفيذه ضده، وأننا رفضنا منحه منفعة التحليل لدى استرداده لصحته، وأنه عندما

كان متوجهاً لانقاذ الأرض المذكورة، أعقناه في أهديه بوسائط رسلنا والنواب البابويين، وبارسالنا رسائل إلى السلطان، ليقف ضد تقدمه، حتى يمكن بذلك اعاقته في آماله التي تصورها في استرداد مملكة القدس، وعمل أيضاً شكوى زائفة، بأننا قمنا بشكل غير عادل وبالقوة فهاجمنا مملكة صقلية وغزوناها، وحرصنا الناس على اقتراف حنث اليمين بسبب أن رينالد ابن الدوق السالف لسبوليتو قد غزا أراضي الكنيسة، وأن ذلك عمل من دون علمه، وتفاجر بأنه عندما عاد من سورية إلى أبوليا، قد تمتنع عن الانتقام للأذى الذي ألحق به، وقبل بعرضنا بالسلام والنوايا الطيبة، وعاد إلى الكنيسة الأم، لكن مع أن المعرفة العامة بالحقائق ترفض هذا الزيف وتنقضه، نجد في بعض الأحيان أن الكذب الخفي يستولي على مقعد الصدق في أذن الاخلاص، وذلك عندما لا يجد الصدق محامياً عنه هناك، ولكي لا يتسلل الزيف، ويجد سبيله بوسائل الغش إلى قلوبكم، من المتوجب عدم ترككم جاهلين لخواصنا ولطريقة سلوكنا، وكنا قبل، وبعد أن حملنا على أكتافنا أعباء المنصب الرسولي قد حبينا هذا المذكور فردريك بعناية خاصة، الذي هو مثل ذئب، في ثياب شاة، حتى تدمرت فينا جميع الآمال التي يتصورها ويتأملها أب في ابنه، لأن فردريك المذكور يتبجح بعظمته، وثل سكران بالسلطة التي حصل عليها، وقد أعاد الشر مقابل الخير إلى أمه الكنيسة، وبدأ مثل ثعبان، واللدغة في ذيله، بنشر السم فيها، في الوقت الذي كان فيه يسعى إلى تخديرها بكلامه الملوث بالزيف، فهو كان منذ بعض الوقت الذي مضى، عندما استدعت ضرورات الأرض المقدسة، والقرار المتقدم الذكر، ويمينه، والوقت الذي جرى تحديده من أجل مغادرته حيث تطلب ذلك اقلاعه، فقد كانت هناك عدة آلاف من الصليبيين تنتظره في برنديزي، وقد طالبت به بإلحاح أن يفعل ذلك، وقد حبس الصليبيين المذكورين هناك، حتى ولت مواسم أنواء كانوا غير معتادين عليها، فهلكوا بشكل مؤسف وتعيش بسبب مختلف الأمراض،

وبذلك نال متطوعاً تهمة الحنث باليمين، وقرار الحرمان الكنسي، فقد أهمل هذا الرجل صاحب الإيمان غير السليم، لكن السليم بالجسد، العبور الذي كان قد وعد به، حتى يتمكن، وهو آمن، من نشر الأكاذيب ضد الرب، وخداع الكنيسة، وقد تمدد، لبضعة أيام، على فراش المرض، متظاهراً بالضعف، ولم يتردد في ترك الأرض المقدسة معرضة لغارات أعداء المسيح، كما أنه لم يحزن البتة لموت النبيل لانغريف أوف ثورنجيا، صاحب الذكرى الطيبة، الذي واجه الموت هناك، ولا سمح الرب بأن كان ذلك قد تسبب بوساطة السم، حسبما راجت الأخبار في الدنيا، وعندما أخبرنا برسائل من الأساقفة الساكنين هناك، بمرضه الذي تظاهر به، وبالمسائل الأخرى المتقدم ذكرها، وخفنا نحن مع أسفنا، وخشنا من أن نصبح مع الكرسي الرسولي مفضوحين بسبب الاخفاق في استخدام عصا النظام ضد مثل هذه الجريمة الثقيلة، ولقد أسفنا لموت الصليبيين، والمخاطر التي تعرضت لها الأرض المقدسة، ورغبنا على الأقل في مسألة واحدة، هي أن نمسح دموع أسف الكنيسة باليد اليمنى بوساطة مواساة صحيحة، ولذلك قررنا بأنه خاضع لقرار الحرمان الكنسي، الذي صدر ضده وأجيز من قبله وبموافقته، بوساطة سلطات سلفنا، صاحب الذكرى الطيبة، البابا أونوريوس، ورعينا باخلاص فكرة إمكانية أن نسمع بأنه قوم طرائقه، مع الاعتراف بأخطائه الكبيرة، وأن ذلك سوف يعطينا أملاً لتقديم العون، فعرضنا عليه برسائلنا بأننا سوف نمنحه منفعة التحليل بصيغة صحيحة، فور قيامه بالانطلاق للمشاركة بالصليبية المتقدمة الذكر، لكنه وهو الذي كان في صدره قليلاً من الاهتمام حول هذه المسائل، قدم قليلاً من الاهتمام لمفاتيح الكنيسة، وعبر إلى سوربة دون الحصول على التحليل، ودخل هناك بمعاهدة لمدة ست سنوات مع السلطان، على شرط واحد هو فقط أن تعاد إليه أسوار القدس، وقد أرسل إليه عدداً كبيراً من الخيول والرجال المسلحين لمهاجمة المسيحيين، وترك هيكلاً الرب للجماعة

المسلمين، الذين أنشدوا هناك مدائح محمد (ﷺ) وقد تحوّل إلى مدافع عن العدو، وهاجم بكل امكاناته أخانا المحترم بطريرك القدس والداوية، وينبغي على كل حال أن لا يعتقد من قبل أي إنسان صاحب عقل سليم، أننا نحن، أو نوابنا قد سعينا إلى إعاقته ومنعه من استرداد مملكة القدس، لأن الكنيسة قد حثت نفسها كثيراً لتحقيق هذا الهدف، وقد تحملت كثيراً من أعباء النفقات العظيمة، إنما من المعروف بشكل جيد بالنسبة للعالم أجمع، بأن فردريك المذكور، كان بالطريق نفسه مضطهداً لكنيسة الرب في سورية، وكذلك فعل من خلال وكالة رينالد المذكور، الذي —على الرغم من نصيحتنا— تركه بمثابة وكيله في مملكته، فقام بالتضييق على الكنيسة على هذا الجانب من البحر، لأن رينالد المذكور غزا أراضي الكنيسة، محمياً برسائل مختومة بالختم الذهبي، ومدعوماً بالمال، ومحاطاً بإقطاعي فردريك المذكور، وأقدم على تعليق، وتشويه وقتل بعض الكهنة ورجال الدين، وسعى أيضاً —بحكم أننا كنا في وضع مضطرب— إلى الاستيلاء على مقاطعة بيريوسيوم Perusium، العائدة إلى أراضي الكنيسة المذكورة، ومع أن رعايانا الأوفياء والمخلصين، الذين لم يعد بإمكانهم تحمل مثل هذا الزحف، قد طردوه من ذلك الجزء من البلاد، فإن المسيح قد أعطى النصر إلى قرينته، ومع ذلك وبسبب أن رينالد المذكور لم يكن ليقنع عن اضطهاده ولا بوسيلة من الوسائل، رأوا أنه من الحكمة قطع عروق أصل الشر، بدلاً من انتظار عنف السيل الذي قام بالازعاج، والذي كان يزداد ضخامة بوساطة بعض الجداول الجديدة، ولذلك دخلوا إلى مملكة صقلية، التي هي الوقف الروحي للكنيسة، حتى لا يطلبوا منا نشاباً من تلك الجهة، التي ينبغي توقع وصول المساعدة، ومع أن كثيراً من سكان تلك المملكة صاروا مطيعين للكرسي الرسولي، ينبغي عدم عدّهم —لهذا السبب— من أي جانب من الجوانب مجرمين بالحنث باليمين، لأنهم قد حرروا من يمين الولاء الذي كانوا قد أعطوه إلى فردريك

المذكور بوساطة قرار الحرمان الكنسي الذي كان قد صدر ضده.

وعندما عاد فردريك المذكور من مناطق ماوراء البحر، ورجع إلى صدر الكنيسة الأم، فتحنا له صدر العاطفة الرسولية، وأعرناه أذناً صاغية، واستجبنا لطلبه بالسلم، ومنحناه منفعة التحليل، وبالإضافة إلى هذه الأشياء، فإن ابن الكذب هذا، تولى تكديس الزيف فوق الزيف، من أجل أنه كلما زاد تعثره في شباك الزيف، كلما كان الرعب الذي نصبه أعظم، هذا الرجل أعلن الآن بكتابة كاذبة، أننا في سبيل تدميره، وعدناه أنه إن كان سيذهب إلى لومبارديا بسلام، ومن دون جيش سوف نلطف جميع الصعوبات، وأننا من خلال المعارضة التي عملت برسائِلنا وبمراسِلنا أعقناه ومنعناه من الوصول إلى هدف نواياه، وأنه بسبب أنه لم يكن مدعوماً بالسلاح، قد أرغم على العودة إلى مملكته، وقد أكد بشكل زائف أنه بموجب مبادرتنا قد تحدى الرومان الذين كانوا آنذاك يهاجمون فيتربو، وأرسل كتلة كبيرة من الرجال لمساعدة شعب تلك البلدة، وقد اشتكى بأننا قد كتبنا إلى الرومان، قائلين بأن هذا قد عمل من دون معرفتنا، ومن دون استشارته، عُمل سلام معهم مرة ثانية، مطرياً نفسه بزيف جديد، بأن الرومان قد أبعدوا ثانية عن سلام الكنيسة، وجاء هذا الرجل نفسه، من دون دعوة، مع ابنه كونراد، الذي منحه لنا ليكون رهينة، ومثل أمامنا، وأخضع لتحكيمنا مسألة الخلاف الذي نشب بينه وبين اللومبارد، وأعاد إلى امتيازات الكرسي الرسولي، الأرض التي جرى احتلالها، وأعاد حرية الكنيسة إلى وضعها السالف والصحيح، فهل من الممكن أن يكون هذا الرجل الذي يتكلم الزيف، رجلاً يمتلك روحاً؟ وهل من الممكن أن يمتلك رجل الدولة هذا نتيجة صحيحة؟ وبالنسبة لقضية الإعادة إليه وإلى كونراد المذكور امتيازاتها في مدينة القدس، التي حرما منها، وهي القضية التي جرى ترتيبها من قبل أخينا المحترم أسقف رافينا، اشتكى، من دون تقدير

للصدق، بأنه ما أن جُلب المال ودفع، حتى قمنا بتوزيعه بين المسيحيين (الذين كانوا متضررين بهجمات معادية، مترافقة باحراق الكنائس وقتل الرجال) وأنا حررنا جميع المساعدات عنه، وأنه لهذا السبب لم يقم بإرسال رسول أو رسائل، وكذلك هو لم يستح أن يكتب بقلمه الكاذب رسائل ذكر فيها، أنه على الرغم من شروط السلام، ومن نصيحة إخواننا، جرى الاحتفاظ بمدينة كاستيلانا من قبلنا، لإلحاق الأذى بحقوقه، هذا ومع أنه لا توجد حتى ذرة واحدة من الصدق ممزوجة مع هذا الزيف، على الأقل لإعطائهم شيئاً من التلوين، من أجل أن تكون أكثر قدرة على الفهم بوضوح أنه ولا نقطة من الزيف لم تلون هذه الافادات كلها، نحن نرغب منكم أن تعرفوا بشكل مؤكد، أنه كما هو معلوم من خلال مجرى الأحداث، يبدو من الموائم لعقل مستقيم أنه كان يمكنه بشكل أفضل الحصول على غاياته بالنسبة للمبارد، لو أنه أظهر نفسه أباً عاطفياً، وسيداً رحيماً لهم، بحكم أنهم كانوا أقوياء بعدد شعبهم، وبسماكة شرافات أسوارهم، وبعظم جيشهم وسعته، وبعلو أسوارهم، وذلك بدلاً من إقدامه على تجريد سيف الانتقام ضد رعيته، التي كانت ترتجف، بسبب الذنب المعزو إليهم، وأن ييث الرعب بينهم بالزحف ضدهم مع فيالق جنوده، أما نحن الذين كنا ملزمين برفع شأن منافع السلام، فقد نصحناء بكل اخلاص، بأن يتخلى عن فكرة الاستحواذ عليهم بوساطة عساكره، وأن يعيدهم إلى جادة الاخلاص المتوجب للامبراطورية بإلغاء التهديدات بالعقوبة، وبأن يظهر نحوهم العطف، ومع أنه سار إلى لومبارديا، محاطاً بحاشية غير مسلحة، ومع ذلك لتخليه عن نصيحتنا الودية، شارك في مذبحه الكريمونيين، وصار وكيلاً للانشقاق، وسعى للتسبب في فتق أوسع في لومبارديا، التي كانت ممزقة بالخلافات، وقام بوساطة الرعب والتهديد بابعاد الميلانيين عنه، وذلك على عكس ما كان عليه أن يفعل بجذبهم إليه برباط العاطفة، ونحن، في برائتنا، ينبغي أن لانلام لأنه عاد إلى أبوليا، محبطاً في آماله،

ذلك أنه هو شخصياً جلب الموت وأنزله على أماله.

وبعد هذا، إنه بالنسبة لقضية حماية حرية الكنيسة، ولمحق الهرطقة، هو أعلن عن نفسه بأنه مستعد لإطاعة رغباتنا، وفي رد على ذلك أجبنا برسالة جاء فيها، بأنه طالما أن الوضع في مملكته هو أن ما من أحد حرك يداً أو قدماً من دون أوامره، وبناء عليه تنشر الهرطقة سمومها بالطول وبالعرض فوق الإيمان الكاثوليكي، وحيث أن حرية الكنيسة قد ديس عليها تماماً تحت الأقدام حيث كانت، ولذلك من المعتقد أنه ليس مناسباً استخدام الدواء للرأس حيث أن القدم نقلت المرض بوساطة الاتصال، وخلال مدة قصيرة من الزمن تبرهنت صحة هذا الجواب، لأنه لدى سماعه بأن بعض الأشخاص، الذين ضللوا من قبل رأي شرير، كانوا يرغبون بدخول أراضي الكنيسة، فما كان منه إلا أن ذهب بعيداً إلى صقلية، وكأنه منهزم، وذلك بغية أن لا يسبب له وعده المخروق تهمة الزيف، وهو لم يسر ضدهم بأية طريقة من الطرق، سواء بالقول أو بالعمل، موجهاً الملامة إلينا، بسبب أننا برعاية أبوية سعينا إلى أن نعيد إلى إخلاصهم ونرجع إلى الكنيسة الرومانية الأم، الابن الخاص بالكنيسة، الذي عاد إلى المدينة، وقد فهم أيضاً أن بعض أبناء الفساد كانوا يبذلون جهودهم في سبيل إبعادهم عن التعاطف نحو الكنيسة، والاعتقاد أنه بسهولة أكبر يستطيع أن يجمعها ويقمعهم، إذا تمكن، بوساطة خداعه المعتاد، وأن يؤذي مشاعرهم وعواطفهم بعمق أكبر، فأسرع — مع أنه لم يكن مدعواً — إلى الكرسي الرسولي، حيث كنا آنذاك في رياتي Riati، وهناك وعد — مع كثير من التواضع — بأنه سوف يعيد المناطق المفقودة من الكنيسة إلى أحوالها الماضية، وسوف يدافع عنها بأقصى ما يمتلك من قوة، ومع ذلك فإنه أعاق في توسكانيا — التي قدّم إليها مساعدته — ووقف ضد استرداد إحدى القلاع التي كان من السهل إعادتها إلى حكم الكنيسة بقليل من الجهد، وفي الوقت

الذي كانت فيه يد الخائن معنا على المنضدة، كان نائبه —بناء على إشارة معطاة منه، حسبها تبرهن ذلك بشكل مكشوف ضده، من خلال نتائج عمله، وبوساطة رسائله، التي احتفظ بها بمشابة برهان على خيانتة الكبرى— قد عقد اجتماعاً مع أعداء الكنيسة، حول موضوع تلك القلعة، التي كان من المتوجب تسليمها في يوم محدد، وبذلك أعطاهم مسوغاً للبقاء تحت السلاح، فانظر أية خدمة قدمها هذا العدو السري، إلى الكنيسة، الذي لم يستح من تحويل نفسه إلى خادم لها نفسها، من أجل أن يمتلك وسائل أكثر تأثيراً في سبيل إلحاق الأضرار بنا، وعلى كل حال، نحن نرغب أن تكون متأكداً أننا مررنا بهذه القضايا المتعلقة به، صامتين، ولم نسمح للصفاء الرسولي أن يتعرض لأي تغيير، بل أمرنا بإعادة الحقوق، التي انتزعت منه ومن كونراد المتقدم الذكر، في مملكة القدس، إليهما بوساطة رئيس الأساقفة المذكور، الذي إليه كانت واجبات النيابة البابوية قد أسندت، والذي فعل ذلك، ومع ذلك تجاوز الترخيص الذي أعطي له، بسبب التماس رفع إلينا من قبله، وبعد التماس رفع ضد هذا القرار، وضعت الأرض المقدسة تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وهو إجراء لم يسمع بمثيل له من قبل في أي وقت مضى، وبناء عليه، وتقديراً منا أنه نتيجة لهذا الإجراء، وبسبب الخطر العظيم الذي تعرضت له الأرض المذكورة، وكذلك الحجاج الذين كانوا يرغبون بمغادرتها، وكذلك أن الآخرين سوف يؤجلون عبورهم إليها، وبعدما تسلمنا ضماناً من البارونات، والنبلاء، ومن مناطق المملكة المذكورة، رأينا بكل اخلاص، وبناء على نصيحة إخواننا، أنه من الموائم سحب القرار المذكور، الذي جرى التفوه به بعد عمل التماس قانوني صار *Ipsa Jure* وملغياً وفارغاً، وجرى اتخاذ عناية خاصة بعدم خرق إجراءات رئيس الأساقفة المذكور في جميع النقاط الأخرى، وبناء عليه يتوجب أن لا ينزعج تفكيركم، لأنه بسبب هذا، قد انتقدنا بشفتيه الملوئين، لأنه مع أن الإناء مليء بخبث الشر، يظن بأن

لدغات الجريمة التي أصابت عقله، قد انتشرت إلى الآخرين، وبناء عليه بما أن التجريح الصادر عن الرجال الأشرار يتردد صدها ويعود مديحاً، ومديحهم تجريح، نحن نفضل كثيراً، أن نهاجم بافتراءات هذا الرجل، الذي كل كلمة من كلامه تعج بسوء السمعة، على المديح من قبله، ولعله يظن أنه يستطيع أن يغسل دنس آرائه بوساطة هذه الانتقادات، لأنه عندما كان مقيماً في فيتربو، ملوثاً ذلك المكان ومفسداً إياه، هرب بشكل مشين من أمام أعداء الكنيسة، وجاد بشرف الامبراطورية، وتراجع ووقف حيث هو خائفاً، ولم يذهب للدفاع عن رعاياه المخلصين، الذين كان أعداؤه يحاصرونهم أمام ناظره، والذين لم يجدوا أحداً يمنعهم من العيث فساداً في المنطقة، وقد ادعى وأعلن أن زحفه لمساعدتهم قد منع من قبلنا، واتهمنا — ونحن أبرياء — لعدم إرسالنا رسولاً *alatre* لمنع الخسائر التي جنت بوساطة هذه الحرب، وينبغي عدم التعجب تجاه هذا، لأن الكنيسة كانت آنذاك مرهقة بضغوط شديدة من قبل مضطهديها، ووصلنا إلى مدينة كاستيلانا، التي خرق سكانها يمينهم بالتابعة، وخانوا تلك الكنيسة من دون معرفة الكنيسة، وتخلوا عن أنفسهم واستسلموا إليه، لكنهم لم يتمكنوا بوساطة هذا الإجراء من نيل أي حق لأنفسهم، كما أنهم لم يستطيعوا إلحاق أي ضرر بنا، سواء بالنسبة لامتلاك المدينة، وكذلك بالقدر نفسه لما تعلق بامتلاكنا الإشراف القضائي، سواء ماتعلق بالمدينة وبسكانها، لأن الناس إذا ما تملكوا لمنفعة الآخرين، وليس لمنفعة أنفسهم، إنه من العبث أن نعمل مطالبات منهم، فبداية التملك لا يمكن أن تدمر شرائع التملك، أو أن تضفي على غرباء حقوق الممتلكين الحقيقيين، وكذلك أيضاً، بما أنه غالباً ما أعطى يمينه بأن يسترد الممتلكات العائدة إليه وبالنسبة للكنيسة، لقد بدا أنه يعمل بشكل غير حكيم في طلبه منا الذي لم نستطع الاحتفاظ بتملكه من دون أن يكون مداناً بالحنث باليمين، هذا ولا يجوز أن يعتقد في هذا المقام وبالنسبة لهذه القضية أننا نزدري مشورة

إخواننا، لأننا على استعداد لأن نقدم له كل نوع من أنواع العدالة وفقاً لقرار محكمين، أو وفق أية طريقة أخرى، ولكن بما أن رسله رفضوا متابعة إجراءات المحاكمة، التي كانت قد بدأت، وهي لم تطلب منا، بل كان بالحري تصميمه متابعة السير بإجراءات تلك الشكوى، فقط في سبيل مقصد مخادع، بأنه بذلك قد نال فرصة لإلحاق الشرور بالكنيسة وشتمها، ولتدمير السلام الذي كان قد عمل بيننا وبينه.

والأوضاع التي أشارت إليها رسالته الممقوتة، فيما يتعلق بمصير الامبراطورية، وذلك بين أشياء أخرى، قد تولى قلمنا وصفها في هذه الرسالة الحالية، من أجل أنها كلما صارت معروفة أكثر لدى الناس، الأكثر يمكن أن يضع الاضطراب فيما قاله، وقد اشتكى منا، بأننا عندما سمعنا بأنه كان زاحفاً في لومبارديا مع آلاف كثيرة من الجنود، لاسترداد حقوق الامبراطورية، قد أمرناه بوساطة كتابة رسولية، بعدم الدخول إلى إيطاليا بقوة السلاح، وأن يوسطنا في قضية اللومبارد من أجل أن نتمكن من تعليق ذلك فوقه أبدياً، أو خنق الحق الامبراطوري من دون إعاقة، وإرسالنا ضده، أخانا المحترم أسقف برانستي، الذي يمكننا من خلال نيابته، إلغاء نواياه، وأن نثير ضده عدداً غير محدود من المعوقات السرية، بوساطة نوابنا، والرسائل من كل جهة من جهات العالم، وهذا الذي حرم —ربما— بإرادة ربانية، القدرة على الاعتراف بالصدق، أو التفوه بالعدل، ولذلك هو لم ينجل —على أسس زائفة— من النيل من شخصنا، ومثل ذلك هو لم يخش من عمل اعتذاره وتسويغه وفق تأكيد مماثل، وأعلن من خلال رسله الذين هم أخونا المحترم رئيس أساقفة بلرم، وبعض الآخرين، الذين كانوا قد أرسلوا إلى المقام الرسولي، بأنه قد عرض إظهار إخلاصه في جميع القضايا المتعلقة بإعادة تأسيس الكنيسة، واسترداد حقوقها وحقوق الامبراطورية، وقد أكد، أنه عندما كان رسله عائدين إليه، قمنا نحن —مع أننا كنا قد وعدناه بأن نسعى

لأن نبتعد عن إعاقته بأي طريق من الطرق — فعهدنا بواجبات النيابة البابوية، إلى ولدنا المحبوب كثيراً غ. G دي مونت لونغو، الموثق لدينا، من أجل تدمير رعيته، وختم بأن أفاد بشكل زائف بأنه لم يعبأ بهذا ولم يقف عنده، فأرجع رئيس الأساقفة المذكور مع رسله الآخرين، إلى المقام الرسولي، وأنه عرض من خلالهم تقديم كل نوع من أنواع الترضيات، وأنا قمنا على الرغم من الوصايا التي ورثناها عن الآباء المقدسين، ومن العادة الخاصة للكنيسة، فحرمانه كنسياً بشكل غير عادل، مع أننا كنا معارضين من قبل الشطر الأكبر من إخواننا، وأضاف لعاره، بأننا نحن، النائب للقديس بطرس ليس لدينا سلطة الربط والحل، وكأنه أراد أن يعلن بأننا قد كنا من دون سلطة المفاتيح التي أعطيت إلى رئيس الرسل، واحمل بناء عليه — نحن نرجوكم — ميزان العقل، وزن به فردريك المتقدم الذكر، مقابل الكنيسة، وزن أخطائه مقابل المنافع التي تسلمها منها، ولسوف ترى بوضوح، أن هذا التين وإن كان قد صيغ لخداعنا، وأنه قد أعطي بمثابة طعام للشعب الاثيوبي، قد لفظ من فمه مياه الاضطهاد مثل نهر، في سبيل إخضاع الكنيسة، ومع ذلك تغلب المقام الرسولي على ذنائه، بالرحمة التي لا يمكن تقديرها لمنافعه، لأنه منذ أن كان في سنين الضعف، عندما كان معرضاً — بشكل كامل ويعيش في بحيرة من الفوضى — لهجمات الذين تشوقوا بنهم للاستيلاء على أرضه، والذين استهدفوا حياته، وذلك عندما كان محروماً كلياً من مواساة أقربائه وأصدقائه، وعريانياً تقريباً، ووقتها رأت الكنيسة الأم أحواله هذه، فرعته واحتضنته، وقامت بواجباتها كحاضنة وغطته برداء المقام الرسولي، وانتزعت من شباك الصيادين، ومع كثير من الجهد والنفقات رفعتة إلى عرش الامبراطورية وتاجها، وعلاوة على ذلك، إنها تقدر أنها بعملها هذا قد قدمت إليه القليل فقط، ذلك أنها ضمنت له حكومة مملكة القدس، ورفعت من شأنه في جميع أنحاء العالم، ومع ذلك ولحزننا، ومع شعورها بنفسها أنها جرحت من قبله،

وتأذت أضعافاً مضاعفة بطرق مختلفة، قامت قبل وقت قصير مضى بمساعدته بقوة ضد ابنه هنري، الذي أغوى شطراً كبيراً من ألمانيا، حيث تم التخلي عن الولاء له، ونسيت الجراحات التي لحقت بها من قبله، رفعتة مجدداً إلى المقام الامبراطوري، كما أنها قامت بناء على طلبه، باصلاح ألمانيا، بوساطة رسائل رسولية، وبهذا وبمنافع أخرى، نحن لايمكننا تذكرها، نهضت بالدفاع عن شرفه، ولكن عصا عدم التقوى هذا، وهذا الذي هو مطرقة الأرض، لديه رغبة في خلق الاضطراب في جميع العالم، وأن يسحق الممالك، وأن يجعل العالم صحراء، وأن ينزل حرية الكنيسة في مملكة صقلية المذكورة إلى حالة من المهانة هي حالة أخفض أحوال العبودية، وأن يقهرها بالقذارة، والأعباء، والمظالم الأخرى، والكنائس التي أراد أن يملأ كرشه من وهنها، قد جردها تماماً حتى العظم، وكما كانت، جردها من مقتنياتها المقدسة، التي عينت لاستخدامات الرجال المقدسين، وقضى بوضع اللاهوتيين بالسجن، وأرغمهم على التعرض للاتهامات، وأن يدفعوا الضرائب والمكوس، وأن ينهكوا ممتلكات الكنيسة، حتى يتمكنوا من انقاذ أنفسهم وتخليصها من مظالمه، وقام أخيراً بطردهم، وأبعدهم إلى المنفى، فقد حرمت الكنائس الأرامل من رعاتها، ولم يسمح لها بأن تتولى كل منها اختيار قرين لها، وأن تلقي جانباً ملابس الترميل، حتى تدع نفسها مرغمة بأن ترمي بالزنا في حضان أي واحد، وقد بنى خارج أماكن سكنى المسيحيين أسوار بابل، ونقل الأبنية التي يعبد فيها اسم الرب إلى ذلك المكان الذي فيه محمد (ﷺ) محل تبجيل، ومنع التبشير المعلن بعقيدة واسم الذي صلب، في مملكته المذكورة، وذلك إلى الحشود التي اجتمعت من جميع الجهات، وقد أحبط استرداد الأرض المقدسة، وأحبط الحملة الصليبية، بمنعه إعطاء أي من ممتلكات رعيته في سنبل انجاز هذا الهدف، ومراغمة ليمينه الذي تعهد به، ولبنود السلام الذي أقيم بينه وبين الكنيسة، جرد النبلاء من قلاعهم، ومن ممتلكاتهم

الأخرى، وسجن أزواجهم وأطفالهم، وأرغمهم على مغادرة أماكنهم الخاصة، وعلى نقل أماكن سكنهم إلى أماكن سكنى الآخرين، وقد أرغم الذين نشأوا في الأجواء الأرجوانية على التمدد فوق الوحل، وأنزلهم إلى أدنى درجات الشقاء، وكما أنه قام في الوقت نفسه بظلم الفقراء بوسائل أذى مماثلة، ونحن نعتقد أنه كلما زاد أكثر فأكثر من عدم إرضاء الرب، كلما زاد اعتقادنا أنهم أبرياء، وماذا يمكن أن أقول أكثر؟ فقد قام بوحشية لم يشهد بمثله بانزال بارونات، وفرسان، وأناس آخرين من مملكة صقلية المذكورة، إلى أوضاع العبودية، والآن لا يمتلك معظم سكان تلك المملكة، إمكانات الاستراحة على فراش هو ملكهم، وكم هو شرير أنهم يغطون عوراتهم بمسوح خشنة، ويستطيعون بصعوبة ملئ أمعائهم ببخز جاف، وبما أن بكاء وشكاوى الكنائس المذكورة والناس قد أقلقت مسامع الكنيسة بشكل مستمر، وذلك منذ أيام سلفنا أونوريوس المذكور، وبما أنه كان من الصعب المرور بهم صامتين من دون التآلم في ضميرنا، قمنا بوساطة الرسل والرسائل، ليس مرة واحدة، بل عدة مرات، بانذاره بوجوب تصحيح أخطائه، وانتظرنا بصبر عظيم لبعض الوقت الذي مضى، لنرى أنه ربما سيصدف أن يرفع عينيه نحو السماء، وأن يخلع إنسانه القديم وأن يرتدي إنساناً جديداً، وأن يوقف يديه عن اقتراف مثل هذه الجرائم الكبرى، وعلاوة على ذلك مع أننا ظللنا شاكين حول الإصلاح المطلوب، لقد رغبتنا بتقديم التهنية إليه على تقدمه في إصلاح وضعه، وعندما دخل إلى لومبارديا بقوة السلاح، بعثنا أوامر، أنه في الأماكن الواقعة تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، ومهما كان سبب ذلك، ينبغي التوقف عن مراعاة الحرمان من شراكة المؤمنين، حيثما كان موجوداً، وحذرنا برسائلنا فردريك المذكور، بأن يعطينا وعداً دقيقاً، بعدم إعاقة قضية الصليب، التي تولاهما في سبيل منفعة الكنيسة، والامبراطورية وجميع الجماعة المسيحية، وأن لا يزحف بقوة السلاح ضد اللومبارد، حتى لا يضرب

مثلاً فاسداً، سوف يعطي سبباً إلى كثير من الناس ليفترضوا بأن الكنيسة سوف تخدع البقية، ومجدداً إنه كما هو مفروض علينا في منصبنا، وهو منصب عبد عبید الرب، في أن نرمم الرتوق التي تسببت بالانشقاق وفي سبيل أن ننهي جميع الخلافات القائمة بين الامبراطورية واللومبارد، رأينا من الموائم إرسال أسقف برانستي، المكلف بمنصب النيابة البابوية، ليعمل في سبيل اللومبارد وجميع المتخاصمين الآخرين، ولأن يكون في وضع غير مرتاب به في التوزيع والانصاف وكذلك في أعماله، وأن لا يتسبب حتى ولو قليلاً في الكراهية والمحاباة، لأنه هو الذي انسحب من العالم ومن الجسد، في سبيل العمل للدين المقدس، وارتقى إلى أعالي الحب اللاهوتي، ودعوا المنتقص يحجب نفسه، أية تهم يمكنه أن يجلب ضدنا على هذه الأرضيات، وضد الأسقف نفسه، لو أن الوثائم تحقق في بليستيا بين الآباء والأبناء، وذوي القربى والأعمام، وهو نفسه حاضراً، ومحتجاً بأن هذا قد أنجز دون إلحاق أذى بمراتب الامبراطور وامتيازاته، وبالامبراطورية، وأية آخرين من الممكن أن تكون لهم علاقة، وعلاوة على ذلك، على هذا المجدف المذكور أن يفهم، أنه بالفعل يعد أمراً مهيناً بالنسبة له، أننا وإن قمنا بناء على طلبه وعلى طلب رسله، فبعثنا بأخينا المحترم أسقف أوستيا، وبولدنا ت. T الكاهن الكاردينال للقديسة ساينا، إلى تلك المناطق، لهدف إعادة تأسيس السلام بين الامبراطورية واللومبارد، وفقاً للبنود التي قدمت من رسله المذكورين، ومع أن النائب البابوي المذكور كان مستعداً لتنفيذ البنود المطلوبة، لابل حتى لمنح المزيد، قد وجدنا أنفسنا قد خدعنا، عندما رفض الموافقة على إعادة تأسيس السلام بناء على البنود الممنوحة من قبلهم.

وافهم الآن كيف أننا دسنا على امتيازات الامبراطورية، وافهم من المسائل المتقدمة كيف أنه كان معاقاً من قبلنا، لأنه قد قرر وجوب كدم

كتفيه، وأكتاف أولئك الذين هم أتباعه بوساطة جهد طويل وبلا فائدة، بدلاً من السماح لأن يعاد تأسيس امتيازات الامبراطورية من قبلنا، فضلاً عن هذا، لم يكن الرجل نفسه قانعاً ولا مكتفياً بالأذى الذي ألحقه بالكنيسة، وذلك بوسائل مبالغ كبير من المال لبعض المتمردين ضدنا، وسعى مراراً لإثارة عصيان ضدنا في المدينة، من أجل أنه بطردنا نحن مع اخواننا من مقامنا، وأنه بعدما يجري ترنح الرأس الذي وضعه الرب فوق الإيوان، البناء نفسه يصبح من السهل تدبر انهيائه بأقل جهد يبذل من جهته، كما أنه جاء، وهو خارق لقسمه، إلى لومبارديا، واستولى على فيرارا مع أراضي أخرى من أراضي الكنيسة، وفيما يتعلق بهذا الإجراء، وكذلك بأمور أخرى، أرسل إلينا أسقف بلرم المتقدم ذكره مع رسالة اعتماد، ظاناً أنه يمكنه خداعنا بخطابات فارغة، وبينما كانوا يعرضون علينا تقديم ترضية محترمة، ويحاولون إصلاح الأخطاء المتقدم ذكرها، قام قبل مغادرتهم من بلاطنا، وبعد مغادرتهم، فشغل نفسه بالاستيلاء على بلاد سردينيا، وعلى أسقفية مسينا لونييسيس Lunensis وكلاهما عائدتين إلى الكنيسة الرومانية، وقد علمنا بهذا الإجراء، أن لانتوقع منه أبداً أي إصلاح، وبرهن ببيئة أعماله، أنه لا يجوز وضع أية ثقة به أو برسله، وبناء عليه ومع هذا المقصد في فكره، كان قلبه موجهاً نحو تدمير الكنائس والإيمان الكاثوليكي، ولذلك لسبب صحيح هو مشكوك به من قبلنا، من قبلنا نحن الذين لا يمكن له الاستمرار بالتخفي أمامهم تحت رداء الزيف، لأننا نحن قد صرنا شاكين بقوته، وذلك صدوراً عن التقدير للعدل، ولأنه من الأفضل منع الإصابة بالجراح على إيجاد العلاج بعد الإصابات بهم، عهدنا بمنصب النائب البابوي إلى الموثق المذكور، من أجل إيقاف تقدمه، الأمر الذي لم نعمله إلا بوسائل الشك به، وكنا نأمل بوسائل النائب البابوي المذكور، أن نكون قادرين على منع مذابح الحرب، وعلى تفادي الرعب الذي أحاق بالأرواح والأجساد، وبحكم أننا كنا غير قادرين، بناء عليه على

الانطلاق من الظروف المتقدم ذكرها، ومن ظروف أخرى إلى جانبها، رعاية لآمال تقويمه، وحزناً منا أننا غالباً ما جرى تضليلنا بوعوده التي غالباً ما عملها، قمنا بناء على نصيحة إخواننا، فتفوهنا بقرار الحرمان الكنسي ضد فردريك المتقدم ذكره، ومع أنه وفقاً لهذا، كان عليه أن يسترد مداركه الضائعة، وأن يتواضع بنفسه أكثر أمام الرب، كان الذي عمله هو فقط الهذيان أكثر بغضب، وبناء عليه لأنه اكتشف اضطرابه، ولأنه خاف بشدة، من أن ذنب الأفعى لن يفتح بوساطة اليد الوسيطة للكنيسة، أعلن أننا غير جديرين بفضائلنا الشخصية بتسلم سلطات المنصب البابوي، وأعلن برسائله أنه لا يمكنه أن يرتبط بالقرار المتقدم الذكر، الصادر عنا، وكذلك نحن الذين ضاعفنا في أيامنا — بنعمة من الرب — أوقاف الكنيسة بدرجة كبيرة، نحن متهمون من قبله بتبديد ممتلكات الكنيسة، وبالقيام بأعمال توزيع وتحليل، وبتسلم هدايا، ووسمنا بجريمة الشره الشريرة، وأكد أيضاً بشكل زائف، بأننا نأثرين ضده، لأنه رفض منح موافقته على عقد زواج بين حفيدة لنا وبين ابنه الطبيعي، وأعلن بشكل مكشوف بأننا أعطينا يميننا الشخصي إلى اللومبارد للعمل ضده وضد الامبراطورية، وأننا قد وعدنا بأن نحول لاستخدامه عشر جميع العالم، الذي كان محفوظاً لمنفعة الأرض المقدسة، إذا ما أخضع شؤون اللومبارد إلى قرارنا، ونحن نعتز بأننا مفتقرين إلى الفضيلة حتى نكون نائب المسيح، وأعترف أيضاً أنه ليس فينا كفاية لمثل هذا العبء الثقيل، الذي لا يمكن لأي إنسان حي، مهما كان حاله، أن يتحملة من دون عون الرب، ومع هذا إننا نمارس واجبات المنصب الذي عهد به إلينا بشكل جيد، وبقدر ما يسمح لنا ضعفنا، ونسعى إلى تقرير الأمور، حسبما تتطلب طبيعة المكان، والوقت، والأشخاص والظروف، وعندما تتطلب الضرورات، نحن نمنح التحليل إلى أقصى درجات قدرتنا، بشكل حر، ووفقاً لواجبنا نحو الرب، وذلك إلى الذين يستحقونه، ومع هذا، إنه ليس سبباً للأسف أنه جرح الكنيسة بمثل هذا

العمق، مثلما أنه أيضاً لدى تجاوزه حدود المنصب الملكي، كان غير قادر على الإغارة على واجبات الكهنة، وبحكم الظروف، فإن هذا الرجل لتعطشه للذهب، قد أنزل مملكة صقلية المذكورة إلى درجة الرماد، وهو الذي لم يقدم طوال حياته شيئاً من العدالة النقية إلا لقليلين، وفي الوقت الذي باعها فيه بشكل فاسد إلى كثيرين، أحيا في شخصه سيمون الكبير، وقد يكون قادراً على تلويث الكنيسة بتهمة الربح الدنيوي، إنه يفعل ذلك حتى يُسمح له بالاغارة على المسائل الروحية، ولكي يبقى في دنسه الخاص، قد حاول بشتى السبل، بأن يخرق ويمر من خلال سور نقاء الكنيسة، وخاصة بمنح القلاع، وبرعاية مشاعر القرابة بين شعبه وشعبنا، وهو غالباً ما طلبه منا من خلال بعض كبار الأساقفة وبوساطة رسله كذلك، ولكن بما أنه لم يستطع الحصول على ذلك بوساطة أية التماسات، أو بوساطة أية نصيحة (كما هو معروف بشكل جيد في بلاطنا) ووجد نفسه ومعه أعوانه قد تركوا الآن إلى خداع نصائحهم، ويظل الأسوأ، هو أنه، طالما لم يعد يعرف الذي يمكن أن يفعله أكثر، أهان نفسه بالخط من شأن الآخرين بأقواله الزائفة، مثل العاهرة المصرية التي دعت يوسف لينام معها، ولأنه رفض ذلك، اتهمته، أمام زوجها وشكته إليه، وهناك شيء واحد، مع أننا ينبغي أن نتجنب من أجل رجل ضائع، عليكم الابتهاج كثيراً، لابل عليكم أن ترجعوا الشكر إلى الرب وتعيدوه، لأن هذا الرجل الذي يعتليه السرور لدعوته باسم الممهد للمسيح الدجال، إنه بإرادة الرب، لم يكن بإمكانه تحمل الاستتار بالظلام، وهو غير متوقع بأن إهانتته ومحاكمته صارت قريبة، فهو بيديه ذاته، قد لغم سور بغضائه، وقد قام برسائله بجلب أعماله الظلامية إلى النور، حيث ذكر بهم بكل وقاحة أنه لا يمكن حرمانه كنسياً من قبلنا، مع أنني نائب المسيح، وبذلك أكد بأن الكنيسة لا تمتلك سلطة الربط والحل، التي أعطيت إلى مولانا القديس بطرس، وإلى خلفائه، وبهذا أكد الهرطقة، وختم بمناقشة ناسبته، حيث برهن بأنه ينظر نظرة سيئة إلى

بقية بنود الإيمان المستقيم، وذلك بقدر ما يسعى إليه لحرمان الكنيسة، التي عليها تأسس الإيمان ودعم، هذا وليس من السهل الاعتقاد من قبل بعض الناس، بأنه ألقى بنفسه بالشراك بكلام فمه، الذي برهانه جاهز لنصرة الإيمان، لأن ملك الوباء هذا قد أكد بشكل مكشوف بأن العالم كله قد خدع من قبل ثلاثة، هم يسوع المسيح، وموسى، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وأن اثنين منهما قد ماتا بشكل مجيد، أما يسوع المذكور فجرى تعليقه على الصليب، كما أنه أقدم على التأكيد (أو بالحري على الكذب) بأن الحمقى هم الذين يؤمنون، بأن الرب الذي خلق الطبيعة، ويمكنه أن يفعل كل شيء، قد ولد من العذراء، وأكد هذه الهرطقة بعقيدة زائفة بأن ما من واحد يمكن أن يلد ما لم يكن الحمل به قد جرى من خلال الاتصال بين رجل وامرأة، وما من إنسان ينبغي أن يعتقد بأي شيء لا يمكن البرهنة عليه بقوة ومنطق الطبيعة، وهذه الأشياء وكلام كثير آخر، وكذلك أفعال، التي بموجبها قد هاجم، وما زال يهاجم الإيمان الكاثوليكي، يمكن بوضوح البرهنة عليه في الوقت المناسب وكذلك في الوقت الموائم، وذلك حسبما نراه لائقاً وموافقاً، وبناء عليه نحن نسأل، ونحذر، وبإلحاح نحث جماعتكم، ونأمركم بكل دقة بوساطة هذه الرسائل الرسولية، وبفضيلة طاعتكم، أن لاتسمحوا لفردريك المذكور بأية وسيلة من الوسائل بلغم قلوب المسيحيين المؤمنين بوساطة كلامه المخادع، أو أن يلوث قطيع الرب بعدواه، وأن تقوموا أيضاً بنشر المسائل المذكورة أعلاه بشكل كامل ومخلص إلى رجال الدين والناس الخاضعين لكم. صدر في اللاتيران، في الحادي والعشرين من أيار، في السنة الثالثة عشرة من حيريتنا».

وقد أرسلت الفقرة الأخيرة المدونة أعلاه إلى سيد المملكة، مع الرسالة المتقدمة، على هذا الشكل:

«ولهذا رأينا أنه من المناسب أن ننصحكم، وأن نحث سموكم

الملكي، بأن تتسبوا بشرح الذي تقدم بكل يقظة، حتى لا يتعرض نقاء البراءة الملكية إلى التلوث بكلامه المخادع. صدر في اللاتيران، إلخ، كما تقدم أعلاه».

نهم الرومان يرفع ثقتهم

وجرى نشر هذه الرسالة وإرسالها إلى عدد كبير من الملوك، والأمراء، والنبلاء في جميع أرجاء العالم، مع تغيير فقط بالعنوان، وقد أُلقت بالخوف والرعب، وكذلك بالدهشة في قلوب الذين يمتلكون إيماناً صحيحاً، وحولت رسالة الامبراطور لتكون موضع الشك، مع أنها تحتوي على حقائق ممكنة، وأعادت أيضاً تثبيت عقول كثيرين ممن كانوا من قبل في حالة شك وعدم يقين، ولولا أن شره الرومان قد أبعد اخلاص الناس عن البابا، أكثر مما هو موائم، ومما ينبغي، لكان العالم أجمع قد سخط بهذه الرسالة، ولكان ثار بالاجماع ضد الامبراطور، على أساس أنه عدو مكشوف للمسيح وللكنيسة، ولكن يالأسف، الذي حدث هو أن كثيراً من الأبناء صاروا غرباء عن أبيهم، ووقفوا إلى جانب قضية الامبراطور، وأكدوا أن الكراهية التي لم يمكن انخادها قد صارت الآن أشد فيما بينهم، وأثارت الصراع المتقدم ذكره، وأعمال التشهير، فقد ذكر البابا بشكل غير صحيح بأنه قد أحب فردريك المذكور، وارتقى بمصالحه في بداية ارتقائه، لأن هذا كله فعل صدوراً عن الكراهية لأوثو، الذي قامت الكنيسة، بمساعدة فردريك، بتعذيبه حتى الموت، وكان ذلك بسبب أنه سعى —تماشياً مع يمينه— أن يجمع بالقوة الأجزاء المتفرقة من الامبراطورية، مثلما يسعى الامبراطور الحالي فردريك، وأيضاً يفعل، وبناء عليه، إنه بفعله هذا، نجد أن فردريك قاتل من أجل الكنيسة، وأن كنيسة روما كانت ملزمة أكثر بربط الطاعة إليه أكثر مما كانه الامبراطور للكنيسة الرومانية، وشعرت الكنيسة في الغرب، وبشكل خاص طوائف الرهبان، وكنيسة انكلترا، التي كانت

من بين الكنائس الأخرى الأكثر إخلاصاً وتقوى للرب، يومياً بمظالم الرومان، ولكنها لم تشعر بأي شيء من هذا القليل بعد من قبل الامبراطور، وأضاف الشعب أيضاً قائلاً:

«ما هو معنى هذا، في الماضي اتهم البابا الامبراطور أنه يؤمن بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وبالشرعة الاسلامية، أكثر من إيمانه بالمسيح وبالعقيدة المسيحية، لكنه الآن في رسالة التجريح هذه اتهمه (بما هو مرعب أن تذكره) بأنه سمى محمداً (ﷺ) وكذلك عيسى وموسى بأنهم أدعياء، وفي رسائله هذه، كتب الامبراطور بتواضع، وبطريقة كاثوليكية عن الرب، باستثناء أنه في رسالته الأخيرة هذه حطّ من شأن شخص البابا، وليس من المنصب، كما أنه لم يتفوه بأي شيء هرطقي أو مدنت أو أيده، والذي نعرفه أنه لم يرسل مرايين أو نهاين لمواردنا إلى بيننا»، وبهذه الطريقة ازداد التمزق وصار أكثر رعباً في نشوبه بين الناس.

ذهاب الفارس روبرت دي توينغ إلى روما

وفي هذه الآونة رفض فارس من أهالي المقاطعات الشمالية في انكلترا، باذلاً جهوده لعدم ربط رقبتة إلى نير هؤلاء الرومان، وذهب إلى روما، بشأن وقف إحدى الكنائس الذي كان عائداً إليه، وعليه وضع الرومان أيدي الشره من خلال رئيس أساقفة يورك، وقد تقدم بشكوى ثقيلة أمام البابا، حول هذه القضية، وحصل على رسائل، وبهذا يمكن أن نستخلص أية تقوى أمسكت بها الكنيسة الرومانية، وكيف أنها كانت دوماً ملحاحة، وكيف أنها أحبت اللاهوتيين، الذين منهم أخذت دوماً ممتلكاتهم الكنسية، التي تقدم أن أضفيت عليهم من قبل الآباء بنوايا تقوية، وفي سبيل دعم الفقير.

غضب نبلاء انكلترا لحرمانهم من حق رعاية الكنائس

وأصبح في هذه الآونة، إيرلات، وبارونات وباقي نبلاء انكلترا،

الذين إليهم كان معروفاً منذ قديم الزمان يعود حق رعاية الكنائس، أصبحوا غاضبين لأنهم جردوا من حريتهم ومن حق الكنائس المطعمة، وذلك بوساطة شره الكنيسة الرومانية، وذلك في الوقت الذي استغنى الأجانب بهم بناء على أوامر البابا، وكتب هؤلاء الناس الذين شخصياتهم غير معروفة ولا أوضاعهم، وكانوا مجهولين تماماً، إلى البابا مؤخراً، وبعثوا برسالتهم بوساطة روبرت دي توينغ Twenge المذكور، الذي كان قد جرد بوسائل العنف ذاتها من حق رعاية كنيسة لوتون Lutton في أسقفية يورك، وعمل شكوى ثقيلة إلى نبلاء المملكة، وبما أن رئيس الأساقفة قد أكد له أنه ليس لديه سلطة، أو أنه لا يرغب بالتحرك ضد الكنيسة الرومانية، ذهب روبرت المذكور بكل سرعة ممكنة إلى البلاط الروماني، وقدم الرسالة التالية نيابة عن نبلاء انكلترا.

رسالة النبلاء الانكليز إلى البابا

«إلى الأب الأكثر سمواً، اللورد غ. G، الذي هو بنعمة الرب، الخبر الأعظم، من عبيده المخلصين في شистер ووينكستر، تمنيات الصحة، والاحترام، وإذا كان يرتضي، اخلاص جاهز:

بما أن سفينة حريتنا آخذة بالغرق، وهي التي حصلنا عليها بدماء أجدادنا، وبسبب عواصف أعدائنا التي ثارت ضدنا واندفعت أكثر مما هو معتاد، نحن أرغمنا على إيقاف مولانا، الذي هو نائم في سفينة بطرس، ونحن نصرخ بدون توقف، وبصوت واحد: «أنقذنا يامولانا، أو أننا سنهلك»، وبما أن الحكم والعدل هما وسيلة الإصلاح لذلك المقام، من الممكن أن تسمح لكل واحد منا بحقوقه، وأن تحفظه له غير فاسد، خشية أنه إذا حدث غير ذلك، فإن الإحسان سوف يتساقط إلى قطع، وسوف يجري دمار التقوى والاخلاص، ومن الممكن أن يثور الأبناء ضد أحشاء الأب، وأن تتلاشى مشاعر العواطف المتبادلة، وبناء

عليه أيها الأب الأعظم قداسة، اعلم أن أجدادنا قاموا منذ أول تأسيس للمسيحية في انكلترا حتى الآن، بالتمتع بامتياز، أن يكونوا بمثابة رعاة للكنائس، وبتعيين أشخاص مناسبين لهم، ولدى وفاة قساوستهن المتقدمين، وبتقديمهم إلى الأساقفة حتى يجري من قبلهم تثبيتهم في حكومة تلك الكنائس، ولكن في أيامكم، سواء برضاكم وبناء على رغباتكم، نحن لانعرف، فإن معارضة قد كسبت أرضية ضدنا، حيث أنه عندما يموت قساوسة الكنائس، يجري تعيين بعضاً من وكلائكم لهذا الغرض، وهم يقومون في كل مكان بمنح الكنائس التي هي تحت رعايتنا من أجل الاضرار بامتيازنا، ولإلحاق خطر كبير بحق الرعاية، مع أنكم أعطيتمونا منذ زمن طويل مضي، وعداً حول هذه القضية بضمانة رسائل رسولية، تحتوي أنه عند وفاة لاهوتيين سواء أكانوا روماناً أو طلياناً، كانت قد جرت ترقيةهم إلى الكنائس، بوساطة سلطات حكمتكم، من الممكن أن نمتلك الحق القانوني لتقديم أشخاص مناسبين لخلافتهم، ولكن الذي هو عكس هذا مانراه يومياً يجري الإصرار عليه، الأمر الذي أدهشنا كثيراً، لأن الماء العذب والماء المالح لا يمكن أن ينبعا من نبع واحد هو النبع نفسه، وبما أن هذا الازعاج يمارس ضدنا جميعاً بشكل عام، ومنه قد يتفجر جدال، ونزاع، وغضب، وصراع، وكذلك مذابح بشرية، قررنا أن نعرض القضية أمامكم، وفي سبيل تقديم مثل، نعرض الأذى الذي أنزل على واحد من رفاقنا، وهو الذي عمل بشكل غير حكيم ضده، والخطر الذي تعرض له حقه بالرعاية، وفي سبيل أن تفضلوا بسلطاتكم، إذا رغبتم بإزالته، وهو أن روبرت دي توينغ، راعي كنيسة لوتون، قام إثر وفاة N، الذي كان قسيساً لتلك الكنيسة، فقدم شخصاً مناسباً لها، لكن بسبب أمر معاكس صادر عنكم، رفض رئيس أساقفة يورك أن يقبله، مع أنه لم يكتشف شيئاً ضد الشخص المقدم، بل عرض فقط تحريمكم، ومثلما عندما «يكون البيت المجاور يحترق، بيتنا عرضة لخطر قريب»، نحن

نرجوكم بحكم كونكم أبانا، بأن تسمحوا لروبرت المذكور، وكذلك لكل واحد منا، ولنا جميعاً، بأن نتمتع بالامتياز المتقدم الذكر، بتقديم كهنتنا إلى كنائسنا الشاغرة، وأن لايجري تطبيق أمركم المتقدم، بأمر رئيس الأساقفة المتقدم ذكره، بقبول ج. ل. كلارك Clerk الذي من أجله صبينا صلواتاً تقيّة، وهو الذي جرى تقديمه إلى الكنيسة المتقدمة الذكر، من قبل روبرت المذكور، خاصة وأنه ضروري من أجل تدبير أعمال الملك، وكذلك أعمال مملكتنا، ما لم يكن هناك أي اعتراض قانوني عليه، وإنكم بفعلكم هكذا، ترفعوننا إلى اخلاص موجود أكثر، وإلى خدمة الكنيسة، خشية، بما أن امتياز ابن الواقف المتقدم الذكر، هو واحد من الاقطاعيين، الذي من أجله نحن نخدم مولانا، سوف نكون مرغمين على طلب المساعدة منه الذي هو ملزم بحماية الامتيازات ورعايتها، وكذلك امتيازات الرجال العلمانيين».

رسالة البابا الجوابية إلى نبلاء انكلترا

«من غريغوري الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أولاده المحبوبين، والنبلاء، ورتشارد ايرل أوف كورنول، وبارونات انكلترا، الذين سوف إليهم تصل هذه التقدّمات، الصّحة والمباركات الرسولية:

بما أنه واضح من أعمالنا التي توفر برهان كامل على صدقها، أننا، من بين جميع الملوك الأرثوذكس، والأمراء، والممالك التي فيها اسم المسيحيين موضع احترام، نحمل احتراماً خاصاً في أعماق العواطف، إلى شخص ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح الملك المشهور لانكلترا، ومملكته، وأعظم الرغبات اخلاصاً تتمنى سلامهم وهدوئهم، ولايمكن الافتراض، كما لاينبغي الاعتقاد، أننا بقدر مانستطيع بعون الرب، منعها، أو أن نرغب، أن نعمل، أو أن نسمح بأي شيء يمكن مع العدل أن يضر بكرامة جلالته الصافية، أو يتسبب بفضيحة في المملكة، بما أنه لم يكن بنيتنا، ولن يكون، السماح بتغيير قواعد ادارة المنافع في انكلترا،

والمعلقة بتقديم الرعايات المدنية، ولا الرضا بأن تضى على أي واحد، بموجب سلطاتنا، لأنه قد فهم بشكل واضح بموجب بعض الرسائل التي أرسلت من قبل إلى انكلترا، والتي رأينا أنه من المفيد إرسال محتواها إلى جلالته تحت ختمنا، ولقد اكتشفنا من رسائل الملك المذكور، وكذلك من رسائله، بأن أحد الفرسان من المملكة المتقدمة الذكر مستحوذ على رعاية كنيسة لوتون، في أسقفية يورك، التي قيل من قبل بأننا منحناها لواحد من بلادنا، حيث كنا جاهلين آنذاك بأن التقديم هو عائد إلى رجل علماني، واستجابة منا للإلتماسات الملك المتقدم الذكر، ولالتماساتكم، فإننا نقوم بموجب السلطات الرسولية بإلغاء المنحة نفسها، ولقد أمرنا برسائلنا أخانا المحترم، رئيس أساقفة يورك، بأن يقبل الكنيسة المتقدمة الذكر، وأن يضع فيها الشخص الذي رآه الفارس المذكور مناسباً بأن يقدم إليها، بحكم أنها عائدة للفارس المذكور، وبالنسبة لمرور الوقت، لقيمة له، بما أنه لم ينشأ عن أي خطأ صادر عنه، على شرط واحد فقط هو أن لا تكون هناك أية أرضية معقولة معارضة له، وبموجب هذه التقديمات نحن نعلن أنه غير قانوني من الآن فصاعداً، بموجب سلطات المقام الرسولي، منح كنائس في المملكة المتقدم ذكرها، التي فيها الرجال العلمانيين رعاة، وذلك من دون نيل موافقة الرعاة المذكورين. صدر، إلخ، إلخ».

رسالة أخرى منه هو نفسه إلى النائب البابوي

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى النائب البابوي، تحيات:

نحن نرغب أن تنتبهوا أنه لم يكن بنيتنا ولن يدور بخلدنا منح المنافع الموجودة في مملكة انكلترا العائدة إلى تقديمات رعاة مدنيين، أو إضفائها على أي واحد بموجب سلطاتنا، فلقد اكتشفنا حديثاً من معلومات ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، ملك انكلترا اللامع، ومن إيرلات وبارونات المملكة، بأن واحداً من فرسان انكلترا مستحوذ على حق

الرعاية في كنيسة لوتون، في أسقفية يورك، التي قيل بأننا كنا قد منحاه من قبل وأضفيناه على واحد من الكهنة من بلادنا، ذلك أننا كنا جاهلين بأن حق التقديم عائد إلى رجل علماني، ولقد أصغينا إلى توسلات الملك والنبلاء المذكورين، وبموجب السلطات الرسولية قد ألغينا المنحة المذكورة، وقمنا برسائلنا، فأمرنا أخانا المحترم رئيس أساقفة يورك، بأن يقبل، وبأن يقيم في الكنيسة المذكورة، الشخص الذي رأى الفارس المذكور أنه مناسب لتقديمه لها، لأنها عائدة إليه، وبالنسبة للوقت الذي انقضى، بما أنه غير ناجم عن غلطته، لا يقيم له تقدير، شرط أن لا يكون هناك اعتراض آخر معقول على الشخص المقدم، ونحن نعلم بكل دقة، أنه غير قانوني من الآن فصاعداً، منح كنائس — بموجب سلطات المقام الرسولي — في المملكة المذكورة، التي الرعاية فيها رجال علمانيين، من دون موافقة هؤلاء الرعاية المذكورين. صدر، إلخ، إلخ».

ومن هذه الأمثلة وأمثالها، من الممكن بوضوح أن نزن بميزان المنطق، كيف كانت شدة القانون في ذلك الحين مسترخية نائمة، وكذلك احترام الكنيسة، والتقوى الدينية، لأن ممتلكات اللاهوتيين والرهبان المسلمين قد أعطيت لتكون فقط نهياً وأسلاً، والعالم الآن مهدد بالسقوط في حالة الفوضى القديمة.

اجتماع الصليبيين في ليون

وفي هذه الآونة اجتمع النبلاء الذين حملوا لصليب في فرنسا وفي المناطق المجاورة، في مدينة مشهورة واقعة على الرون اسمها أغانو Agauno أو لوغدونوم Lugdunum أو بشكل عام ليون، وجاء احتشادهم هناك لعمل الترتيبات من أجل الانطلاق برحلتهم، وأثناء عقدهم لمؤتمر للتداول، وصل رسول قدم بكل سرعة من عند البابا، الذي كان قد حثهم من قبل بشدة وأقنعهم بالانطلاق في رحلتهم، لكنه أراد الآن أن يثنيهم عن الانطلاق وحثهم بحرارة بعدم الاقلاع في

رحلتهم، وقام الرسل باسم المولى البابا بأمر كل واحد منهم بالعودة إلى موطنه على الفور، وعرض عليهم جميع المذكرات البابوية من أجل هذا العمل، وعلى هذا ردوا بالاجماع قائلين:

«من أين انبعث هذا القلب في البلاط الروماني ولدى البابا؟ أوليس هذا هو الزمان والمكان اللذين جرى ترتيبهما منذ زمن طويل من قبل النواب البابويين والمبشرين المرسلين من قبل البابا، من أجل جوازنا عبر البحر؟ فوفقاً لكلام المبشرين ووعودهم، اشترينا المؤن، والسلاح، وجميع الأشياء الضرورية من أجل الانطلاق، فلقد رهنّا أو بعنا أراضينا مع بيوتنا وجميع أثاثنا، وقمنا بوداع أصدقائنا، ولقد أرسلنا جميع أموالنا قبلنا إلى الأرض المقدسة، وأرسلنا رسالة عن موعد وصولنا، وقدمنا إلى الميناء، والآن تعاق الحملة الصليبية وتمنع من الذهاب والمتابعة، فلقد غير رعاتنا لهجتهم ووقفوا ضدنا»، وقد غضبوا غضباً عظيماً وكادوا أن يقاتلوا رسل البابا، وأرادوا فعل ذلك، لولا أن حكمة الأساقفة ضبطت غضب الناس.

ووصل فوراً بعد هذا، رسل من عند الامبراطور، ونصحوهم بعدم الاقلاع من دون تروي، وأن لا يتسرعوا، من دون توجيه الامبراطور نفسه وحضوره شخصياً، وقد جلبوا معهم رسائل منه لهذه الغاية، فيها قدم براءة، مايكفي من معاذير لاخفاقه في القيام بالجواز، وبناء على هذا أصبحت أوضاع الصليبيين بالفعل محزنة، لأن مؤتمهم ارفض، وهم أصبحوا مثل رمل من دون ممسك، أو مثل جدار بلا ملاط، وعاد كثيرون إلى مواطنهم وهم ييكون، وقد أعطوا أنفسهم متنفساً للنقد ولقت وازدراء التأكيدات الزائفة لبعض القساوسة، وذهب بعضهم إلى ميناء مرسيلىا، وعهدوا بأنفسهم لحظوظ البحر، وأبحروا وهم يائسين نحو الأرض المقدسة، وانتظر عدد كبير منهم في صقلية حتى الربيع، متوقعين وصول مقدميهم، في حين سار بعضهم، من خلال نوع من

الاذن من الامبراطور، على شاطئ البحر، وتركوا الخليج الايطالي على اليسار، ومضوا إلى أحواز برنديزي.

اجتماع الأساقفة في لندن

اجتمع جميع الأساقفة في الحادي والثلاثين من تموز، في لندن، مفكرين بعمل بعض الترتيبات مع النائب البابوي، حول مايتعلق بمظالم الكنيسة الانكليزية، لكنه لم يكن مهتماً حول هذه القضية، فقد حصل منهم على بعض الوكالات، وبعدما عقد الأساقفة مؤتمراً أخبروه في إجابة، بأن القبضات الملحة لرومان، بمختلف أنواع الحجج قد أنهكت هكذا بالغالب ممتلكات الكنيسة، إلى حد أن جميع ثرواتهم قد ابتلعت تقريباً، وهم يستطيعون بصعوبة بالغة التنفس لبعض الوقت، وهم ماعادوا يحتملون هذه الجبايات أي وقت أطول، وأضافوا قائلين:

«أية منفعة قد أضفيت على المملكة حتى الآن، أو على الكنيسة بوساطة سلطته الأسطورية، الذي هو الشريك الوحيد للملك، والذي ظلم الكنائس بمختلف أنواع الجبايات، التي منها نأمل الآن ببعض الراحة والمواساة؟ دعوا الملك، الذي استدعاه إلى المملكة من دون نصيحة رعاياه الطبيعيين يزوده»، وعندما رأى النائب البابوي هذا الثبات بين الشطر الرئيسي منهم، توجه بخطابه إلى الفئات الدينية الأكثر تواضعاً، واستخرج منها مبلغاً كبيراً من المال، تحت اسم الوكالات، وارفض الاجتماع وسط الشكاوى، وتمتمة وانزعاج الأساقفة.

وصول كونت فلاندرز إلى انكلترا

وفي حوالي عيد صعود مريم المباركة، وصل توماس كونت فلاندرز —عم الملكة— إلى انكلترا، ونزل في دوفر، وعندما أخبر الملك بوصوله، قام بطريقة غير معتادة من قبله، فذهب وهو مسرور إلى

استقباله، وأمر سكان لندن، عند اقتراب وصوله، بإزالة جميع الأعشاب، والأوساخ، والأوحال، وكل شيء معيق من الشوارع، وأن يقوم هؤلاء السكان أنفسهم بالخروج إلى استقباله وهم يرتدون ثياب الأفراح، ومعهم خيولهم وقد أعدت بشكل جميل، وبعمل الملك هكذا، أثار ضحك كثير من الناس وسخريتهم، وبعد مضي عدة أيام، غادر الكونت انكلترا، لأن إذنه بالغياب من ملك فرنسا، لم يكن لمدة طويلة، وقد حمل —على كل حال— معه خمسمائة مارك، كان قد تسلمها من الملك، وهذا هو المورد نفسه، الذي قال بأنه عائد إليه بموجب حق قديم، وكان يتسلمه سنوياً من الخزانة الملكية، وذلك مقابل ولائه، من دون أية مصاعب أو تأخير.

البابا يمنع الصليبيين من الاقلاع

وفي هذه الآونة أعطى البابا أوامره إلى النائب البابوي بمنع الصليبيين من الاقلاع بحملتهم إلى الأرض المقدسة حتى الربيع المقبل، وذلك دون أن يعبأ بحلول الموعد الذي كان قد تقرر من قبل بوساطة المبشرين، وعلى عكس نواياهم، والآمال التي تصوروها بناء على وعود المبشرين المذكورين، وقضى البابا بأن يكون الجواز في أذار، وأنهم إذا مافعلوا غير ذلك سوف لن يتمتعوا بالتحليل من ذنوبهم الذي سلف أن منح إليهم.

تكريس وليم دي ريل أسقفًا لنورويك

تسلم في هذا العام، وليم دي ريل، الأسقف المنتخب لنورويك شرف التكريس أسقفًا لذلك المقام من إدموند رئيس أساقفة كانتربري، وكان ذلك في كنيسة القديس بولص في لندن، بحضور عدد كبير جداً من الأساقفة والنبلاء، وبما أن البشارة التكهنية لهذا الرجل قد كانت: «وكان هناك سرور بين ملائكة الرب من أجل توبة مذنّب من ذنوبه»،

إلخ، فقد تصور الجميع آمالاً جيدة منه، بأن يكون مثل متى آخر، الذي ارتفع من كونه متسلماً للعشور إلى مقام الرسالة، وسلطة الانجيل، وأنه هو سوف ينهض من العمل في البلاط إلى سمو القداسة نفسها.

إدعاءات الملك ضد هـ إيرل كنت

وشاهد الملك في هذه الآونة أن الايرل المحترم لكنت قد صار الآن عجوزاً وضعيفاً، فوجّه ضده شكاوى جدية، واستخرج منه مبلغاً كبيراً من المال، واتهمه بشكواه بعدة جرائم عظيمة، مع نية مأكرة استهدفت أنه إذا مات الايرل أثناء قيام هذه الشكايات، وتعليقها فوقه، يستطيع الملك وقتها مصادرة جميع ممتلكاته ومقتنياته، وقد اتهمه أنه قام في زمن الملك —والده— فأغوى بشكل خياني، فتاة نبيلة، كانت ابنة ملك سكوتلندا، التي إليه عهد بأمر العناية بها، كما أنه أكد بأنه أضاع روثيل، وبواتو كلها، كما أنه قام بشكل دنيء، وسري، بمنع المال الذي أرسل لمساعدة المدينة والمنطقة، وأرسل سلالاً مليئة بالرمال إلى المحاصرين، وأعاق جنود الملك الذين كانوا ينتظرون مساعدة فقط من انكلترا، وكذلك أنه من خلال خيانتته، جرى تدمير قلعة بدفورد، وخسرها —أي الملك— وأنه أيضاً عندما كان —أي الملك— تحت وصايته، قام بشكل خياني بتدبير أموره، وتبديد أمواله، وحوّلها لاستخداماته الشخصية، وقد حصل لنفسه على موارد، وأراض شاسعة وغنية، وحول أمواله —أي الملك— طالب الآن بتقديم حساب إليه، كما أنه أثناء الحرب في بريتاني ضد ملك فرنسا، قد خسر، بشكل لايعوض، شرفاً كبيراً، وشطراً كبيراً من الجيش، كما يشهد على ذلك كونت بريتاني، كما أنه اخترع خيانة كبيرة ضد الملك الذي هو مولاه، فيما يتعلق بالزواج السري الذي عقد، أو كان سيعقد، بين رتشارد كليلر، وم. M، ابنته، ومجدداً لقد أعاق بدنائته زواج الملك بسيدة نبيلة، بإخبار السيدة المذكورة، وإخبار أسرتها، بشكل سري، بأن الملك كان

أحولاً، وسخيفاً، وعاجزاً، وأن فيه نوع من أنواع الجذام، وأنه كان مخادعاً، حائثاً باليمين، وضعيفاً، وهو امرأة أكثر مما هو رجل، وأنه يجد متنفساً لغضبه فقط في صبه على أتباعه، وأنه كان غير قادر تماماً على التمتع باحتضان أي امرأة نبيلة، ومجدداً اهتمامه بأنه قطع الأحرار الملكية، والغابات التي عهد إليه بأمور العناية بها، وبناء عليه هو يطالبه بتقديم حساباً جديداً عن المال الذي تسلمه منهم، وكذلك، أنه عندما كانوا مقيمين في وودستوك، منذ بعض الوقت الذي مضى، وصدف أن كان هو — الملك — وحده في حجرة، فاندفع — الايرل المذكور — بعنف، وانقض عليه مغضباً، وسعى بدناءة وخيانة إلى قطع عنقه، وهو سيده ومولاه، بسكين مجردة، وكان أنه لولا أن رفع صوته بصعوبة، وصرخ طالباً المساعدة، لما كان قد تخلص من بين يديه، ولهذا الجريمة، هو أعلن أنه لم يستحق فقط تعليقه بحبل المشنقة، بل أن يمزق إلى قطع، وعند نهاية هذا الخطاب، الذي ألمه كثيراً وأحزنه، رد الايرل هيوبرت بتواضع، وتذلل بنفسه إلى الملك، وقال: «إنني لم أكن قط خائناً لك أو لأبيك، وبفضل الرب، هذه هي بينة بك» وكأنه أراد أن يقول: «لو أنني رغبت أن أعمل خائناً لك، لما كنت قد تمكنت من الاستحواذ على المملكة»، وبالنسبة إلى جميع التهم المذكورة، أعلاه، ردّ بوسائل صادقة، وبتمثيل صحيح، بوساطة واحد اسمه لورانس، وكان كاهناً من كنيسة القديس ألبان، وكان قد بقي مرتبطاً دونها انفصال بالاييرل طوال جميع اضطرابه، وقد نقض جميع التهم وردّها، وعرض براهين كافية على براءته، مما أرضى جميع الذين احتشدوا هناك، مع أن الملك حاول بوساطة الادعاء من وراء منصة القضاء أن يبرهن العكس.

وفي سبيل اطفاء حنق الملك وغضبه، تقرر أنه على الايرل، في سبيل استرداد المشاعر الطيبة السالفة والسلام، أن يتخلى للملك عن الأربع قلاع التي كانت غالية جداً لديه، وهي قلاع:

بلانش Blanch، وغروسموند Grosmond في ويلز،
وسكنفريث Skenefrith، وهاتفيلد Hatfield، وتحمل الايرل
الذي بسنه، وطول تجربته الاقطاعية، تمّ بالغالب الاحتفاظ بانكلترا إلى
الانكليز، كل جحود الملك، ولومه، وإهاناته، وجميع حملات سوء الحظ،
بهذوء وصبر، وإذا مارغب أحد في أن يعرف بشكل كامل أخبار
الخلاف الذي وقع بين الذين اتهموا هيوبرت المذكور، ايرل كنت،
والمعلم لورانس من سينت ألبان، يمكن أن يجدوا ذلك في كتاب
Additamenta.

الايرل رتشارد وعدد من نبلاء انكلترا يقسمون على الشروع معاً بحملتهم المقترحة

وفي حوالي الوقت نفسه، وفي التحديد في اليوم التالي لعيد
القديس مارتن، التقى النبلاء الصليبيون الانكليز في نورث أمبتون
لإعداد خطط للشروع بحملتهم إلى الأرض المقدسة، وفي سبيل أن
لايعاق يمينهم الشريف بوساطة الاعتراضات التافهة للكنيسة
الرومانية، ولا أن تصرف جهودهم جانباً — في سبيل سفك دماء
المسيحيين — إلى بلاد اليونان أو إلى إيطاليا، حسبما ألمح إليهم بأن ذلك
كان منوياً، أقسموا جميعاً على الانطلاق في ذلك العام إلى الأرض
المقدسة، لتحرير الكنيسة المقدسة للرب، وكان الأول الذي
أقسم بينهم جميعاً الايرل رتشارد، الذي أدى القسم على المذبح
الكبير في كنيسة جميع القديسين، في وسط المدينة وردد بعده
الايرل غ. G مارشال القسم نفسه، على شرط أن يصبح
متصالحاً أولاً مع الملك، ولكن الايرل رتشارد قال له: «لاتحقق في سبيل
تلك المسألة يابن ختني العزيز، لأن ثقل ذلك العمل أنا آخذه على
نفسي»، وجاء بعد ذلك رتشارد سيوارد Seward، ومن بعده
هنري تربلفيل Trubeville، وعدد كبير من النبلاء، كثير عددهم

حتى نذكرهم، هم جميعاً بإرادة واحدة، وفكر واحد، أعدوا أنفسهم لخدمة الصليب.

الامبراطور والبابا يرهق أحدهما الآخر بشكل متبادل

وعندما رأى البابا في هذه الآونة، أن قوة الامبراطور وجرأته لم تضعف كما أنه لم يرضخ لإرادته أو لإرادة الكنيسة الرومانية، أرسل رسائل تحذير إلى جميع القساوسة والنبلاء المقيمين في ألمانيا والأجزاء الأخرى من الامبراطورية، وأمرهم بشكل بات بالثورة ضد امبراطورهم الذي كان عاصياً ضد الرب، وضد الكنيسة الرومانية، وأساء إلى سمعته بوساطة الكثير من التهم الجادة الأخرى، كما أنه حلل الذين كانوا مرتبطين بيمين الولاء إليه، وأقنعهم أنهم كانوا مخلصين في عدم اخلاص، ومطيعين في عدم طاعة، ولكن وضاعة الكنيسة الرومانية كانت مشجوبة من قبل الجميع إلى أبعد الحدود، حتى وصل الحد أن سلطات البابا كانت محترمة من قبل قلة، هذا إن احترمت من قبل أحد.

خذلان البولونيين والمشايعين الآخرين للبابا

في صيف هذا العام، وقبل وقت قصير من بداية الخريف، رغب الامبراطور منع البولونيين من تقديم المساعدة إلى رعاياه الخونة من الميلانيين، وقام بهجوم مرعب عليهم، لأنهم كانوا يسعون، محابة منهم للبابا ولجيرانهم الميلانيين، أن يزحفوا ومن ثم ينقضوا بهجوم على جيش الامبراطور لكن في أثناء زحفهم، انقضض الامبراطور بشكل مفاجئ عليهم، ووضع عساكره بين المدينة وبين سكانها، ومزق فيالقهم، وأوقعهم في حالة من الفوضى مرعبة، وحاول الفارون التراجع عبر الطرق الجانبية، وعرضوا أنفسهم لجروف النهر الذي كان من الضروري عبوره للوصول إلى المدينة، وبناء عليه كان الذين هلكوا منهم

بالموت بتعاسة غرقاً، أكثر من الذين هلكوا بالسيف.

ثم إن الامبراطور، بعدما قدم البولونيون إليه أيديهم اليمنى كعلامة على الصداقة، قاد جيشه ضد ميلان، ولأنه كان قد بنى آلاته، وشيد الجسور، تمكن في وقت قصير، مع جيشه الكبير، من عبور الخنادق، التي كان الميلانيون قد أحاطوا بها أنفسهم من جميع الجهات، ثم استولى الخوف والارتجاف على سكان المدينة، لدى وصول أخبار ما نزل بالبولونيين من مصائب، وتكدس الويل على الويل، وكان هذا العمل سينتهي في وقت قصير، ما لم يتفجر اضطراب خطير، أثاره البابا، واستدعى الامبراطور إلى أماكن نائية، ولدى معرفة سكان المدينة بهذه الظروف المستجدة، أصبحوا أكثر جرأة، ورفعوا رؤوسهم من جديد، فعاثوا فساداً في المناطق المجاورة، وألقوا الحصار على قلاع الامبراطور، ولكونهم أيضاً تقووا وتشجعوا بالنائب البابوي الذي أرسله البابا إلى هناك لطمأنتهم ولمواساتهم، طوقوا فيرازا، وألقوا الحصار عليها وبنصيحة النائب البابوي، الذي كان بلا رحمة، أرغموهم على الاستسلام، ذلك أنهم رفضوا جميع العروض لرفع الحصار، ما لم يستسلموا من دون شرط.

وفي هذه الآونة تم العثور أيضاً على واحد من رفاق القديس أوسوين .Oswin

الملك يفرض بريتانيا ليكون رئيساً للرهبان في دير وينكستر

وفي هذه الآونة مارس الملك ظلماً كبيراً على كنيسة وينكستر، فعلى الرغم من رغبات المجمع الديري، فرض بالقوة رجلاً أجنبياً وأدخله إلى الدير، ليتسلم إدارة الدير، وكان رجلاً صرف نفسه إلى السلوك الشائن، حيث ألقى جانباً الخوف من الرب، فاستولى على الأشياء كلها، وأضل عقول جميع الرهبان، وبدد أموال الكنيسة، وكان كل ماسعى إليه هو أن

يرضي الملك، وتمكن رئيس الرهبان هذا الزائف نفسه، على الرغم من حق حرية الانتخاب الممنوح إلى الرهبان، من جر قرابة نصف النجوم إلى قطاره، وأفسد قلوب العديد منهم، وجعلهم يميلون إلى انتخاب وليم، عم الملكة، لأن الملك كان منصرفاً كلياً من أجل تمرير هذه المسألة.

موت وليم الأسقف المنتخب للييج

مع اقتراب حلول عيد جميع القديسين، ختم وليم، الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي أتينا على ذكره أعلاه، وأنه حصل على إذن من البابا حتى ينتخب أسقفاً للييج Liege، وأن يستلم أسقفية وينكستر، ختم حياته في فيتربو، حيث قيل بأن السم قد دس له بإيعاز من المعلم لورانس، الذي كان رجلاً انكليزياً، وقد تمكن فيما بعد من تبرئة نفسه تماماً من التهمة، وعندما سمع البابا بهذه الحادثة، حزن كثيراً، لأنه كان بنيته أن يجعل منه قائداً لجيشه في حربه ضد الامبراطور، وبذلك صنع منه تينياً ووحشاً بعدة رؤوس، لأنه عرف بأنه كان متحمساً في القتل، نزاعاً إلى سفك الدماء، ومتشوقاً إلى الإحراق، كما أنه كان سيدياً للملك الانكليزي وصديقاً للملك الفرنسي، وابن ختن لكل منهما، وعمّاً للملكيتين، وأخاً لكونت سافوي، وحليفاً لكثيرين آخرين بالقرابة أو بالدم، وجاء موته غير المتوقع محبطاً لخطته كلها.

حزن الملك لموت وليم المتقدم الذكر

وعندما سمع الملك بهذه الأخبار المبكية، لم يستطع منع نفسه عن الحزن، فقد مزق ثيابه وألقى بهم بالنار، وأفسح المجال للبكاء بصوت مرتفع، ورفض قبول المواساة من أي واحد كان، والملكة أيضاً، التي استثيرت، انخرطت في حزن أكبر من المعتاد، وقد بكت موته لمدة طويلة.

وفي هذه الآونة أيضاً ماتت ايفيلين كونتسه ألبارل، وكانت سيدة ذات جمال عظيم، ومات أيضاً في الحادي والعشرين من كانون الأول، هنري دي تربلفيل، وكان فارساً شجاعاً جداً، وكان صاحب خبرة كبيرة في الحملات الحربية.

**البابا وبلاط روما ينتخبان روبرت أخا الملك الفرنسي امبراطوراً
لهما لكنه رفض على الفور قبول هذا المنصب.**

وفي هذه الآونة كتب البابا إلى الملك الفرنسي، وبعث رسلاً خاصين إليه مع رسالة أمر بأن تقرأ بكل وقار ودقة بحضوره هو، مع جميع بارونات فرنسا وكان موضوع هذه الرسالة ومحتواها كما يلي:

«ليكن معلوماً من الولد المحبوب للكنيسة الروحية الملك المشهور لفرنسا، وكذلك من قبل جميع جماعة بارونات تلك المملكة، بأننا، بعد مناقشة دقيقة، ومداولات مع اخواننا، قررنا، وفصلنا، الذي هو مدعو باسم الامبراطور فردريك، عن المنصب الامبراطوري، وقد انتخبنا الكونت روبرت، أخا الملك الفرنسي عوضاً عنه، الذي، ليس فقط كنيسة روما، بل الكنيسة العالمية، رأته مناسباً ومتوافقاً مع جهودها القصوى في السعي لمساعدة ذلك المقام ورفعته، ولا تكن بناء عليه متباطئاً، ولا بأي شكل من الأشكال، في استلام مثل هذا المقام العالي بذراعين مفتوحين، الذي جاء منحه بشكل تطوعي، ولكي يستحوذ عليه، سوف نمنح المساعدات بكرم، في كل من الجهد والمال، فقد جرت إدانة فردريك المتقدم الذكر إدانة قطعية، وذلك بسبب الجرائم المضاعفة التي اقترفها، والتي العالم كله على دراية تامة بها».

ورداً على هذه المنحة اقترح الملك الفرنسي، العظيم الحذر، الجواب التالي: «بأية روح أو بأي طيش أقدم البابا على حرمان مثل هذا الأمير العظيم، وطرده من مقامه الامبراطوري، ذلك أن هذا الأمير العظيم

لا يوجد نظير له، لابل إن المثلil له ليس موجوداً بين المسيحيين، وكيف يتم هذا وهو لم يُدَن بعد، كما أنه لم يعترف بالتهمة التي أثّرت ضده؟ وهو إذا ما كان قد استحق العزل، بسبب ذنوبه الكبيرة، لا يجوز حرمانه من تاجه، ما لم يكن ذلك بموجب قرار من مجمع عام، وبالنسبة لتهمة تجاوزاته، لا يجوز لنا أن نضع ثقة بأعدائنا، الذين من المعروف بشكل جيد أن البابا هو الرئيس، وهو بالنسبة لنا ما يزال بريئاً، لابل أكثر من هذا، هو جار جيد، ثم إننا لم نشهد أي شيء شائن في سلوكه العلماني، أو في إيمانه الكاثوليكي، والذي نعرفه هو أنه قاتل باخلاص من أجل مولانا يسوع، وعرض نفسه إلى مخاطر البحر، والحرب لصالحه، ومثل هذا التدين لم نكتشفه لدى البابا، وهو الشخص المتوجب عليه رفع شؤونه ومصالحه، وأن يحميه أثناء قتاله في سبيل الرب، لا أن يسعى إلى تدميره، واستبداله، ونحن لانرغب في أن نلقي بأنفسنا في مثل هذه المخاطر العظيمة، من أمثال الاقدام على قتال أمير عظيم وقوي مثل فردريك هذا المذكور، الذي هناك ممالك كثيرة سوف تساعدنا، ممن يرغبون في تقديم تأييدهم لقضية عادلة، وهل سوف يكون الجود بسفك دمائنا، مسألة لها أهميتها لدى الرومان، طالما أرضينا غضبهم؟ وإذا ما كان البابا سيقوم بالتغلب عليه بوسائلنا، أو بمساعدة الآخرين، فإنه سوف يدوس على جميع أمراء الدنيا، مدعياً لنفسه التبجح والفخار، بما أنه قهر أميراً عظيماً مثل فردريك، ولكي لانبذوا بأننا تلقينا الوصاية البابوية، بمثابة رسالة فارغة، مع أن هذا واضح أنه صادر عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بسبب كراهية الامبراطور، وليس بسبب محبتنا، إننا سوف نرسل رسالاً حكماء من عندنا إلى الامبراطور، للقيام بعمل بحث دقيق، حول مواقفه من العقيدة الكاثوليكية، ومن ثم لنحصل على المعلومات من قبلهم، وإذا لم يكتشفوا شيئاً غير صحيح، لماذا بناء عليه تعريضه للانتقاص؟ لكن إذا ما اكتشفوا غير ذلك، إننا سوف نطارده ونعذبه ونعاديّه حتى الموت، لابل إننا نفعل هذا مع البابا نفسه، أو مع

أي مخلوق يفكر بشكل شرير نحو الرب»، ولدى سماع رسل البابا هذا الجواب غادروا باضطراب، وعند ذلك جرى ارسال رسل فرنسيين خاصين إلى الامبراطور ليخبروه بشذوذ الرسالة التي تسلموها من البابا، وعندما سمعهم الامبراطور، اعترته الدهشة تماماً نحو ضخامة كراهية البابا له، وأجاب بأنه كاثوليكي، ومسيحي، ويرعى مواقف وآراء صحيحة نحو جميع أركان الإيمان القويم، وأضاف قائلاً:

«إنه مما يرضي الرب أنني لن أتخلّى عن خطوات آبائي النبلاء وأسلافي، ولن أتبع خطوات هؤلاء المحكوم عليهم بالدمار، ليقم الرب بالحكم بيني وبينه الذي نال مني بدناءة وشوّه سمعتي في جميع أنحاء العالم»، ثم إنه رفع يديه نحو السماء، وهو يتنهد ويكيّ ودموعه تتساقط وهو يدعو قائلاً: «لينتقم المولى، رب الانتقام، منه، انتقاماً عادلاً»، ثم إنه التفت نحو الرسل قائلاً:

«أصدقائي، وجيراني الأحباء، إنه مهما قال عدوي هذا، هذا المتعطش الساعي وراء دمي، إنني أعتقد الشيء نفسه الذي يعتقدّه المسيحيون الآخرون، وإذا ما أردتم شن الحرب ضدي، لاتندهشوا بأنني سوف أقاتل ضد الذين يهاجموني، لأنني واثق من أن الرب، الذي يحمي البريء سوف يحررني بقدرته من أعدائي، لأنه يعرف أن البابا في وضع المحاباة لأعدائي المتمردين، وبشكل خاص الميلانيين الهراطقة، ذلك أنه رفع، في غضبه، كعبه ضدي، وحاربني، وبالنسبة لكم أنا أدين بالامتنان، لأنكم قررتم قبل الاستجابة لطلبه، أن تتأكدوا بأنفسكم من حقائق القضية الحالية بوساطة أجوتي، وعلى هذا أجاب الرسل: «ليمنحنا الرب أن لا يدخل إلى قلوبنا قط التفكير بقتال أي مسيحي، من دون سبب واضح، وأن لاثيرنا المطامح، لأننا نؤمن بأن مولانا ملك فرنسا الذي خط نسبه الملكي قد دفعه لتسلم صولجان فرنسا، هو أعلى

من أي امبراطور، لأنه الامبراطور يرفعه إلى منصب الامبراطورية مجرد انتخاب حر، وأنه يكفي الكونت روبرت أن يكون أخاً لمثل هذا الملك العظيم»، وبهذه الكلمات غادر الرسل، مع تمنيات طيبة، وشكر للامبراطور. وهكذا أخفق البابا الذي حاول أن يدفع بقضيته اخفاقاً كلياً.

البابا يستخدم كل مساعيه لجمع مال للدفاع عن نفسه

وسعى البابا بوسائل الاكراه والإثارة للناس بوساطة حجج مضاعفة، وعن طريق الدومينيكان والفرنسيسكان، الحصول على المال لنفسه، من أي مكان كان من الممكن الحصول عليه، وذلك في سبيل إلحاق الأضرار بالامبراطور، وكان الدومينيكان والفرنسيسكان قد أصبحوا في هذه الآونة المستشارين الخاصين ومراسلي الملوك، فمثلاً كان الذين يرتدون الثياب الناعمة من قبل في بيوت الملوك، هكذا صار هؤلاء الذين كانوا حينذاك يرتدون ثياباً خسيصة، في بيوت الأمراء، وغرفهم، وقصورهم، واستدعى الملك في هذا الوقت أخاه جون دي سينت جايلز (صنجيل) للاجتماع به للتشاور معه، واعتزت الدهشة كثيراً من الناس، لأن البابا لم يحضر صلوات عيد الميلاد، حسبما قرأنا عن القديس بطرس عندما كان مودعاً في السجن.

الامبراطور يثني الصليبيين عن الإقلاع

وقام الامبراطور الآن، بوساطة رسالة، بنصيحة جماعة الصليبيين كلهم — مع أنهم كانوا مستعدين ووضح أنه تسبب بغضب شديد لهم — بأن ينتظروا بصبر، وأن لا يقوموا بالمغادرة نحو القدس، حتى يكون انفجار غضب البابا قد سكن، فوقتها سوف يتمكن بسرور من مرافقتهم، لأن هناك حشداً لا يحصى من الشعوب الشرقية، مستعدين بالسلاح للاصطدام بهم، وقد رفض البقية على كل حال الاصغاء

لنصيحته، فقام بناء على ذلك، الامبراطور، وهو مغضب، فمنع تزويد أية مواد غذائية، أو إيصالها إلى الجيش الفرنسي، مهما كانت الشروط، وذلك من مناطقه الحدودية المثمرة، أي من أبوليا وقبرص، وعندما سمع المسلمون بهذا، رفعوا رؤوسهم، وأصبحوا أكثر جرأة وأنزلوا أذى كبيراً بالصليبين، بكل من أشخاصهم وممتلكاتهم، وبجرأة نشروا بينهم النار والقتل، وبالإضافة إلى رمياتهم الكثيفة، أقام الاغريق باباهم المضاد، في وجه الكنيسة الرومانية، وأقام الامبراطور أيضاً، في وجه البابا وضده، الراهب الياس، الذي كان لبعض الوقت رئيس رجال الدين، وواعظاً مشهوراً لدى طائفة الفرنسيين، وهكذا بدأت الشرور تتضاعف على وجه الأرض، لأنه حلل جميع الذين حرّمهم البابا، وأثارت الكنيسة فضيحة كبيرة، لأنه بدسائس هذا الوكيل، باتت كنيسة روما مشهورة بتهم: الربا، والسيمنية، والسرقة، وتحول الأبناء ضد أزواج أمهاتهم، وأكد الراهب الياس المتقدم الذكر بأن البابا كان يصب غضبه ضد حقوق الامبراطورية، وأنه كان متعطشاً من أجل المال، وكان يستخرج المال بمختلف الحجج، وأنه كان لا يحضر الصلوات، والقداصات، والمسيرات، والصيام، التي من خلالها يتحرر المظلومون من مضطهديهم»، كما كتب: «حفظ، بناء عليه بطرس في السجن، لكن صلواتاً عملت من قبل الكنيسة من أجله من دون توقف، إلى الرب»، وأنه كان يمارس الغش بالنسبة للمال الذي جمع من أجل مساعدة الأرض المقدسة، وأنه كان يقوم بشكل سري بختم مواد مكتوبة في غرفته، من دون الحصول على موافقة اخوانه، حتى أنه أعطى إلى رسله كثيراً جداً من البرامج الفارغة، وهي مختومة بختمه، أعطاها لهم على هذه الصورة، ليكتبوا عليها مايرضي رغباتهم، وهي رغبات كانت مرعبة، وقد وجهت إلى البابا وعملت ضده كثيراً من التهم الأخرى، رفعت صوته إلى السماء، ولذلك قام البابا بانزال عقوبة الحرمان الكنسي بالياس المذكور.

صرف سيمون النورماني والراهب غيوفري من مجلس الملك

وفي العام نفسه، وفي أثناء الاحتفال بعيد الفصح وسط كثير من البهجة، تحول غناء المعلم سيمون النورماندي إلى نحيب، واحتفاله إلى بكاء، لأن هذا الرجل قد كان قبل وقت طويل مضى، سيداً، ليس فقط للمملكة، وللختم الملكي، بل أيضاً الحاكم على الملك نفسه، ومدير الشؤون في البلاط، حيث كانت جميع القضايا تدار حسب ارادته، وكان رجلاً صارماً، يحدد حيث لم يزرع، ولم يحصل على حظوة بسبب فضائله، بل كان يحمل نفسه فوق نفسه، وكان يوماً إثر يوم يثير غضب وكرهية النبلاء ضده، وعندما لم يعد الملك قادراً على تحمل خساسته أي وقت أطول وعجزفته، أمر به بأن يطرد من بلاطه، وأن يلقي بأمثعته وخزائن ثيابه، وكتبه، وأرديته الثمينة، خارج بيت الملك، وبالإضافة إلى هذا، انتزع منه ختم الملك، وعهد به إلى رتشارد، راعي دير ايفهام Evesham، وكان رجلاً مستقيماً وبارعاً، وحذراً في إدارة الأعمال، وعندما كان الملك مثاراً بروح مشابهة، أمر بالراهب غيوفري، الداوي، بأن يصرف من بلاطه، وهي حادثة، كان كثيرون متشوقين إليها، وأصل غضب الملك هذا وسببه الرئيسي هو أن سيمون المذكور قد رفض التصديق على إجازة بغیضة، مضادة لكرامة تاج الملك، وكان القصد من الإجازة، هو أن توماس كونت أوف فلاندرز ينبغي أن يتسلم ضريبة عشر، قدرها أربعة بنسات مقابل كل جوالق من الصوف يجري حمله من انكلترا، خلال مناطقه، ولم يرض غيوفري الداوي بالموافقة عليها، مع أن الملك رغب بها وتشوق إليها.

رهبان وينكستر يحصلون على انتخاب حر من البابا

وفي هذا الوقت نفسه، حصل رهبان وينكستر، لدى رجوعهم من البلاط الروماني، من البابا، على أمر، بعدم انتخاب أي واحد أجنبي ليكون وصياً على أرواحهم، أو أي واحد يكون ممقوتاً من جماعة

المملكة، وذلك بناء على مبادرة قاسية من الملك، أو بناء على التماس ملكي، بل وفقاً لما هو عادل، وقانوني، وأن يعملوا انتخاباً — من دن فرض — لأي واحد يروونه مناسباً لأن يكون أسقفهم وراعيهم، وبناء على هذا اشتعل غضب الملك ثانية إلى درجة عالية، وكأنه لم يكن بإمكانه أن يعثر على أي واحد انكليزي مناسب لتلك الأسقفية، ومنذ ذلك الحين سعى رئيس الرهبان، الذي فرضه الملك عليهم، وشغل نفسه بكل يقظة لاضعاف ثبات الرهبان ولیمزق الاتحاد السلمي لأولئك الذين وقفوا برجولة منذ ذلك الحين، إلى جانب مصلحة الكنيسة.

الامبراطور يوجّه زحفه نحو المدينة

وعندما وجد الامبراطور في هذه الآونة أن البابا ليس فقط متعطشاً كثيراً يريد سفك دمه، بل يقف موقف المحاباة تجاه العصاة الميلانيين الهراطقة، لأنه كان متشوقاً لتنفيذ اسقاطه المهين، لذلك أجل لبعض الوقت خطته المرسومة للحرب، وبجراحة اقترب من المدينة حتى يمكن أن يظهر بشكل مرعب أكثر، إلى رعيته، ولدى وصوله، خرج سكان فيتربو مع النبلاء ومع سكان المدن الأخرى المتميزة، ومع عدد كبير من الرومان، خرجوا إلى استقباله، مع كل احترام وتشريف، بحكم أنه مولاهم، ومن الممكن البرهنة على هذه الحقيقة من خلال رسالة بعث بها الامبراطور إلى ملك انكلترا.

رسالة الامبراطور إلى ملك انكلترا

«من فردريك، الذي هو بفضل الرب، أغسطس دائم، وامبراطور الرومان، وملك القدس وصقلية، إلى الملك المشهور لانكلترا، ابن ختنه المحبوب، تحيات وعواطف مخلصنة:

إن اللدغات المضاعفة ثلاث مرات من الحزن التي تخرق قلوبنا

وتثيره، لاتسمح لنا الآن بالبكاء أكثر من دون انفجار حزننا الداخلي، على شكل آهات، وبعد ذلك انفجار آهاتنا على شكل عويل، وبالقدر نفسه بوساطة مواد خلافات جديدة، التي إليها دفعنا البابا حاكم الكنيسة العالمية، بوساطة بعض وسائل الارغام العنيفة، ولقد اكتشفنا المضار التي لحقت بالإيمان الكاثوليكي، ذلك أننا شاهدنا بوضوح ونحن نتألم الظلال التي سوف تلقى على عدالتنا، وتألمنا وأسفنا للخسارة التي سوف تعاني منها الأرض المقدسة، لكن نحن لسنا أقل تأثراً وتضرراً بهذا الحزن، حتى أن عيني الراهب ايلي صارتا لاتبصران، ولم يعد يعي أيأ من هذه المخاطر، لأنه أثر بغضب شديد نحونا، وصار مربوطاً بمشاعر كبيرة من التعاطف مع الميلانيين ومع محرضيهم، الذين ثاروا ضد الامبراطور، ذلك أنه مع أن العالم كله بات عرضة لوقائع متوالية مشكوك بها، أو بالحري إلى مخاوف الحظ، نهض ليدوس على عدالة الامبراطورية المقدسة، وليقدم المساعدة إلى رعايانا الميلانيين المتمردين، غير أننا لم نطعن بلدغة صاحب ضمير مجرم في هذه القضية، كما أننا لانتوقع الحكم المضر لسمعتنا، لأننا منذ وقت طويل تمكنا بوساطة الالهام الرباني لضغوط هذه المخاطر، وبشكل دائم، من تجنب السبب الحالي للفضيحة، وقد سعينا بوساطة جميع الامكانيات التي تتوفر لقدرتنا، أن نحصل على حظوة هذا الخبر الأعظم، لكن عبثاً كان ذلك، حتى أنه لم يوفر تعبنا الشخصي، ولم يهتم بخسائرتنا لممتلكاتنا، وغنائماً كثيراً ما عرضنا حياة رعايانا المخلصين، بحرية، في سبيل مسـمـدته، ومساعدة الكنيسة الرومانية، لكن [ونحن نحكي هذا بأسـه] أثناء الوقت كله لصراعاتنا، لم نتلق أي شيء منه، ولاحتى علامة من علامات العاطفة، قد دفعت لنا من أجل طاعتنا، بل إنه عارض دوماً بنفسه تقدم الامبراطورية المقدسة، وأعاقها، هذا والذي ينبغي ويتوجب عدّه أكثر وحشية لكل واحد، هو أننا عندما كنا مشغولين بخدمة الكنيسة المقدسة، كما هو مبرهن بوضوح من خلال

رسائله، قام بانتزاع مدينة كاستيلانا وسلبها من الامبراطورية، وكانت كاستيلانا هذه قد حولت إلينا مؤخراً، ولم نتمكن في ذلك الحين — على الرغم من جميع شكاياتنا — من الحصول على أي شيء لصالحنا، أو لصالح الامبراطورية، وقام بعد ذلك بوساطة رسائل سرية معارضة بتجريد النائب البابوي من جميع الصلاحيات، وهو النائب، الذي قال، بأنه أرسله إلى سورية، للحصول على ترضية تجاه المضار التي أنزلت بنا، وبابننا، من قبل سكان عكا، ومن قبل بعض نبلاء مملكة القدس، كما أننا لم نستطع في الوقت نفسه بالذات، الحصول على أية رسائل منه لمنع الميلانيين، من مهاجمة سكان كريمونا، الذين كانوا مخلصين للامبراطورية، ولأمنع الفلورنسيين من إلحاق الأذى برعايانا البنادقة المخلصين، علماً بأنه لم يمنحنا الإذن بالذهاب لمساعدتهم، الأمر الذي رغبتنا به، وكان ذلك حتى لا نترك الكنيسة من دون دفاع، ومجدداً عندما كنا سائرين نحو ألمانيا، لضبط شرور ابننا الكبير، وعدنا بشكل مؤكد بأن يقدم لنا المحاباة في كل مجال، ومع ذلك قام بوساطة رسول من لدنه، يحمل رسائل اعتماد، بالفرض — بوساطة كل وسيلة وقدرة امتلكها — على المقدمين الذين كانوا موجودين معنا في البلاط في ميني Mayence، بأن لا يوافقوا ولا بأي شكل من الأشكال، على انتخاب ولدنا الأصغر، أو أي واحد من بيتنا ودمنا، ثم بذل بعد ذلك كل براعته وقدرته، في سبيل إعاقه تقدمنا في إيطاليا، من أجل اصلاح أوضاع الامبراطورية وكان ذلك بوساطة رسائله ورساله، وبشكل خاص بوساطة أسقف برانستي، الذي تمكن بكل براعة ومكر، من أن يكسب إلى جانبه بياسينزا Pierenza، ومانتوا Mantua، وأخيراً عندما تمكنا بفضل نعمة الرب من الحصول على نصر على الميلانيين، بوساطة قتلهم، ولدى رؤيته أن رسائله السرية، مع نوابه البابويين، كانوا بلا فائدة بالنسبة له، وذلك بعد أن حقق سيف عدالتنا النصر على شروره المخادعة، بدأ بشكل أكثر علانية، بإلقاء المعينات في

طريق تقدمنا، ومنع بوضوح مكشوف سكان ونبلاء تخوم أنكونا Ancona، ووادي سبوليتو Spoleto من مساعدتنا، مع أن واجبهم كان مساعدة الامبراطورية وليس إلحاق الأذى بها، وأن يحاولوا القدوم إلى لومبارديا، أو أن يرسلوا عساكرهم إليها، كما أنه قام على الرغم من أمرنا وتحريمنا، ففرض على سكان أنكونا، والبلدات الساحلية الأخرى، وذلك تحت تهديد عقوبة الحرمان الكنسي وغرامة عشرة آلاف مارك، بأن يقدموا كل الأشياء اللازمة إلى البنادقة الذين كانوا ثائرين ضد جلالتنا، وهذا كله مبرهن عليه بوضوح برسائله، وإلى بعض نبلاء تخوم تريفيسو Treviso، الذي حوّلهم إلى ضعفاء ومتقربين بولائهم إلينا، فبعث برسائل، وأمرهم بشكل مكشوف بالتخلي عن ولائهم، معطياً إليهم فهماً، أننا إذا لم نختر اسناد شؤون لومبارديا تماماً إليه، ووضعها تحت تصرفه، وسلطته، سوف يتفوه بشكل عاصف، بقرار حرمان كنسي ضدنا.

وبعد عقدنا مؤتمراً للتداول حول هذه القضايا مع مقدمينا المحبوبين تماماً لدينا، ومع آخرين كانوا آنذاك يساعدوننا أثناء حصار بريشيا Brescia، ورغبة منا (كما ذكرنا من قبل) بعدم قيام أية أسباب للخلاف بيننا وبين الكنيسة، أرسلنا سفراء خاصين من قبلنا إلى المقام الرسولي، وعرضنا من خلالهم تقديم ترضيات أيضاً من أجل بعض الذنوب التافهة، التي كما قال، قد اقترفت في مملكة صقلية مراغمة لحقوق ولا امتياز الكنيسة، وطالبنا مجدداً بوساطة الرسل أنفسهم، بأن يتم الاتحاد المرغوب بيننا وبين الكنيسة، وهو الاتحاد الذي غالباً ما حاولنا إقامته بوساطة عدد لا يحصى من الرسل، وقد طالبنا بتأكيد بوساطة الرسل، وبوساطة ضمانات متبادلة، وقد قال بأنه على استعداد للموافقة على هذا، وعهد بشكل الضمانات وصياغتها إلى حكمنا، ولكن عندما كان رسلنا ورسله، قد وثقوا تماماً بأن السلام والاتحاد قد تأسسا،

وكانوا عائدين بنشاط وبهجة، إلينا، وصاروا جميعاً بعيدين عن مشاهدته، عهد بمنصب النيابة البابوية في لومبارديا إلى غريغوري دي مونت لونغو، الذي كان من قبل موضع ريبة لدينا ولدى أصحابنا، عندما تلقيناه بمثابة مجرد سفير بابوي بسيط في تلك المقاطعة، وهو —أي البابا— قد وعد باستدعائه من هناك، ولكي يضيف إلى شروره، أقدم عندما اكتشف أننا كنا بلا حرس، بحكم وثوقنا بعود الاتحاد، فأمر باهلاكننا، من قبل بعض مقدمينا ورعايانا، وذلك بسبب بعض الذنوب، التي قال بأنها اقترفت من قبل موظفينا ورسلنا في مملكة صقلية، ومدينة روما، ضده وضد الكنيسة.

وبعدما أرسلنا إلى سيد هؤلاء المشرفين، بدلاً من أجل حكم أشخاص دينيين آخرين، جواباً كاملاً عن جميع هذه الأشياء، وحيث أننا كنا غير راضين بكل جواب من أجوبتنا عن كل عنوان، أضفنا ملاحظة عامة، بأننا نترك رغباتنا والجواب في كل شيء إلى حكمه، حسبما تأكد وأجيز بوساطة الرسائل والبراهين العائدة إلى القساوسة، الذين هم جميعاً أهلاً للثقة، وعندما أرسلنا رسلنا حول جميع هذه النقاط، لحمل أجوبتنا، وللقيام بترضية كاملة، مدعمين بسلطاتنا، لوضع حد لإجراءاته الماكرة ضدنا، قام في يوم أحد السعف، وهو يوم ليس بالعادة كلياً اتخاذه لإجراءات العقوبات، وعلى الرغم من ممارسات الكنيسة، قام بإجراءات حملة ضدنا ولإلحاق الأذى بنا، وبما أننا عسددنا مثل هذا الإجراء مليئاً بالطيش، وليس فيه عدالة، بعثنا برسائل إلى إخوانه، وإلى النواب البابويين، نطالب بعقد مجمع عام، نشترك فيه للبرهنة، بوساطة حجج واضحة وضوح النور، على انحطاط وفساد القاضي، وعلى براءتنا، وبناء عليه لن نقول فقط كيف ازدريت براهين براءتنا، بل سنذكر كيف أنه مراغمة لشريعة الشعوب، التي لاتسمح بإهانة السفراء أو الرسل، قام هذا الرجل، الذي يقدم نفسه على أنه «عبد عبيد الرب» فأمر برسلنا

المتقدم ذكرهم، الذين هم أساقفتنا، بإلقائهم بالسجن بشكل مهين جداً.

ثم، ليكون موضع انتباهك، فيما إذا كانت هذه الإجراءات جديدة بابا، وفيما إذا كانت أعمالاً موائمة وفيما إذا كان يليق بواعظ أن يجر العدالة نحو الدمار، وأن يدوس عليها بقدمه، وأن يتجاهل حكم جميع العيون المؤمنة، حكماً لصالح شعب ميلان غير المخلص، لكن ومع جميع هذه الأضرار وعلى الرغم من أنه كان يتحرك ضدنا بطيش، في ظل روحه الغاضبة، لم نتعرض للإثارة حتى نتولى زيارته بالانتقام الامبراطوري، حتى أظهر نفسه، أنه كان مندفعاً نحو الأمام في سبيل تدميرنا دماراً كلياً وتجريدنا من ميراثنا الامبراطوري، ومثل هذا، وبالقدر نفسه، عندما كنا مقيمين في تخوم تريفيسو، من أجل تهدئة تلك المنطقة (التي وجدناها بسبب تمزقات قديمة مستمرة، ملطخة في كل مكان بالدم والقتل) قام بوساطة تقديم مبلغ كبير من المال، بإثارة مركز دي ايستي Este وكونت أوف سينت بونيفاسيو Bonifacio (الذي قام بالتآمر ضد حياتنا بناء على اقتراح الحبر الأعظم) وكذلك مدينة تريفيسو، للثورة ضدنا وضد الامبراطورية، كما أنه قام بوسائط بولص ترافيرساري Traversari —الذي كان من قبل واحداً من أكثر رعايانا إخلاصاً لنا، ولكنه فسد فيما بعد بوساطة البابا— وعن طريق وكالة الكاردينال النائب البابوي، فانتزع منا مدينة رافينا، وأخذها من التخوم، ومن الامبراطورية، ومع أن أميراً وحبراً، قد تسلم منهم يمينهم بالولاء له وللكنيسة، أمر أيضاً بالطرق العامة التي تمر خلال التخوم والدوقية، التي استولى عليها وانتزعها من الامبراطورية، بأن تغلق ضد الرسل الذين كانوا قادمين إلينا، وجالبين الأشياء الضرورية إلينا وإلى جيشنا، وقام بعضهم بممارسة أعمال اللصوص وقطاع الطرق، فانتزعوا منهم جميع مقتنياتهم، وبإلقائهم بالسجن فيما بعد، وقد فعل هذه الأشياء كلها، إما ليجيئنا ويجمع جنودنا، من الايطاليين والألمان، أو

ليرغمنا على رفع حصارنا عن ميلان، وعن نهب منطقة رعايانا المتمردين، ولم يكتف بهذا كله، بل أعلن صراحة عن نفسه قائداً للحرب ومقدمها ضدنا وضد الامبراطورية، متخذاً قضية الميلانيين والخونة غير المخلصين، قضيته، وحوّل بشكل مكشوف شؤونهم نحو مايتناسب مع فوائده، وعلاوة على ذلك عيّن قائداً على الميلانيين أو بالحري على الجيش البابوي، رجله المتقدم الذكر، غريغوري دي مونت لونغو، والراهب ليو، الذي هو كاهن طائفة الفرنسيكان، اللذان لم يكتفيا بتقلد السيوف، وإلباس نفسيهما السواوغ والدروع، واطهار نفسيهما، وكأنهما جنديان مزيفين، بل استمرا في ممارسة وظيفة منصبيهما في الوعظ، وفي تحليل الميلانيين وسواهم من ذنوبهم، أثناء قيامهما بتوجيه الاهانات إلى شخصنا، أو الذين هم أتباعنا، وفي هذا الوقت أيضاً، قام النائب البابوي، والراهب الفرنسيكاني المتقدم الذكر، بتنصيب نفسيهما، حكاماً وسادة، ضدنا وضد الامبراطورية، وقد فهمنا من هذا بشكل واضح، بأن البابا ليس فقط صديقاً للكفار، الذين أعلن عنهم صوت العالم أنهم هراطقة، بل أيضاً المؤذي للامبراطورية، والهادف لحرماننا من ميراثنا، والرجل الذي اغتصب الحكم الديني والسيادة على ميلان، وبناء عليه، لقد أثّرنا إلى أبعد الحدود بهذه الخسائر الهائلة، وكنا مزعوجين جداً من هذا الأذى الكبير، ولذلك لم يعد بإمكاننا حبس أيدينا، بل حملنا السيوف والترس بشكل معلن، في سبيل دعم قضيتنا وقضية الامبراطورية، ضد عدونا المعلن، مواجهين قوة دنيوية بقوة دنيوية، كما أنه لم يعد بإمكاننا الاستمرار بإبداء العاطفة البنيوية نحوه، لأنه ليس فقط لم يبد نحونا العاطفة الأبوية، بل سعى لإيذائنا، ولحرماننا من ميراثنا، وهو متعطش بشكل وحشي يريد حياتنا ودمنا.

وبعدما أخضعنا بمساعدة الفرسان، ورماة القسي العقارة، جميع مقاطعة ليغوريا Liguria التي استسلمت لنا، وقمنا أيضاً أثناء

زحفنا خلال توسكانيا، بإصلاح الكثير من قوانين الامبراطورية، وبعثنا بولدنا المحبوب هـ. H. الذي هو الملك اللامع لتوري Torrees وغالبوري، سفيراً للامبراطورية المقدسة في ايطاليا، ليعيد تخوم أنكونا إلى ولائه، وقمنا نحن أنفسنا برفع نسورنا المنتصرة، ووجهنا زحفنا شخصياً نحو دوقية سبوليتو، والمناطق الملاصقة للمدينة، وباستثناء مدن قليلة، أعدنا المنطقة كلها التي عبرناها أثناء تقدمنا، والممتدة حتى فيتربو، إلى طاعتها الصحيحة للامبراطورية، وقد استقبلنا من قبل سكان فيتربو، ومن قبل سكان المدن والمناطق التي من حولها، والقائمة في أحوازها بأعظم اخلاص، وبذلك عندما أرينا عدونا قوتنا، استولى عليه الرعب، وخاف كثيراً من اقترابنا منه، ولم يصدق أنه يستطيع أن يخلص نفسه بوساطة توبة متأخرة، ووقع في أعماق اليأس، وفقد الثقة بقوته، عندما كان الشعب الروماني يصرخ فرحاً أثناء اقترابنا من المدينة، وقد تمكن بوساطة دموع حقيقية غزيرة جداً بشكل غير اعتيادي بالسيطرة على بعض الصبيان والنساء العجائز، ومعهم عدد صغير من الجنود المرتزقة، فحمل الصليب ضدنا، مؤكداً كذباً بمواعظه لهم بأننا كنا نسعى للقيام باجتثاث الكنيسة الرومانية، وخرق حرمة الآثار المقدسة لكل من الرسولين المباركين جداً: بطرس، وبولص.

وبناء عليه، فإن جلالتك، سوف —بفضل تقديركم الصحيح— تفهمون زحفنا وتعذروننا، فالذي دفعنا إليه هو القذف الخبيث لعدونا، والذي حثنا عليه العدل وعلى تبنيه من أجل شرفنا وشرف الامبراطور، وبالقدر نفسه شرف ومكانة ملوك وأمراء الأرض، وأنت فوق غيرك من الملوك الآخرين، ينبغي أن تقف إلى جانب قضيتنا بمحابة أكبر، وأن تحافظ عليها بثقة أعظم، ولكونك شريكاً لنا في العبء كله والمكانة، قد جرى بثقة منا اختيارك —إذا كنت تتذكر، بشكل صحيح— لتكون حكماً في هذه القضايا، ولأنك أبعدت من قبل الحزب

المعادي، وذلك حتى تتمكن من حماية براءتنا، وعدالتنا الامبراطورية،
بغيرة صافية، وبضمير أكثر اخلاصاً. صدر في فيتربو».

ذعر العالم وتكريس بعض الكنائس

ولدى تداول أخبار هذه الأشياء، وانتشارها ومعرفتها في جميع أرجاء
العالم تلقت سمعة البابا وسلطته صدمة، وتناقصت كثيراً، ونشأت
فضيحة كبيرة، وبدأ رجال حكماء ومقدسون يشعرون بذعر كبير من
أجل شرف الكنيسة، والبابا، ورجال الدين كلهم، وصاروا يخافون أن
ينزل الرب في حالة غضبه العظيم بالناس جرحاً لا يمكن شفاؤه.

وفي هذه الآونة، في التاسع من آب، الذي كان يوم عيد القديس
رومانوس، جرى تكريس كنيسة ديرية في أبينغدون Abingdon،
من قبل روبرت أسقف أوف سالسبري، أسقف ذلك المكان، وجرى في
حوالي الوقت نفسه أيضاً، تكريس كنيسة في ويلز، وجرى في العام نفسه
تكريس كنائس: ايفهـام، وغلوستر، وتويكبري Tewkebury،
وويكمبري Wicumbury، وبيرشور Pershore، وألدكستر،
ومعهن جرى تكريس كنائس أخرى في جميع أنحاء انكلترا.

وفي حوالي أيام عيد القديس ميكايل من العام نفسه، مات في البحر،
روبرت دي ثوني، وكان رجلاً من أسرة نبيلة، وفي حوالي الوقت نفسه،
عندما كان أسقف لنكولن يتولى تعذيب كهنته، اشتكى واحد منهم،
أثناء وعظه بقداس إلى الناس، من الأسقف المذكور، وقال:

«ومع أننا يتوجب علينا التمسك بسلامنا، فإن الحجارة سوف ترفع
صوتها صارخة من أجلنا»، وحدث وقتها أن البناء الحجري لبرج
الكنيسة الجديدة في لنكولن قد انهار، وسحق الناس الذين كانوا تحته،
وبسقوطه اهتزت الكنيسة كلها، وتضررت، ونظر إلى هذا، على أنه نذير
سوء، ومع ذلك شرعوا بإعادة بنائه بشكل أفضل.

مذبحة التتار

وفي هذه الآونة، تعرض التتار، الذين هم عرق همجي من الناس، والذين هاجموا البلدان المسيحية، واقترفوا مذابح كبيرة، وكانوا يتجولون هنا وهناك في هنغاريا العظمى، للهزيمة، وأرغموا على التراجع، وقد قتل الشطر الأكبر من هؤلاء بحد السيف، وسقطوا أمام يد القدرة، لأنهم هوجموا من قبل خمسة ملوك مسيحيين ومسلمين اتحدوا لهذا الغرض، بفضل نعمة الروح القدس للرب، وبعد مقتل هؤلاء الهمج، أرسل ملكا داشيا Dacia، وهنغاريا بعض المسيحيين لسكنى البلدان، التي كانت قد تحولت إلى صحراء، من قبل التتار المذكورين، وذهب من داشيا وحدها أكثر من أربعين سفينة مليئة بهم.

وفي هذا العام نفسه، جرى الاستيلاء على مونت كازينو، وكان مكاناً لايرام، من قبل جيش الامبراطور، كما روينا بشكل أوفى من قبل.

خسارة ملك قشتالة الكبيرة

وجرى في العام نفسه، الاستيلاء على مدينة بلنسية، التي هي مدينة كبيرة في اسبانيا، من قبل ملك قشتالة، وبعد ذلك تابع الملك المذكور تقدمه ليلقي الحصار على اشبيلية، بحكم أنه حصل على ثقة كبيرة بنجاح مستقبلي من النصر الماضي، وبناء عليه ألقى الحصار على تلك المدينة، وهاجم سكانها بشدة، وفي أحد الأيام، بعدما رتب صفوف سراياه، وقام ببعض الحملات المميتة على سكان المدينة، خرج إليه مقدم المدينة، وكأنه يحمل نوايا مسالمة، ووعد بتسليم المدينة إلى الملك، على شرط توفير حياة السكان، لكن هذا كله عمل عن طريق الخيانة، ذلك أنه ألح على الملك وحشه على دخول المدينة شخصياً، لتسلم الولاء من الذين قرر سموه الملكي توفير حياتهم، ووضع الملك الثقة بكلامه وتنهداته، ودخل المدينة، لكنه ما ان أصبح داخل المدينة حتى أغلق

سكانها الأبواب، ورفعوا الجسور، وأحاطوا بالملك بسيوف مجردة، بالملك الذي كان محاطاً بعدد قليل فقط من الأتباع، حيث كان لا يخشى شيئاً من هذا القبيل، وعندما رأى الملك نفسه وأصحابه أنفسهم مطوقين من قبل الأعداء، وعرفوا أن القضية باتت قضية حياة أو موت، أوقعوا قتلاً كثيراً، وبقدر ما استطاعوا، رداً على أعدائهم المتفاجرين، وبعد بعض الوقت ولأن أعداد أعدائهم تزايدت، لم يعودوا قادرين على متابعة تحمل ثقل القتال، وركزوا تفكيرهم فقط على كلمات النبي وصلواته: «يارب أنقذ الملك»، فقاموا بإبعاد ملكهم، وتمكنوا بشيء من الصعوبة من اخراجه من إحدى البوابات الخلفية، وبعد صعوبات جمة نجا هو وعاد إلى جيشه، الذي وجده ممزقاً إلى أبعد الحدود على أيدي الأعداء الذين هاجموا، وذلك وفق ما كان قد جرى إعداده من قبل، من قبل هؤلاء الخونة، وعلى كل حال، لدى رؤيتهم للملك، وهو سليم في بدنه، استردوا شجاعته، وهزموا أعداءهم، أما الذين كانوا محاصرين، وهم ملطخين بدماء أعدائهم، فقتلوا واتخذوا أسرى، وعاد الملك مع الذي بقي له من جيشه بشكل مضطرب إلى بلاده، وظل في الوقت نفسه أكثر استنفاراً وعزيمة في سبيل الصراع.

الملك يمنح نطاق الفروسية لبلدوين دي رايفر

ويعطيه مرتبة الإيرلية على جزيرة وايت

سنة ١٢٤٠، وهي السنة الثالثة والعشرين من سني حكم الملك هنري الثالث، وفيها عقد بلاطه في عيد الميلاد في ويستمنستر، حيث منح في يوم الميلاد نطاق الفروسية إلى بلدوين دي رايفر Rivers وكان شاباً لامعاً، وأعطاه مرتبة الإيرلية على جزيرة وايت Wight، وكان ذلك بحضور الإيرل رتشارد وبمبادرة منه، حيث كان بلدوين المذكور تحت عهده منذ سنوات طوال، وكان قد تزوج من أليس Alice ابنة زوجته ايزابيلا، التي كانت كونتيسة غلوستر من قبل.

انتخاب هيوج دي بيتهل أسقفاً لكوفنتري

وتؤكد في هذه الآونة انتخاب هيوج دي بيتهل Pateshull, الأسقف المنتخب لكوفنتري، وقد كان في بعض السنين الماضية خازناً للملك، وقد سلك في عمله بشكل غير قابل للنقد، وكان عندما اتخذ كرسيه وجلس في الخزينة الملكية، قد ذهب إلى جميع بارونات ذلك المكتب، بطريقته المعتادة، ولدى قيام الجميع كي يدفعوا له المراكات المعتادة للتشريف، كان قد قال لهم:

«أصدقائي الأعزاء ورفاقي، وداعاً، إنني لن أتخلي عنكم قط، بل تخليت عن الخزينة فقط، فلقد استدعاني الرب، مع أنني غير جدير، لأتولى حكم الأرواح»، وقد خرقت كلماته تنهدياتهم، فقام بتقبلهم واحداً واحداً، حيث كانوا في الوقت نفسه يكون بانفعال وعاطفة بسبب مغادرته.

موت إيزابيلا زوجة الإيرل رتشارد

وفي هذه الآونة حملت السيدة النبيلة ايزابيلا كونتيسة غلوستر وكورنول مريضة بشكل خطير لاصابتها باليرقان الأصفر، وقد وصلت إلى حافة الموت، ولدى اقتراب وقت تمدها (لأنها كانت حاملاً وقريبة الولادة) أصبحت بلا شعور، وبعدما عانت من ضغط شديد جرى قص شعرها، وقامت باعتراف كامل بذنوبها، وغادرت إلى الرب مع ولدها الذي ولدته، فهو عندما وضح أنه لن يعيش، جرى تعميده ومنحه اسم نيقولا، وكان الإيرل رتشارد قد ذهب في ذلك الحين إلى كورنول، وعندما سمع بهذه الحادثة، شرع يبكي ويتعجب بمرارة، وقد حزن عليها حزناً عظيماً، وعاد بكل سرعة، وتدبر دفن جسدها المحترم بكل تشريف في بيوليو Beaulieu، وهو بيت كان الملك جون قد أسسه وبناه، ومنحه إلى طائفة رهبان السسترشيان.

سماع صراخ مدهش في كثير من أجزاء انكلترا

وسمع في هذه الآونة، صوتاً مخيفاً، وكأن جبلاً ضخماً قد رمي بعنف عظيم وسقط وفي وسط البحر، وقد سمع هذا في أماكن كثيرة، كل واحد منها بعيد عن الآخر، مما أربع كثيراً الحشود التي سمعته.

شكاوى الأساقفة حول الظلم الذي لحق بالكنيسة

في ثمانية عيد الغطاس، اجتمع في لندن رؤساء الأساقفة، والأساقفة مع عدد كبير آخر من النبلاء، وكان النائب البابوي أيضاً حاضراً، وقد قدموا للملك شكاوى جادة عرضوها في بلاطه، حول المضار والمظالم، والأذى اليومي الذي ينزل بالكنيسة ويمارس ضدها، بوساطة آراء الملك غير العادلة، وأن ذلك جاء بمشابة معارضة طائشة لصكوك امتيازاته ويمينه، وأنه لم يسمح للكنائس المحرومة من رعاتها باستردادهم، وباستعادة أنفاسها، وسبب ذلك هو استخراج مقتنيات الكنائس منهم، حيث أنه احتفظ بهم بين يديه لعدة سنوات، مستخدماً حججاً متنوعة، وهو لم يسمح بإجراء انتخابات قانونية، وقد أعلنوا جميعاً أنهم مندهشين كثيراً تجاه هذه الأضرار، التي تتضاعف يومياً، وقد نزل ذلك بهم عندما —الملك— أقسم مراراً على المحافظة على امتيازات الكنائس من دون خرق، وقد فعل ذلك، أثناء السماع، عندما كان شخصياً يحمل شمعداناً، فوقتها تفوه جميع الأساقفة بقرار الحرمان الكنسي ضد الذي يخرق الامتيازات اللاهوتية، وفي أثناء إكمال إلقاء ذلك القرار، قام الملك مثل الآخرين فأدار الشمعدان نحو الأسفل وأطفأه، وكان هناك ثلاثين عنواناً في شكاوى الأساقفة ضد الملك، وذهبوا بعيداً إلى حد إعلان القرار المرعب والتفوه به ضد جميع مستشاري الملك، الذين كانوا يسعون إلى تحويل عقل الملك وإدارته نحو التجاوزات المتقدمة الذكر.

الحزن المضاعف لـ غ. G الإيرل مارشال

وجّه الملك في هذه الآونة اتهاماً إجرامياً ضد الإيرل مارشال، حول بعض الأمور الشاذة التي اعتقد أنه من الأفضل السكوت عنها، وعدم ذكرها، وبسبب هذه التهم أثير حزن المارشال إلى درجة مضاعفة، لأنه من الجانب الأول حزن لإعادة ذكرى وفاة أخته اللامعة، أي إيزابيلا المتقدم ذكرها، والآن بسبب إحياء اضطهاد الملك ضده، وجرى على كل حال تعيين يوم يقوم فيه بالإجابة على بنود الاتهام ضده، وكان ذلك في ثمانية الفصح، التي تدعى عادة بشكل عام باسم Pasucha Clausum

مذنب

وأثناء هذه الأيام، وبشكل محدد، خلال شهر شباط كله، ظهر نوع من النجوم كان مظلماً، في المساء، في الجزء الغربي من السماء، وكان يرسل أشعة نحو الشرق، وقد أعلن كثيرون بدون تردد أنه مذنب.

الامبراطور ينتقد الملك لسماحه بنقل مال من أراضيهِ

من أجل إلحاق الأذى بهما معاً

وقبل انتهاء أعمال المؤتمر المتقدم الذكر، قدم رسولان من عند الامبراطور إلى الملك، أرسل الامبراطور بوساطتهما رسالة إلى الملك مكتوبة، بأنه مندهش جداً لأنه سمح هكذا بشكل مهين للامبراطور للتعرض بصورة غير معقولة لعقوبة الحرمان الكنسي، في بلد هو أكثر البلدان تمسكاً بالمسيحية، وأن ذلك تم من دون أية معارضة من جانبه، ودون أن يتذكر المعاهدة والتحالف الذي دخلا به أثناء زواج ايزابيلا، التي هي الآن امبراطورة، وبذلك سمح لوضعه ولاسمه الجيد، كأمر أعلى، بالتعرض للذم، وبناء عليه طالب بطرد الذي ساعد على هذا العمل، أي النائب البابوي، الذي استدعاه الملك بشكل غير حكيم إلى

ممكته، بطرده من المناطق الانكليزية لأنه أعلن عنه عدواً له وكذلك لمملكة انكلترا، ذلك أنه جرف بشكل وقح جميع الأموال التي وصل إليها ومن كل واحد وصل إليه، وذلك من أجل إشباع نهم البابا، ولكي يلحق الأذى بالمقام الامبراطوري.

وإلى هذين الرسولين أجاب الملك، بأن واجبه كان إطاعة أوامر البابا والكنيسة، وأن يبادر إلى ذلك ويفعله، أكثر من طاعة أي أمير آخر في العالم، وبذلك يستطيع أن يبرهن بأنه تابع اقطاعي للبابا يؤدي إليه الجزية بموجب الامتياز، وهكذا بقيامه بهذا الاعتذار، قد جلب الاتهام ضد نفسه، وأمل بأن يحصل على رضا الامبراطور، فكتب إلى البابا يرجوه بحرارة، بسبب عواطف الامبراطور نحوه وقرابته، أن يتعامل معه باللطف، وعندما وصل هذا إلى البابا، انفجر غاضباً بعنف وتفوه بكلمات الملامة التالية:

«في الحقيقة لا يمكن العثور على رجل صادق واحد في انكلترا»، وكان رجلاً واقفاً هناك، فعقب على كلامه وكأنه يدافع عن الملك، حيث قال:

«أيها الأب المقدس، حول هذا لاتعجب، إذا لم يضع ملك انكلترا الثقة في رعاياه الانكليز، بل وضعها في الأجانب، لأنه لا يوجد بين الانكليز واحد أهل للثقة»، ويقال بأن الرجل الذي تفوه بهذه الكلمات، هو سيمون النورماني، واستثير المعلم روبرت دي سمر كوت Smer Cote وغضب غضباً عظيماً بسبب الكلمات التي جرى تبادلها من على الطرفين، لكنه —بحكم كونه رجلاً حكيمًا— ضبط نفسه، خشية أن يتولى النقد، لأنه كان رجلاً انكليزياً من حيث المولد، لكنه مرتبط باخلاص إلى البابا، الذي عمل منه كاردينالاً، على الرغم من جميع الاعتراضات عليه.

النائب البابوي يرفض العودة إلى وطنه على الرغم

من انذاره بفعل ذلك

وصار الملك، يتوقع، نتيجة لما حصل، وقوع شيء في المستقبل له، لأنه اتخذ صديقاً مقرباً إليه من مثل هذا العدو السري للمملكة، أي النائب البابوي، لذلك نصحه بإخلاص، بعدم إثارة غضب الجلالة الامبراطورية بالاقامة مدة أطول في المملكة، بل عليه عبور الألب في أقصى سرعة ممكنة وفي أقرب وقت، والقيام بالتشاور مع البابا، وعلى هذا ردّ عليه النائب البابوي قائلاً:

«إنك أنت الذي دعوتني من بلاطي، وأنا أطلبك بأمان، حتى أتمكن من العودة سالماً»، أما بالنسبة لرسولي الامبراطور، اللذين أشرنا إليهما من قبل، فإنهما عندما علما بجميع هذه الأشياء، عادا إلى مولاها لإخباره، بجميع مآراياه وماسمعه، لأنها كانا أشبه بجاسوسين عاقلين.

النائب البابوي يظهر نفسه جامعاً للمال لا يتعب

ولم ينس النائب البابوي، في الوقت نفسه، عمله الخاص، بالاستيلاء على الأموال وعلى الموارد لصالحه الشخصي، مرغماً الناس على أن يدفعوا ضرائبه الاضطهادية، وفي حوالي أيام عيد بشارة القديسة مريم، أرسل أوامر دقيقة إلى الأساقفة، ورؤساء الشمامسة، كان نصها هو التالي:

رسالة النائب البابوي

«من أوتو، الذي هو برحة الرب، إلخ، إلخ، إلى الرجل المستقيم، كذا وكذا أسقف، أو رئيس شمامسة، تحيات:

تقديراً لحكم الضرورات، ولرسالة أرسلت من الحبر الأعظم، نحن سنطيل إقامتنا هنا، وبما أننا لانستطيع القتال على نفقتنا الذاتية، نحن نأمركم ونطلب منكم، بموجب سلطات المنصب الذي نشغله،

وباسمنا، أن تدبروا جمع أموال الوكالات التي هي حق لنا في أسقفيتك، أو رئاسة أسقفيتك، وأن ترسل إلينا بأسرع وقت ممكن، وضبط جميع المعترضين بوساطة الروادع الكنسية، شريطة أن لا تتجاوز كل وكالة، في أي حال من الأحوال، مبلغ أربعة ماركات، وإذا لم تتمكن كنيسة واحدة من تقديم مبلغ وكالة، يتوجب اتحاد كنيستين مع بعضهما بوكالة واحدة.

صدر في لندن، في هذا اليوم الخامس عشر من شباط، في العام الثالث عشر من حبرية صاحب القداسة، البابا غريغوري».

في سبيل استخراج المال الرومان يعفون الصليبيين من عهدهم

تلقي في هذه الآونة، النائب البابوي أوامر من البابا، بموجب خطة مأكرة أخرى، لاستخراج المال من أتباع الكنيسة، وهذا ماتوضحه محتويات الرسالة التالية، إلى القارئ الحريص:

«إلى الأسقف كذا وكذا، وإلى جميع أولاده المحبوبين، وإلى رؤساء الشمامسة في أسقفيته، تحيات:

لقد تلقينا رسالة من صاحب السمو النائب البابوي، مقصدها ومحتواها هو مايلي: من أوتو، إلخ: لقد عرفنا بأن بعض الصليبيين من مملكة انكلترا، الذين هم غير لائقين للقتال، قد ساروا إلى المقام الرسولي، حتى يجري هناك تحليلهم من عهدهم للصليب، وبما أننا تلقينا مؤخراً رسالة من البابا، بأنه يتوجب علينا ليس فقط تحليل هؤلاء الأشخاص، بل أن نرغمهم على انقاذ عهودهم، ونحن نرغب أن نوفر عليهم الاضطراب والنفقات، بموجب فضيلة المنصب الذي نشغله، ولذلك نطلب منكم، ونأمركم أيها الأب المقدس، بأن تتولوا الإعلان عن السلطة التي منحت إلينا من قبل الحبر الأعظم، من دون تأثير في أسقفيتكم، حتى يتمكن الصليبيون المتقدم ذكرهم من نيل

الفرصة المتوفرة، وأن يقدموا إلينا لتسلم المنفعة في هذه القضية، وفقاً للصيغة التي أرسلت إلينا. صدر في لندن في الخامس عشر من شباط، في العام الثالث عشر من حبرية صاحب القداسة البابا غريغوري».

الإيرل سيمون يحضر نفسه من أجل رحلته إلى القدس

في الأول من نيسان لهذا العام، وصل سيمون دي مونت فورت، إيرل ليستر، واستقبل بتشريف كبير من قبل الملك، ومن قبل بلاطه، ثم إنه ذهب نحو ممتلكاته، وباع غاباته وأراضيه، وجمع المال لشراء الضروريات من أجل رحلته، لأنه كان على وشك المغادرة إلى القدس، في العبور المقبل، أما زوجته التي كانت حاملاً، فقد بقيت في القارة، ثم باع الإيرل الغابات الفخمة العائدة لليستر إلى الاسبتارية، وإلى كهنة ذلك المكان، وتسلم حوالي الألف باوند من أجلهم.

خلاف بين سكان أوكسفورد والباحثين فيها

وفي تلك الآونة نفسها، نشب خلاف جاد بين الباحثين في أكسفورد وبين سكان المدينة، وبناء عليه، غادر عدد كبير من الباحثين تلك المدينة وذهبوا إلى كليات كمبردج، حيث حصلوا على منحة بعض الامتيازات ضد البورجوازية، وحصلوا على صك الملك من أجلهم.

منع بعض القرصان من الدخول إلى انكلترا

وفي هذه الآونة أيضاً، كان الملك متيقظاً، فقد فتح عينيه، ومنع القرصان من الدخول ثانية إلى ممتلكاته، وبشكل خاص شعب السين Sens، الذين لوثوا بلاده الجميلة، بوساطة مصادراتهم غير العادلة، ورباهم السري، ولقد غضبوا وحزنوا لمجرد التفكير بفقدان مثل هذه البلاد المغذية الجيدة فقاموا عن طريق تقديم الأموال، الأمر الذي يرضي بالعادة الرجال الأشرار وغير العادلين، فبقوا هناك بشكل سري،

وبأعداد كبيرة.

وفاة للويلين ونشوب خلاف بين أولاده

في الحادي عشر من نيسان من هذا العام، الذي وافق عيد القديس غوثلاك Guthlac، غادر الجسد للويلين، أمير شمالي ويلز، وكان ذلك بعدما أخضع غريفين Griffin، الذي رفع كعبة وشن الحرب ضده، وبعدهما نشر السلام في المناطق الويلزية العائدة له، وإثر وفاته، قام ابنه داوود الذي إليه عيّن والده امتلاك ويلز، ولتكون ميراثه، وذلك مع موافقة أخيه الأسن غريفين، قام بنوايا خيانية، فاستدعى أخاه —غريفين المذكور— للاجتماع به، وبناء عليه، قدم بشكل مسالم، تحت جوار أسقف بنغور Bangor وبعض النبلاء الآخرين، ولكن داوود على الرغم من علاقة الأخوة، ومن الثقة الحسنة، أمر به فاعتقل، وأودعه السجن على الرغم من اعتراضات الذين منحوه الجوار.

الملك يتدبر تدشين ولاية ابنه ادوارد

وفي هذه الآونة جعل الملك سكان لندن، والمتولين للموانئ الخمسة، مع عدد كبير آخر، يقسمون يمين الولاء إلى ابنه الأسن ادوارد، وكانت في هذه الآونة أيضاً قد راجت تقارير أفادت بأن الداشين Dacians يعدّون العدة لغزو انكلترا، لكن هذه الأخبار صدرت عن شيء لم يتجاوز أنهم كانوا، يستعدون في سفن محملة بالناس من كلا الجنسين، لسكنى المنطقة التي تعرضت للدمار على أيدي التتار، وزراعتها، وإعادة استخدامها للاستخدام من قبل المخلوقات البشرية.

تحليل بعض الصليبيين من عهودهم بدفع مبلغ من المال

بدأ الآن رهبان ووعاظ الفرنسيسكان، ورجال دين آخرون، ولاسيما اللاهوتيون، بتحليل الصليبيين من عهودهم، مقابل تسلم مبلغ من المال

من كل واحد منهم، بدا أنه كان معادلاً لما كان سيفقهه الصليبي لشراء الحاجات الضرورية لرحلته، ونتج عن ذلك قيام فضائح كبيرة وانشقاقات كثيرة بين الناس، لأنه بدا أنه من غير المعقول، حتى بالنسبة لأبسط الناس عقولاً، المصائد المتنوعة التي سعى البلاط الروماني بوساطتها لتجريد شعب الرب الساذج من حاجاته الأساسية، حيث كان يسعى وراء شيء واحد فقط هو الذهب والفضة.

البابا يستخرج جزء الخمس من ممتلكات المنتفعين الأجانب في انكلترا

واقترح البابا الآن، وقرر استخراج جزء الخمس من ممتلكات وموارد منافع الأجانب ورجال الدين في انكلترا، في سبيل اغضاب الامبراطور، الذي كان محاطاً بالمخاطر من جميع الجهات من قبل أعدائه، الذين دعمهم البابا بالمال الذي جمعه عن طريق الاستخراج في انكلترا، كما أنه تابع العمل في تحليلهم جميعاً من التبعية التي كانوا مربوطين بها بالولاء للامبراطور المذكور، وبذلك ثبتت هذه العداوة المرعبة، وازدادت يوماً إثر يوم، وأيضاً قال المستشارون المخلصون للملك:

«مولانا الأكثر شهرة وسيدنا، لماذا سمحت لانكلترا لأن تكون مسلوية ومنهوبة من قبل هؤلاء الذين قدموا إلى هنا، وجعلتها مثل كرم بلا سور، نهياً لكل عابر، وأن يتعرض للاجتثاث من قبل الأرانب البرية، مع أنك تمتلك امتيازاً فعالاً بمنع مثل هذه الاستخراجات في هذه المملكة، والذي هو غير جدير بذلك الامتياز، هو الذي يسيء استخدامه، بعدما منح إليه»، وعلى هؤلاء الذين نصحوه هكذا ردّ الملك قائلاً: «إنني لأرغب كما أنني لأتجرأ على معارضة البابا في أي شيء»، وبذلك استولى على الناس يأس محزن جداً.

قسوة الأنواء

في اليوم الذي أعقب عيد القديسين بيريتوا Perpetua وفيليسيتاس Felicitas (٧- آذار) هبت عواصف من الريح قوية إلى أبعد الحدود وعنيفة، أحدثت الاضطراب في الأجواء كلها، وكان من بين نوادر عجائب الوقائع، أنها حملت حجرة، من الصعب على رجل قوي رفعها من على الأرض، حملتها من رأس الكنيسة إلى مسافة بعيدة جداً عنها.

النائب البابوي يسعى إلى إرغام الأساقفة

على دفع جزء الخمس من مقتنياتهم

اجتمع في هذا العام رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورؤساء رعاة الديرة مع بعض نبلاء المملكة، في ردنغ، لسماع رسالة من البابا، أعلنها النائب البابوي، وعندما اجتمعوا كلهم هناك، قام النائب البابوي بعمل قداس طويل، حاول فيه استمالة قلوب الذين استمعوا إليه، ثم قام أخيراً فبين لهم جميع أنواع المصاعب التي يعاني منها البابا، في سبيل الحصول على العدالة للكنيسة، فطالبهم بإلحاح بدفع جزء الخمس من جميع مقتنياتهم، فبذلك يستطيع أن يصدّ الأذى الصادر عن مثل ذلك العدو القوي، وعلى هذا ردّ الأساقفة — بعد عقدتهم مؤتمراً للتشاور — بأنهم لن يستطيعوا مطلقاً تحمل مثل هذا العبء الثقيل جداً، الذي يتعلق بالكنيسة كلها أيضاً، من دون حوار دقيق، وتقليب لأوجه الأمور طويل، وبناء عليه جرى تحديد يوم لهم، في تاريخ بعيد، للحوار حول هذه الرسالة الهامة.

قيام الإيرل رتشارد بوداع الأساقفة الذين اجتمعوا في ردنغ

وقام الإيرل رتشارد، والفرسان الصليبيون الآخرون، الذين كانوا حضوراً في هذا المكان، فقالوا وداعاً لجميع الذين اجتمعوا هناك، لأنهم

كانوا جاهزين لل شروع برحلتهم إلى القدس، وعندما رأى الأساقفة هذا، انفجروا كلهم ييكون، وقالوا للايرل رتشارد:

«لماذا أيها الايرل، يأملنا الوحيد تتخلى عنا؟ أو بسبب من أنت تهجرنا؟ سوف نكون معزولين من دونك، ففي أثناء غيابك سوف يغزونا الأجانب الطامعين»، ثم إن الايرل، ردّ وهو ييكي على واحد منهم، وهو رئيس أساقفة كانتربري ممثلاً للجميع قائلاً:

«أبانا ومولانا، تريد الصدق، إنني حتى وإن لم أحمل الصليب سوف أذهب، وأغيب نفسي، حتى لا أرى الشرور التي لحقت بشعبنا، ولا الدمار الذي ألمّ بالمملكة، الذي من المعتقد أنني قادر على منعه، مع أنني في الحقيقة، أنا غير قادر على فعل ذلك».

تكريس الهيكل الجديد

وجرى في هذه الأونة تكريس كنيسة الهيكل الجديد في لندن، وكانت مبنى مشيداً بطريقة رشيقة، وجرى التكريس بحضور الملك مع كثير من نبلاء المملكة، وفي اليوم نفسه، الذي كان يوم الصعود، وبعد الفراغ من الأعمال الوقورة للتكريس، جرت حفلة ووليمة كبيرة على نفقة الاستبارية.

إعدام عدد من قطاع الطرق

وفي اليوم الذي أعقب هذا الاحتفال المهيّب، جلبت رؤوس عشرة من قطاع الطرق، كانوا قد اعدموا في المناطق الشمالية من انكلترا، إلى لندن، وكان واحد منهم اسمه جون أوف أكتون Acton، قد قيل بأنه كان مقدمهم وقائدهم.

وفاة إيرل وارني

ووقع في هذا العام وليم إيرل وارني Warrenne مريضاً في

لندن، وقد مات في السابع والعشرين من أيار.

جواب المحكمة حول الميراث الذي ينتقل إلى الأخوات

أرسل في هذا العام موريس فتزجيرالد، المسؤول عن العدالة في أيرلندا، أربعة فرسان إلى بلاط الملك وطالب بمعلومات حول القضية المذكورة أعلاه [فتلقى الجواب التالي]:

«من هـ . H بفضل نعمة الرب، إلخ، إلى المسؤول عن العدالة في أيرلندا، تحيات:

قدم إلينا مؤخراً بعض الفرسان من مقاطعة أيرلندا، وأوضحوا لنا بأن رجال عدالتنا، الذين يتجولون في تلك المناطق، هم غير متأكدين في القضية المتعلقة بالميراث الذي ينتقل إلى الأخوات في مملكتنا في أيرلندا، حيث توجب على الأخوات الأصغر أن يستحوذن على ممتلكاتهن من الأخت الأسن، وأن يقدمن الولاء من أجل حصصهن، أو من سيدهن الرئيسي، وأن يقدمن الولاء له، وبما أن الفرسان المتقدم ذكرهم قد سألوا عن العادة الجارية في مملكتنا في انكلترا في القضايا الماثلة، رأينا —بناء على طلبهم— أن نخبركم، بأن القانون في مملكتنا هو كما يلي:

إنه إذا ما كان هناك مستحوذ منا بشكل رئيس وكانت له بنات ورثة، سوف تكون إجراءاتنا عند وفاة الأب، هو أننا سوف نتسلم بشكل دائم الولاء من جميع البنات، وهن في هذه الحالة إفرادياً وجماعياً يستحوذن منا بشكل رئيسي، وإذا ما كن تحت السن، علينا تقع المسؤولية عنهن وكذلك تزويجهن، وإذا ما كن مستحوذات من أي شخص غيرنا، وكانت الأخوات تحت السن، فإن مولاهن يمتلك الوصاية وتزويج كل واحدة منهن، وسوف تقدم الأخت الكبرى فقط الولاء لمولاهن عنهن جميعاً وبالنسبة للأخريات، فعندما يبلغن السن، فسوف يقدمن خدماتهن إلى السادة أصحاب الاقطاع، بوساطة يد أختهن الكبرى، وسوف لهذا

السبب لن تفرض الابنة الكبرى الولاء، أو الوصاية، أو أي نوع من أنواع الطاعة الأخرى، على الأخوات الأصغر، لأن جميع الأخوات هن ورثة متحدين للملكية واحدة، وإنه إذا ماسمح للأخوات الكبار بتسلم الولاء، أو الوصاية من الأخوات الأخريات، فإن الملكية نفسها سوف تنقسم، وبناء عليه فإن الأخت الكبرى سوف تكون فوراً وبالوقت نفسه السيدة والوارثة لإقطاعية واحدة، أو على الأقل الوارثة لخصتنا وسيدة لأخواتها، وهذا أمر في هذه الحالة لا يمكن أن يكون، لأن الأخت الكبرى لا يمكن أن تطالب بأي شيء أكثر من الأخت الصغرى، ما لم تكن الدار الكبرى تحت عنوان الأسن، وإلى جانب هذا، إذا كانت الأخت الكبرى ستكون الوارثة لجميع الأخوات الأخريات، إذا ما متن من دون ورثة خاصين بهن، وإذا كانت تمتلك الوصاية على أخواتها، أو على أولادهن، فإن ذلك سوف يكون مثل إعطاء حمل ليجري اقتراسه من قبل الذئب، وبناء عليه إننا نأمر في هذه الحالة، بأن تأمر بمراعاة هذه العادة المتقدمة ذكرها كما نراعيها نحن في مملكتنا في انكلترا، وأن يجري الإعلان عنها، وتطبيقها بدقة، كما ذكرنا أعلاه، في مملكتنا في إيرلندا. شهدت بنفسني في نورويك، في هذا اليوم الثالث عشر من آب، في السنة الرابعة والعشرين من حكمنا».

إلغاء إدعاءات رئيس الأساقفة من قبل الملك

كان في هذه الآونة، إدموند رئيس أساقفة كانتربري آملاً، ومتوقفاً بثقة، أن ينال المساعدة نفسها أو مايمثلها، كما نالها الشهيد المبارك توماس —الذي هو سلف رئيس الأساقفة المذكور— من البابا الاسكندر، صاحب الذكرى الطيبة، فقد بدأ برسائل حزينة، وبرسل خاصين، بعمل شكاوى محزنة، بها كان واثقاً من التمكن من تحويل القلب الحجري للبابا إلى قلب حي، وقد رجاء وحته على إلغاء تلك العادة المرفوضة والمدمرة للكنيسة، التي بوساطتها يقوم الملوك، لابل

الطغاة، ومن خلال أعداء الكنيسة والمتمردين ضدها، بعدم السماح للكنائس الكاتدرائية والديرية، المحرومة من رعاتها، بالتنفس، ولا أن تزود أنفسها بشكل حر وقانوني برعاية موائمين، وأن لا يقوم الملك، بإتباعه لرغباته بدلاً من إتباع عقله، بإعاقه انتخابهن، بوساطة وكلائه الماكرين الذين احتفظ بهم من أجل هذه الغاية، وأنه إذا ما كانت هناك أية كنيسة بين الكنائس قد حرمت من راعيها وبقيت شاغرة لمدة ستة أشهر، يتوجب تزويدها براعي صاحب كفاءة من قبل رئيس أساقفة المكان، ولكن عندما كان إدموند المذكور كبير التوقع والثقة بأن يصبح — من خلال الوعود المخادعة للبلاط الروماني — توماساً جديداً، ومن خلال جهوده المجيدة، سوف يجري تدمير العادات الشريرة في انكلترا، وأن البابا غريغوري سوف يتقمص شخصية الاسكندر، بالنسبة لتوماس المبارك، الذي كان رفيقه بالمنفى ومساعدته، فلقد تبين أن البابا غريغوري المذكور هو رجل جبان، فبناء على رسالة وصلته من ملك انكلترا، أعلن فيها أن هذا كان معارضاً لكرامته الملكية، وقام بنقض جميع المقاصد التقوية لذلك الرجل وألغاه، وهو المقصد الذي كان رئيس الأساقفة المذكور، قد حصل من أجله على رسائل من البابا مقابل اتفاق كبير من المال، ولدى اكتشاف الملك لهذا، أصبح طاغية أكثر مما هو معتاد، ففرض انتخاب بونيفيس Boniface، وذلك على الرغم من امتيازات كنيسة وستمنستر، وأعاق الانتخابات الأخرى التي عملت بشكل محق وبتقوى مهيبة.

رئيس الأساقفة يمنح جزء الخمس من جميع الموارد إلى البابا

وعندما كان في هذه الآونة عقل رئيس أساقفة كانتربري، الذي هو رئيس جميع الأساقفة، في حالة شك وأمل، بالنسبة للحصول على غاياته، أي الحصول على النصر في قضيته ضد الرهبان، وافق — وإن كان بغير رضاه — على طلب منح جزء الخمس من

موارده، وقام بمبادرة طيبة، فدفع إلى وكلاء الجباية البابوية، مبلغ ثمانمائة مارك، قبل استخراجهم منه بالقوة، وعندما رأى الأساقفة الآخرون لانكلترا هذا، كانوا مرغمين على تحمل خسارة مماثلة.

غاسكوني في خطر

وفي هذه الآونة، بعدما جرى طرد كافل المملكة في غاسكوني من تلك المقاطعة، قدم وهو يبكي ويشتكى إلى الملك، مخبراً إياه أنه ما لم يتخذ إجراءات فعالة سريعة، في سبيل الحفاظ على تلك المنطقة، وإبقائها بين يديه، إنه بلا شك سوف يخسر جميع ممتلكاته هناك في وقت قصير جداً.

الامبراطور يستولي أثناء زحفه إلى المدينة على عدة مدن أخرى

وكان الامبراطور قد عمل في هذه الآونة هدنة، أو على الأقل نوعاً من أنواع إيقاف القتال، مع الميلانيين والبولونيين، فعاث فساداً في المقاطعات الواقعة في أحواز المدينة، وكان محاطاً بجيش كبير، وأنزل المدن والبلدات إلى طاعته، وأخذ السكان مثلاً لهم بسكان فيتربو، وفقد البابا آنذاك كل أمل ووقع في متاهة اليأس، وكثير من الكرادلة تخلوا عنه وهجروه، وفي الحقيقة لم يبق بينهم ولا واحد تابع اتباعه، باستثناء المعلم روبرت سمرкот Summercote، الذي لم يكن بإمكانه التخلي عنه خجلاً، لأنه هو الذي صنعه كاردينالاً، وجاء تخلي الكرادلة عنه، لأنه كان قد تطرف كثيراً بعنفه لوحده، بدلاً من ضبط نفسه بالعقل والحكمة.

الامبراطور يوجه اللوم إلى ملك إنكلترا لأنه سمح بنشر القرار ضده ويجمع الأموال في أراضيه

وفي هذه الآونة نفسها، أرسل الامبراطور رسالة إلى ملك إنكلترا بأنه

مندهش إلى أبعد الحدود، لأنه قام هكذا بشكل غير حكيم فوزع أمواله بين الأجانب، لإلحاق الأذى به، وهو الامبراطور، وكتب إليه رسالة جاء محتواها كما يلي:

«من فردريك، الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى اللامع ملك انكلترا، تمنيات الصحة وعواطف صادقة:

بما أن التحالف والزواج يعقد التحالفات أحياناً بين ملوك وأمراء العالم، فإن العواطف، أو الاتحاد، بناء عليه، ينبغي أن يكون قائماً فيما بينهم، وذلك بنسبة تصاعدية، بما أنهم أعظم من الآخرين، وكلما ازدادت علواً المكانة التي وضعوا فيها، كلما توجب عليهم أن يضربوا مثلاً بالفضائل للذين هم دونهم، وعندما يشاهدون إجماعهم وإرادتهم الطيبة، فإن السلام والوئام يزداد قوة بين الناس، وبذلك يزداد الحفاظ على مكانتهم المحترمة وتزداد حقوق ممالكهم قوة من أجل المستقبل، ونحن نعتقد حتى الآن، أنه من خلال قرابتنا سوف تقوم المنافع من هذا النوع لكل منا ولكم، (ولاسيما وأن الأطفال، وهم الروابط المقدسة، سوف يرعون ويجري بهم تثبيت رباط قرابتنا) غير أننا وجدنا العكس تماماً لنوايانا، ولذلك إننا نكتب إليكم مكرهين، ونحن آسفين، علاوة على ذلك لقد وجدنا بأنكم عبرتم بعين الرضا واجتزتم بالأذى الواضح الذي أنزل بنا من قبل الحبر الروماني، والذي اعتقدناه أنه غير مؤيد تماماً، بالنسبة لنا نحن الذين فوق جميع أمراء الأرض الآخرين، هو أنكم سمحتم لقراره غير العادل والكريه ضدنا، أن يجري بمعرفتكم، وعلى مسمع منكم، نشره في جميع أرجاء مملكتكم، مما سبب ضرراً كبيراً، وإهانة، وحطاً من شأن الامبراطورية، والآن قد علمنا ما هو حقيقة مؤكدة، أنك في طاعتك المفتونة، لهذا العدو المميت لنا، والمتشوق لتدمير شرفنا، والمتعطش لدمنا، قد سمحت بموارد المال، من مكوس

وتبرعات، أن يزود بها، في سبيل القتال ضدنا، وذلك من كنائس مملكتك، ومن أسلافك (الذين تجبرنا مصاهرتنا على عدّهم أسلاف لنا أيضاً) التي أصبحت غنية من عطاياهم التقوية، وبناء عليه، دع حكمتك الملكية، عندما لا تكون منحرفة بوساطة النصائح الماكرة، تقدر فيما إذا كان لائقاً بكم تعريض ابن ختن لكم، وأخ لكم، أو على الأقل حليف، أو في جميع الأحوال ملك أو أمير، ضده لم تعلن الحرب، تعريضه للهجوم، والحرب ضده بوساطة المساعدة بمالك، علماً بأن ذلك مخالف لشريعة وعادات الممالك، وماهي الفوارق فيما إذا كنت قد متنت دفاعات عدونا بالذهب والفضة أو بالسلاح من خلال وساطتك، أو أنك توليت الاضرار بنا؟ وخاصة كما نعلم من خلال التجربة أنك لاتستطيع إيقاف يد المساعدة له بشكل فعال عن طريق السماح بتزويده بالمال من مملكتك، الذي وعد بأن يجند به مرتزقة للميلانيين وللخونة الآخرين ضدنا، والذين يسعى بوساطتهم لاغواء أعواننا المخلصين لنا بالتخلي عن ولائهم لنا، وهكذا تمكن بالبرطلة والرشوى من شراء ولاء بعض ضعفاء الرجال، مما سبب الخط من سمعتهم واطهار ذلك، وليس أقل من هذا هلاكهم الأبدي.

وباسم الرب، لاتدع أيها الأخ العزيز، أن يتأسس بوساطتك — على قل ليس ضدنا — قيام الملوك بشكل جائر بالقتال من قبل الملوك، كما عليك أن لاتدع نير الحكم البابوي يضغط بمثل هذه الشدة على عنقك الملكي، إلى حد يجعلك ترى أنه مما يبعث السرور العظيم في نفسك لاساءة إلى عقائد الانجيل، وقوانين الطبيعة، وإلحاق الأذى بجارك، بابن ختنك، لابل بأخيك، وبشكل خاص في الحالة الحاضرة، فأنت إذا اقامت بتقدير المسألة بشكل حكيم وعن قرب، فإنك سوف تجد قضية ليست لصالحنا وليست لصالحكم أنتم أنفسكم، ولا لصالحك والأمرء الآخرين العرضة للخطر نفسه.

وبناء عليه، إننا بهذا الغرض، نسألك بعاطفة صادقة، ونرجو جلالتك المخلصة، بحكم تقديرك لعواطفنا ولشرفنا، أن تقوم بشجاعة وبشبات، بأن تعارض ببراءتك وقوتك، تلك الإجراءات التي نخشى أنها سوف تلحق ضرراً كبيراً بقضيتنا، وأن لا تسمح بحمل أية أموال إلى البلاط الروماني، جبيت من الموارد، والضرائب، والتقدمات، أو من المصادر الأخرى لمملكته، وإنك لست أنت ولا هو لائق بك، أن تتغاضى أو أن تتخدد، أو أن تمر عبر هذا دوننا اهتمام، مثلما هو غير لائق بنا أن نقبل تقديم أية مساعدة يمكن أن تطلب منا، أو بوساطتنا لتستخدم ضدك، أو أن نسمح بتقديمها بأية طريقة من الطرق، وغير هذا، من الممكن في حالة مشابهة أو قضية أكثر عدلاً، أن نحتذي بمثلكم، فنقدم المساعدة ضدكم وضد مملكتكم، وهو مارفضناه حتى الآن، وتمنعنا عن تقديمه للذين لهم مشاكل معكم، وإلى الذين هم مرتبطين معنا بروابط عاطفية قديمة، وانظر إلى البابا، في متابعة الدفاع عن قضيتنا العادلة، قد وجد الخطوة لنفسه لديكم، في حين هو لم يقدم إليكم شيئاً ولا علاقة له البتة معكم، سوى أنه يتجحج — وهذا مانقوله ونحن نشعر بالحجل — بأن له سلطة السيد الاقطاعي عليكم.

وفما يتعلق بجميع القضايا التي جرى ذكرها أعلاه، وكذلك في سبيل تأدية خدمات أخرى لنا في أراضيك، قد أرسلنا هـ . H شالبوست Chalbost، وهو فارس، وتابع مخلص لنا، فهو الحامل لهذه العروض إليكم، ونحن نرجوكم بكل اخلاص، ونسأل عاطفتكم، أن تصدقوا من دون تردد كل مايمكن أن يقوله لكم باسمنا وبالنيابة عنا، كما لو كنا نحن أنفسنا موجودين، وأن تنفذوا مطالبنا، وأن تعطوه جواباً دقيقاً، ونهائياً، حول الذي قررتموه، وجرى ترتيبه من قبلكم بشأن القضايا المتقدم ذكرها، لأننا نرغب في حالات الطوارئ أن نكون على

دراية، وأن نعرف من الذي يمكن أن نتوقع منه النصيحة، ومن الذي ينبغي أن نكون حذرين منه».

وعلى كل حال جرى تشويه الرسالة الشفوية التي عهد بها الامبراطور إلى الرسول المذكور هـ . شالبوست، مع الرسالة ذات اللهجة الصديقة، التي أوردناها أعلاه، وكثير من الأشياء حذفت ولم تذكر من قبله، ومهما يكن من أمر، كتب الملك له جواباً، يبين فيه أنه لا يتجرأ على معارضة البابا، وأنه مندهش إلى أبعد الحدود، أن أخته الامبراطورة، لم يجر تنويعها بعد بأبهة في الأماكن والمدن المعتادة للامبراطورية.

وصول كونت فلاندرز إلى انكلترا

قدم في خلال هذا العام، توماس كونت فلاندرز، الذي هو عم الملكة، إلى انكلترا بأبهة عظيمة، وكان ذلك بعد حصوله على إذن من الملك الفرنسي، ولدى وصوله، استقبل ليس فقط من قبل الملك ورجال بلاطه، بل من قبل حشد كبير جداً من سكان لندن، وهم على ظهور خيول مزينة بشكل فخم، مع الأبواق وكل مظاهر السرور والبهجة، وقد استقبل في لندن بكثير من التشریف، وأثقل بالهدايا، وأعطاه الملك على الفور خمسمائة (أو كما قال بعضهم ثلاثمائة) مارك من الأموال الاستيرلينية الجديدة، وعمل له منحة بالمبلغ نفسه سنوياً للعشرين سنة المقبلة، وذلك تقديراً للولاء الذي قدمه له الكونت المذكور، وبعد الفراغ من تسوية هذه القضية، توجه الكونت إلى ويندسور، ليزور حفيده الطفل ادوارد، ابن الملك، وعاد بعد هذا على الفور إلى فلاندرز، لأن الإذن بغيابه كان محدوداً بوقت قصير من قبل الملك الفرنسي، وعيّن قبل مغادرته المعلم هنري الفلاندري، وكيلاً له ليتسلم الهدايا التي منحت إليه، وقام الملك على الفور بمنح بعض الموارد اللاهوتية، فصارت فجأة من نصيب الكاهن هنري المذكور، ولدى تحميل الكونت

المذكور بالهدايا الثمينة من الملك، بدأ بإثارة الحرب في مقاطعاته، وحشد بعض الجنود المرتزقة والأتباع التي استأجرهم مقابل أجرة، وبعد حشده هكذا لجيش كبير، في وقت قصير من الزمن، هاجم الأسقف المنتخب للبيج، الذي كان من حزب الامبراطور، ومن أقربائه، وهاجم أيضاً بعض الآخرين التابعين للامبراطورية، الذين كانوا —بناء على أوامر الامبراطور— قد بقيوا مع الأسقف المنتخب المذكور.

كونت فلاندرز يشن الحرب على الامبراطور

وعندما سمع صاحب الجلالة الامبراطور بإجراءات الكونت، أرسل إلى المذكور رسالة تهديدات مرعبة، ليتوقف عن إجراءاته الطائشة والجريئة، وإذا لم يتوقف —وذلك على عكس ما يستحقه الامبراطور منه— وتابع مضايقته، وهو المنزعج بسبب كثير من القضايا القاسية، وباغضاب البابا له، وكذلك إذا لم يتوقف عن مضايقة حلفائه، وبشكل خاص الأسقف المنتخب للبيج، الذي هو صديقه وقريبه، والذي دعي إلى مقامه بشكل محق، وإذا لم يتوقف عن إثارة الاضطراب للامبراطورية، هو قد أمر أيضاً دوقي لوفيان Louvain وبرابانت وآخرين من الجيران الأقوياء، بالقيام بالتصدي لحملة كونت فلاندرز واضعافها، ثم إنه كتب أيضاً إلى كونت بروفانس، الذي كان من المعروف أنه من حزب الامبراطور، يأمره بحكم كونه حليفه المخلص بأن يتصدى لخطط كونت فلاندرز وأن يحبط محاولاته، وهي الخطط والمحاولات التي حرض عليها الكونت المذكور برعونة، ولكن بما أن هذين النبيلين: كونت بروفانس وكونت فلاندرز رفضا إطاعة أوامره، كتب الامبراطور إلى كونت طولوز، يأمره تحت طائلة آلام العقوبة المحقة، بأن يشن الحرب ضد كونت بروفانس، الذي تاه عجباً وصار عاصياً بسبب ابنتيه الملكتين، ورفض معاقبة كونت فلاندرز، وقام الامبراطور نفسه بإرسال مساعدة مؤثرة إلى كونت طولوز، من أجل

مضايقة كونت بروفانس، وقام النبيل المتقدم ذكره على الفور بإطاعة أوامره.

إخفاق محاولات كونت فلاندرز

ثم وجد كونت فلاندرز أن حملاته الطائشة والجريئة قد أخفقت في تحقيق الآمال الفعالة التي بنيت عليها، وأن قوة الامبراطور كانت أكثر ثباتاً ضده، وأصبح أكثر خوفاً من تهديداته، وقد أخبر بطرق عديدة بوفاة أخيه وليم، الذي جرى انتخابه من قبل حزب البابا، فأوقف بمهانة الحرب التي دخلها بشكل غير حكيم، وذلك بعد انفاقه مبلغاً كبيراً جداً، وبعدها أثار كثيراً من الأعداء ضده نفسه، ولأن الكونت المذكور كان عائداً لمملكة فرنسا، التي تدخلت وقدمت الحماية له، فقد أخفى مشاعره بالانتقام لبعض الوقت، مقررّاً — على كل حال — أن يسدد له في بعض الوقت المستقبلي.

الحرب بين كونتي طولوز وبروفانس

وكان كونت طولوز على استعداد أكبر لإطاعة أوامر الامبراطور، ومرد ذلك إلى الأذى الذي غالباً ما لحق به على أيدي الفرنسيين، وقد نهض وانبعث شخصياً بناء على استدعاء الامبراطور وزحف برغبة ونشاط ضد كونت بروفانس، الذي أنزل به أضراراً لاتعوض، وقام كونت بروفانس على كل حال بالفرار، ووضع نفسه تحت حماية الملك الفرنسي، ورجاه بتواضع، بسبب مكانة واحترام الملكة الفرنسية التي هي ابنته، بأن يعطيه مساعدة فعالة، لأنه يوجد في أفينيون وبشكل خاص في المقاطعات الواقعة على الرون، بعض النبلاء الفرنسيين، الذين قدموا إلى هناك مع لويس الملك الفرنسي، والذين كانوا قد استولوا بالقوة، على بعض القلاع، والبلدات، والمدن، وانتزعوها من لويس المذكور، وذلك بناء على تحريض من البابا وبمساعدة منه، ومايزالون يحتفظون بهم بالقوة، وهم منتزعين منه، وعندما سمع هؤلاء الرجال

بأن أبا الملكة قد نال السوء في الصراع، وأنه كان يستجدي المساعدة بسبب محبة الملكة، ولكي يتمكن من استرداد أنفاسه احتشدوا، وطاروا إلى السلاح، لمساعدة كونت فلاندرز، وكان كونت طولوز — على كل حال — على دراية بخططهم، فنصب كميناً لهم، وواجههم بقوة عظيمة، وقتل عدداً منهم بحد السيف، وصدّ محاولاتهم حسبها رغب وأراد، ونجحت الحملة على يديه نجاحاً كبيراً، حيث تمكن في وقت قصير من الاستيلاء على حوالي عشرين قلعة، وانتزاعها من الفرنسيين ومن كونت بروفانس، وبعد طرده للعصاة المتمردين لهم، أعادهم إلى حكمهم السالف.

ملك انكلترا يكتب إلى الامبراطور لصالح كونت بروفانس

وعندما سمع ملك انكلترا بأن كونت بروفانس قد عانى من خسارة كبيرة في هذا الصراع المدمر، قام بناء على ضغط ومبادرة من الملكة، فكتب إلى الامبراطور، بطريقة صديقة، ورجاه من أجل خاطر القرابة، التي هي بالعادة توحد الأمراء، وبحكم رحمته الامبراطورية، أن يقوم بتوفير كونت بروفانس والحفاظ عليه، لأنه والد زوجته.

الملك الفرنسي يشنّ الحرب على كونت طولوز

وعندما سمع الملك الفرنسي، القوي جداً، بالأضرار الكبيرة التي أنزلت برعيته، ولأنه اعتقد بأن هذه الأضرار قد نزلت به ولحقت من قبل الامبراطور، انفجر غاضباً بعنف، ضد الامبراطور، وكذلك ضد كونت طولوز، ورغب باستخدام كل الوسائل لترميم خسائره وأضراره، وأن يعاقب هذه الأعمال الطائشة، فقام بوساطة تراخيص ملكية، وبسرعة رهيبية، بحشد جيش كبير من نبلاء فرنسا، وذلك بقدر ما استطاع، ولكي لا يندفع هؤلاء النبلاء، وينزلقوا في صراع طائش متسرع، قاموا بتواضع مناسب، فسألوا الامبراطور نفسه، عما إذا كانت

الحرب قد تأصلت من قبله، وفي الوقت نفسه، وبسبب خسائر جيش الملك في الأرض المقدسة، ولكي لا يخسر البقية بالتعرض للجراحة، أرسل ملك فرنسا سبعمئة من الفرسان مع عدد أكبر من الأتباع لصدّ حملات الأعداء في بروفانس.

تبرئة الامبراطور

وهكذا وجّهت الملامة إلى الامبراطور، ووصل الأمر إلى حد اتهامه بالاجرام، فأنكر ذلك كله بشدة، وقال بأنه لم يخطر بذهنه قط، تعريض أي واحد من المملكة الفرنسية للأذى من قبله، لابل كان هو بالحري على استعداد للوقوف ضد أعداء تلك المملكة، وعن طواعية وبرجولة للقتال ضدهم، لأنه يعرف أنهم لا يستحقون شيئاً آخر منه، وقال بأنه «بعيد عن تعويض الخير بالشر، لكن إذا كان هناك بعض الأشخاص الفرنسيين المجاورين لأراضي كونت طولوز، قد قاموا إرضاء منهم للملكة بمهاجمة عدو أبيها، وذلك بشكل متسرع وبلا حكمة، وأقدموا من دون أمر من مولاها الملك بشن الحرب علينا، فقام شعبنا الذي تعرض للأذى، بصدّ هذه الحملات، وانتقم للأضرار التي كانت غير متوقعة، فلا عجب في ذلك، يضاف إلى هذا أنه ليس هناك من شك، بأن الذين عملوا الشر أولاً قد أثاروا المخاطر الأولى، والأضرار الأولى، وبناء عليه يتوجب عليهم بقدر ماتوفر لديهم من قدرة، إعادة الممتلكات التي جرى الاستيلاء عليها من الجانبين، وعمل ترضية من أجل جميع الأضرار، حتى لا يتمكن بذور الخلاف التي زرعتها عدو الجنس البشري من النمو والتكاثر بين مثل هذه الشخصيات المتميزة، ولكي لا يمتلك أعداؤنا المسوخ لتهنئة أنفسهم بسبب خلافاتنا»، وعلاوة على ذلك صرح كونت طولوز إلى ملك فرنسا، بأن الامبراطور كان على غير دراية بما حدث، وبذلك برأه.

ولادة ابنة إلى الملك الفرنسي

ومنح الرب في هذه الآونة ابنة إلى الملك الفرنسي، من زوجته م. M, ليزيد من قوة مملكته وهنائها.

مذبحة مريعة للصليبيين في منطقة دمشق

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الأحداث في فرنسا، عانى قومنا —تحت طالع غير سعيد— من خسارة محزنة لجيشهم في دمشق، وشملت الخسارة الرجال، والخيول، والسلاح، والكرامة، وهو مأسرويه بأسف، وكنا قد علمنا به من رسالة هي التالية:

«من الصديق كذا إلى الصديق كذا، تحيات: ليكن معلوماً من قبلكم بأن كونت بريتاني قد قام بغارة بوساطة الفرسان، أمام دمشق، وحصل على أسلاب كثيرة، جلبها سليمة إلى الجيش، وغار منه إيرلا: بار، ومونتفورت، ودوق بيرغندي، فقاموا بعد مضي ثمانية أيام بغارة أخرى، مراغمة لنصيحة كونت بريتاني، وفي هذه الغارة تعرض للقتل إيرل بار، واللورد سيمون دي كليرمونت، واللورد جون دي باري Barre, وروبرت ماليت، ورتشارد دي بيومونت Beaumont, وعدد كبير آخر، ووقع إيرل أماريك دي مونتفورت بالأسر، واقتيد بعيداً، وحمل إلى القاهرة، كما حدث أيضاً بالنسبة لدوق بيرغندي».

وفي الوقت نفسه، وصلت الرسالة التالية من إيرل أوف مونتفورت إلى زوجته الكونتيسة وقامت هي بتحويلها إلى الايرل رتشارد:

«ليكن معلوماً لديكم، أن دمشق لم يتم الاستيلاء عليها، كما ذكر من قبل، بل عاد الجميع إلى عكا، وإلى جانب هذا عليّ إخباركم بأن الملك الفرنسي قد نقل جميع أمواله من الهيكل، لأن الداوية والاستبارية قد رفضوا مساعدة الفرنسيين في هذه الأزمة، وينبغي أيضاً أن تعلموا بأن

ستين قد أسروا وهم أحياء، ثم بعد ذلك أثناء عودتهم، وقع عشرة نبلاء وفرسان واعددين في الأسر.

الامبراطور يحزن لسوء حظ الصليبيين

وعندما سمع الامبراطور بهذا، حزن كثيراً من أجل الصليبيين، مع أنهم رفضوا نصيحته الصحيحة بعدم الابحار من دونه، وكتب على الفور رسائل تهديد مرعبة إلى المسلمين في دمشق وكذلك في القاهرة، يمنعهم — إذا كانوا يقدرون حياتهم — من الإقدام على إساءة معاملة النبلاء الصليبيين، العبيد المحبوبين من الرب، الذين يحتفظون بهم أسرى، خشية أنه عندما سينقض عليهم ويهاجمهم بقواته المرعبة، وبنسوره المخيفة والمنتصرة، وقتها سوف يشعرون بالانتقام الامبراطوري، وبغضب الرومان وامبراطورهم، الذي غالباً ماتلطخت سيوفه بالدماء الشرقية.

رسالة الامبراطور حول القضية المذكورة

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى هنري اللامع، ملك انكلترا، وابن ختنه المحبوب، تمنيات الصحة والعواطف الصادقة:

إن الكارثة العامة، وسوء الحظ المبكي للصليبيين، في مقتل الجيش النبيل للصليبيين، الذي وقع مؤخراً في بلدان ما وراء البحر، بانقلاب للحظ غير متوقع، نحن نبكي بحزن داخلي، وبإخلاص وباستحقاق أعظم، لأننا كنا نرى ذلك ونخشاه قبل مغادرتهم، وكان عقلنا يتوجس من المخاطر التي كانوا سيواجهونها، وكان حدسنا القائم على المواسم والأحداث، يقودنا، حتى عندما كانت أحوالهم متقدمة، لأن نرى سلفاً بمشاعر قلقه مصيرهم الحالي، ونحن نعتقد أنه ليس سراً بالنسبة لسموكم المخلص، كيف أننا حصلنا على خبرة حول مكر المسلمين، في

تلك البلدان في هذه الأيام، وكنا نرغب بتوقعات قلقة أن نكون مستعدين للمستقبل، خشية أن يكون الحظ قد أعدّ لهم شيئاً ليس لصالحهم، وهم الذين كانوا جاهلين بالأعمال، ويقومون بالوفاء بعهودهم من دون التقصي المستحق والمتوجب، ولذلك قمنا بوساطة رسائل متوالية، ومبعوثين خاصين من قبلنا، فحثنا مقدمي الصليبيين، وبعد ذلك جماعتهم كلها، ليقوموا بتأخير موعد جوازهم، لأنه عندما تنهياً الفرصة المناسبة وتقوم، إما أن نكون نحن شخصياً، مستعدين لمرافقتهم وقيادتهم، أو اننا كنا سنرسل ولدنا معهم للانقاذ، وذلك فور تمكننا بأية طريقة من الطرق من تسوية الأعمال الصعبة، التي كانت آنذاك تتطلب اهتمامنا الطارئ في إيطاليا، لأنه ليس بإمكاننا توريث أنفسنا بشكل مفيد باهتمامات أخرى، حتى نتمكن من تحرير أنفسنا من الأعمال التي كنا متولين القيام بها، لأننا عندما نكون متحررين من المسألة الأولى، يمكننا بسهولة معالجة الثانية.

ومع أن الصليبيين أفراداً وجميعاً، قد قبلوا بنصائحنا الصحيحة، والتزموا بخطتنا، التي لم يكن لها غايات مأكرة أو سرية، حمل الخبر الروماني الحالي كلامنا وأعمالنا تفسيراً شريراً، وكأن الخطر سوف يحقق بديانتنا وبالإيمان الكاثوليكي، بتأخير القضية حتى وقت موائم، فحرض الصليبيين وحثمهم بوساطة إنذارات متوالية، وأوامر وتهديدات حتى يقوموا بالعبور، وذلك وفقاً لكلمات الكتابات المقدسة: «وضع أعباء ثقيلة على الآخرين، وهي التي لا يمكنه أن يحركها باصبعه».

وعندما علمنا بهذا وعرفناه، قمنا بالتماسات متوالية، ورجونا الخبر المذكور أن لا يثق بالتقلبات وأن لا يعهد لمخاطرات الحظ مثل هذه المهمة العظيمة، التي تتطلب آراء محكمة، ووقتاً موائماً، واستعدادات عظيمة بالرجال والأشياء، وليس تسرعاً ليس حميداً، بتعريض خدمة يسوع المسيح للخطر، وكذلك مساعدة الأرض المقدسة، التي ألهبت قلوبنا،

وكذلك قلوب كثيرين، ومثل هذا العدد العظيم من الناس، ولفتنا انتباهه وذكرناه أن ترميم مثل تلك الخسارة الكبيرة وتداركها ليس أمراً هيناً، ورجونه أيضاً أن لا ينظر إلى وعدنا بتقديم مساعدة كبيرة في هذه المسألة، على أنه كلام عابث، لأننا أملنا، بوساطة شخص ولدنا، الذي هو رعية لنا أن نتابع بكل جهودنا خدمة يسوع المسيح، والدفاع عن الأرض المقدسة، وتولينا تذكيره بحقيقة أن السفك الهائل لدماء الصليبيين، في كثير من المعارك المتعاقبة في الماضي، قد حقق قليلاً — أو لم يحقق شيئاً — من المنافع في هذه القضايا، لأنها غالباً ما أعيقت بوساطة نقص الرجال والأشياء، وكانت الحشود في بعض الأحيان من دون قائد حريص وصاحب نفوذ، فبوساطته من الممكن أثناء قيام الخلافات بين عدة مقدمين، أو أن تقاعس واحد منهم قد يمنعهم من اغتنام منفعة الفرص المواتمة، أو توفر الحاجة لضبط سفاهة كثيرين، هو يمكنه أن يخدم مصالح كل من الحملة والأفراد، إذا ما احتفظ بالآراء الصحيحة من أجل لحظة مناسبة أكثر، ووقتها من الممكن عمل استعدادات وافرة، وتحت قيادة قائد واحد شديد، هو ضروري للحشد، يمكن وقتها للديانة المسيحية أن تتقدم أولاً بالوقت نفسه، نحو الغاية المرجوة، وأن تستقر واثقة بنصر مضمون.

وقد عدّ هذا الخبر الروماني جميع هذه الأشياء، بلا قيمة كبيرة، ونظراً لكرهيته لنا، ولكي يتمكن من تدمير العمل كله، أصر بعناد على الصليبيين بوجوب الاقلاع، من دون أن يعطي تقدير إلى ان الصليبيين الذين بقيوا في المناطق الأجنبية، كانوا مع أعداء الصليب المانح للحياة مستقرين بسلام تبعاً لشروط الهدنة التي عملت معنا، وأنه إذا ما خرقت المعاهدة بوساطة أية حركة من قبل الصليبيين، فإنهم سوف يتعرضون لمخاطر السيف والجوع، لأنه من غير الممكن ارسال مساعدة سريعة إليهم، أو تأمين المؤن إليهم.

وعلمنا أخيراً بأن البابا قد بعث ثانية رسائل إلى الصليبيين، يأمرهم بالقيام بالعبور، فكتبنا رسالة إليهم، بأن يقوموا بالزحف خلال مملكتنا إلى مكان ابحارهم، وأنا كنا مستعدين بسرور وبكرم لمساعدتهم إلى أقصى ما نمتلكه من قدرة، وقد عبر بعضهم من خلال مملكتنا في صقلية، ومن هناك أبحروا، بينما اختار آخرون العبور بوساطة طريق مرسيليا، ولهذا انتصرت الآن يد عدونا العام على مثل تلك الآلاف المؤلفة من الفرسان، الذين كرسوا أنفسهم لخدمة الأرض المقدسة، مع أننا ينبغي أن نبكي في مقتلهم من الإهانة التي أنزلت بيسوع المسيح شفيع البشرية، وأن نبكي على المسيحية كلها، ونحن نشعر في قرارة أنفسنا ونتعاطف مع ما عانوا منه، وللأذى الذي لحقهم، وبشكل خاص بسبب خسارة أولئك الجنود الشجعان من مملكة فرنسا، فهذه المملكة قد عانت من خسائر قاسية أكثر من البلدان الأخرى.

ونحن على كل حال لانسمح للخسارة أن تكون بلا وسائل تعويض، ولا للحزن أن يكون بلا مواساة، لأننا سوف نسهم بسرور وبكرم من أجل مساعدة الأرض المقدسة، وسنقدم كل ماتسمح به عظمة الامبراطورية، وبقدر ما تأذن لنا الحالة العاصفة للأحوال في الوقت الحالي، التي تسببت بالنصيحة الفاسدة للحبر الروماني، وكذلك غضبه، ونحن نعتقد، لو أن سلطان مصر، والد السلطان الحالي، مازال حياً، لقام إنطلاقاً من عواطفه الطيبة التي اعتاد أن يبيدها نحو شخصنا الملكي، فتولى تلبية طلبنا بالنسبة لمسألة الفرسان النبلاء، الذي وقعوا أسرى أثناء الحروب، ونحن على كل حال سوف نستخدم اهتمامنا الخاص ووسائلنا مع السلطان الحالي، في سبيل اطلاق سراح هؤلاء الأسرى النبلاء، علاوة على ذلك نحن نرغب إليكم أن تضعوا ثقتكم الدقيقة وأن تعتمدوا على كل ما سوف يخبركم به عنا وليم دي كومبيسا Compesa، وهو فارس، ومن رعيتنا المخلصين لنا، حيث أننا

اعتدنا أن نرسله في خدمتنا بمثابة رسول إليكم. صدر في فوجيا Foggia، في هذا اليوم الخامس والعشرين من نيسان، في العلامة الثالثة عشرة».

الامبراطور يسترد عواطف كثير من الناس وعقد مجمع عام

وعندما باتت محتويات هذه الرسالة معروفة، استرد الامبراطور قلوب كثير من الناس، مع أعداد كانوا من قبل متقلبين بعواطفهم واحترامهم له، وقد بدأوا بالوقوف إلى جانبه، وبدأ رجال الشعب الروماني — على الرغم من وعود البابا — يقفون بثبات إلى جانب جلالة الامبراطورية، وأعطاه الشيوخ ذوي الأصول النبيلة المشهورة عهدهم، واجتمع بناء على ذلك شيخ كان قد أوجده الامبراطور في روما في السنة الثالثة قبل هذه، والكرادلة، وأعلنوا أنهم ما عاد بإمكانهم تحمل عنف البابا، مما ألحق الخطر بالمسيحية كلها، ولذلك بيّنوا إلى البابا، بناء على طلب الامبراطور، وموافقتهم، أنهم استجابة لطلبه، يرغبون بعقد مجمع عام بشكل موائم في أسرع وقت ممكن، وتقرر أن يكون يوم الفصح المقبل الموعد لعقد المجمع، حيث بما أن الرب قد قام ثانية في ذلك اليوم، يمكن للكنيسة أيضاً أن تقوم ثانية في ذلك اليوم، وتتنفس بحرية، وبسعادة.

ختان صبي في نورويك من قبل اليهود

وفي هذه الآونة ختن اليهود طفلاً مسيحياً في نورويك، وبعدما ختنوه أطلقوا عليه اسم يورنين Jurnin، ثم إنهم احتفظوا به ليصلبوه، في محاكاة تأملية لصلب يسوع المسيح، وتمكن والد الطفل — على كل حال — الذي منه سرق اليهود الطفل، بعد بحث متواصل، وبعد طويل وقت من اكتشافه، حيث كان مسجوناً لدى اليهود، فصرخ بصوت مرتفع وأشار إلى ابنه، الذي اعتقد بأنه قد ضاع، لكنه كان محبوساً في

غرفة واحد من بيوت اليهود، وعندما وصلت أخبار هذه الجريمة غير الاعتيادية إلى علم وليم دي ريلي Rele، وكان أسقفًا، ورجل دين حكيم ويقظ، وإلى مسامع بعض النبلاء الآخرين، قام باعتقال جميع اليهود في تلك المدينة وسجنهم، حتى لا يتم إهمال هذه الإهانة الموجهة إلى المسيح من دون عقوبة من خلال إهمال المسيحيين، وعندما رغب اليهود في وضع أنفسهم تحت حماية السلطات الملكية قال الأسقف: «هذه قضايا عائدة إلى الكنيسة، وعندما تقوم قضية تتعلق بالختان وبإهانة الدين، فهي لا تقرر من قبل بلاط الملك»، وبناء عليه تبين أن أربعة من اليهود كانوا مجرمين باقتراف الجريمة المتقدم ذكرها، فجرى أولاً سحلهم بعد ربطهم إلى ذيول الخيول، ثم جرى تعليقهم على المشانق، حيث لفظوا مابقي من حياتهم التعيسة.

تكريس هـ . H بيت هول واستخراج الموارد

في الأول من تموز في هذا العام جرى تكريس هيوج دي بيت هول Pateshull، الأسقف المنتخب لكوفنتري وليفيلد، وتولى التكريس إدموند، رئيس أساقفة كانتربري، في رئاسة الرهبانية الجديدة قرب غولدفورد Guildford، وجرى تعيين وليم دي هيفرهل Haverhull، وكان كاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، خازناً في محل هيوج المذكور، وفي هذه الآونة أيضاً جرى عقد أكثر الاتفاقيات ظلماً بين البابا وبين الرومان (كما روي) وكان الاتفاق، أنه حيثما كانت هناك منافع في انكلترا، يمكن للبابا أن يوزعها، ولا سيما منافع رجال الدين، ينبغي توزيعها بين أبناء الرومان وأقربائهم، وفق رغباتهم، على شرط أن يقوموا برأي واحد ضد الامبراطور، وأن يسعوا لخلعه من العرش الامبراطوري، وهكذا استحوذوا لأنفسهم، السمعة المحترمة لجرأتهم القديمة، وبناء عليه، أرسل البابا، بعد مضي عدة أيام، تراخيصه المقدسة إلى إدموند رئيس

أساقفة كانتبري، وإلى أسقفى لنكولن وسالسبري، يأمرهم الإعداد لثلاثمائة روماني لشغل المنافع الأولى التي سوف تشغر، وجعلهم يفهمون أنهم معطلون عن إعطاء أية منفعة حتى يتم الإعداد بشكل موائم للعدد المطلوب، وتجاه هذا الأمر تملك الدهشة قلوب الجميع، وخافوا من أن الذي تجرأ على فعل مثل هذه الأشياء، سوف يغرق في أعماق اليأس.

رئيس أساقفة كانتبري ينفي نفسه

ورأى إدموند رئيس أساقفة كانتبري، الذي كان قد خضع — بإرادة أو بدون إرادة — إلى الاستخراجات البغيضة، المتقدم ذكرها، ودفع ثمانمائة مارك إلى البابا، رأى الآن أن الكنيسة الانكليزية يداس عليها كل يوم أكثر فأكثر، وأنها كانت تحرم من ممتلكاتها، وتجرد من امتيازاتها، لهذا بات قلقاً من أن يعيش ليرى مثل هذه الشرور على الأرض، ولذلك بعدما طلب الإذن من الملك، وبعدما حصل على أجوبة غامضة، غادر البلاد، محرضاً من قبل هذه الأضرار المتنوعة، وأبحر إلى فرنسا، حيث اتخذ مقراً له مع حاشية صغيرة في بونتني Pontigny، وهو مكان كان سلفه القديس توماس قد عاش به في منفاه، وشغل نفسه في الصلاة والصوم.

إصرار أحد الهراطقة

وفي هذه الآونة كان هناك رجل، قد تظاهر بأنه رجل شريف وصاحب حياة متشددة، وكان يرتدي ثياب طائفة رهبان الكارثوسيين Carthusian، وقد جرى اعتقاله في كمبردج، لرفضه دخول أية كنيسة، وعندما سئل عن هذا الجنون، أجاب بطريقة ملتوية، فجرى حبسه والتضييق عليه، وبعد مضي عدة أيام أرسل إلى النائب البابوي، من أجل سجنه في برج لندن، لأنه أعلن صراحة التصريح

التالي:

«غريغوري ليس هو البابا، وهو ليس رأس الكنيسة، بل هناك رأس آخر للكنيسة، والكنيسة قد تدنس، والخدمات اللاهوتية لا يجوز أن تعمل بها، ما لم يتم تكريسها من جديد، وكذلك أوعيتها وملابسها يتوجب إعادة تكريسها، فالشيطان قد أطلق سراحه، والبابا هرطقي، لا بل إن غريغوري هذا الذي يدعى البابا، قد دنس الكنيسة والعالم»، وسمع النائب البابوي هذا، وكان ذلك بحضور ر. R راعي دير إيفهام، والمعلم ن. N دي فينهام Finham، مع المعلمين ب. P أوف بوردو، وهـ. H أوف سوسا Susa، وعدد كبير آخر، وقد قالوا لهذا الرجل المجنون: «أولم تمنح السلطة من عليين إلى البابا بربط الأرواح وحلها، وأيضاً بشغل منصب القديس بطرس على الأرض؟» وبينما كان الحضور ينتظرون جوابه، معتقدين أن الحكم عليه يتوقف على جوابه لهذا السؤال، عمل تأكيداً لكن على شكل سؤال حيث قال:

«كيف يمكنني أن أعتقد هذا برجل هو مجرم بالسيمونية، والربا، وربما متورط بجرائم أكبر، وقد منحت السلطة نفسها عندما منحت إلى القديس بطرس، عندما أصبح رسولاً للرب، وتبعه، ليس فقط في رحلاته وأسفاره، بل أيضاً في اشراقه وفضائله؟»، ولدى سماع النائب البابوي لهذه الكلمات أظهر علامات الخجل، وعمل واحد من الذين كانوا جالسين من حوله التعليق التالي:

الذي يتصارع مع الحمقى هو مطلقاً غير حكيم

فهو مثل الذي ينظر في الفرن حيث يجرح عينيه

وفتح هذا الرجل شفتيه الملوّثتين بتجديفات أخرى، لأنه قال للذين

استجوبوه:

«إنني أقر بجميع مبادئ الإيمان، ومع هذا أؤكد بأن المسيح أخذ شكل الجسد في العذراء»، وعندما سألوه عما إذا كان يعتقد أنه اتخذ شكل الجسد من العذراء، أجاب بعد بعض التردد: «هذا مالا أقوله»، ذلك أنه لو عمل ذلك التأكيد، لبرهن بشكل واضح على أنه هرطقي، وذلك كما قال الرسول: «ابنه عمل من امرأة»، وحول هذا النص قال الكاهن بيد المبجل:

«عليهم عدم الاصغاء إلى الذي يعد التفسير هو أنه: ولد من امرأة عملت في ظل الشريعة، بل عمل من امرأة، وهو الذي استمد الجسد في رحم عذراء، ليس من لاشيء، وليس من مصدر آخر، إلا من جسد أمه، وإذا كان الأمر غير ذلك لما كان قد دعي باسم ابن الانسان، بكل صدق، وذلك إذا لم يكن قد استقى أصله من انسان، وبناء عليه إننا نقف ضد ما قاله يوتيخيا Eutyches، وجميع الأشخاص المفتونين على هذه الشاكلة، الذين أكدوا أنه لم يأخذ الجسد فقط في امرأة، بل من امرأة، هي العذراء مريم، ولو كان الأمر غير ذلك لما كان رحمها قد بورك، ولائديها اللذين رضع منهما».

موت ج إيرل لنكولن

وفي الثاني والعشرين من تموز لهذا العام، الذي وافق عيد القديسة مريم المجدلية، غادر ج. ل. إيرل لنكولن طريق الجسد، بعدما عانى من مرض طويل.

الملك يرسل قضاة ليقوموا بجولة في إنكلترا

وفي هذه الآونة، أرسل الملك قضاة ليقوموا بجولة في جميع انكلترا، وقد ارتحلوا وسافروا في جميع المناطق العائدة إلى الملك، مصححين تجاوزات الكثيرين، وتحت حجة إدارة العدالة، جمعوا مبالغ ضخمة من المال، من أجل استخدام الملك، الذي بدد كل شيء، وقد عهد بالأجزاء

الشمالية من انكلترا إلى كفالة وليم أوف يورك، رئيس كنيسة بيفيرلي Beverley وأتباعه، كما أنه عهد بالمقاطعات الشمالية إلى روبرت أوف ليكسينغتون Lexington وزملائه، وفي هذه الآونة أيضاً، أرسل النائب البابوي مبلغاً كبيراً من المال مع كاهن من عنده اسمه مومل Mumel، إلى البابا، الذي تسلمه بسرور، ثم أعاد الرسول ليتسلم المزيد.

استخراج بغيض للمال من قبل البابا

انبعث الآن في انكلترا طرائق جديدة، ولم يسمع بمثلها حتى الآن، لاستخراج المال، لأن أبانا المقدس البابا أرسل مستخرجاً للمال اسمه بطرس لي روج Rouge، إلى انكلترا، وكان بارعاً في استخراج المال، بطرائق لا يمكن تصورها، من الانكليز التعمساء، فقد ذهب إلى مقار هيئات رجال الدين، وأرغمهم أو أكرههم على الوعد بالمال، وعلى دفع المال عندما وعدوا، وذلك مثل بقية القساوسة، حيث أكد كاذباً بأنهم دفعوا المال برضاهم، ذلك أنه قال:

«إن الأسقف كذا والأسقف كذا، وكذلك راعي الدير كذا وكذا، قد لبوا طلباتي بإرادتهم، فلماذا أنتم هكذا متقاعسين كسالى، وكأنكم تريدون فقدان شكركم ومثوبتكم؟» وجعلهم هذا الأفاق أيضاً يقسمون أنهم سوف لن يعلموا أي شخص خلال مدة نصف عام، بطرائق استخراج المال التي مارسها، وبتصرفه هكذا تبع خطة لصوص البيوت الذين يستخرجون الوعود من الفئة المنهوبة، بعدم الكشف عن أسماء الذين سرقوهم إلى أي واحد، لكن صحيح أن الرجال سوف يلتزمون بالصمت، إن حجارة الكنائس سوف تصرخ عالياً ضد الذين يسرقونها، كما أنه من غير الممكن إبقاء هذا العمل الشرير في الظلام، لأنه إلى متى يستطيع القساوسة استخراج المال من الذين هم رعية لهم، ما لم يجبروهم بأسباب المطالبات؟

شكوى رعاة الديرة إلى الملك حول عملية الاستخراج المتقدمة الذكر

وبناء عليه ذهب رعاة الديرة إلى الملك وهم يتشكون بوجوه عابسة
قائلين:

«يا صاحب الجلالة لقد ضربنا ولم يسمح لنا بالتشكي ضد ذلك، وقد
قطعت أعناقنا، فنحن لانستطيع أن نصرخ، وعدم الامكان والعجز
فرض علينا من قبل البابا، وجرت ممارسة عمليات الاستخراج البغيضة
في جميع أجزاء العالم، وبارونياتنا التي بين أيدينا هي منك، ونحن
لا يمكننا افقارهن من دون إلحاق الأذى بك، وبالتالي لا يمكننا اجابتك
بالنسبة للعجز الذي لحقنا بهن، وفي الوقت نفسه ارضاء الاستخراج غير
المتوقف للبابا، لأنه بهذه الوسيلة جرى اختراع أساليب جديدة للظلم
من قبل الرومان، وهذه الأساليب تقوم دوماً بشكل غير متوقع ضدنا،
وبذلك لاتسمح لنا بالتنفس بحرية، ولاحتى لوقت قصير، ولذلك
ركضنا للالتجاء إلى مشورتك، وإلى صدرك الواقعي، ونطلب نصيحتك
ومساعدتك في حالة الدمار هذه»، وكان الذين خاطبوا الملك بهذه
الكلمات: راعي دير القديس إدموند، وراعي دير بيوليو Beaulieu،
وعندما سمع الملك شكاويهما، نظر إليهما نظرة عابسة، ولإرعابهما دعا
بصوت مرتفع النائب البابوي، الذي صدف أن كان حاضراً، وقال
مخاطباً له:

«انظر يامولاي النائب البابوي إلى هذين المغويين، إنهما يتوليان كشف
أسرار البابا، مقدمين منفذاً للنقد واللوم، وليساً مدعين لرغباتك، افعل
معهما الذي يرضيك، ولقد منحتك واحدة من أحسن قلاعنا لسجنهما
فيها»، وعندما سمع الراعيان هذه الكلمات أصيبا بقرف لا يمكن وصفه
وبرعب، وقد غادرا بعدما وعدا بإرضاء النائب البابوي وبتلبية جميع

رغباته، وبعض رجال الدين — على كل حال — مع أنهم كانوا قلة رفضوا الاستمرار بالتردد، ورفضوا حني رقابهم لعبودية مثل هذه الحالة المزرية، ووقفوا صامدين في رفضهم الذي كان مطلوباً منهم، وبصعوبة جنبوا أنفسهم الخضوع بذريعة طلب وقت حتى يمنح لهم.

اجتماع للأساقفة في نورثامبتون حول القضية نفسها

عندما فكر النائب البابوي، مع حليفة بطرس لي روج، بالتصرف وفق الطريقة نفسها مع الأساقفة الذين استدعيوا للاجتماع في نورثامبتون لهذه الغاية، وجدوا هؤلاء قد تعلموا من قضية الراعيين فأجاباهما قائلين:

«لدينا رؤساء شمامسة خاضعين لنا، وهم الذين على دراية بمنافع رجال الدين الخاضعين إليهم، الأمر الذي نحن جاهلين به، وهذه القضية تخص جميع الفرقاء، ولذلك يتوجب اجتماعهم جميعاً مع بعضهم، وإنه ليس لائقاً ولا موائماً إعطاء جواب من دونهم»، وبناء عليه جرى تعيين يوم من أجلهم لإعطاء جوابهم، وأن يكون يوم عيد القديس يوحنا المعمدان، أي أن يكون ذلك في يوم عيد ميلاده، وبناء عليه، اجتمعوا كلهم بحضور النائب البابوي وأصحابه، وكانوا على غير استعداد للاستجابة للاستخراجات المتقدمة ذكرها، وكانوا متصلبين وبدون خجل، ومصرين على رفضها وعلى عدم الموافقة عليها، ومع ذلك عارضوهم بطريقة لطيفة وحذرة، وترافعوا في ردهم بالاعتراضات المنطقية التالية:

اعتراضات الأساقفة على مطالب النائب البابوي

«لقد أفادوا أن عليهم عدم الاسهام، لسببين، أولهما لأن الاسهام سوف يكون ضد واحد قد عمل تحالفاً مع أميرهم، ولأن هذا الاسهام قد عمل من أجل سفك الدم المسيحي، الأمر الذي هو واضح من كلام

مذكرات التراخيص الرسولية التي ورد فيها كلمات: «لشن الحرب على الامبراطور»، وكذلك لأن الاسهام سوف يكون مضاداً لحرية الكنيسة، وهذا أيضاً واضح من مغزى المذكرة نفسها، التي جاء فيها قوله: «ضبط جميع المعترضين بموجب الروادع الكنسية»، وهذه عبودية وإكراه، وعلاوة على ذلك، لأنهم كانوا قد أعطوا في وقت آخر عشر ممتلكاتهم إلى البابا، مع اعتراض ضد استخراج مماثل قد عمل فيما بعد، وبمنطق أدنى عمل الآن طلب أوجب دفع الخمس، وأيضاً لوجود سبب للخوف من أن يصبح ذلك عادة لأن العمل إذا ما عمل مرتين يصبح عادة كما جاء في القانون قوله: «فيما يتعلق بالاجتماعات الأسقفية: ما من رجل بالقانون، إلخ، إلخ»، وكذلك بسبب أنهم يرون من الضروري تسوية الأعمال في البلاط الروماني، الذي لا يمكن الوصول إليه، ولا يوجد ممر مفتوح إليه إلا من خلال الأراضي الامبراطورية، وهم على هذا يخشون من اعتقال الامبراطور لهم، وايداعهم في السجن، ووقتها هم متأكدون من توفر عقوبة شديدة.

ومرة أخرى، بسبب أن الملك له أعداء كثيرون، يتوجب عليه تحمل أعباء الحرب ضدهم، وخشية من وقوع الأسوأ، لن يكون عملاً سليماً متابعة افقار البلاد، خاصة وأنها الآن قد أفرغت إلى حد كبير من ثرواتها، وذلك لأن النبلاء قد انطلقوا في حملة صليبية، وقد حملوا معهم كميات ضخمة من المال، من أجل الانفاق على رحلتهم.

ومجدداً إن هذا سوف يتحول إلى ضرر رعاة الكنائس، ولا سيما أنه ليس من الواضح أنهم قد وافقوا على التقديرات المتقدم ذكرها، ومرة أخرى بسبب أن أوضاع الكنيسة بشكل عام كانت خطيرة، وبناء عليه ينبغي عقد مشاورات عامة، حتى يمكن عمل مقدمة عامة، إذا كان ضرورياً في تلك الحالة، وهي ليست الحالة الآن، لأن الأخبار قد تأكدت بأن مجمعاً عاماً سوف يجري عقده، فيه سوف يجري تقرير مثل

هذه القضايا، وإنه لمن الضروري أن يتقرر إزالة السبب العام للعدوان». وعندما سمع النائب البابوي ورفاقه هذه الاعتراضات، أخفوا بصمت اضطرابهم، لكنهم قرروا أنه عندما تتوفر الفرصة، سيعيدون محاولة هذا ثانية، أو تدبر استخرجات أخرى من نوع مماثل.

النائب البابوي يجمع القساوسة في بيركشاير

وكان قد بقي لدى النائب البابوي وأصحابه بعض الأمل في تطويع آخرين للاستجابة لإرادتهم، ومن ثم اقناعهم بالمساهمة، فجمعوا قساوسة الكنائس في بيركشاير Berkshire وجمعوا آخرين، حثوهم بكثير من الحجج، وأضافوا التهديدات إلى التهديدات، والوعود إلى الوعود، وقد أجاب هؤلاء أيضاً بثبات، أنهم سوف لن يتخلون عن بنود جواهرهم، واعتماداً على حججهم، التي مع أنها كافية، سوف نضيف هنا أجوبة أخرى.

أجوبة القساوسة المتقدم ذكرهم فيما يتعلق بالتقديرات

قال كل واحد من القساوسة، وقال جميع قساوسة الكنائس في بيركشاير، بأن عليهم عدم الاسهام ضد الامبراطور مثل اسهامهم ضد هرطقي، لأنه لم يدن بوساطة قضاء الكنيسة، ولم يتبين أنه مجرم، مع أنه محروم كنسياً، ولكن ليس بسبب قيامه بالاستيلاء على ممتلكات الكنيسة، أو أنه هاجم ميراث الكنيسة الرومانية، لأن الكنيسة لاتستخدم السلاح الدنيوي ضد الهرطقة.

ومجدداً، وفي الطريقة نفسها للكنيسة الرومانية ميراثها الخاص، الذي إدارته عائدة إلى البابا، وللكنائس الأخرى أيضاً موارثها، التي منحت إليها وأعطيت من قبل الملوك والأمراء، والنبلاء المسيحيين الآخرين، والتي هي غير خاضعة لفرض الضرائب عليها، ولا بأي شكل من الأشكال، ولادفع الجزية إلى الكنيسة الرومانية، ولذلك لايجوز ارغام

القساوسة على المساهمة من ميراث كنائسهم.

ومن جديد، ومع أنه بحرفية الشريعة، قد قيل بأن كل شيء هو عائد إلى الأمير، لكن ليس بالتملك والتسلط والتصرف بالتوزيع، بل الأمور متعلقة بعنايته وحمايته، ومثل هذا، إن الكنائس عائدة إلى البابا، فقط فيما يتعلق بالعناية والحماية، وليس فيما يتعلق بالتملك والسيادة، وبناء عليه، قالوا ينبغي عدم ارغامهم على الاسهام.

ومجدداً كما تقول الحقيقة: «أنت بطرس (الصخرة) وعلى هذه الصخرة سوف أنا أبني كنيسة»، فهو بهذا قد احتفظ لنفسه بالتملك، وعهد إلى بطرس بالعناية، كما هو ظاهر من كلام الانجيل الذي تبع ذلك في قوله: «وإن كل ماسوف تربطه على الأرض سوف يربط في السماء»، إلخ، إلخ، وهو لم يقل: «وإن كل ما سوف تفرضه على الأرض سوف أيضاً يفرض في السماء»، وبناء عليه لقد قالوا بأنهم لا يستطيعون، ولا ينبغي لهم، تماشياً مع كلام الرب والعدل، أن يرغموا على الاسهام.

ومرة أخرى، إنه اعتماداً على سلطات الآباء المقدسين، نجد أن منتجات الكنيسة مكرسة لبعض الاستخدامات المحددة، وهي استعمالات الكنيسة، ورجال الدين العاملين بها، والفقراء، ولا يجوز تحويلها إلى استخدامات أخرى، مالم يكن ذلك بوساطة الكنيسة الأممية، وبناء عليه، ينبغي عدم إعطاء أية مساهمات من مقتنيات الكنيسة، من أجل شن الحرب، مالم يكن ذلك ضد المسيحيين.

ومجدداً، بما أن موارد كنائسهم هي بالكاد كافية لتأمين الطعام اليومي لرجال الدين، بسبب نقص حجمها وصغره، وبسبب أن المجاعة تهاجم في بعض الأحيان البلاد لدى سوء مواسم الحبوب، وأيضاً بسبب وجود عدد كبير من فقراء الناس والفقراء الذين يأتون إليهم، والذين رأينا بعضهم يموتون بسبب الحاجة إلى التغذية، ولأنه ما من أحد يمكنه أن

يستحوذ أكثر من منفعة واحدة، وبسبب ذلك هم الأفقر، وبصعوبة بالغـة يمكنهم تزويد أنفسهم وتزويد الفقراء، ولذلك ينبغي عدم ارغامهم على الاسهام في مثل هذه الحالة.

ومن جديد، إنه مهما كان مفيداً بالنسبة لهم أن يسهموا، ومع ذلك يتوجب، لابل سوف يكون مفيداً أن ندع القضية تسقط، بسبب الفضائح التي قامت، وانتشرت في الخارج في جميع أرجاء العالم ضد الكنيسة الرومانية، فلقد جرى الاعلان على الملأ بأن الاستخراجات من هذا النوع قد عملت في أوقات مضت، وأفقرت رجال الدين بطريقة غير صحيحة البتة، وما أن جرى استخراج المال منهم، حتى توصل الامبراطور والبابا إلى التصالح، ومن ثم لم تجر إعادة ولافلس واحد، لابل أكثر من هذا، لو أن أية بقية كانت قد تركت من دون جباية، لقد جرى استخراجها بخشونة، حتى بعد ابرام الاتفاق بين الاثنين.

وتقول الأحكام القانونية، إنه مع أن الذنب العظيم لايجوز قبوله في سبيل تجنب فضيحة، وإنه بناء على ذلك، ولهذه الغاية يتوجب أحياناً اسقاط ما هو صالح وحذفه، وعلى هذا الأساس يتوجب علينا عدم الاسهام.

ومجدداً، إنهم إذا ما توجب اسهامهم ضد الامبراطور، فإن المقام الرسولي سوف يحيق به خطر الموت، في سبيل احراز العدل، وكذلك سوف يحيق خطر الموت بالذين يقومون بالحج إلى الأرض المقدسة، ومن أجل تحرير تلك البلاد، وبناء عليه، إلخ، إلخ.

ومن جديد، ينجم عن العمل المزدوج عادة، لأنه بما أن اسهاماً من هذا النوع قد عمل في وقت آخر، إنه إذا ما عمل الآن سوف يصبح عادة، وبناء عليه، إلخ، إلخ.

ومجدداً، إنه من اسهام من هذا النوع، مقدرين قدرة الامبراطور،

وضعف مملكة انكلترا وفقرها، من الواضح أن ملك انكلترا ونبلاء البلاد سوف يكونون عرضة لخطر عظيم بفقدان ميراثهم، وبناء عليه ليس من الموائم الاسهام، كما أنه لايجوز.

ومجدداً، إنه بالنسبة لملك انكلترا والنبلاء يمتلكون بموجب حق الوراثة، وكذلك بموجب العادات الصالحة المصدق عليها، الحق في تقديم الاعطيات إلى كنائس انكلترا، والقساوسة، المعينين بناء على أعطيائهم، لا يرغبون، كما أنه لايجوز لهم، ولا يستطيعون، الموافقة على تقديم أية منحة من دون التشاور مع رعاتهم، لأنهم إذا ما وافقوا على المنح من الممكن أن ينالوا الضرر من كنائسهم الخاصة، وبما أن الكنائس المذكورة، قد أعطيت وأغنت من قبل رعاتها المذكورين، بالأراضي والموارد، في سبيل مقاصد خاصة، هي أن يتمكن قساوستها من استقبال الضيوف سواء منهم الأغنياء وكذلك الفقراء، وأن يظهروا الضيافة إلى العلمانيين وكذلك إلى رجال الدين، وذلك وفقاً لإمكاناتهم، وكذلك حسبما تتطلب عادة المكان، وإنه إذا ما تم استخراج مثل هذه المساهمة منهم، فذلك يوجب عدم استمرارها، لأنه بهذه الطريقة سوف يجري خداع الرعاة وغشهم، في امتيازاتهم وفي نواياهم التي من أجلها منحوا الأعطيات، ولسوف يعيدون النظر في أعطيائهم، أو أنهم سوف يبحثون ويفتشون عن أسى آخر، ولن يؤسسوا كنائس مرة أخرى، أو يضيفون عليهن منافع من ممتلكاتهم.

ومجدداً، بما أن هذا الطلب قد عمل ضد واحد هو داخل بتحالف مع أميرنا، خاصة بالزواج، لايجوز لنا الاسهام ضده من دون التشاور معه.

ومن جديد، بسبب أن العلمانيين، لدى اسهامهم فيما مضى، في قضية مماثلة، قد نالوا وعداً من الذين أعطوهم، بناء على تفويض من هذا البابا الحالي نفسه، أنه لن تكون هناك عملية استخراج ثانية من هذا النوع، ولأنهم أنفسهم مايزالون يشعرون بالظلم بسبب العبء المذكور، ينبغي

أن لا يسهموا، لأنهم يخافون من أنهم بمساهمات متوالية سوف يجرون إلى العبودية وإلى عادات غير اعتيادية. ولا سيما أن كثيراً من البلدان، من بينهم فرنسا لم يوافق سكانها على هذا الاسهام، كما أنه واضح ومعروف بشكل جيد، أنه ما من مريح قد حصلت عليه الكنيسة من أي استخراج من هذا النوع، ليوافق الرب أن لا تكون لاعاقبتها، ولقد قوي أعداء الكنيسة وأصبحوا أغنياء بوساطة ذلك، ومن كونهم أقوياء صاروا أقوى، وإنه لمن الصعب علينا أن نموت بأسلحتنا، ولذلك يتوجب علينا عدم الاسهام.

ومجدداً، بما أن الجميع، أو لنقل تقريباً الجميع، قد ارتبطوا بعهد خدمة الصليب، ولكي يفوا بأنفسهم، أو بوساطة أشخاص آخرين أكفاء، تسلموا أوامر من البابا، وإنهم لا يمكنهم في آن، هو الوقت نفسه تلبية وتنفيذ هذا الواجب الصعب والمفيد، وأن يدفعوا أيضاً هذا الاسهام.

ومن جديد، بما أنهم محميين بامتياز أولئك الذين حملوا الصليب، والذين إليهم جرى منح إنتاج ودخول مواردهم جميعاً لمدة ثلاث سنوات، لا يتوجب عليهم لهذا الاسهام في هذه القضية.

ومجدداً، بما أن كثيرين مرتبطين برسائل البابا، لأن يدفعوا إلى رهبان كلوني Clugny، في يوم محدد، من عشور كنائسهم، الذي من المعروف أن الرهبان المذكورين لهم حق الرعاية، أو التي ليس لهم فيها أي ادعاء دنيوي أو روحي، ولهذا ينبغي أن لا يدفعوا.

ومن جديد، بما أن مولانا ملك انكلترا، له اعداء ألداء من جميع الجوانب، والذين هم مستعدون — كما أفيد — لإلحاق الأذى به، وبحكم أن المملكة محرومة من نصيحة ومن عون الرجال الشرفاء الذين يقومون باعداد الترتيبات للانطلاق إلى المناطق الأجنبية، والذين بذلك

سوف يأخذون معهم مبلغاً كبيراً من المال، سوف لن يكون سلباً إفقار الكنائس والمملكة إلى درجة لا يمتلكون فيها امكانات كافية لحماية الدولة، ولسوف يكون هناك بلا شك سبب لدمار المملكة لا يمكن اصلاحه.

علاوة على ذلك، بما أن رجال دين الشعب الانكليزي، كانوا من قبل أغنى منهم الآن، أي عندما استحوذوا جميعاً، أو على الأقل الشطر الأعظم منهم، عدة منافع من دون توزيع، ومن دون عمل أي استخراج من هذا النوع، مع أنه جرى في ذلك الوقت إرسال عدد من الآباء المقدسين إلى المنفى من قبل الأباطرة الطغاة، وعانوا في أنفسهم كثيراً من المصاعب في أشخاصهم وفي ممتلكات الكنيسة، لا يتوجب علينا —لذلك السبب— أن ننسهم.

وأخيراً، جرى منح كثير من العشور من قبل الآباء الرسولين إلى فرسان المملكة الفرنسية، لحماية الكنيسة الرومانية، وبما أنه واضح أن مساعدتهم المتوجبة لم ترفض من قبلهم، كما أنها لم تقدم بعد، يتوجب علينا —بناء عليه— أن لانسهم.

النائب البابوي يثير خلافات بين القساوسة المتقدم ذكرهم

وعندما وجد النائب البابوي وأعوانه أن ثباتهم مدعوم بمثل هذه الحجج الصحيحة، وأنهم لا يستطيعون تحطيمهم ماداموا هكذا متحدّين مع بعضهم، لذلك قرروا إحداث شقاق وخلاف فيما بينهم، ولذلك ذهب النائب البابوي إلى الملك، وكسب على الفور ذلك الرجل الضعيف إلى جانبه لتلبية رغباته، ومضى معاونوه أيضاً إلى الأساقفة، وكذلك إلى رؤساء شمامستهم، وبشكل خاص المعلم آلان أوف بيكلي Beccles، رئيس شمامسة سدبري Sudbury، الذي كان من قبل أكثر اصراراً من جميع البقية، وإلى بعض الأشخاص الآخرين

الطموحين الذين كانوا يتطلعون إلى مناصب أعلى، ووعدوهم بمساعدة فعالة إذا لم يوافقوا على اصرار جماعة القساوسة المذكورة وقرارها، وبذلك أغروا بعضهم، لمعارضة الفئة المسيطرة.

إقلاع الإيرل رتشارد مع النبلاء الآخرين

بعدما أكمل في هذا العام، الإيرل رتشارد، جميع الاستعدادات الضرورية من أجل رحلته إلى القدس، ذهب إلى دير القديس ألبان، ودخل إلى بيت هيئة الرهبان، ورجاهم تقديم المساعدة بصلوات الرهبان، وذهب من هنا إلى لندن، وكان ذلك فيما بين يوم الصعود، وأحد الشعانين، وقال وداعاً لأخيه الملك، وإلى النائب البابوي، وإلى بقية النبلاء، وأسرع بعد ذلك الخطى نحو دوفر، ووضع الملك تحت رعايته هنري ابن الإيرل وكذلك ممتلكاته، ورافقه النائب البابوي مع عدد كبير من النبلاء، والأساقفة ورجال الدين في رحلته إلى شاطئ البحر، حيث عهدوا به بتقوى إلى التوجيه اللاهوتي، وبقي الراهب ثيودوريك، رئيس الاستبائية ملازماً له، وكأنه مرافقه غير المفصول عنه، ودليله، وأقلع في الوقت نفسه عدد كبير من نبلاء انكلترا وكان من بينهم وليم لونغيوسبي Longuespee، إيرل أوف سالسبري، وعدد كبير من البارونات والفرسان، الذين ارتبطوا بهم بحكم أنهم قادتهم ومقدميهم.

ملك فرنسا يستقبل الإيرل رتشارد بتشريف عظيم

ووصل الإيرل رتشارد إلى شواطئ القارة، فدخل إلى الأراضي الفرنسية، وأخذ طريقه نحو الملك، وعندما بات قريباً، وصل الملك مع أمه ب. B، وكثير من نبلائه لاستقباله بسرور وبهجة، واستضافه في قصره، واحتفل معه، وكأنه قريب محبوب له، وأثقله بالهدايا الملكية، كما أنه، لدى مغادرة الإيرل أرسل رئيس خيالاته ليكون حامياً له ودليلاً،

خلال أراضيه كلها، وقد زوده بشكل وافر، وبتشریف بجميع الضروريات للرحلة، وقدم له المأوى ولأتباعه حتى عبر الرون بسلام.

وخرج سكان أفينون أيضاً إلى استقباله، بمسيرات سرور كبيرة، وبكرم ودون مقابل عرضوا عليه تقديم الضيافة له في مدينتهم، وذلك على نفقتهم، ثم أخذ بعد ذلك مراكب في فيين Vienne، مقررراً الابحار نزولاً على الرون إلى مدينة آرل Arles، لكن سكان فيين والمدن الأخرى المجاورة، طلبوا من الايرل رتشارد أن يبيعهم قوارب عبوره، وأنهم سوف يدفعون له ثلاثة أضعاف قيمتهم، ولدى رفض الايرل أن يفعل ذلك، أعلنوا أنه ليس تاجراً، فاستولوا على القوارب، واحتفظوا بهم بالقوة، وغضب الايرل لذلك كثيراً ومع ذلك تابع رحلته بقدر ما أمكنه ووصل إلى مدينة آرل، وندم سكان فيين فيما بعد — مع أن ذلك جاء متأخراً — لذنبيهم العظيم الذي اقترفوه، وأرسلوا المراكب التي انتزعوها من الايرل، وأعادوها إليه في بيوكير Beawaire، لكن الايرل، قام وهو مغضب فدمرهم جميعاً، وغضب كونت طولوز كثيراً لإلحاق هذا الأذى بالايرل رتشارد، في ممتلكاته، لأنها كانا أقرباء.

كونت بروفانس يستقبل الايرل رتشارد

وعندما علم كونت بروفانس، والد ملكة انكلترا، باقتراب وصول الايرل رتشارد، خرج من تاراسكون Tarascon لاستقباله بسرور وبهجة، وكان مستعداً لخدمته، وليقدم له كل لطف ممكن، وكان يأمل أن يتلقى مساعدة منه ضد كونت طولوز، الذي كان معه بحالة حرب، ولأنه تعرض بسببه إلى مخاطر كثيرة.

زيارة الايرل رتشارد لسينت جايل

وبعدما قطع الايرل رتشارد هذه المسافات، وعرف أنه لم يعد بعيداً عن مدينة سينت جايل (صنجيل)، بادر مسرعاً إلى هناك ليقدم تعبداته،

ووفق الطريقة نفسها، عندما وجد نفسه لديه وقت قصير، حضر الاجتماع العام للرهبان السسترشيان، وصرف نفسه بكل تواضع لسماع صلواتهم وحضورها، ولتقواه وتعاطفه منحهم دخلاً سنوياً مقداره عشرين ماركاً لتحسين أوضاع الطائفة، وذلك حتى يتمكن بفضل القديس جايل أن يعبر بسلام ويمر خلال مخاطر البحر.

البابا يمنع الإيرل رتشارد من الإقلاع

عندما وصل الإيرل رتشارد إلى سينت جايل، تقابل مع ناب بابوي ورئيس أساقفة آرل، اللذان منعه بموجب سلطات البابا من الإقلاع، وأصيب الإيرل تجاه ذلك بدهشة عظيمة، وأجابها أنه فيما مضى آمن بوجود صدق في كلام المقام الرسولي، وبالمبشرين الذين أرسلهم، وهو الآن غاضب كثيراً تجاه هذا المنع وقال: «لقد عملت جميع الاستعدادات الضرورية من أجل عبوري، ولقد ودعت أصدقائي، وأرسلت أموالاً وأسلحتي أمامي، وجعلت سفني جاهزة ومحملة بالمؤن، والآن تغيرت اللهجة، حيث ما أن وصلت إلى شاطئ وأنا على وشك الإقلاع، قام البابا، الذي يدعى خليفة يسوع المسيح ونائبه، فخرق وعده، ومنعني من الاستمرار في خدمة المسيح، مع أنني الآن مستعد لجميع الطوارئ».

وعندما رأى النواب البابويون أنهم لا يستطيعون منعه من الإقلاع، نصحوه بأن يترك ميناء مرسيليا، وأن يقلع بحرياً من ميناء أيغيو مورتى Aigues Mortes، وكان هذا المكان الأخير ممقوتاً من الجيش كله، بسبب قذارته وأحواله غير الصحية، ولذلك أقنعوا الإيرل بالإقلاع عن فعل ذلك، وبناء عليه، قام على الرغم من الحجج الزائفة والمتناقضة للنواب البابويين، وبمقت منه وازدراء لازدواجية الكنيسة الرومانية، بالتمسك بروح متألة كثيراً بنية الأبحار من مرسيليا، وبناء عليه ذهب في المقام الأول إلى روشي Roche، حيث استعد وحمل

سفنه، كما أنه أرسل رسالة إلى الامبراطور بوساطة رسل خاصين، هم الفارس روبرت دي تويني Twenge، وآخرين، حيث أخبره عن أحواله، وعن بدع البابا الماكرة، وفي الأسبوع الذي تقدم على ثمانية ميلاد القديسة مريم، ركب متن البحر مقلعاً.

حرب بين ولدي للويلين

في يوم عيد القديس غوثلاك Guthlac، [١١ - نيسان] في هذا العام، تفجرت حرب في ويلز بين ولدي للويلين، واستمرت من دون توقف، من اليوم المتقدم ذكره أعلاه، الذي قيل فيه غادر الأمير المذكور الحياة، حتى نهاية يوم عيد القديس ميكائيل، أي حتى تمّ أخيراً وضع واحد من الأخوين في السجن، وعند ذلك أوقف الويلزيون عنفهم، لأن داوود، الذي كان حفيد الملك، استدعى خيانياً أخاه الأسن منه للتشاور معه، من أجل التوصل إلى بعض الشروط المناسبة للسلام، ولدى قدومه للتفاوض تحت كفالة أسقف بانغور، أمر به أخوه داوود فاعتقل وسجن.

انتخاب بطرس دي ايغيو بلانشي أسقفاً لهيرفورد

وفي يوم عيد القديس بارثولوميو جرى انتخاب المعلم بطرس دي ايغيو بلانشي Aigueblanche، أسقفاً لهيرفورد Hereford، وكان من بروفانس من حيث المولد، وكاهناً مقرباً من وليم الأسقف المنتخب لبلنسية وقهرماناً لديه، وبعد مضي بعض الوقت استقبل بتشريف عظيم من قبل الملك، وجرى تثبيته في كرسيه من دون أية مشاكل أو معارضة، وكان هناك كاهن من ليشفيلد Lichfield، وكان رجلاً جديراً بالثناء، وقد جرى انتخابه من قبل، وقد رأى بأن الأوقات السيئة هي المقبلة، وأن الملك لا يقدر أحداً سوى الأجانب، لذلك تخلى عن دعواه، وعهد بإدارة كنيسته إلى الرب، وإلى إخوانه الرهبان.

ولادة ابنة الملك

بعد انتهاء أيام الاحتفال المهيبة بعيد الملائكة المقدسين [٢- تشرين أول] ولدت الملكة إليانور ابنة إلى الملك، أعطيت اسم مرغريت، الذي كان اسم خالتها، ملكة فرنسا، ولأن الملكة دعت أثناء آلام الولادة القديسة مرغريت.

تكريس آندلم رئيساً لأساقفة أرماغ

وفي العام نفسه، وفي يوم عيد القديس جيروم [٣٠- أيلول] جرى تكريس المعلم آندلم Andelm. وكان من أهل كولون، وكان أيضاً رجلاً متميزاً بأخلاقه وثقافته، تكريسه في ويستمنستر، بشكل مهيب رئيساً لأساقفة أرماغ Armagh. (الكنيسة المطرانية لايرلندا كلها)، وكان ذلك بحضور الملك، والنائب البابوي، وعدة أساقفة، وكان أسقف ووركستر متولياً للأعمال الرسمية.

تكريس معبد القديس بولص في لندن

وجرى في يوم عيد القديس ريميغوس [١٢- أيار] تكريس كنيسة القديس بولص في لندن من قبل روجر أسقف المدينة، وكان ذلك بحضور الملك، وغدد كبير من الأساقفة والنبلاء الذين شاركوا جميعاً في ذلك اليوم بمأدبة احتفالية مع الأسقف والكهنة، وجرى منح جميع الذين قدموا وصلوا بتقوى غفراناً لمدة أربعة عشر عاماً، وجرى تأكيد هذه الأشياء كلها وتثبيتها من قبل النائب البابوي، والأساقفة الذين كانوا حضوراً.

وفاة توماس دي ميولتون

وفي صيف هذا العام، غادر توماس دي ميولتون Muleton هذه الحياة، وكان فارساً مجرباً في البراعة الحربية، عندما ابتسم له سن

الشباب، وعندما صار متقدماً أكثر بالعمر، بات رجلاً لديه وفرة كبيرة من الممتلكات، وبارعاً كثيراً في القانون المدني، وأثناء رغبة هذا الفارس في توسيع أراضيه، غالباً ما تسبب بأضرار كبيرة، وخسائر لدير القديس ألبان، الذي جاورت مزارعه مزارعه.

نشوب خلاف بين دير القديس ألبان وبعض الفرسان

وكان في هذا العام هناك بعض الفرسان مع آخرين، كان دير القديس ألبان بلطف منه قد منحهم الإذن للصيد لبعض الوقت في مطردة حرة تابعة للقديس ألبان، وكانت قد منحت إلى الكنيسة منذ وقت طويل مضى، وجرى تثبيت ذلك من قبل الملوك، ومن قبل مؤسسيها، وذلك كما تبرهن على ذلك الكتابات النبيلة للكنيسة، ولقد أساء هؤلاء استخدام المعروف الذي منح إليهم، وقاموا وهم مصابون بعدوى الشر ونكران المعروف، فادعوا بأن هذا المعروف صار عادة، وحقاً دائماً، وسعوا لحرمان الكنيسة من حقوقها، أو بالحري لحرمانها من ميراثها، وقام الراعي جون، الذي كان آنذاك متسلاً للدير، والذي كان ملتزماً بموجب حق التكريس باسترداد الامتيازات المتضررة، والممتلكات الموزعة للكنيسة، بتقديم شكوى جادة حول هذه القضية إلى الملك، وحصل منه على المصدقة التالية ضدهم.

إجراءات محاكمة مطردة القديس ألبان

«من هنري، بنعمة الرب، إلخ، إلى عمدة هارتفورد Hertford،
تحيات:

إذا قام راعي دير القديس ألبان فعهد إليك بمتابعة دعواه، قم عندئذ باستدعاء، بوساطة استدعاء صالح وقانوني غيوفري دي تشايلدويك Childwick، وأولاده: وليم، وجون، ورتشارد، ووليم دي غورهام Gorham، وتوماس دي ووز Wauz، وولديه: وولتر،

وهنري، وآدم دي سومري Sumery، وداوود دي غرينفيل Grapenville، للظهور أمام رجال عدالتنا، في أول تبليغ، عندما يأتون إلى هذه المناطق، ليظهروا السبب لماذا اصطادوا، وأمسكوا أرانب من دون إذنه (الراعي المذكور) في المطردة الحرة التابعة لكنيسة القديس ألبان، ولتكن معك هذه الاستدعاءات وهذه المذكرة. شهدت بنفسني في ويستمنستر، في هذا اليوم السادس والعشرين من حزيران، في السنة الرابعة والعشرين من حكمنا. عمل في هارتفورد، أثناء شهر واحد من عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، أمام وليم أوف يورك، عمدة بيفرلي وهنري أوف باث، وروجر دي تيركبي Turkby، وغيلبرت بريستون Preston، مسؤول عدالتنا، في دائرة تلك الكونتية، في السنة الرابعة والعشرين من حكم الملك هنري، ابن الملك جون».

دعوة للمثول أمام العدالة

جرى استدعاء غيوفري دي تشايلدويك، وأولاده: وليم، ورتشارد، وغيوفري، ووليم دي غورهام، وتوماس دي ووز، وولديه: وولتر، وهنري، وآدم دي سومري، وداوود دي غرينفيل، بموجب مذكرة مولانا الملك، للإجابة على شكوى راعي دير القديس ألبان، لقيامهم بالصيد، وإمساك أرانب في مطرده الحرة التابعة لدير القديس ألبان من دون إذنه، وكانت شكوى راعي الدير هي، أنه في يوم الأربعاء التالي قبل عيد القديس توماس الرسول، لقد جاءوا مع كلاب، وأمسكوا أرانب في مطرده، ومثل هذا لقد اصطادوا في الحقول الوارد ذكرها أدناه التابعة له، في المطردة وهي: في حقل القديس ألبان، وفي حقل كنغبري Kingsbury، وفي حقل بارك Park، ولانجلي Langley، وكاشيوبري Cashiobury، وركمانورث Rickmansworth، وكوديكت Cuddicote، ووولدن Waldon، وساندردج Sandridge، وبارنت Barnet ووردبـورن Redburn،

وأراضي ممتلكاته وممتلكات أتباعه، وذلك على الرغم من امتياز، الذي تمتع به من أيام الملك هنري الأكبر، والذي من أجله قد دفع غرامة قدرها أربعين ماركاً، وجاء غيوفري وأولاده، وآدم دي سومري، ودافعوا عن هذا الاعتداء والأذى، وقالوا بأنهم هم وأسلافهم منذ أيام الاستيلاء قد اصطادوا في الأماكن المتقدم ذكرها بموجب امتياز، وفي أيام الملك هنري، جد الملك الحالي، وفي أيام الملك جون وفي أيام الملك الحالي هنري، وهم مستحذون على هذا الصيد كامتياز لهم، وأنهم يقدمون خمسة ماركات إلى مولاهم الملك، هنا، حتى يمكن عمل إجراء بحث فيما إذا كان غيوفري المتقدم ذكره، وأسلافه وتوماس دي ووز وأسلافه، وآدم دي سومري وأسلافه، قد استحوذوا على هذه المصيدة كامتياز في أيام الملك هنري، جد الملك الحالي، ومنذ ذلك الحين، أو أنهم استحوذوا على امتياز الصيد هذا بالقوة، أو بإذن من أسلاف راعي الدير المقدم ذكره، أو بوساطة البحث، وقد جرى تسلم ادعائهم، وأعطى راعي الدير المذكور خمسة ماركات أيضاً، للقيام بالبحث المذكور، وجرى تعيين يوم هو في ثمانية عيد القديس ميكائيل، من أجلهم للظهور أمام مسؤولي العدالة المذكورين في كمبردج.

الإجراءات في كمبردج في ثمانية عيد القديس ميكائيل أمام مسؤولي العدالة المتقدم ذكرهم

وكان المحلفون الذين جلسوا للبت في القضية، بموافقة الفرقاء هم: بطرس دي ثالي Thaly، ووليم ريفيل Revel، ووليم دي ثورليغ Thorleigh، وسيمون دي فورنل Fornell، وهنري دي هولول Holwell، ورالف فتزفولك Fitzfulk، ووليم دي سينت ليغر Leger، وبيترس دي ول Wells، ورتشارد موسكت Muschet، ووليم دي هولول، ولمعرفة فيما إذا غيوفري دي تشايلدويك، وأولاده غيوفري، ووليم، ورتشارد وتوماس دي ووز

مع ولديه: وولتر، وهنري، وآدم دي سومري، وأسلافهم، قد امتلكوا امتياز الصيد منذ أيام الملك هنري، جد الملك الحالي، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، في بلدة القديس ألبان، وكنغبري، وساندردج، وتايدنهنغر Tidenhanger، وبارك، وكاشيسوبري، ولانغلي، وركمانوورث، وكوديكوت، وولدن، وبارنت، وردبورن، وهل ذلك بموجب امتيازهم، كما ذكر غيوفري المذكور مع البقية، أو هل هم يمتلكون حق الصيد هذا بالقوة، أو بموجب إذن من أسلاف راعي دير القديس ألبان، أو بموجب حق التوريث كما أفاد الراعي المذكور.

ولقد قالوا —بناء على يمينهم— بأنهم قد فهموا بأن رعاة دير القديس ألبان قد احتفظوا بمطردهم حراً في المدينة المتقدمة الذكر، في أيام الملك هنري، جد الملك الحالي، بسبب أنهم —كما قالوا— قد تولوا فحص أحد الصكوك، كان قد منحه الملك هنري المذكور، جد مولانا الملك الحالي إلى بيت رهبان القديس ألبان، والذي ذكر فيه الملك المذكور امتلاك المطردة المذكورة في البلدة المتقدمة الذكر، والتي استحوذ عليها رعاة البيت المذكور في أيام الملك هنري الأكبر، جد الملك الحالي.

وقالوا أيضاً بأن غيوفري المذكور، أو الآخرين، أو أسلافهم، قد قاموا بأعمال مطاردة في البلدات المتقدم ذكرها، وكان ذلك يجري أحياناً ولبعض الوقت بموجب إذن من الرعاة، وأحياناً على الرغم منهم، ولذلك كان الرعاة المذكورون يقومون أحياناً، وبشكل مؤقت باعتقال كلابهم وخدمهم، ولقد ضربوا وأساءوا معاملة أتباعهم، مما تسبب في بعض الأحيان بنشوب معارك ووقوعها في تلك الكونتية، ثم كان يجري استرداد الكلاب المحجوزة، ويعاد السلام فيما بينهم بعد ذلك.

ولقد قالوا بشكل واضح بأنهم —الفرقاء المتقدم ذكرهم— لم يقوموا قط بأعمال مطاردة في المطردة المتقدم ذكرها، بموجب أي حق امتلاكه، أو يمكن أن يمتلكوه، ولذلك تقرر بأن راعي الدير وخلفائه سوف

يتملكون من الآن فصاعداً المطردة في القرى المتقدمة الذكر، بلا نزاع وإلى الأبد، وهي متحررة من أي ادعاء من غيوفري المذكور مع الآخرين، أو ورثتهم، إلى الأبد.

وسوف يقوم غيوفري وجميع الآخرين بالتعويض بشكل خلقي علي الراعي المذكور مقابل خسائره وذلك بدفع مبلغ أربعين ماركاً، ويتوجب على عمدة هارتفورد، بموجب مذكرة مولانا الملك أن يتدبر جباية المال المذكور من أراضيهم وقطعانهم، ومن ثم أن يجري دفعه من دون تأخير إلى الراعي المتقدم الذكر.

انتخاب فرسان محلفين

جرى انتخاب اثني عشر فارساً بحزام، لدى اجتماع الهيئة القضائية، وبموافقة الفرقاء، ووافق الفرقاء على الالتزام بقرار عشرة منهم، لأن اثنين لم يظهرا، وهما رتشارد بوكس Box، ورتشارد بوتيل Butell صاحب مالدون Maldon في اسكس.

مذكرة المطردة

«من جون أوف وادنغتون Waddington عمدة هارتفورد واسكس إلى المحبوب منه جون دي بيفوري Beyforey، نائبه، تحيات: لقد تلقيت الترخيص التالي من مولانا الملك، ومحتواه، ومقاصده هي كما يلي:

من هنري، الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، إلى عمدة هارتفورد واسكس، تحيات: نحن نأمركم أن تتدبروا تحصيل مبلغ أربعين مارك من أراضي وقطعان غيوفري دي تشايلدويك، وأولاده: وليم، وغيوفري، ورتشارد، وتوماس دي ووز، وولديه: وولتر، وهنري، وأدم دي سومري، وداوود دي كاربنفيل، في نيابتك، ومن ثم دفع ذلك —من دون تأخير— إلى راعي دير القديس ألبان، مقابل الخسائر التي

عاني منها الراعي المذكور بسبب الخلاف الذي نشب بينه، أي بين الراعي المذكور، وبين غيوفري المتقدم الذكر، ومعه: وليم، ورتشارد، وتوماس، وهنري، وأدم، وداوود، فيما يتعلق بمطردة الراعي المذكور. شهدت بنفسه، إلخ. وإنني بناء عليه أمرت بتنفيذ أوامر مولانا الملك «إلخ»، وجرى التفوه بالحكم في يوم عيد القديس ديونيسيوس، في حوالي الساعة التاسعة.

وضع امبراطور القسطنطينية

أرسل في هذا العام امبراطور القسطنطينية رسالة إلى الملك الانكليزي، بحكم أنه صديقه الخاص، وقريبه، بأنه وصل بنجاح وبقوة كبيرة إلى المناطق الاغريقية، يحيط به جيش قوي من الفرنسيين، وأن اسمه، أي اسم بلدوين، أصبح مرعياً إلى جميع أعدائه، وذكر أنه ألقى الحصار على مدينة كبيرة جداً، ليست بعيدة عن القسطنطينية، وأنه إذا ما تمكن من اخضاعها لحكمه، فإن جميع المنطقة المحيطة لسفر ثلاثة أيام سوف تسقط بين يديه، وأن طريق الوصول إلى القسطنطينية سوف يصبح مفتوحاً وخالياً من الخطر، وأن الحرب تتقدم بين يديه.

استدعاء النائب البابوي إلى البلاط الروماني

وفي هذه الآونة، جرى استدعاء النائب البابوي، بوساطة مذكورة من البابا، بأن يأخذ الطريق إلى بلاط روما، حالما يتمكن من انجاز العمل الذي هو بين يديه، لأن ذلك البلاط كان ينتظر عقد مجمع عام، وأن عليه الاسراع بقدمه بقدر ما يستطيع، لعقد مباحثات حول القضايا الصعبة، مع إخوانه، الذي يحتاجون كثيراً لرأيه الحكيم، ولأن يكون بينهم، مظهراً نفسه في وسطهم قبل وصول الآخرين، وقام النائب البابوي، بناء على ذلك، وفي إطاعة منه لهذا الاستدعاء، بدون توقف فجمع كميات كبيرة من القش، وأكوام من الحطب، وأشياء أخرى

ضرورية من أجل تمضية الشتاء، ولم يتوقف عن استخراج أموال الوكالات من كثيرين، الذين كانت مقتنياتهم قد أنهكت تقريباً، مما زاد أحزانهم ودهشتهم.

وصول بطرس لى روج من سكوتلندا

في حوالي يوم عيد جميع القديسين، قدم من سكوتلندا لى روج Rouge، وروفينوس Ruffinus، جالين مهما ثلاثة آلاف باوند من أجل استخدام البابا، وقدم من جهة أخرى موميلينوس Mumelinus، جالباً معه أربعة وعشرين رومانياً ليتسلموا منافع في انكلترا، وبهذه الحوادث صار الانكليز في أسوأ وضع، وتورطوا وسحقوا، وباتوا كأنهم بين حجري طاحون من الجهة الأولى، وبين حجرين آخرين من الجهة الأخرى، لأن من الجهة الأولى كان بطرس لى روج، وكان من الجهة الأخرى موميلينوس، ومن جهة أخرى الملك، ومن جهة أخرى النائب البابوي الذي استمر في مضايقة القساوسة، ورجال الدين، والرهبان، وقد سمح ملك سكوتلندا لهذه المضار بالجواز بصمت، مع أن ما من واحد من أسلافه قد تحملها قط.

الإيرل غ. G يتصالح مع الملك

في صيف هذا العام، عندما كان الأيرل رتشارد في لندن، وكان يتباحث مع أخيه الملك، حول هل عليه أن يسافر عبر إيطاليا، أو مرسلها، وتم أخيراً بناء على ترتيبات الراهب ثيودوريك، رئيس رهبان اسبتارية القديس يوحنا، وتقرر القيام بالعبور، مع الراهب المذكور كدليل له، وأن يقلع على ظهر سفينة، لعبور البحر المتوسط، وبينما كان هذا يدور بذهنه، قدم غ. G مارشال إلى الأيرل المذكور، وعرض أن يقوم بحضور الأيرل بتبرئة نفسه من جميع التهم التي عملت ضده، من قبل أي كان، وأن يقدم ترضية للملك قانونية أمام البلاط كله، وفقاً

لقراره، حول القضية التي اشتكى منها، وبناء على ذلك، توسط الايرل رتشارد من أجله لدى الملك، الذي وضع جانباً حقه وغضبه ضده، وإنه على كل حال من المعتقد أن الايرل مارشال، قد نال هذه الخطوة، بوساطة الهدايا، إلى كل من الملك، والايرل رتشارد، وفقاً لما قاله الشاعر:

«إن أفضل الطرق، عليك أن تؤمن

لنيل الخطوة، هي أن تدفع»

موريس مسؤول العدالة يتدبر مصالحة مع الايرل غ مارشال

وعلم موريس، مسؤول العدالة في ايرلندا، بشكل صادق بجميع هذا، فقدم بكل سرعة إلى الملك، الذي كان مقيماً آنذاك في لندن، وكان راغباً في تهدئة مشاعر الايرل غ مارشال، الذي كان يعلم بأنها مثارة ضده، بسبب موت أخية الايرل ر. R، الذي قتل في ايرلندا، وقبل كل شيء جاء مستعداً لتبرئة نفسه بكل طريقة بالمحاكمة أمام الملك، وأمام بلاطه، من قتل الايرل المذكور، وذلك وفقاً لقرار النبلاء، وأن يقوم بشكل قانوني بنفي ذلك العار عن نفسه، لأنه يعرف نفسه غير ملطخ بها، وإلى جانب هذا، ومع أنه يعلم بأن ضميره كان نقياً، وعد، أنه في سبيل السلام، ومن أجل إعادة تأسيس صداقتهم الماضية، سوف يؤسس ديراً فخماً، لصالح روح الايرل المذكور، من دون أية اضاءة للوقت، وأنه بكرم سوف يضيف عليه ممتلكات ثمينة، ويجهزه بجمع من الرهبان.

وعندما وجد الملك الثبات في كلامه، وعلم بنواياه التقية، أرسل خلف الايرل غ. مارشال، وتعهد أن يتولى بنفسه أعمال الشفيع والوسيط من أجل إقامة السلام، وادعى بأن النص الذي ورد في الانجيل، حيث أعطي قرار مولانا في قضية الخادم وأتباعه الخدام، كان

صحيحاً تماماً، وينطبق على هذه الحالة، وأعلن بإصرار — وفقاً للقرار اللاهوتي — بأنه هو — أي المارشال — كان غير جدير بعفوه، ما لم يتم بمنح الشيء نفسه، بمشاعر طيبة، إلى جاره، عندما يطلب ذلك منه كتوسل، وهو الذي كان راغباً في تبرئة نفسه من الجريمة التي ألصقت به، لأنه أكد أمام الرب، بأنه لم يكن ملطخاً بذلك القتل الذي اتهم بأنه اقترفه، فبتلك الفرية قد أسىء إلى سمعته بدرجة كبيرة، وهكذا أمكن بوساطة الملك والنبلاء، بأن مال الايرلغ إلى الاصغاء إلى التوسلات وإلى صوت العقل، وبحكم أن موريس، تواضع بحكمة بنفسه، تمت إعادة تأسيس السلام والوثام بين الاثنين.

أمير كونوت يشتكي إلى الملك

وفي هذه الأونة نفسها، قدم أمير صغير من منطقة ايرلندا التي اسمها كونوت Connaught، إلى الملك في لندن، وتقدم بشكوى ثقيلة أمام الملك وأمام بلاطه، حول الأضرار الذي أنزلت به من قبل جون دي بورغ Bourg، الذي عاث بدون توقف فساداً بأراضيه بالنار والسيف، ومن أجل جميع هذه الأضرار، طالب الآن بتقديم العدل، وذلك بضبط العدوان الجريء لذلك النبيل، بوساطة السلطات الامبراطورية، والتمس من الملك أن لا يسمح لرجل من رعيته المخلصين، الذي تولى دفع جزية سنوية مقدارها خمسة آلاف مارك إلى مملكته، وذلك منذ أن سمح له بالاستحواذ على أراضيه بسلام، وتثبيت ذلك من قبل الملك جون، الذي أخضعه بالقوة هو ومملكته، وجعله من رعاياه، أن يسمح بشكل غير عادل بأن يحرم من ميراثه بوساطة (حسبما دعاه) مغامر وضيع.

وأصغى الملك باهتمام إلى مطالبه العادلة، وأمر موريس المذكور، الذي كان آنذاك بحضرته، باقتلاع نباتات شجر الجميز غير المثمرة، التي زرعها هيوبرت، ايرل كنت — في الاستخدام المفرط لقوته — في تلك

المناطق، وأن لا يسمح لهم بمتابعة النمو، كما أنه كتب أوامر إلى نبلاء
ايرلندا، بطرد جون دي بورغ من أراضيهم، وأن يعينوا ملكاً، ويطبقوه
في مملكتهم على أسس من السلام، وبهذه الطريقة، وبوساطة آراء الملك،
ارتفعت آمال الأمير المتقدم الذكر، وقد عاد إلى ممتلكاته.

البابا يسعى للانسحاب من هدنة مع الامبراطور

علم في نهاية هذا الصيف النائب البابوي، بأن البابا قد وافق على
هدنة مع الامبراطور تستمر حتى المجمع العام، الذي كان سينعقد في
الفصح المقبل، فغضب غضباً كبيراً، وأرسل رسالة إلى قداسته، بأنه قد
بات مشوشاً في تفكيره، وجباناً، حتى أن معنوياته قد تحطمت، وأنه
غرق في حالة من اليأس، ولم يكن هذا من دون سبب، لأنه قد جمع
الآن من فرنسا وحدها من المال مايكفيه ويمكنه من دون خوف أن
يتابع الحرب ضد الامبراطور لمدة سنة كاملة، ولدى سماع البابا هذا
ندم، وبات أسفاً لأنه وافق على الهدنة، واستدعى المعلم جون دي
كولونا Colonna، والمعلم ريموند، رئيس كرادلته، الذي كان
الوسيط في ترتيب الهدنة، وهو الذي تدخل مع الامبراطور، وخاطب
الأول بينهما، وهو جون وقال:

«إنني خجل من نفسي لأنني منحت هدنة إلى عدو الكنيسة هذا،
فردريك، وبناء عليه، بما أنك كنت المترجم بيننا في هذه القضية، عليك
الذهاب بكل سرعة إليه، وأخبره، بأنني لم أختار الموافقة على الهدنة،
وتحداه بجرأة، وأعلن بأنني سوف أكون عدوه من الآن فصاعداً، كما أنا
الآن، وكما كنت من قبل»، وعلى هذا ردّ جون قائلاً:

«بعيداً عن التصديق سماع مثل هذا الكلام المتقلب من فم رجل
عظيم مثلك، وأن يرسل هذا إلى مثل ذلك الأمير العظيم، خاصة من
قبلنا نحن الذين لانعد أشخاصاً عاديين، وعلى هذا التقلب، وهذه

الخطبة الخيانية أنا لن أقدم موافقتي بأية طريقة من الطرق، بل إنني أعارضها بثبات»، وعند ذلك قال له البابا: «إنني لأعدك بعد الآن بمثابة كردينال لدي»، وعلى هذا رد جون قائلاً: «وأنا لن أستمّر بالنظر إليك على أنك بابا»، وبهذه الصورة غادر وذهب بعيداً، وتحول من صديق إلى عدو، وعلى هذه الصورة نفسها حدث عندما قال أحد الأباطرة غير العادلين إلى واحد من شيوخه: «اخرج، إنك لم تعد شيخاً لدي» وعلى هذا رد الشيخ بجرأة: «وأنت أيضاً لم تعد امبراطوري»، لأنه كما أن عضو الرعية مرتبط بمولاه، كذلك المولى مرتبط بالرعية.

كيف جمع النائب البابوي مبلغاً كبيراً من المال في فرنسا

وعندما بات هذا معروفاً من قبل الملك الفرنسي، أمر بجميع المال الذي كان النائب البابوي قد جمعه من أراضيه، بناء على إذن منه، واستخرجه من جماعة رجال الدين، بكلمات معسولة، وبتهديدات قاسية، أمر بالاحتفاظ به، حتى يرى نتيجة الأحداث، ولكي يقوم البابا، الذي كان يدعى بنائب المسيح على الأرض، على الأقل بالبرهنة بالصدق في كلامه بهذه القضية، ولذلك استمرت الهدنة غير مخروقة بينهم، باستثناء ماتعلق بأعداء الامبراطور، أي الميلانيين، وبعض الناس من الايطاليين الآخرين، الذين حولهم لم يكن من شأن البابا أن يقلق، لأن شؤونهم كانت قد سويت في البداية، لدى كتابة المعاهدة.

براعة البابا ومكره في جباية المال في انكلترا

وكان البابا يرقب بدقة كل فرصة من أجل جمع المال، ولأنه كان يتوقع غنيمة كبيرة من انكلترا، وكان ينتظر ذلك، أرسل رسالة إلى النائب البابوي، بأن لا يحاول حشد جميع كل رجال الدين مع بعضهم، كما فعل من قبل، فبذلك لن يتمكنوا من تشجيع أحدهم الآخر، أو

الاعتماد على أسبابهم المتقدمة واعتراضاتهم، ومحاولة ذلك ثانية لمعارضة خططه، بل الذي عليه جمع كل منهم واحداً واحداً والسعي هكذا لتطويعهم للقبول بإرادته، والقيام أولاً بإضعاف ثبات الملك، ذلك لأنه هو الذي وقف من قبل إلى جانب رجال الدين وأعطاهم الدعم، وبذلك يصبح ضعيفاً إلى درجة الدمار.

يقظة النائب البابوي في جمع المال

ولدى تسلم النائب البابوي لهذه الرسالة، تحول من بارع بالأذى إلى أكثر براعة، وقام بموجب سلطات البابا، فجمع كتلة رجال الدين كلهم، الذين بانكلترا، وأمرهم بالظهور أمامه في لندن، في يوم عيد جميع القديسين، وبناء عليه، اجتمع في اليوم المحدد جميع رجال الدين والرهبان، ووقتها وجدوا الملك مضاداً لهم، وظهر بمظهر عدو مكشوف بالنسبة إليهم، ذلك أنه أصبح بالنسبة لهم — وهذا كان حاله — ساق قصبة، من يتكئ عليها وهو واثق، يتعرض للجراحة من شظاياها، وبناء عليه، فإن الرهبان، وكذلك رؤساء الشمامسة، ورجال الدين الذين لديهم منافع، الذين جاءوا إلى هناك للوقوف في وجه النائب البابوي ومعارضته، والذين كانوا معادين له بروح عالية على أساس الترافع إلى المجمع القريب الانعقاد، عندما رأوا أنهم أصبحوا بمثابة شياه سوف يلقي بها بين الأنياب الدموية للذئاب، تنازلوا وقدموا موافقاتهم للكلام المعسول والمغوي للنائب البابوي، الذي حوله فيما بعد إلى رماح عدوانية.

موت رهبان درم في روما

وحدث في تلك الآونة، أن رهبان درم، الذين كانوا مقيمين في روما، للحصول على تثبيت لانتخابهم، قد عانوا كثيراً من الأذى، وذلك بسبب المعوقات التي أُلقيت في سبيل اكمال أعمالهم من قبل الملك،

وبذلك باتوا مرهقين من التأخير، حيث كانوا ينصرفون وقد تملكهم الأسى، لذلك سقطوا مرضى، والتزموا بمضاجعتهم، حيث انطبق عليهم كلام سليمان في قوله: «الروح المحطمة تجفف العظام»، ولذلك مات أربعة من الذين كانوا مقيمين هناك، وهم كان قد جرى اختيارهم من قبل اخوانهم، لأنهم كانوا يعدون أكثر حكمة من البقية، ولحق الموت أيضاً بعض رجال الدين والمرافقين الذين كانوا بارعين في القانون، والذين أنيوا لمساعدتهم وخدمتهم ومواساتهم، وهكذا هلك الفريق الأكثر نفوذاً في الدير، وكان ذلك لاصابتهم بمرض عادي أو لحزنهم وأساهم الروحي، أو لاصابتهم بوباء، أو أنهم سمموا، فهذا كله غير معروف.

وعندما سمع رئيس رهبان درم بهذه الحالة وكذلك الأسقف المنتخب، قهرهما الحزن، وأصيبا بالرعب، بسبب أن الملك المسبب الرئيسي لها، لأنه لم يسمح للكنائس الشاغرة بالتكريس ومع أنه فعل ذلك، يبدو أنه كان وراء هذه المأساة الكبيرة ومدبرها، لذلك تخلى الأسقف المنتخب على الفور، واستقال عن طوعية من منصبه، وأعلن أنه لن يعرف السرور ثانية ولا البهجة، وهكذا عندما وجد الرهبان أنفسهم يمتلكون الحرية لانتخاب أسقف آخر، ذهبوا إلى الملك بالطريقة المعتادة، ورجوه أن يزودهم بالوسائل المناسبة، لانتخاب أسقف، ومنحهم الملك هذا المطلب، لكن في الوقت نفسه كما قال الشاعر:

بأوامر مزيجية، ووعود، وصلوات،

على الفور سوف يظهر المولى وتظهر الابتهالات.

ذلك أنه رجاهم بحرارة كبيرة وتوسل إليهم بتسمية، وانتخاب المعلم بطرس دي أيغوبلانشي الذي هو الأسقف المنتخب لهارتفورد، والذي كان من مقاطعة بروفنسال من حيث المولد، أو انتخاب بونيفيشس

Bonifacius خال (عم) الملكة، وهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن أخلاق ومعارف الرجلين، حيث كانا مجهولين بالنسبة لهم تماماً، والذين عرفوه أنهما كانا من طينة أجنبية، وليس لديهما كفاءة لتبوأ مثل هذا المنصب، ولم تكن هناك حاجة لهما في انكلترا، لأن انكلترا غالباً ما قدمت رجالاً أكفاء ومناسبين لإدارة الكنائس حتى في البلدان الأخرى، ولم تكن بحاجة لاستجداء مثل هؤلاء الناس من خارج حدودها، ومن بلدان نائية.

المسلمون يستطلعون الغيب عن طريق القرعة

وفي العام نفسه، وفي وقت مناسب لممارسة العقائد المدنسة لعلم تخضير الأرواح، أو فن الحساب، كان المسلمون في الشرق يرغبون بالحصول على معلومات تتعلق بالأحداث المستقبلية المرتبطة بالجيش الصليبي، الذي كان يزحف ضدهم في ذلك الحين، وقد اقترب وصوله، فعملوا تضحية، ووجهوا دعوة مرعبة إلى الشياطين، وألقوا قرعة، وبعد اكمال هذا العمل الواهم، قام كاهنهم الأعلى، بنظرة كئيبة، وبصوت حزين متهدج، فخطب مقدميهم هكذا: «ليكن معلوماً من قبلكم أيها السادة الأقوياء، أن الأفئدة معاكسة لنا»، ثم إنه بعدما قام بحركة رمزية وطلب الإلهام من الروح القذرة، تابع الحديث الذي كان قد بدأه قائلاً: «لاتدعو النصر الذي نلتموه مؤخراً، وأعطي إليكم من الرب، يغركم كثيراً، ويفرحكم، لأن هناك هؤلاء القادمون، سوف يطلبون بجرأة دماء الذين قهروا على أيديكم مؤخراً، مع كثير من ردات الفعل الانتقامية»، ولدى سماع الحاضرين لهذا اعترتهم الدهشة، وسأل واحد من كبار مقدميهم، محضر الأرواح المتقدم ذكره، من كان مقدم الجيش الصليبي، وعلى سؤاله تلقى الجواب التالي: «إنه واحد من الشباب، قد اقترب وصوله وبات وشيكاً»، ثم قال المقدم للساحر: «هل هو من أسرة ذلك الملك الشهير الذي ألقى بالرعب بالشرق كله، في وقت مضى؟» وأجابه

الساحر: «إنه حفيد ذلك الملك، ويحمل اسمه» «وكيف هي سماته؟ وماهي قدرته؟» «إن حكمته أكبر، لكن قوته أقل، ومع ذلك تزداد قوته يوماً إثر يوم»، وبهذا استولى الخوف واليأس على الجميع، لكن الساحر عندما رآهم سيكون بشكل وافر، وآسفين من دون ضوابط تابع يتنبأ قائلاً: «لاتبكوا، فالذي علينا هو بالبحري أن نصلي وأن نأمل، بأن يعاق بشباك ذنوبهم، ومن الممكن للصليبيين، مثملاً فعلوا مؤخراً في دمياط، أن يفقدوا حظوة المسيح، ربهم، الذي يجب نقاء الشرف»، وبهذه الطريقة ضعف خوفهم إلى درجة ما.

الميلانيون يحرقون الهراطقة بينهم

وقام الميلانيون في هذه الآونة، من خلال الخوف من العقوبة، وليس من خلال حب الفضيلة، ولكي ينقذوا اسمهم الصالح، ومن أجل أن يكونوا متحررين أكثر في الاجابة على التهم التي عملت ضدهم من قبل الامبراطور، فأحرقوا الهراطقة الذين سكنوا مدينتهم بأعداد كبيرة، وبهذه العملية نقص عدد سكان المدينة كثيراً، وذلك بسبب أنهم كانوا خائفين على أنفسهم، لأنهم كانوا مثل بقية الايطاليين من أعداء الامبراطور، من الحرمان من التمتع بالهدنة، وكانوا واثقين تماماً بالبابا، الذي وعدهم أنه لن يبرم أي صلح —ولا بأي شكل من الأشكال— مع الامبراطور، من دون أن يخبرهم، ومع ذلك وجدوا أنفسهم مرعوبين من صدور قرار قضائي ضدهم، وتدمير شامل لهم في المجمع العام المزمع عقده.

حرمان سيمون النورماني من جميع منافعه إلا واحدة

في هذه الآونة، وبسبب الغضب الانتقامي للملك، جرى حرمان سيمون النورماني، الذي كان لبعض السنين التي خلت، المستشار الرئيسي للملك، والحافظ للختم الملكي، وجاء حرمانه بموجب

سلطات البابا، من جميع منافعه باستثناء منفعة واحدة، وطرد بالقوة من رئاسة شمامسة نورويك، وبما أنه كان مستحوذاً على حصة مؤلفة من عدة منافع، ولكي لا يبدو البابا أنه قد وضع يده عليه ثقيلة جداً، ومع أنه لم يظهر هناك أي واحد قد تدخل من أجل سيمون المذكور، فإن البابا حدّد كمية دخل سيمون المذكور بمبلغ مائة ألف مارك، وبذلك صار علامة للنقد لدى معارفه، وهكذا جمع ثمار طريقه، كما قال الشاعر:

إنه إذا ما نهض الرجال الأشرار،
إنني لن أشكو الآن،

فهم يمكنهم الصعود فقط حتى السماء،
لكنهم سوف يسقطون من جديد.

ولقد كان هذا هو الرجل الذي قدم المشورة الشريرة، والمؤذية للمملكة، وهو الذي تسبب ببقاء النائب البابوي في انكلترا، عندما كان مستعداً للسفر للشطر الآخر من الألب، وهو الذي بحضور البابا، عندما سئل من قبله، لماذا لم يجب ملك انكلترا رعاياه الطبيعيين، بل جلب الأجانب ليكونوا مستشاريه، أجاب: «لا يوجد في هذه الآونة ولا واحد انكليزي برهن على الاخلاص في انكلترا، يمكن للملك أن يثق به وباخلاصه»، وهو الكلام الذي أغضب المعلم روبرت سمركوت، الكاردينال، والذي كان انكليزياً من حيث المولد، حيث قاطعه، ووجه اللوم بحدة إليه.

أخبار سارة من الأرض المقدسة

أثناء هذا العام، وبعد جميع الآلام والمعيقات التي عانى منها عباد خطوات المسيح، من الفرسان الصليبيين جداً في الأرض المقدسة، أعطى الرب مواساة عظيمة إلى شعبه، حسبما ورد خبر ذلك في الرسالة التالية:

«من الراهب هيرمان أوف بيرغورد
Hermann of Perigord، الذي هو بنعمة الرب المعلم

المتواضع لفرسان الداوية المساكين، إلى أخيه المحبوب بالمسيح، المعلم روبرت ساندفور رئيس بيت الفرسان المذكورين في انكلترا، تحيات في الرب:

إننا نرغب في أن نعلم جماعتكم، انه بعدما أقام الجيش الصليبي لوقت طويل فوق الرمال، وهو منهك لايعمل شيئاً، ولايستطيع اتخاذ قرار حول الطريق الذي سوف يتبناه، أو ما الذي سوف يعمل، حتى قام الرب أخيراً فزاره وهو الرب القائم في عليين، وذلك ليس بفضل محاسنه، بل بفضل رحمته المعتادة، لأن سلطان دمشق، قد قام ليس لخوفه من الصليبيين، بل لتدخل اعجازي من الرب، فأعاد إلى السلطة الصليبية المنطقة كلها، الممتدة بأكملها من نهر الأردن، ومع هذا ميثاق واتفاقية بين الفريقين، قضت بأن الفريق الأول سوف يساعد الفريق الآخر إلى أقصى طاقته، في الدفاع عن بلاده ضد سلطان مصر، وأن لايعمل أي واحد من الفريقين مصالحه مع السلطان المذكور، من دون موافقة الفريق الآخر، وجرى استقبال هذه الاتفاقية بموافقة عامة، مبارك الرب من أجل كل شيء، الذي أمن هذا»، وقد قيل بأن هذا كله قد عمل نتيجة للنبوءة التي لم تكن لصالحهم، وهي النبوءة التي أتينا على ذكرها في الصفحة المتقدمة.

وكان الرسول الذي حمل هذه الأخبار من الأرض المقدسة، قد التقى باسطول الايرل رتشارد وهو مسافر بشكل موفق، كما أنه أعلن، أن سلطان دمشق، قد اقترح بشكل مؤكد تماماً بأنه سوف يتلقى طقوس التعميد».

رسالة الامبراطور إلى ملك إنكلترا

وفي هذه الآونة، كتب الامبراطور، الرسالة التالية إلى ملك انكلترا:

«من الامبراطور إلى الملك، تحيات:

إنظر إلى أي مدى عمل ضدنا في حالة الضغوط الحالية، اللومبارد،

والكاهن الأعلى للرومان، وذلك بمشورته المريضة الغاضبة، فهذا ما أفادتكم به التقارير العامة، بما فيه الكفاية، وتبصر كيف أنه قبل أن يحمل السلاح، قد ألقى جانباً جميع الاحترام للديانة، ولكرامة منصبه الحبري، وعيّن نفسه قائداً، ومقديماً لرعايانا العصاة، ولذلك نطالب بعقد مجمع عام، وبشكل خاص حضور رسل من عندكم، ولاأعتقد أن هذا سر لجلالتكم المخلصة، وثانية، إنكم فيما أعتقد قد علمتم كيف أنه بمبادرة من قبل بعض إخوانه، الذين كانوا يصممون خطة للتخلص من مثل هذا الخطر، وكيف أن جلالتنا تلطفت بالموافقة أكثر مما توقعوه وسألونا إياه، واستبعدنا اللومبارد فقط، فلم نسمح، باسترداد أنفاسهم، بوساطة الهدنة، وبعيداً عن الغضب، وهو أمر غير معتاد بالنسبة للكهنة، وقد ابتغيّا تجنب فضيحة عامة، وأن نعرّ على وسائل لإعادة تأسيس السلام، كي لا نؤخر تحرير الأرض المقدسة.

وهو على كل حال، لم يسمح للومبارد، الذين كان متعاهداً معهم، باستبعادهم من هدنتنا، عادداً معاناة الميلانيين والمرتبطين بهم أكثر أهمية من الانشطار، الذي انقسم به العالم كله، وعندما لم نوافق على هذا بأية وسيلة من الوسائل، ولم نسمح للذين هم مجرمون بالخيانة ضدنا، بأن يكونوا مشمولين بهدنتنا، أو أن نسمح لهم بأن يزدادوا قوة بوساطة الحماية البابوية، بأي شكل من الأشكال، وأخيراً عندما رأى بأن المتمردين المذكورين ضدنا، كانوا ضعفاء بالشجاعة بأنفسهم، وأنه لايمكنه أن يمنحهم الخلاص بوساطة السلام ولو لبعض الوقت، قام بعد ذلك بتحويل عقله لإبداع خطط أخرى، وسعى بوسائط الأسقف المحترم لبريشيا، الذي كان قادماً إلينا، ليتولى اقناعنا، بحكم أنه كان شاغلاً نفسه (كما ذكر) في استدعاء الرسل من لدن عدة ملوك وبعض الأمراء، والأساقفة من البلدان الغربية إلى المجمع، في سبيل إعادة تأسيس السلام بيننا وبين الكنيسة، بأن ندخل العصاة اللومبارد المتقدم

ذكرهم بالهدنة معه، وهي الهدنة التي سوف تستمر حتى العيد المقبل لقيامه ربنا، معطياً سبباً لذلك، أنه من خلال هدنة عامة، سوف يجري تقديم الأمن للذين جرى استدعاءهم إلى المجمع.

أصغ إلى طريقته العجيبة هذه بالتلاعب علينا، وتصاميمه الماكرة جداً في سبيل القضاء على قضيتنا العادلة، حيث تراه أحياناً يتظاهر بأنه يرغب بأن يحتفظ بالسلام معنا، فيقدم مظهراً للوئام معنا، في سبيل أن يتمكن هؤلاء اللومبارد في تأسيس عصيانهم، بأن يكسبوا بوساطة الهدنة فرصة لاسترداد أنفاسهم، ومن ثم التمكن في الوقت نفسه بالحصول بحرية أكبر على مساعدة الأساقفة، القادمين للالتحاق بالخصام ضدنا.

وهكذا يمكنك أن ترى بوضوح بأنه يريد من عقد هذا المجمع، زيادة الخلاف وليس صنع السلام، وانتبه إلى شكل الدعوات، التي لم يرد فيها ذكر قيامه بإعدادات من أجل السلام المقبل، باستثناء تأكيده بأن الدعوات الحالية هي ضرورية لتسوية القضايا الكبيرة والصعبة للكنيسة الرومانية، وانظر إلى الوقت، عندما سعى إلى فرض النائب البابوي علينا، قبل المجمع، وبعدما قاتلنا بطريقة عدوانية، وقدّر الأشخاص الذين دعاهم، ورفضه رسل جلالتك، الذين غالباً ما عرضت من خلاهم العمل على ترتيب هذا السلام معه، وهو على سبيل المثال وجه الدعوة بإلحاح لحضور هذا المجمع إلى كونت بروفانس، الذي هو متمرد مكشوف ضد جلالتك، وإلى دوج البندقية، وإلى مركيز أوستيا، وإلى كونت القديس بونيفاشيو Bonifacio، وإلى ألماريك دي رومانديولا Almeric de Romandiola، وبياكوين Biaquin، وغوستينو دي كامينو Giustino de Camino، وبولص ترافيرساري Traversari، فهؤلاء بعدما قدم لهم هدايا مالية، حثهم — كما هو واضح من التقارير العامة — على إلحاق الضرر بنا.

وعلى الرغم من هذا كله، واحتراماً منا للملك الذي هو في علينا، رأينا من المناسب الاجابة على هذا المدعو أسقفاً، لأنه ليس لدينا أية خلافات مع الكنيسة الرومانية المقدسة، التي هي أمانا، بل إننا ندافع عن القضية العادلة ضد عدوان هذا الحبر الروماني، ونبعد المضار التي عملت من قبله..

ومع هذا، لقد رغبتنا دوماً، ومازلنا نرغب، في أن نكون بسلام، في سبيل أن نتجنب شقاق عام في العالم، ولكي لا تكون الترتيبات من أجل السلام آتية من أطراف نائية، قمنا من خلال هذا الأسقف المذكور، ومن خلال أشخاص صالحين آخرين، كانوا على دراية بعدالة قضيتنا، وكانوا راغبين ومتطلعين لترتيب السلام وإعداده فوراً، في سبيل التمكن من إزالة هذه الشرور على الفور من بيننا، كما أننا وافقنا على الدخول بهدنة مع الحبر المذكور، مع أن ذلك ليس لصالحنا، ومع الذين كانوا مستعدين لجميع فرص الحرب ضدنا، آمليين بالهدنة، مثل الأمل بمرفاة حفظ الحياة، بأن نصعد إلى الأماكن العالية للسلام بسهولة أكثر.

أما بالنسبة إلى اللومبارد المتمردين ضد مقامنا الملكي، سوف نظل على الدوام، وكما فعلنا دوماً، متمسكين بإقصائهم عن جميع العلاقات والارتباطات بهذه الهدنة، كما أننا، في الحالة الحالية الحرجة للأمور بيننا وبينه، لن نسمح بعقد المجمع من قبله، الذي هو مكشوف للامبراطورية، لأنه يتوجب أن نعهده غير موائم البتة لنا وللامبراطورية، كما لن نسمح لجميع نبلاء البلاد بعرض قضيتنا على محكمة مشكوك بها، أو لأن يتخذ قرار بشأنها من قبل المجمع الكنسي، ونرفض منح أي أمان بالمرور للأشخاص أو المقتنيات، للعبور خلال الأراضي الخاضعة لحكمنا، وذلك يشمل جميع المدعوين إلى المجمع.

وبناء عليه، إننا بهذه العروض نحث جلالتكم على نشر إعلاننا الملكي هذا، بوساطة كل واحد من أساقفة مملكتكم، وأن تنشروا ذلك في الخارج، حتى لا يأتي أحد إلى هذا المجمع، ولديه أية ثقة بتسلم أمان عبور منا، لأننا مهما كنا راغبين في اظهار الاحترام لرعايا مملكتكم، على أساس العواطف الخاصة التي نحملها نحوكم، مع ذلك لا يجوز لنا أن نكون متسامحين تجاه الوقاحة الموجهة ضدنا من قبل الذين سوف يأتون بناء على دعوة من عدونا. صدر من معسكرنا، لدى محاصرة فيانزا Faenza، في هذا اليوم الثالث عشر من أيلول، في العلامة الثالثة عشرة».

البواعث التي أقنعت الامبراطور بالسعي للوقوف في وجه المجمع

كان الامبراطور مثاراً لأسباب باطنية، ولأسباب أخرى، وخشية منه، أن الخيانة قد خططت ضده في عقد هذا المجمع، لذلك اتخذ اجراءات للوقوف ضده، كما أنه كان منذراً جزئياً بالأسباب التي ورد ذكرها أعلاه.

وبناء عليه، اشتكى الامبراطور في المقام الأول من الموعد غير الموائم والمفاجيء للتسوية، الأمر الذي لم يكن موافقاً عليه البتة.

ومجدداً لأنه كان قد ترتب من قبل، وتقرر بموجب موافقة متبادلة من البابا وكذلك من الامبراطور، بأن لا يقوم البابا بدعوة المدعويين لحضور المجمع، عندما سيجري عرض قضية الفريقين بشكل خاص للمناقشة.

ومن جديد، صحيح أن المجمع كان سيدعى إليه من أجل إعادة السلام وتثبيته بقوة، بينهما، وليس من أجل سبب آخر، لم يذكر البابا هذا السبب في مذكرة الدعوات، بل الذي ذكره كان فقط: «تسوية

المشاكل الصعبة للكنيسة»، وبذلك طمس كلياً القضية التي من أجلها بشكل رئيسي توجب الاستدعاء، وبذلك خرق وعوده التي عملها، وكانت قد تأكدت من على الطرفين.

ومجدداً، قال الامبراطور بأن البابا قد دعا إلى المجمع أعداء الامبراطورية المعلنين والمكشوفين (الذين ذكر الامبراطور أسماءهم في رسالته)، وقد رشاهم بهدايا فخمة، حتى يستجيبوا للنية الفاسدة، ولكي يوصموا باسم خونة إلى الأبد، هم وذريتهم، فإلى مثل هؤلاء الناس كان سيعهد بمهمة ترتيب الأمور الصعبة للامبراطورية.

ومن جديد قال الامبراطور:

«إنه سعيّاً من أوتو، النائب البابوي في انكلترا، ومن ملك انكلترا للحطّ من شأنى، قد سحب تقريباً جميع أموال تلك البلاد، وتسبب بالتفوه بتكفيرى، وإعلان ذلك ضدى في تلك المملكة، مما ألحق إهانة كبيرة بالامبراطورية، ولوث كرامتنا كثيراً، ولذلك يتوجب علينا لسبب جيد أن نعدهما مع جميع أساقفة انكلترا، بمثابة أعداء لنا، وكذلك بقدر ما صبا أموالهما من أجل ائذائنا، وتلويث شرفنا ومحقه، إلى أقصى درجات قوتها، ولم يتأثرا بحال أننى حليف للملك الانكليزي، ومرتبطة به بروابط القرابة، وأننى لم أؤذيها قط، ولذلك سوف يكون أمراً غير طبيعى، ومتناقضاً تماماً مع العقل بالنسبة لى، بأن أحاكم من قبلهما».

وقال الامبراطور مجدداً بأنه «بوساطة التأخير الذي نجم عن الهدنة التي تمّ الاتفاق عليها، والتي هي مشكوك بها من قبلنا، لابل مؤذية لنا، ففي أثناء البحث بشؤون المجمع (التي ربما لن يجري على الفور تقرير تسويتها) سوف يكون بإمكان أعدائنا استرداد أنفاسهم، وبموافقة البابا وتشجيعه، وهو الذي عيّن نفسه مقدمهم، والمدافع عنهم، وبطلهم، سوف ينهضون بقوة جديدة لمهاجمتنا».

ومجدداً قال الامبراطور بأن «البابا كان ينتظر مبلغاً كبيراً من المال، يجري استخراجُه من أساقفة فرنسا وانكلترا بشكل خاص، وهو المبلغ الذي وعد بإعطائه إلى أعداء الامبراطورية، ومن هذا المبلغ يستمد البابا وهم معه ثقتهم، وفخارهم، وأن الامبراطور، بناء على ذلك، لديه سبب مسوغ بأن يخاف من النتيجة على نفسه»، وتستمد هذه العادة المقيتة أصلها من سلفه أنوسنت، الذي قام أثناء المجمع الأخير، لابل بالحري بعد انتهاء المجمع، بعدم السماح للأساقفة بالمغادرة، حتى استخرج البابا المال منهم، واحداً واحداً، دون إعطاء تقدير إلى متاعب ونفقات، واضطرابات الأساقفة أثناء سفرهم.

ومجدداً قال الامبراطور بأن جميع الأساقفة، وبشكل خاص أساقفة انكلترا، يعدّون أنفسهم مرتبطين باختصاصهم ويمينهم بالبابا الذي هو مولاهم الاقطاعي، وليسوا مرتبطين بالامبراطور أو بالامبراطورية، ولذلك عدّ الامبراطور، بأن قرارهم، سوف يكون لسبب جيد، مسألة مشكوك بها، ومخشي منها من قبله، خاصة وأن البابا معروف بأنه عدوه الخاص والمميت، ويمكنه بسهولة أن يحطّ من شأن قرار كهنته، وهو أيضاً يسعى، ويستغل كل معارفه وفنونه لتدمير الامبراطور وكذلك الامبراطورية، ولكن وفقاً لما قاله أوفيد:

«المسافر الحكيم مثله مثل اللص

بالسيف يسلح نفسه،

ليس مثله، لقتال الآخرين

بل ليحفظ نفسه من الأذى».

وبناء عليه، بعدما وزن الامبراطور هذه النقاط، مع نقاط أخرى غير معروفة من قبل الناس، في ميزان البراعة العقلية، ولمعرفته بأن كثيرين كانوا يتآمرون من أجل إلحاق الأذى به، بدأ بشكل حضاري بالرسالة

المتقدم ذكرها، بإنذار جميع الذين استدعوا وكانوا قادمين إلى المجمع، وتحذيرهم من المخاطر المحيطة بهم، وأنه سوف لن يقدم الحماية إلى الذين شقوا طريقهم خلال ممتلكاته.

وصول الإيرل رتشارد إلى الأرض المقدسة بعد رحلة موفقة

في هذه الآونة، كان الإيرل رتشارد، الذي كان مسافراً في رحلته إلى الأرض المقدسة قد وصل أخيراً سالماً إلى الأرض المقدسة، وكان وصوله بعد عشرين يوماً من عيد القديس ميكائيل، إلى ميناء عكا، ووصل معه أيضاً الاسطول الأجنبي الذي التحق به، ولدى نزوله إلى اليابسة استقبل بسرور عارم من قبل الأساقفة، ورجال الدين في مسيرة، وهم يرتدون ملابسهم المقدسة، وأيضاً من قبل مقدمي الفرسان، الذين قدموا لمقابلته باحترام وافر، وذلك وسط هتافات الناس، وقرع الأجراس، وغناء رجال الدين، وموسيقى الصنوج والزمامير، بحضور مجموعة من الراقصين، وهكذا بدا وصوله أنه متحد مع سكان السماء، حيث تجددوا مع سرور لا يمكن وصفه وفرح، ولذلك رفعوا أيديهم نحو السماء، وصرخوا قائلين: «مبارك القادم باسم الرب»، وفي اليوم الثالث بعد وصوله، أمر بالإعلان بوساطة صوت المنادي في عكا، بأنه ما من واحد من الحجاج الصليبيين عليه المغادرة، بسبب الحاجة إلى المال، بل عليهم جميعاً البقاء، والقتال بجراًة من أجل المسيح، وهم سوف يعيشون بوساطة الدفع من قبله.

موت إدموند رئيس أساقفة كانتربري

وبينما كان دولا ب الحظ يتغير هكذا، مبدلاً مجرى الأحداث العالمية، تهاوى بالعقل وبالجسد، إدموند رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان قد ذهب متطوعاً إلى المنفى في القارة، وكان يقول متعجباً مع تنهدات متواصلة: «آه، كم هو أفضل للإنسان أن يموت، على أن يرى معاناة

الناس والقديسين على الأرض»، وبالنسبة للذين ربطهم بالحرمان، والنائب البابوي، قام بدون اهتمام بكرامته، ولا بعدم حظوته، فحللهم، والعكس صحيح، وبناء عليه، كان في رغبته بالتفاني، ولأن يكون مع المسيح، كان يصلي كما يلي: «الويل لي، لقد طال أمد نفسي، لقد بات كافياً، لابل أكثر مما هو كاف، ذلك أنني رأيت جميع الأشياء المرتبطة بالتدمير والخراب، خذ حياتي، يامولاي وربي»، وكان رئيس الأساقفة المذكور مقيماً منذ أيام في بونتني، حيث سكن سلفه الشهيد المبارك توماس، في وقت مضى، أثناء نفيه، وفي هذا المكان، مع الدموع والصوم، كان يقدم الصلوات إلى الرب ليلاً ونهاراً، وإلى المبارك توماس، حول وضع الكنيسة الانكليزية، التي كانت في حالة من الرعب هائلة، وأخيراً أصابه الإعياء بسبب التقشف، وتهاوى بسبب الحزن، ولأن جسده بات فارغاً، فقد تقلص وضعف، فسقط مريضاً مرضاً شديداً، وبناء على نصيحة أطبائه سمح بنقل نفسه إلى سويسري Soissy في سبيل الاستشفاء بهواء أفضل، وبعدما عاني لبعض الوقت من الذرب الشديد، تحرر من روابط الجسد، وقال وداعاً إلى هذا العالم الشرير، وغادر طريق الجسد، وهكذا فإن روحه استبدلت بسعادة النفي في هذه الحياة بالعيش في الديار السماوية، وبالفعل كان هو في منفى، وجسده فقط عمل حجاً في هذه الحياة، وقد أنهك تحت كثير من أسباب الغضب، فقد حلل العصاة ضد الكنيسة من عقوبة الحرمان الكنسي المحقة، وكذلك النائب البابوي المتمرد والذي هو بدون احترام، فقد قام هذا بناء على موافقة الملك، فاستأنف بطيش القيام بأعمال أخرى، ليس لها علاقة بمنصبه، من أجل إلحاق الضرر برئيس الأساقفة المذكور، الذي هو الأول في جميع انكلترا، وقام مصدر الازعاج هذا، بإثارة أساقفة انكلترا بالقوة، وكان هناك واحد من الهجائين عندما كان الملك والنائب البابوي، يتمازحان بالحديث مع بعضهما، ويعد أحدهما الآخر بالتعاون معاً ضد كل واحد في كل شيء، وقتها تولى الهجاء

لومهما بما فيه الكفاية بقوله الكلمات التالية:

«امض، امض، الآن سوف أعرف أنه عندما يدخل الراعي والذئب في معاهدة سلام، سوف تقع مذبحه دموية بين الأغنام».

دفن إدموند رئيس أساقفة كانتربري

وبهذه الطريقة، غادر بناء عليه، في السادس عشر من تشرين الثاني، في ثمانية القديس مارتن، إدموند، رئيس أساقفة كانتربري، من هذا العالم، وهو معترف، ومشابه بكثير من النقاط ذلك القديس والمُعترف، وحدثت وفاته في بيت للكهنة النظاميين في سويسري، وأثناء إقامته هناك، خلال حياته، اعتقد الكهنة مرة بأنه مغادرهم وذاهب من عندهم، وبناء على ذلك قال له رئيس ذلك المكان: «لماذا أنت مغادرننا، ومبتعد عنها، يامولاي؟ لماذا سوف تهجرنا، إنك سوف تتضايق أثناء السفر، استرح بسلام معنا»، وعلى هذا ردّ رئيس الأساقفة قائلاً: «إن قلبي سوف يبقى معكم»، غير أنهم لم يفهموا كلامه، فهو على كل حال وقع مريضاً، ومات هناك، وبعد موته جرى فتح جسده، وتم دفن أحشائه وقلبه هناك، وكان ذلك المكان على بعد عشرين فرسخاً، أي أن تقول سفر يومين عن بوننتي، وهكذا انفتحت أعينهم أخيراً، وفهموا معاني الكلمات التي تفوه بها رئيس الأساقفة.

وعند ذلك قام كهنته وخدمه، بلف جسده المقدس (كما كانت العادة في ثيابه الحبرية، وحملوه إلى بوننتي، على محفة خشبية، ليدفن هناك، لأنه في أثناء حياته، عندما رأى أنه لابد مغادر لهذا العالم بالحال، عهد بقضيته إلى الرب وإلى القديس توماس (الذي عندما نفي من انكلترا للسبب نفسه، مثله هو، وجد ملجأ هناك) ومنح جسده إلى كنيسة بوننتي.

وعندما كانوا مسافرين، حاملين لجسده المقدس، من أجل دفنه، تدفق

المرضى عليه بسبب شهرة قداسته، وبثقة سألوه راجين أن يعودوا إلى الصحة بوساطة المسيح، ومن خلال صلواته، وفي أحد الأيام، وبسبب فضائله الكبرى، تنازل الرب ثلاث مرات فأشار بوضوح إلى هذا الرجل المقدس، وبسبب فضائله الكبرى، ومع معجزات كبيرة، وعنوان القداسة، من أجل ذلك جرى غناء ترنيمة الملائكة: «نحن نشني عليك، يارب» ثلاث مرات بشكل مهيب وتقوي.

وبناء عليه، فإن بوننتي، التي كانت في وقت مضى مكان التجاء ومأوى لتوماس المبارك، تسلمت باستحقاق جسد المعترف، الذي عندما جرى دفنه، اكتشف أن الدود قد أكله، وتلاشى بوساطة المسوح، وأن ركبته، بسبب الانحناء المتواصل في الصلاة، قد ظهرت عليها علامة وتجملتا بصلابة مقدسة، وهذا كله قد تحدث عنه بشكل مكشوف القديس توماس المذكور.

انطلاق أساقفة إنكلترا نحو روما

أثناء هذه التبدلات المتنوعة للأحداث، تراجع الامبراطور عن مراعاة الهدنة المتفق عليها من قبل، وذلك مثلما كان البابا قد فعل من قبل، ثم إنه قام بوحشية بالتضييق على المدينة التي كان يحاصرها، وقام الأساقفة الانكليز — على كل حال — والنائب البابوي، في طاعة منهم لأوامر البابا، بالاستعداد بجرأة، مع أن ذلك شكل مخاطرة كبيرة لأنفسهم، لعبور الألب أثناء عيد الميلاد المقبل.

تكريس بطرس دي ايغوبلانشي أسقفًا على هارتفورد

في هذه الآونة، وفي يوم الأحد التالي قبل عيد الميلاد جرى تكريس المعلم بطرس دي ايغوبلانشي Aigueblanche أسقفًا على هارتفورد، وكان ذلك في كنيسة القديس بولص في لندن، وذلك بحضور الملك، والنبل، ووسط هتافات الجماهير، وفي الوقت نفسه

حرك رهبان كانتبري بنشاط دعواهم ومطلبهم بممارسة امتياز كنيستهم، وعرضوا ذلك على النائب البابوي وعلى رئيس أساقفة يورك، وكذلك على الأساقفة الآخرين، والنبلاء الذين كانوا حاضرين.

جلب تاج الشوك العائد للرب إلى فرنسا

ازدهرت فرنسا في هذا العام، وفرحت، بنيلها المنح من مولانا يسوع المسيح، لأنها إلى جانب المكافأة التي نالتها مع جسد ادموند المعترف، الذي نقل نفسه من انكلترا، لقد فرحت بالحصول على تاج ربنا المصنوع من شوك، وجاء الحصول عليه من القسطنطينية، لأنه في أيام الحاجة، وعندما كانت الأموال غير كافية (وهو الحال المعتاد بشكل عام مع الذين يتابعون الحرب)، بعث بلدوين، امبراطور القسطنطينية رسالة إلى الملك الفرنسي يقول فيها، بما أنه لا مال لديه، إذا ما أعطاه الملك الفرنسي مساعدة مالية فعالة، سوف هو يعطيه — أي الامبراطور — التاج الحقيقي لربنا، الذي نسجه اليهود ووضعه على رأسه عندما كان سيتألم على الصليب من أجل تخلص الجنس البشري، وأنه سوف يفعل ذلك تقديراً منه لروابط الصداقة القديمة بينهما، ولقربتهما.

وقام الملك الفرنسي بناء على نصيحة مستشاريه الطبيعيين، فوافق عن طواعية على هذا، وبالوفاق مع أمه، بعث بكرم بمبلغ كبير من المال إلى الامبراطور بلدوين، الذي لحق الإنهاك أمواله بسبب الحروب المستمرة، وهكذا أعاد تجهيز خزينته، فشجع ذلك أعوانه، وجيشه وشعر بلدوين بالثقة والأمل بالحصول على نصر على الإغريق، ومقابل هذا تم الحصول على منفعة كبيرة من الملك، وقام الامبراطور، تنفيذاً لوعوده ولاتفاقاته، فأرسل بوفاء إليه تاج المسيح، الذي هو أعلى قيمة من الذهب ومن الأحجار الكريمة، وبناء عليه جرى استقباله بمهابة وتقوى، وذلك لصالح المملكة الفرنسية، وفي الحقيقة لصالح جميع اللاتين، واحتفي به بمسيرة وسط قرع الأجراس، والصلوات المخلصة

للمؤمنين أتباع المسيح، ووضع باحترام لائق في بيعة الملك في باريس.

الاجتياح التتاري

في هذا العام، حتى لا يستمر السرور البشري طويلاً، وكي لا يطول أمد شعور العالم بالبهجة، من دون أن تمتزج بالنحيب، قام قطع هائل من عرق أبناء الشيطان المقيت، أي التتار، فتدفق أفرادهم من مناطقهم ذات الحدود الجبلية، وشقوا طريقهم بين الصخور التي بدت وكأنها لا يمكن خرقها، واندفعوا وكأنهم شياطين قد تحرروا من ترتاروس Tartarus (ولهذا السبب يعرفون باسم تتار، لأنهم كانوا سكان ترتاروس) واجتاحوا المنطقة، حيث غطوا وجه الأرض مثل الجراد، وعاثوا في البلدان الشرقية ودمروها تدميراً مريعاً، ونشروا النار والقتل حيثما ذهبوا، وجالوا خلال البلدان الإسلامية، حيث اجتثوا المدن إلى الأرض، وأحرقوا الغابات، وهدموا القلاع، وقطعوا أشجار العنب، ودمروا الحدائق، وذبحوا السكان والفلاحين، وكانوا إذا ما أبقوا بعض الناس أحياء، ممن رجوهم الحفاظ على حياتهم، أرغموهم، كعبيد من أدنى الدرجات، على القتال أمامهم ضد أقربائهم، وإذا ما تظاهروا فقط بالقتال تظاهراً، أو قاموا ربما بإنذار أبناء وطنهم حتى يفروا، كان التتار الذين يسيرون خلفهم في الساقة يتولون قتلهم، وإذا ما قاتلوا بشجاعة، فإنهم ما كانوا يحصلون على شكر عن طريق التعويض، وهكذا أساء هؤلاء المتوحشون معاملة أسراهم، وكأنهم كانوا من الدواب، والرجال لديهم ليسوا من البشر، ولهم طبائع الحيوانات، أو بالحري تتوجب تسميتهم بالتينينات وليس البشر، متعطشين وراء شرب الدماء، وتمزيق أجساد الكلاب وبني البشر والتهامها، وهم يلبسون أنفسهم جلود الثيران، ويتسلحون برماح حديدية، وهم قصار القامة، وأجسادهم شديدة الكثافة، وقوية جداً، لا يشاهدون في المعركة، ولا يمكن هزيمتهم في العمل، وهم لا يرتدون دروعاً على الأجزاء الخلفية من أجسادهم، بل

يدافعون عنها ويحمونها من الأمام، وهم يشربون الدماء التي تتدفق من القطعان، ويرونها شهية ولذيذة، ولديهم خيول عريضة وقوية جداً، تأكل أوراق الأشجار، لابل الأشجار نفسها، وبسبب قصر قوائمهم، من الممكن الاعتلاء على ظهورهم ثلاث خطوات، بدلاً من الركابات، وليس لديهم شرائع بشرية، ولا يعرفون الرحمة، وأكثر وحشية وشراسة من الأسود أو الدببة، ولديهم قوارب مصنوعة من جلود الثيران، ولكل عشرة أو اثني عشر رجلاً منهم واحد يتشاركونه فيما بينهم، وهم بارعون بالتجذيف وبالسباحة، ولذلك تراهم قادرين على عبور أسرع الأنهار، من دون أي تأخير أو اضطراب، وعندما لا تكون لديهم دماء، هم يشربون بنهم المياه العكرة لابل حتى المياه الموحلة.

ولديهم سيوف وخناجر بحد واحد، وهم رماة ماهرون، لا يعرفون جنساً، ولا عمراً، ولا رتبة، ولا يعرفون لغة أية بلد من البلدان، باستثناء لغتهم، التي يجهلها جميع الناس والشعوب، لأنه حتى الآن لم يجرب أحد الوصول إليهم، أو هم أنفسهم قاموا بالاتصال بسواهم، بحيث يمكن الحصول على أية معرفة بعاداتهم أو أشخاصهم، من خلال التواصل العام مع الناس الآخرين، وهم يأخذون قطعانهم معهم، وكذلك يفعلون بالنسبة لزوجاتهم المدربات على القتال، مثل تدريب الرجال، وهم يدخلون إلى أراضي المسيحيين بقوة سريعة كالبرق، فيعيشون فساداً في البلاد، ويقترفون مذابح كبيرة، ويحدثون رعباً لانظير له، وخوفاً في كل انسان.

ولهذا رغب المسلمون، والتمسوا السماح لهم بالدخول بتحالف مع المسيحيين، في سبيل زيادة قوتهم، حتى يتمكنوا من مقاومة هذه الوحوش البشرية، ويعتقد المسلمون هؤلاء ذوي الذكرى المقيتة، أنهم من الأسباط العشرة التي تخلت عن شريعة موسى، واتبعوا عبادة العجول الذهبية، وأن الاسكندر حاول أن يحبسهم خلف شعاب جبال

قزوين، بوساطة أسوار بنيت بملاط من القار، ولكن بما أن هذا العمل فوق طاقة البشر، ومن غير الممكن انجازه، طلب العون من رب بني اسرائيل، وبناء على ذلك اتحدت شعاب الجبال أحدها مع الآخر، وصار المكان لا يمكن الوصول إليه، كما لا يمكن عبوره، وحول هذا المكان يقول يوسفوس: «كم من الممكن أن يفعل الرب لعبيده المخلصين، عندما فعل هذا كله للكفار، ومن هذا واضح بأن الرب لم يكن راغباً بخروجهم، ولكن كما هو مكتوب في التاريخ اللاهوتي، هم سوف يخرجون في نهاية الدنيا، وسوف يقتربون مذبحه كبيرة بين البشر»، وأنه لأمر مشكوك فيه، فيما إذا كان هؤلاء التتار، الذين ظهروا في هذه الآونة، هم الناس المقصودين بالذكر، لأنهم لا يتكلمون اللغة العبرية، كما أنهم لا يعرفون شريعة موسى، كما أنهم لا يتمتعون، ولا يدارون أو يحكمون، من قبل مؤسسات قانونية، ويردون على هذا، إنهم مع ذلك، من الممكن أنهم هم أنفسهم بعضاً من الذين حبسوا في الجبال، والذين تقدمت الإشارة إليهم من قبل، وبما أنه كان هناك في أيام حكومة موسى عصاة في قلوبهم، ضلوا فاتبعوا طريق الشيطان في التفكير، وبذلك اتبعوا الأرباب الأجانب، والعادات غير المعروفة، ومثل هذا هم اليوم، وبطريقة أكثر إدهاشاً، وبسبب انتقام الرب، كانوا غير معروفين لدى جميع الأمم الأخرى، وكانت قلوبهم ولغاتهم قد تمازجت، وعاداتهم قد تغيرت إلى الطبائع الوحشية والتصرفات الحيوانية غير العقلانية، وهم الآن يعرفون باسم التتار، ونالوا هذا الاسم من نهر اسمة تتار، يجري خلال جبالهم، فمن خلاله اتخذوا طريقهم، وذلك مثلما يطلق على نهر دمشق اسم فرفر.

آلام الأسرى الصليبيين في الأرض المقدسة

وطوال هذه المدة كلها، كان النبلاء الفرنسيون الذين أسرهم سلطاني: دمشق ومصر، محبوسين في سجن ضيق، وفي أحد الأيام أمر سلطان

مصر ببعض الأسرى من النبلاء الفرنسيين بجلبهم إلى أمامه، وكان من بينهم الكونت أليريك Almeric دي مونت فورت، حيث أمر به للمثول بحضرته، لأن السلطان قد عرف بأنه كان من أكثر النبلاء مكانة بين أسراه، وكان جاهلاً بمراتب جميع الآخرين، ووقتها خاطب السلطان الكونت قائلاً:

«هل هناك أي نبيل آخر من الجنس الفرنسي، أسيراً غيرك؟» وعلى هذا ردّ الايرل بأنه لا يوجد، فهو كان يؤثر بقاء السلطان جاهلاً بدلاً من أن يعرف هذا، لأن إطلاق سراحه سوف يكون وقتها الحصول عليه أيسر بكثير، وبناء عليه عمل السلطان بحثاً أكثر يقظة، فاكشف رتشارد عمدة بومونت، وبعض النبلاء الفرنسيين الآخرين من ذوي المراتب، وعلم بوجودهم بين أسراه، ولذلك بات غاضباً جداً من الكونت لأنه كذب عليه، مع أنها كانت كذبة تقية، تلك التي أخبره بها، وأمر به فوضع في سجن مضيق عليه في قلعة إسمها المرقب، ومقت الأمراء المسلمون خداع وزيف الفرنسي، وسلطان دمشق الذي كان في حالة حرب ضد أمير مسلم آخر، كان من أقربائه، واسمه أيوب، والذي ضده طلب مساعدتنا، ودخل في معاهدة معنا، بات الآن على الرغم من شروط المعاهدة التي دخل بها مع الصليبيين — كما ذكرنا من قبل — مرتبط بصنع سلام بشكل سري مع الأمير المذكور، وذلك بسبب أنه لم تكن لديه ثقة بكلام أو بمواثيق الصليبيين، ولهذا لحق الخزي بالصليبيين، وتلاشت آمالهم.

ملك أراغون وكونت بريتاني يعقدان سلاماً مع حاكم الناصرة

وعندما غدت هذه الأشياء معلومة، وفي حوالي نهاية السنة، انحدر الشعور الفطري بالنبال في عقول الفرنسيين وتدهور، لأن ملك أراغون، وكونت بريتاني، وبعض الآخرين من النبلاء الفرنسيين في الأرض المقدسة، كانوا غاضبين من ازدياد شهرة الايرل رتشارد، في

حين كانوا هم أنفسهم، بالفعل، جيشاً محطماً، وبقايا حشد قد أصابه التمزق، وقد أثيروا بلدغات الحسد، وقد كرهوا شباب الإيرل مثلما كرهوا أصله الانكليزي، وانعدام خبرته، وكفاءته، ولذلك مضوا بشكل سري إلى الزعماء المسلمين، من دون معرفة الجيش بشكل عام، ولدى تسلمهم مبلغاً كبيراً من المال منهم، منحوهم هدنة لمدة عشر سنوات، ثم إنهم حزموا سرّاً أمتعتهم، وقاموا وأثقالهم مليئة بالذهب، فمضوا إلى ميناء يافا، وهكذا غادروا الأرض المقدسة بشكل غير مشرف.

موت جون فتز روبرت

ومات في هذا العام جون فتز روبرت، وكان رجلاً من أصل نبيل، وواحداً من البارونات الرئيسيين في المقاطعات الشمالية لانكلترا.

سقوط بناء جديد

وحدث في العام نفسه، في ليلة عيد القديس جورج أن انهار بناء عمل من الحجر، مع بوابة رشيقة، وسقط إلى الأرض، وذلك مع الأعمال الخارجية والناثئة، وكأنه تعرض لهزة أرضية، وكان هذا البناء قد شيده الملك مقابل نفقات وجهد كبير، ولدى سماع الملك بهذه الواقعة، أمر بإعادة البناء المنهار، وأن تكون عمارته أكثر أماناً.

الوقائع المتنوعة للعام كله

وكانت مجريات أحداث هذا العام، غير موائمة لمملكة انكلترا، ومعاكسة للكنيسة المقدسة، وكانت مؤذية للبلاد الشرقية وكذلك للبلدان الغربية، وكان الفصل لمدة ثلاثة أشهر متوالية، هي شهر آذار مع الشهرين اللذين تلياه، جاف ممطر، وكذلك في بقية الأشهر، ومع ذلك أنتج كميات وافرة من القمح والفواكه، لكن الخريف الممطر إلى حد كبير خنق المحاصيل الوافرة، وكان هناك فياضانات في المناطق الايطالية

تسببت من الأمطار، التي انصبت مياهاها وتدفقت من الجبال إلى السهول، وكان ذلك في نهاية هذا العام، ونادراً ما تركت جسراً واحداً سليماً.

معركة مدهشة بين الأسماك في البحر

ومع أنه وقعت حوادث مدهشة لم يسمع بمثلهما في هذا العام، رأينا من المفيد والمناسب أن نذكر في هذا الكتاب حادثة أكثر عجباً من البقية، وبما أنه من طبيعة البحر أن يلفظ على اليابسة الأجساد الميتة الملقاة به، فقد جرى قذف حوالي أحد عشر حوتاً إلى جانب مخلوقات بحرية مخيفة على شاطئ البحر في انكلترا، وهم أموات، وكأنهم قد جرحوا في بعض أنواع الصراع، لكن ليس — على كل حال — بهجمات من الانسان أو ببراعة منه، وأعلن البحارة، والناس الشيوخ، الذين كانوا يسكنون قرب الساحل، والذين كانوا قد شاهدوا عجائب الأعماق عندما كانوا يتابعون أعمالهم في المياه الواسعة، ويرتحلون إلى البلدان النائية، أعلنوا أنه كانت هناك معركة غير اعتيادية بين الأسماك، والوحوش والثنيات في الأعماق، وقد تسببت جراحات بعضها بعضاً، وعض بعضها بعضاً بموت العديد منها، والذين قتلوا منها قد رموا على الشاطئ، وقامت إحدى الأسماك، وكان لها حجم كبير مربع، فشقت طريقها إلى نهر التيمز، وتمكنت بصعوبة، ودون أن تصاب بجراح من المرور بين أعمدة النهر، وقد تابعت سيرها حتى عزبة للملك اسمها مورتليك Mortlake، حيث لحق بها عدد من البحارة، وأخيراً تمكنوا من قتلها بعد كثير من المتاعب، وذلك بوساطة ضربات لاثصى من الرماح، وعلى هذه الواقعة عقب واحد من الشعراء مازحاً:

إلى جنازتها قدمت سمكة عملاقة

قد أرسلت من نبتون لعمل صحن فاخر

النائب البابوي يسعى إلى استخراج المال من الرهبان السسترشيان

وفي هذا العام أيضاً، قام النائب البابوي، في سبيل استخراج المزيد من المال، ولاشباع نهمه، فطالب بوقاحة بوكالات من رهبان طائفة السسترشيان، وقاومه هؤلاء بتصميم ورفضوا هذا الطلب، معتمدين على امتيازاتهم، وذهبوا إلى بلاط روما للحصول على مرسوم ضد هذا الاستخراج الشرير، وجلبوا معهم رسائل إلى النائب البابوي، كان محتواها هو التالي:

رسالة البابا

«من غريغوري، أسقف، إلخ، إلى النائب البابوي أوتو، إلخ:

لو أنك تذكرت بشكل صحيح، لقد أرسلنا مؤخراً رسائل بتكليفك باستخراج وكالات من رهبان طائفة السسترشيان إذا كان الغفران الممنوح إلى تلك الطائفة، لا يعترض على ذلك، ثم إنه ليس في نيتنا —وكما نعتقد ليس في نيتك أيضاً— استخراج وكالات مالية منهم، غير متوافقة أو متعارضة مع غفرانهم، وإننا بناء عليه نأمر بالاكفاء بالطعام العادي، من دون أكل سمك، عندما تذهب إليهم —وذلك حسبما تحتويه الغفرانات المتقدمة الذكر— وأن لا تسمح باستخراج وكالات مالية منهم، اعتماداً على سلطات هذه الرسائل».

القديسة اليزابث والقديسة هيلدغاري

تصبحان مشهورتين في ألمانيا

وفي هذه الآونة أصبحت القديسة اليزابث Elizabeth مشهورة ومتميزة في ألمانيا بوساطة عدد كبير من المعجزات، وتدفقت حشود من

الحجاج المسيحيين، من أمم بعيدة وأجنبية، على قبرها، لنيل الاحسان، وكانت هذه القديسة أثناء حياتها، زوجة لواحد من النبلاء، يدعى لاندغريف، ولدى موته كانت ثرية جداً، ذلك أنها كانت منحدره من أسرة نبيلة، حيث أنها كانت ابنة ملك وملكة هنغاريا، لذلك تخلت عن أبهة، وترف، ومباهج العالم، ولهذا أصيب الأساقفة ورجال الدين بالدهشة والاعجاب، تجاه القداسة الكاملة في امرأة.

أما بالنسبة للقديسة هيلدغاري Hildegardis، فقد كانت أولاً ناسكة، ثم بعد ذلك راعية دير، وكانت سيدة ذات قداسة مذهشة، فيها، في أثناء حياتها، وخلال نوم استمر لمدة أربعة أيام متواصلة، غرس الرب روح التنبؤ، ومعرفة كاملة بالحروف، أثناء حبرية البابا الاسكندر، وقد أصبحت الآن مشهورة جداً، وحيث أنها تنبأت بشكل مكشوف، وأخبرت بشكل مسبق بظهور بعض الرهبان الجدد، وبأحوالهم، ومواعظهم وبتقدمهم المفاجيء وغير المتوقع وبسبب صدق نبوءاتها، حيث يشهد على ذلك الوقت الحالي، غدت أقوالها مشهورة جداً في جميع أرجاء مختلف بلدان العالم، وقد تبرهن أنها كلمات نبيلة جداً.

حمل الامبراطورة

وفي هذه الآونة بدأ الامبراطور يشعر بتقدير خاص تجاه الانكليز، رفعهم به فوق الشعوب الأخرى، وذلك من أجل الامبراطورة ايزابيلا، أخت ملك انكلترا، التي لجأها المتفوق ولأخلاقها نالت الخطوة لدى الجميع، علاوة على ذلك كانت الآن حاملاً، ومجدداً أعطت آمالاً جيدة إلى قرينها الأغسطس، بزيادة أخرى في أسرته، لكن في ظل طالع غير سعيد، سارت الأحداث متحولة باتجاه معاكس لم يكن متوقعاً، حسبما سنحكي ذلك بالتفاصيل.

عام واحد وأربعين ومائتين وألف

كيف وضع الملك النائب البابوي في المقعد الملكي

عام واحد وأربعين ومائتين وألف لتجسيد الرب، الذي كان العام الخامس والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، وفيه عقد الملك المذكور بلاطه في عيد الميلاد، في ويستمنستر، في لندن، حيث احتفل عدد كبير من النبلاء بعيد ميلاد الرب معه، وقام الملك في يوم عيد الميلاد، بناء على مبادرة من النائب البابوي، الذي اعتاد الملك على بذل قصارى جهده لإرضائه، فأضفى مرتبة الفروسية، على حفيد النائب البابوي المذكور، الذي كان اسمه أدفوكيت Advocate، وأعطاه على الفور دخلاً مقداره ثلاثين باونداً، حيث تولى هذا الفارس المعين حديثاً بيعه، لأنه كان يعلم أن عليه مغادرة المملكة فوراً مع سيده، وفي اليوم نفسه شرف الملك واحداً من أهالي بروفانس بحزام فارس، وأغناه بمورد كبير.

وبعد الفراغ من القداس في الكنيسة، وعندما كان الملك على وشك تناول طعام الافطار في قصر ويستمنستر الكبير، قام دون المبالة بنظرات الشجب لكثير من الحضور، بإجلاس النائب البابوي، الذي دعاه لتناول طعام الافطار معه، في أعلى المقاعد وراء المائدة أي على مقعده الملكي، الخاص به، الذي كان في الوسط وراء المائدة، واتخذ لنفسه مقعداً على يمين النائب البابوي، في حين جلس رئيس أساقفة يورك على يساره، وأخذ كل واحد من الأساقفة والنبلاء الآخرين مقاعدهم بانتظام، وفقاً لمراتبهم وحسب سلطاتهم، وذلك بناء على رغبة الملك الذي تولى هكذا ترتيب نظام العيد.

وفي اليوم الرابع بعد عيد الميلاد، قام النائب البابوي، المستدعى من قبل البابا للتوجه إلى البلاط الروماني، من دون تقاعس، فأرسل وراء

جميع الأساقفة الانكليز، وقال لهم وداعاً، وبعد ذلك شرع برحلته لعبور الألب، وجرى تشييعه حتى ساحل البحر من قبل الملك، وسط أهبة عظيمة، وذلك مع أصوات الأبواق، وقد رافقه حشد كبير من النبلاء، وعندما كانوا مرغمين على الافتراق، افترق الملك والنائب البابوي بتعابير عن الحزن المتبادل، لانفصالهما هكذا، مع أن النائب البابوي المذكور كان الآن قد مدّد إقامته في انكلترا لمدة ثلاثة أعوام، ليلحق ضرراً بالكنيسة لا يمكن ترميمه.

سفر النائب البابوي أوتو من إنكلترا

في اليوم الذي جاء عقب عيد الغطاس، بعدما تلقى النائب البابوي العناق والقبلة من الملك، أخذ سفينة من دوفر، وبعدما خلع شارات نيابته البابوية أدار ظهره لإنكلترا، ولم يترك أحداً حزيناً عليه سوى الملك، والذين كان قد أمنهم على ممتلكات المملكة، ولم يكن قد بقي في انكلترا في ذلك الحين — حسبما أفيد بشكل صحيح — كثيراً من المال، وذلك باستثناء أواني وتزيينات الكنيسة المقدسة، لأن النائب البابوي المذكور، كان قد استصفى أموال المملكة كلها، وهو فضلاً عن ذلك كان قد منح بناء على إرادته الشخصية، أو بناء على إرادة البابا، أوقافاً، وكنائس، وأكثر من ثلاثمائة مورد غني، ونتيجة لذلك صارت المملكة مثل كرم عنب، عرضة لكل عابر، وهو الذي شعثته الخنازير البرية للغابات، وتركته في حالة مزرية من الدمار.

وقد ترك كنيسة كانتربري، التي كانت أكثر الكنائس الانكليزية فخامة في حالة من الاضطراب، وآلام الترميل، ومثلها في ذلك كان مثل الكاتدرائيات الأخرى، والكنائس الديرية مجردة من كل راحة ومواساة، وهو لم يمتن أي جزء من الأجزاء الضعيفة للبلاد، كما هو مبرهن على ذلك بشواهد واضحة، لأنه كان قد أرسل ليس لحماية الشياخ التي تشردت، بل لجمع محاصيل المال التي وجدها، وبناء عليه، بما أنه كان

مجرداً من الفضائل، وبوساطة الخطط الحسنة الإعداد من قبل الامبراطور، استحق التجزيد من جميع منهوباته، وبعدما كان هو الناهب، صار هو المنهوب، وذلك وفقاً لكلمات النبي الذي قال: «ويل لك أيها السالب، أتظن أنك لن تكون المسلوب؟»، وتحتاج هذه الوقائع لأن تروى أخبارها بشكل أوفى، فيما بعد، في الأماكن المناسبة.

قدوم بطرس أوف سافوي إلى إنكلترا

وفي هذه الآونة، قدم إلى إنكلترا بطرس أوف سافوي، الذي كان عم الملكة، والذي كان الملك قد منحه إيرلية رتشموند، لأنه تصور أنها بلاد أكثر نفعاً له، وخرج الملك إلى استقباله لدى وصوله، وتلقاه بسرور لا يمكن وصفه، وعهد بنفسه وبممتلكاته لأرائه، وكذلك وسع أراضيه عدة مرات بوساطة العطايا.

عواصف ريح متواصلة

وفي هذه الآونة نفسها، ولاسيما في يوم ختان الرب، ولعدة أيام متواصلة، سبب ريح من الشمال، عنيف إلى أبعد الحدود، تهديماً لا يمكن ترميمه، في كل من البر والبحر، جالباً دماراً للأبنية وللقلع، ومهدداً بمخاطر كبيرة جداً، للذين كانوا مبشرين فوق البحر، وعلى هذا بدت الأحوال المضطربة للأتواء متوائمة تماماً مع أحوال الجنس البشري.

تنصيب بطرس سافوي فارساً

في يوم عيد القديس ادوارد، الذي تولى فيه الملك ممارسة مراعاته بتبجيل غير اعتيادي وبتشريف، وفي سبيل أن يعطي لليوم المزيد من السمات الدينية، أضفى مرتبة الفروسية على بطرس سافوي المتقدم ذكره، وعلى خمسة عشر شاباً لامعاً آخر، وكان ذلك في كنيسة القديس بطرس في ويستمنستر، وفي اليوم التالي، الذي كان يوم عيد الغطاس، وتشريفاً لبطرس المذكور، احتفل مع عدد كبير من الضيوف، بتنصيبه،

بوليمة غنية ومكلفة، وجرى أيضاً استدعاء بعض سكان لندن، بموجب مذكرة ملكية قضت بحضورهم، وكان من بين الذين وجهت إليهم الدعوة، عمداء المدينة، فهؤلاء قد أرغموا على الحضور، تحت طائلة التغريم بمائة شلنغ، وأن يأتوا إلى هناك وهم يرتدون ثياب العيد، أو كأنهم سيحتفلون بعرس.

انتخاب نيقولا أوف فارنهام إلى كرسي درم

وقام في هذه الآونة، رهبان درم، بعد كثير من الاضطراب، واتفاق كبير للمال، وبعد استقالة رئيس رهبان درم، الذي سلف أن انتخب من قبلهم، والذي بموجب ذلك ألغي انتخابه، قاموا بدعوة الروح القدس، وانتخبوا بالاجماع المعلم نيقولا دي فارنهام Farnham، وكان رجلاً صاحب أخلاق رفيعة ومعارف، واتخذوه أسقفاً لهم، وراعياً لأرواحهم، وكان معلماً للأدب في باريس لعدة سنوات، ومارس بعد ذلك فن الطبابة في بولونا Bologna، حيث غدا مشهوراً جداً، وحصل على مكانة كبيرة لبراعته، وبعدها أصبح معلماً كاملاً في المنطق، وطبيعياً، وعالمياً طبيعياً، حوّل اهتمامه إلى الطبابة الروحية، أي إلى اللاهوت، وبذلك أسس نفسه في ذلك العلم بالتعلم وبقراءة الكتب، وبهذا تأهل للجلوس في كرسي الأستاذية الرهبانية.

وعندما صار هكذا خبيراً، وبعدها ميّز نفسه بشكل كبير بمعارفه، وبطريقته المحمودة في الحياة، قام الملك والملكة، بناء على نصيحة بعض الناس المتعلمين، وبشكل خاص بناء على مبادرة من النائب البابوي أوتو، وأسقف كارآيل، وبعض الآخرين من مستشاري الملك السريين، بتوجيه الدعوة إليه، ليتولى المسؤولية عن أرواحهم وأجسادهم، وليكون مستشاراً مقرباً، حيث تصرف بذاته في ذلك المنصب بشكل جيد وبحكمة، حتى جرى انتخابه إلى ذلك المنصب الكهنوتي، غير أنه — على كل حال — لم يوافق على ذلك الانتخاب، لأن الأمر بدا له غير مشرف،

في أن يوافق على الانتخاب، بما أنه كان قبل وقت قصير مضى، عندما جرى انتخابه لأسقفية كوفنتري، قد احتج ضد ذلك الانتخاب، ورفض الموافقة عليه، ولا بأي حال من الأحوال، وفي سبيل اسكات الأفواه المتكلمة بالسرور، التي كان من الممكن أن تقول: «انظروا، أي نفاق هذا، لقد رفض الأسقفية الفقيرة، لأنه توقع أسقفية أغنى»، في سبيل ذلك قاوم العرض بأقصى جهوده، حتى أخيراً تولى ر. R أسقف لنكولن توجيه الملامة إليه بقسوة، لتصرفه على هذه الشاكلة، وتمكن بفاعلية من اقناعه بالموافقة بوساطة الحجج التالية: «اعرف، بأن رهبان درم وكنيستهم قد حرموا من الراعي، وقاموا بدموع منهمرة، بالتماس المواساة، فلماذا — بناء عليه — لاتوافق طالما جرى انتخابك بشكل قانوني؟ وإنني أستحلفك بسفك دم يسوع المسيح، بأن تقوم بحمل هذا العبء، وأن تتقبل شرف هذا المنصب، لأن الملك سوف لن يوافق على انتخابك ولا بأي شكل من الأشكال، ما لم يكن مجنوناً تماماً، وإذا لم توافق على الانتخاب سوف يتولى الملك بدسائسه تنصيب رجل أجنبي، وغير جدير، وجاهل أيضاً، في هذا الكرسي في سبيل القضاء على الكرامة اللاهوتية، وتعريض المملكة كلها للخطر، لأن أسقفية درم قائمة على التخوم بين مملكتي انكلترا وسكوتلندا، والقلاع القائمة في أسقفية درم، أي قلعتي نورهام Norham ودرم، موجودتان في ذلك الجزء من انكلترا، وهما الأساس المعتمد عليه ضد هجمات جميع أعدائنا»، وبعدما سمع المعلم نيقولا هذا، قال متنهداً: «إنني أحب فضيلة الطاعة، وفي أسقفيتك أنا مستحوذ على منفعي، التي حصلت عليها من خلال إحسانك، ولذلك إنني أطيع أوامرك الأبوية»، وإثر ذلك قام رهبان درم وهم مسرورين بتقديمه إلى الملك على أنه أسقفهم المنتخب، وقد قبل بانتخابهم بسرور، لأنه لم يجد أية غلطة منطقية لافي الشخص المنتخب، ولا في الانتخاب، واستقبل الأسقف المنتخب من دون تأخير، وعلى الفور، تثبت فيما بعد كرسيه.

تغريم اليهود بمبلغ من المال

وفي العام نفسه، أرغم اليهود على دفع مبلغ ثقيل، بمثابة مال فداء، وكان المبلغ حوالي عشرين ألف مارك، يجري دفعه على مرحلتين خلال العام، تحت طائلة النفي، أو السجن المؤبد.

استعدادات من أجل مبارزات

عقد في هذا العام بطرس أوف سافوي، إيرل رتشموند مباريات مبارزات aloutrance ضد إيرل بيغود، في سبيل أن يتمكن الأجانب من تجريب قوتهم مع الانكليز، لرؤية أيهم هو المتفوق في مباريات المبارزات، وعندما سمع الملك بهذا، بدأ بوساطة الرشاوى والتهديدات في افساد قلوب كثير من الأكثر نبالة وقوة بين الانكليز، والتأثير عليهم، وذلك من الفئة التي تؤيد إيرل بيغود، وذلك من أجل أن يتمكن فريق الأجانب من الانتصار، وكان بين هؤلاء المقدمين جون بيست Bisett المسؤول الأعلى عن الغابات في انكلترا، وعدد كبير من مشاركيه، وغيلبرت باسيت، وكان فارساً هو الأكثر شجاعة، مع أتباعه، وعدد كبير آخر، تعدادهم كبير جداً حتى يمكن ذكرهم، وكانت النتيجة، أنه بسبب دسائس الملك، عندما اقترب موعد عقد المبارزات، وعلى الرغم من ذلك قام غ. G إيرل مارشال وفئة قوية من النبلاء بتوحيد أنفسهم مع بعضهم بعضاً، ومع ذلك ظهر حزب الأجانب هو الأقوى والأكثر عدداً، وتجاه ذلك شعر الانكليز بغضب شديد، وحملوا حقداً عظيماً ضد الذين اقترفوا هذه الدناءات، ومقتوا وسائل دسائس أبناء وطنهم، ثم إن الملك أصغى إلى مشورة حكيمة، وندم لأنه رغب في أن ينتصر الأجانب في مباراة مادية بدلاً من انتصار رعيته، فبعث رسولاً، هو الراهب جون، وكان داوياً، ووكيل الصدقات، وأمره أن يمضي بكل سرعة إلى الفريقين، مع مذكرة ملكية بمنع المبارزات ذات الطالع السيء، والتي كانت على وشك الابتداء.

وفاة غيلبرت باسيت وابنه

وفي خريف العام نفسه، عندما كان غيلبرت باسيت، يصطاد في الغابة سقط فوق جذع شجرة كانت ملقاة في طريقه، فتكسرت عظامه، وأصيبت أعصابه بصدمة، فتسبب ذلك بموته بعد عدة أيام، وإثر ذلك على الفور فارق أيضاً الابن الوحيد والوريث لغيلبرت المذكور، هذه الحياة، في ثمانية عيد صعود القديسة مريم، مما سبب الحزن والأسى لأسرته كلها، وانتقل الميراث إثر ذلك إلى فولك باسيت، عميد يورك، وأخي غيلبرت المذكور.

وفاة جون بيست

وفي تلك الآونة أيضاً، أي في ثمانية صعود العذراء المباركة، فارق هذه الحياة جون بيست Bisett الذي كان المسؤول الأعلى عن الغابات في إنكلترا.

انطلاق بعض نبلاء إنكلترا نحو القدس

ولما كان الموسم وقتاً موثماً، قام وليم دي فورتيبص Fortibus، وكان إيرل ألبمارل Albemarle وفارساً جريئاً، وبطرس دي مولاك Maulac، وكان بواتياً من حيث المولد، ولقد تعلم لمدة طويلة واستغنى تحت حماية الملك جون، وايفيلين دي روتشفورت Rochfort، وكان بواتياً أيضاً، وجون أنسارد Ansard، و الاسكندر هلتون Hilton، وغيوفري تشاندلر Chandelers، وعدد كبير آخر من نبلاء إنكلترا، كلهم قاموا بتوديع أصدقائهم، وعهدوا بأنفسهم إلى صلوات رجال الدين، وانطلقوا بأبهة كبيرة نحو القدس، وركبوا ظهر البحر المتوسط في الخريف، وأقلعوا في رحلتهم عبر البحر.

ملك فرنسا يعرض صليب ربنا وتاجه على الناس

في هذا العام حدث أن صليب ربنا، الذي بقي في دمياط، بعد أيام صلاح الدين، حتى المعركة غير السعيدة، التي جرى في بدايتها الاستيلاء على تلك المدينة، ثم جرت خسارتها فيما بعد، عندما سقطت في أيدي المسلمين، حدث أن جلب إلى مملكة فرنسا بتدخل من الملك الفرنسي وأمه بلانشي، وبنعمة المسيح الذي دعم رغبتيهما التقية، فقد دفعنا مبلغاً كبيراً من المال ليتمكننا من الاستحواذ عليه، ففي البداية ابتيع هذا الصليب — بعد جلبيه — من قبل البنادقة مقابل عشرين ألف باوند، وكانوا قد حصلوا عليه من ابني ج. ل. ملك القدس، الذي كان بحاجة إلى المال لشن الحرب ضد الاغريق، وفيما بعد ارتهنه بلديون مقابل مبلغ كان أيضاً أكبر، وباعه أخيراً إلى الملك الفرنسي لويس.

وفي يوم الجمعة التالية قبل يوم عيد الفصح، وهو اليوم الذي علق فيه المولى يسوع المسيح بالمسامير، على الصليب المانح للحياة، من أجل انقاذ العالم، حمل هذا الصليب المذكور إلى باريس من كنيسة القديس أنطوني Antoine، حيث كان قد وضع على عربة من نوع خاص، عليها ركب الملك مع الملكتين، أي الملكة بلانشي أمه، والملكة مرغريت زوجته، وبحضور رؤساء الأساقفة، والأساقفة ورعاة الدير، ورجال الدين الآخرين، وكذلك النبلاء الفرنسيين، وأحيطوا بحشد لا يحصى تعداده من الفرنسيين، الذين كانوا ينتظرون هذا المشهد المجيد بسرور عظيم في القلب، ورفع الملك الصليب فوق رأسه وهو يبكي، ووقتها صرخ الأساقفة الذين كانوا حضوراً بصوت مرتفع: «انظروا صليب ربنا».

وبعدما تعبدته الجميع بتبجيل لائق وتقوى، قام الملك نفسه، وكان حافياً، ومن دون حزام، وعاري الرأس، وذلك بعد صوم ثلاثة أيام، مقلداً مثل المنتصر النبيل، الأغسطس هرقل، فحملة داخل صوف إلى الكنيسة الكاتدرائية للعدراء المباركة في باريس، وبالنسبة لأخوي الملك،

فإنهما أيضاً بعدما طهرا نفسيهما، بأعمال تقوية مماثلة، بوساطة الاعتراف، والصوم، والصلاة، فقد سارا خلفه مع الملكتين، وقد حملوا أيضاً تاج الشوك (الذي منحته الرحمة الربانية، كما ذكرنا من قبل، إلى مملكة فرنسا، في العام الفائت) ورفعوه أيضاً عالياً، فوق عربة مماثلة للأخرى، وعرضوه حتى يراه الناس.

وسند بعض النبلاء ذراعي الملك، وأذرعة أخويه، أثناء حملهم لهذا الحمل الثمين، خشية أن يصبحوا متعبين بالاستمرار برفع أذرعتهم، وأن يقعوا تحت هذا الكنز، الذي لا يمكن تقدير قيمته، وتم فعل هذا بكل حذر، بناء على رغبات الأساقفة، من أجل أن يتم تناول هذا الشيء المقدس، باحترام من قبل ذوي السلوك الحكيم، والذين نالوا مجداً عظيماً، محتذين لمثل هرقل، الذي ذكرناه من قبل.

وعندما وصلوا إلى الكنيسة الكاتدرائية كانت جميع أجراس المدينة تقرع، وبعد تلاوة صلوات خاصة بشكل مهيب، عاد الملك إلى قصره الكبير، الذي هو في وسط المدينة، حاملاً صليبه، وأخويه يحملان التاج، والكهنة يتبعونهم بمسيرة نظامية (وهو مشهد كان الأكثر مهابة وسروراً بين جميع مشاهدته مملكة فرنسا قط) وكان كل واحد منهم، لابل جميعاً، يصفقون آنذاك بأيديهم، ويمجدون الرب، الذي أظهر هكذا محبته الخاصة للمملكة الفرنسية، مؤثراً إياها ومفضلها على الآخرين، ومن أجل منحها مواساته الخاصة وحمايته.

وهكذا بناء عليه، فإن ربنا يسوع المسيح، ملك الملوك، ومولى الموالي، الذي أحكامه ذات عمق عظيم، والذي بين يديه قلوب الملوك، حيث يعطي الصحة لكل من أراد، أعطى في وقت قصير مملكة فرنسا، وأغناها، بهذه الهدايا الثلاثة الثمينة، وهي التاج المتقدم ذكره، وصليب ربنا الذي عنه قد تحدثنا الآن، وجسد إدموند المبارك رئيس أساقفة كانتربري، والمعترف، الذي يشع الآن بمعجزات غير عادية، ولذلك أمر

الملك ببناء بيعة جميلة، تكون لائقة لاستقبال كنزه المذكور، وأن يكون البناء قرب قصره، وبها وضع بعد ذلك الآثار المقدسة المذكورة بكل احترام، وإلى جانب ذلك امتلك الملك الفرنسي، في بيعته الجميلة في باريس الثوب العائد للمسيح، والرمح، أو بالحري سنان الرمح، والاسفنجة، وإلى جانبها آثار أخرى مقدسة، وبناء على ذلك منح البابا غفراناً مقداره أربعين يوماً إلى جميع الذين ذهبوا إليهم في البيعة في باريس، من أجل الصلاة والتعبد هناك.

موت ملك الدانمارك وابنه

وفي هذا العام أيضاً، حمل من بين الناس وأخذ بعيداً وولد مار Waldemar، ملك داشيا، الذي تظاهر بالتجرؤ على التهديد بغزو انكلترا، وتورط بكلام متعجرف حول ذلك، وجاء موته بعدما حكم لمدة أربعين سنة، ولكي يشعر بتأثيرات صلوات القديس إدوارد، ذلك القديس الذي توجه بأدعيته إلى الرب ليحمي الرب الانكليز ضد طغيان الدانين، فإن ابنه الوحيد، ووريثه في كل ممتلكاته، قد غادر طريق الجسد، وبذلك صارت مملكة داشيا كلها بائسة، وكان هذا الملك الداني وولد مار، في سن المائة عندما مات، وقد حكم على الدانين لمدة أربعين سنة، وطوال حياته كلها، منذ أن كان قادراً على حمل السلاح، استمر في ملاحقة الكفار في سكيزيا، وفريزلاند، وروسيا، وكسب خلال حياته ست أسقفيات كبار، وتدبر العدد نفسه من الأساقفة حتى يجري تكريسهم لهذه الأسقفيات، وبعد وفاته، ووفاة ابنه الأسن، أثار اثنان من أولاده الأصغر سناً ثورة، وهما هنري، والدوق آبل Abel، وشرعاً بحرب دموية أحدهما ضد الآخر، وبذلك أصبحت المملكة مقسمة وفي حالة بائسة.

موت وولتر دي لاسي

وفي هذا العام أيضاً، غادر هذه الحياة وولتر دي لاسي Lacy،

وكان رجلاً هو الأكثر تميزاً بين نبلاء إيرلندا، وجاءت وفاته بعدما فقد بصره، وبعدها عانى من كثير من الأمراض الجسدية.

رؤيا ليلية رائعة

وفي هذه الآونة، ظهرت رؤيا ليلية، إلى أحد الكهنة، وكان حكيماً، ورجلاً مقدساً، وقد شاهد فيها رئيساً للأساقفة، مرتدياً أثواباً حبرية، وحاملاً صليباً بيده، فوصل إلى الأسوار التي كان الملك قد بناها في تلك الأيام قرب برج لندن، وبعد فحصه لهم بنظرة غاضبة، ضربهم بالصليب بقوة وبعنف، وهو يقول: «لماذا أعدت عمارتهم؟»، وبناء على ذلك تهاوت الأسوار التي بنيت حديثاً بشكل مفاجئ، إلى الأرض، وكأنها دمرت بوساطة هزة أرضية، وخاف الكاهن من رؤية هذا المشهد، فقال لرجل دين ظهر وهو يتبع رئيس الأساقفة: «من رئيس الأساقفة هذا؟»، وأجابه رجل الدين قائلاً: «إنه القديس توماس الشهيد، الذي هو لندي من حيث المولد، والذي قدّر أن هذه الأسوار قد بنيت لإهانة اللندنيين ولإلحاق الأذى بهم، ولهذا دمرهم، بشكل لا يمكن فيه إعادة ترميمهم»، وعند ذلك قال الكاهن: «آية نفقات وجهود بناء قد كلفوا»، ورد عليه رجل الدين قائلاً: «لو أن فقراء الصناع، الذين يسعون وراء الدفع لأنهم يحتاجون إلى ذلك، قد حصلوا على الطعام لأنفسهم بوساطة العمل، لصار من الممكن بقاء ذلك العمل لكن بما أنهم لم يعمروا من أجل الدفاع عن المملكة، بل فقط لظلم السكان الذين لا يؤذون، ولو أن القديس توماس لم يقم بتدميرهم لقام القديس ادموند المعترف، خلفه، باصرار أكبر فدمرهم واجتثهم من أساساتهم»..

وبعدما شاهد الكاهن هذه الأشياء، أفاق من نومه، ونهض من فراشه، وفي ظلام الليل وسكونه، أخبر برؤياه، جميع الذين كانوا في البيت، وفي الصباح الباكر، انتشر تقرير في جميع أرجاء مدينة لندن، أفاد

بأن الأسوار التي بنيت حول البرج، والتي على عمارتها، أنفق الملك أكثر من اثني عشر ألف مارك، قد تهاوت الى قطع، مما سبب الدهشة الى كثيرين، قد عدّوها نذير شؤم، لأنه حدث في السنة المتقدمة وفي الليلة نفسها، التي كانت ليلة يوم عيد القديس جورج، وفي الساعة نفسها من الليل، أن سقطت الأسوار مع الأجزاء الناتئة منها، ومع ان سكان لندن دهشوا تجاه هذه الواقعة، لم يحزنوا لوقوعها لأن تلك الأسوار كانت بالنسبة لهم مثل أشواك في عيونهم، وقد سمعوا استهزاء الناس وسخريتهم، الذين قالوا بأن هذه الأسوار قد بنيت لإهانتهم وأنه اذا محاول واحد وتجراً، واحتج من أجل حرية المدينة، كان سيسجن في داخلهم ويلقى به السجن، وفي سبيل أنه إذا كان عدد منهم سوف يسجنون، ولكي يسجنوا في عدة سجون مختلفة، جرى بناء عدد كبير من الزنانات فيهم، كل واحدة منفصلة عن الأخرى.

وفي هذه الآونة أيضاً، أخذ الملك بالقوة من عمدة لندن مورداً سنوياً مقداره أربعين باونداً، وهو المبلغ الذي اعتاد كل عمدة، على استلامه سنوياً، أثناء أيامه، من أجل دعم مكانته، وذلك من المصالح العامة للمدينة، وكأنه كان يأخذه من جمهورية، لأنه ألمح إليه، أي إلى الملك، بأن عمدة المدينة، كان يقوم بالتظاهر بالقيام بجباية ذلك المبلغ، الذي كان محدوداً ببعض الشروط، فيلقي يديه بقسوة على المواطنين الفقراء، وذلك أكثر مما هو مسموح له أن يعمل، وبذلك جمع لنفسه المال وأودعه في حافظة نقوده، ولهذا أرغم جيرالد بات Bat، الذي كان العمدة وقتذاك، على أداء يمين انه نفسه لن يجمع ثانية، ولن يتسلم تلك الضريبة، كما انه لن يسمح لأي شخص آخر بقدر ما يستطيع أن يمنع، أن يجيئها له، وقد وقع هذا في بيعة القديس اسطفان في ويستمنستر.

وليس بعد أمد طويل من هذا، تمّ ارغام سكان لندن على دفع مبلغ من المال إلى الملك، وذلك مراغمة لعرف وامتياز المدينة، وعمولوا

وكانهم عبيد من أدنى الدرجات، ودفعوا من دون رضاهم ومكرهين، ولم يكن ذلك تحت عنوان مساعدة طوعية، بل بمثابة مكس، وأثقلهم هذا كثيراً جداً.

الإمبراطور يمنع الأساقفة من الاجتماع في المجمع

وقدر الإمبراطور في هذه الآونة، بما فيه الكفاية من الدهاء، أن المجمع العام إذا ماجرى عقده، وعلى رأسه عدوه المميت البابا، الذي سوف يترأس جميع الأساقفة الذين كانوا ملزمين بطاعته، مثل طاعة الأطراف لرأسها، سيكون في خطر عظيم، ولذلك أخذ يتأمل ويفكر بابتداع إجراءات وقائية لنفسه، ولهذا قال لنبلاته: «إنني قلق ومهدد من كل جانب، ومطوق بمختلف المشاكل، وذلك بسبب المخاطر التي ستحيق الآن بالامبراطورية، لأنه إذا ماجرى عقد المجمع العام، حسبما يجري الإعداد له، وترأسه عدوي المميت، الذي رؤساء الأساقفة رعية له، وما من واحد منهم يتجرأ على الاعتراض على رئاسته، فإنه سوف يدمرني دماراً لا يمكن ترميمه، ومثل ذلك سوف يدمر الامبراطورية، لأن البابا عدوهم وشره، ومعلن ضدي، وقادر على خلع أي واحد يقف ضد إرادته، من مرتبته، لابل بعد خلعه له التفوه بحكم التكفير، والحرمان الكنسي ضده، وإهائته بعقوبات أشد سوءاً، وعلاوة على هذا أيضاً وأشد خطراً هو أن قضيتنا، وأوضاع الامبراطورية في حالة خطر شديد، وكذلك جميع الأمراء، الذين أنا وحدي ملزم بالدفاع عنهم، وملوك وأمراء العالم الذين أنا المناصر لقضيتهم، لأنني صرت المتكلم بلسانهم، هؤلاء سوف لن يقدموا إذا ما دعيتهم، أو سوف يطيعونني، وهم غير خاضعين لي، لذلك لا يمكنني ارغامهم على القدوم، ولا معاقبتهم إذا ما تمردوا، ومادمت يائساً — بناء عليه — من حضورهم ومساعدتهم، هل سوف أعهد بامتيازات الامبراطورية وقضيتها إلى بلاط مشكوك به، وأن يكون أعداءها هم قضاتها؟ لا لن يكون ذلك،

مادمت حياً»، واتفق معه نبلاؤه في هذا العرض المنطقي والحجج، وقرروا وجوب تغيير الخطة الأجنبية، مع أن ذلك قد يبدو سوف يرتد بالضرر على سمعتهم، وبسبب الخطر الذي سوف يحدق بالامبراطورية، وهو الذي جرى الحديث عنه، ينبغي منع المجمع الذي كان موافقاً على عقده من قبل، ولذلك قام الامبراطور على الفور بوساطة رسائله، بتحذير الأساقفة بعدم القدوم، ولأبأي شكل من الأشكال، ومن ثم الحضور إلى المجمع العام، بناء على استدعاءات البابا، ومنذ ذلك الحين، إذا كان هناك أية أساقفة ذاهبين إلى البلاط الروماني، وكانوا قد رفضوا إطاعة أوامره، ومروا بأراضيه هم شخصياً، أو كانوا قد بعثوا مندوبيهم، فقد تابع اعاقا تقديمهم، وهاجمهم، واعتقلهم، وعذبهم، وعاقب بعضهم بعقوبات مميتة مخيفة، وقد وصلت أخبار هذه الأحوال إلى مسامع البابا، فضاعف من لعناته له، وشتائمته ضد الامبراطور، وكدس الحرمانات الكنسية ضده، كما جدد تكفيره له.

وبناء عليه فإن النواب البابويين، الذين كان البابا والدهم في جميع المسائل الروحية، والذين كان قد أمرهم بناء على طاعتهم له، بالاجتماع في الفصح المقبل، الذي هو عيد قيامة ربنا، لحضور المجمع الذي كان قد أعد له، وهياً، بناء عليه قد منع هؤلاء من الحضور بشكل أو آخر، وقد خافوا من معيقات الامبراطور، ومن أوامر المنع الصادرة عن المراسيم الامبراطورية، هذا من جانب، وكان هناك من الجانب الآخر سيلا Scylla (صخرة خطيرة من الجانب الإيطالي لمضيق مسينا) ومخاوف التيارات البحرية للكاربي، التي كانت تهددهم، وقد طمأن البابا القلوب المرتجفة للأساقفة، ومنحهم قليلاً من المواساة والتهنئة، وردت في كلمات الرسالة التالية:

رسالة البابا

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى الأسقف كذا وكذا،

صحة ومباركات رسولية:

إن قارب بطرس، هو الآن مقهور بثقل أمواج الأشياء الدنيوية، ويتأرجح بعواصف المسائل الملحة للشك والمصاعب، التي تحتاج إلى اليد اليمنى لمخلصنا يسوع، لأنه في الوقت الذي هو مدفوع فيه نحو الأمام بهبات الريح الشمالية العاصفة، يبدو أن الرب نائم، وتلاميذه هم في حال شك، ويخاف البحارة من الريح، ومما سيتمخض عنها، الذي هو غرق القارب، الواقع الآن، والناس خائفون، وبطرس يصرخ منادياً: هل من الممكن لأولادي — مع أن الآخرين صاروا باردين — تقديم العون على الأقل، ومنفعة نصيحتهم السليمة، حتى لا تتمكن الزوابع من قهره، ولا أن يستولي القراصنة المتوحشون عليه، وعلاوة على ذلك، إنه بوساطة تمزق الميثاق الطبيعي، اهتزت الثقة، وازداد الاحسان برودة، وتجمدت أسباب التقوى، وتضاعف الظلم، وكسب قوة ضد الرب، وضد جيران المرء، ومن هذه الأسباب واضح إلقاء معيق في طريق رفع شأن الإيثار المسيحي، وتبع ذلك الخسارة، وتم حرمان حشد تقي من المسيحيين الحقيقيين وإبعادهم عن منافع السلام، وأرهقوا بمختلف أنواع الاضطرابات.

ولذلك فإن المقام الرسولي، في إطار سلطته ومكانته، وبعدما وزن جميع هذه الأمور بميزان الرأي العام، وبعدما بحثهم وتفحصهم، وفي سبيل أن تتمكن الكنيسة التي هي الأم العامة والوحيدة، أن تسهم في سعادة الجميع، قد تقرر، مع سبب صالح، التوجه بالدعوة لطلب العون من أيدي جميع المسيحيين الأقوياء، مثل الملوك، والأساقفة، والمقدمين، وآخرين من ذوي الإيمان الصحيح، من أجل أنها بتكرار الصراخ، يمكنها إيقاظ الرب النائم، ولكي يمكنها بمعونة نصيحة أعداد كبيرة، جعل أعباء الظلم أخف، وأن تتمكن بسعادة من الوصول إلى المرسى المرغوب به.

وبين أشياء كثيرة نود أن نعيدها إلى ذاكرتكم أيها الأخ الأسقف، أننا قمنا بوساطة رسائل رسولية، بتوجيه الدعوة إليكم، بحكم كونكم ابن تقي، وعضو نبيل من أعضاء الكنيسة، بالقدوم إلى صدر أمك، الكنيسة المذكورة، في العيد المقبل لقيامة ربنا، لكن كما علمنا، أن الذي كان مرة الابن الخاص للكنيسة، وذلك منذ أن كان طفلاً، عندما كان في حالة ضعف مطلق، فحمته، ورفعته بوساطة عون الكرسي الرسولي، ونهضت به على كتفي أمه، إلى المقام الامبراطوري، والذي لم يقنع بالمضار التي ألحقها بنا، تعويضاً على إحساننا، والتي بها قاتل عرش أبيه، وسعى لإلحاق العار بأمه، ومن دون أي شعور بالتقوى أراد أن ينتحل لنفسه الامتيازات الأسقفية، وهو الآن يسلح نفسه بدهاء، ليمنع بالرعب الأساقفة الذين دعيوا مؤخراً من قبلنا، من الاجتماع بنا، وبذلك لن تكون هناك حاجة لمطلب اتهام ضدنا، كما أنه لن يسمح للكنيسة بالحصول على المواساة من أبنائها، لتتخلص من الأمراض التي تعاني منها.

وبما أنه بناء عليه، هذه النية هي من أجل المنفعة العامة، التي تولينا حملها بثقة، متوكلين على العناية الربانية، يتوجب عدم اعاقتها من قبل رجل مأكراً، نحن نتمنى عليكم بحرارة، وبوساطة هذه الرسائل الرسولية، نأمركم بكل دقة، أن تفضلوا الرب على الانسان، وأن تنظروا إليه أكثر من نظرتكم إلى جميع المصاعب المتوجب مواجهتها، وأن لا تتقاعسوا عن القدوم في الموعد الذي سلف تحديده، إلى الكرسي الرسولي، من أجل أن تستمد الأم القوة بحضور أولادها، بحيث يمكن أن يرمى جانباً بكل معارضة قدمها العدو، وذلك بوساطة الحكمة الربانية، وأن تكون هناك بداية لنواياها التقوية للوصول إلى نهاية سعيدة، ونحن برضا الرب، سوف يكون شاغلنا تقديم التسهيلات إلى جميع الأشياء المفيدة لمثل هذه المسائل الكبيرة، حسبما سوف يجري شرح

ذلك لكم من قبلنا. صدر في اللاتيران، في هذا الخامس عشر من تشرين أول، في السنة الرابعة عشرة من حبريتنا».

وبناء عليه أصبح الأساقفة أكثر هدوءاً في عقولهم، واستعداداً من دون خوف من أجل رحلتهم، وهم متوقعون واثقين، بأن البابا، سوف يؤمن لهم بعون الرب، عبوراً آمناً بوساطة البحر، وأما الانكليز، وهم أسقف نورويك وبعض الآخرين، فقد قبلوا بخطط الفرنسيين ورضخوا لها، فذهبوا إلى أماكن آمنة على طريق رحلتهم، وتطلعوا بصمت وحذر نحو نتائج الحوادث.

آلام مدينة فيانزا

وفي هذه الآونة، تمكن الامبراطور، الذي كان يحاصر مدينة فيانزا Faenza منذ وقت، من انزالها إلى حالة من الضيق، أصبح فيها الذين كانوا من قبل هم الأقوى والأغنى من البقية، فقراء وضعفاء، وأرغم الآن عامة الناس من قبلهم على مغادرة المدينة من الأبواب والأبواب الفرعية، حتى لا يتمكن هؤلاء العامة من أكل قمحهم، الذي تناقص كثيراً لديهم، ثم إنهم كانوا يتسللون ويهربون من قبل أنفسهم بسبب الجوع، والحاجة المضاعفة لأشياء كثيرة أخرى، وفيما بعد وجدوا أنفسهم يعانون أكثر من الجوع، لذلك قاموا وهم يتألمون في أفكارهم، فأرغموا زوجاتهم وأولادهم وامائهم بالقوة على مغادرة المدينة، وخيّل للنساء أنهن سوف يحصلن على الرحمة من الامبراطور، فذهبن إليه، ومثلن أمامه وشعورهن منشورة، وسجدن أمام معسكره، وهن يبكين، ويولولن، ورجوه بموجب رحمته الامبراطورية، أن يظهر الرحمة نحو نسائهن، لكن مع أن الامبراطور قد سمعهن، لم يوافق على التماسهن، بل أجابهن بغضب شديد: «دعوهن يذهبن إلى أزواجهن، وإلى أسيادهن الذين تولوا الحكم علي، بأنني خائن أمام الرب وأمام الانسان، وبما أنهم قبل بعض الوقت لم يظهروا نحوي رحمة، إنه من غير العدل بالنسبة لي

تلقينهم رحمة مني، لأنه منذ بعض الوقت، عندما كنت محاصراً في مدينتهم، والأبواب مغلقة من أمامي ومن خلفي، دخلوا فجأة في مؤامرة ضدي، وعزموا على قتلي، وبانحطاط قتلوا رجلاً آخر مثلي، كان مرتدياً دروعاً امبراطورية، كما أنهم قدموا عدم تشريف لأمي، وإهانات مضاعفة لها، وذلك عندما كانت عابرة خلال مدينتهم، وبعد احترام شوهوا المطية التي كانت راكبة عليها، وبذلك أنزلوا انتقامهم بحيوان، ولم يظهروا التقدير لمرتبتها الامبراطورية، ولا حتى لكونها امرأة، وإنه بناء عليه من العدل مواجعتهم بالانتقام».

وبعدما صرخ مزجراً بقراره هذا ضدهم، أمر بتلك النسوة الضعفاء، واللاتي كن يتهاوين من الجوع والحاجة، بأن يسقن عائدات إلى المدينة التي غادرنها، وعندما علم المواطنون بهذه النتيجة، باتوا متأكدين من دمارهم، ولذلك بعثوا بعض الرجال المحترمين بمثابة رسل خاصين، وقد عرض هؤلاء وهم سيكون طاعتهم للامبراطور، ورجوه أن يسمح لهم فقط بمغادرة المدينة، التي تخلوا عنها إلى صاحب الجلالة الامبراطورية مولاهم، وهم فقط أحياء يرتدون من الثياب ما يغطي عوراتهم، ليتجولوا مثل المتشردين والمنفيين، في فقر دائم، وأن يذهبوا إلى أي مكان من العالم يختار أن يرسلهم إليه، ورد الامبراطور على هذا العرض قائلاً: «بما أنهم في أحوالهم المزدهرة رفضوا العودة إلى ولائهم، وإلى الاعتراف بي سيداً لهم، إنني لن أصغي إليهم وهم يصرخون في أيام اضطرابهم، لأن كل من كان بإمكانه الاعتداء وفعل ذلك بقدر ما استطاع، يتوجب بشكل عادل أن يعاقب بأقصى عقوبة ممكنة»، وعندما سمع المواطنون بهذا غرقوا في أعماق اليأس، وصاروا الآن تحت وطأة أسف أكثر شدة، ومن دون أي أمل في الحالة البائسة آنذاك لمدينتهم.

البلاط الروماني يرتبط بعاهرة

وفي هذه الآونة، ازداد النهم غير المستقر للبلاط الروماني، إلى درجة أنه مزج فيها بين الصواب والخطأ، وجاء ذلك إما بناء على إذن من البابا غريغوري، أو بتدبير منه، وألقى هذا البلاط كل حياء جانباً، وصار مثل الوجه البرونزي للبوق، معروضاً للاستئجار من قبل أي انسان، وقد عدّ الربا ذنباً تافهاً، والسيمنية ليست ذنباً على الإطلاق، وبهذا عدت الدول الأخرى المجاورة، حتى طهارة انكلترا أصيبت بهذه العدوى، ومع أن الأمثلة التي تعرض نفسها على صحة هذا وافرة، لقد رأيت من المناسب، أن أحكي باختصار خبر مثل واحد، لأظهر بعدل، مع أن ذلك جاء متأخراً، أن غضب الرب قد اشتعل ضد البلاط المذكور.

البابا يطالب بمورد مقداره مائة مارك من رهبان بيتربورا

ورغب البابا غريغوري في تقديم العون إلى واحد من المتحزين له، فبعث برسائل إلى انكلترا، كانت وطأتها شديدة على بعض الكنائس، وجرى في هذه الآونة، بعث رسول بابوي مرافق بعدة توسلات وتهديدات، وجاء بعثه إلى راعي دير بيتربورا Peterborough وإلى رهبان الدير، أمراً بإيهم بإعطاء البابا مورداً سنوياً يصل إلى قيمة لا تقل عن مائة مارك عن كل كنيسة ورعوية تابعة لهم، وإذا كان المبلغ مضاعفاً، فذلك سوف يزيد سروره، والبابا وقتها سوف يمنح الكنيسة إليهم، للاحتفاظ بها مقابل ضمانتها لها، وهي شريطة أن يدفعوا له كل سنة مائة مارك مقابلها، وكل ماتبقى من الممكن تحويله لاستخداماتهم، وفي سبيل أن يجعل الراعي المذكور والرهبان مبالغين بسهولة أكثر إلى الموافقة على هذه الاتفاقية، (أو بالحري على هذا الميثاق السيموني الخبيث، والغش السري)، وكأنها ضرورة لمنفعتهم، كتب قداسته إلى بعض الكهنة، الذين كانوا من جانبه من الألب، والذين كان بين أيديهم منافع جيدة في انكلترا، يأمرهم، بموجب السلطة الممنوحة إليهم، بتقديم النصيحة بشكل فعال إلى الراعي المذكور وإلى الرهبان للموافقة

على هذا، وإذا ما استدعى الأمر إرغامهم على ذلك.

وبناء عليه، قاموا في طاعة منهم لأوامر البابا، فذهبوا إلى بتربوراء، واستدعوا الرهبان وقالوا لهم: «انتبهوا أيها الأصدقاء والإخوان، أن هناك منفعة سوف تضاف عليكم، من قبل اليمين القادرتين للبابا، لأنه قد سألكم الآن، الذي كان ينبغي أن تسألوه إياه، وترجونه من أجله بركب جائية، وبأيدي مصفقة، وبتواضع كبير».

وبعدما أوضحوا للرهبان جميع الذي طلبه البابا، قدموا وعداً، وكأنهم ضامين ووكلاء مخلصين للبابا، وباسمه، بأنهم سوف يفون بجميع وعوده، شريطة أن يوافقوا —الرهبان— على الذي سأله بشكل سري، وإبقاء الأمر كما هو، من دون فضيحة، ذلك أنهم قدموا فضيلة الحاجة الضرورية، وأجابهم الرهبان، أنه ليس بإمكانهم فعل هذا، من دون إذن الملك، الذي كان راعيهم، والمؤسس لكنيستهم، وكذلك لكنائس أخرى في هذه المنطقة، ومع ذلك رجاهم الكهنة بحرارة في سبيل فعل هذا بسرية، آملين بفعل الشيء نفسه في كنائس أخرى، وأن يجعلوا هذا سابقة، ولكن الرهبان لم يرغبوا في أن ينصاعوا لحججهم المخادعة، وطلبوا منحهم وقتاً حتى يعود راعيهم إلى الوطن، لأنه كان غائباً، لكي يعطي موافقته على رضاهم بهذا الطلب، إذا ما رآه موافقاً، ولذلك بعثوا رسالة إلى راعيهم، يوضحون له بها اشكاليات هذا العمل.

وعند ذلك أرسل الراعي، بوساطة كاهن مخلص وحكيم تابع له، اسمه وليم دي بورغ Bourg، رسالة إلى الملك، وطلب نصيحته حول المسألة، وأخبره بالمخاطر التي من الممكن أن تنجم عن هذه القضية، ورأى الملك أن عملاً من هذا النوع من الممكن أن يكون مصيرياً بالنسبة إلى تلك الكنيسة، ومثل ذلك إلى الكنائس الأخرى، وذلك بحكم أنه كان راعيهم، وحاميهم، وحاكمهم ولأنه أبعد الدسائس الخفية، وشره البلاط الروماني، منع بحزم ودقة الاقدام على

مثل هذه السابقة غير النظامية، حتى لايجري تلويث الهواء أكثر مما هو ملوث.

القديس إدموند يصبح متميزاً بالمعجزات

وملأت في هذه الآونة أخبار الاسم المقدس، والذكرى المشهورة لإدموند المبارك، رئيس أساقفة كانتربري، ومعجزات قداسته، بلدان هذا الجانب من الألب، وذلك مع سمعته المجيدة، وبلغ الأمر حداً، أنه بوساطة المعجزات غير الاعتيادية، التي تلتف الرب فعلها من أجله، أن أيام الرسل بدا أنها قد تجددت، وانجذب رؤساء أساقفة، وأساقفة، ونبلاء مع حشود لاتحصى من الناس، من كلا الجنسين، برائحة العطر الطيبة، التي صدرت بالفعل من مناطق نائية عن ضريحه في بونتني، لذلك أخذ هؤلاء يسألون مساعدة إدموند المذكور.

وفي انكلترا أيضاً، في دير للنساء في كيتباي Catesby، حيث كان رئيس الأساقفة المذكور قد ترك اثنتين من أخواته بمثابة راهبات، وكان قد أعطى إلى إحداهن هبة تعبّر عن العاطفة، تمثلت بطيلسانه، وقد تلتف بعمل بشكل مدهش عدداً من المعجزات هناك، الحديث عنها ووصفها سوف يتطلب رسائل طويلة خاصة.

رهبان كانتربري يحصلون على تحليل من البابا ويتخبون بونيفيس رئيساً لأساقفتهم

في هذه الآونة، في شهر نيسان، تمكن رهبان كانتربري، الذين أرسلوا إلى روما، لصالح التجمع الديرى، للحصول على تحليل من القرار الذي تفوه به رئيس الأساقفة ضدهم، من الرجوع من البلاط الروماني، بعدما حصلوا على وجوب تسلمهم تحليلاً بوساطة طريق التحذير، حيث جرى ندب راعي دير القديس ألبان مع رئيس الشمامسة هناك، مع رئيس رهبان دنستيبيل Dunstable، من أجل تسوية القضية، لكن

لا يرفض البابا الأسقف المنتخب لعدم الكفاءة، أو بالحري حتى يبدو جديراً بمثل هذا المقام الرفيع، سعى الملك، مستخدماً جميع الوسائل التي تحت سلطانه، لرفع شأن بونيفيس المذكور، وزيادة شهرته، وهو الذي انتخب الآن، أو أنه سوف ينتخب، فأمر بكتابة ورقة، أثنى فيها على بونيفيس المذكور إلى أبعد الحدود، وكشاهد على صدقها، وضع خاتمه على تلك الكتابة المذكورة، ثم إنه أرسلها إلى الأساقفة، وإلى رعاة الديرة، أمراً بإياهم، أو بالحري رجاءهم بشكل ملكي بأن يضعوا أيضاً أختامهم عليها، وأن يكونوا شهوداً على ما أكده، وقد رفض عدد منهم — على كل حال — خرق تماسك ضميرهم، وخافوا من مخالفة أمر الرب في قوله: «أنت لن تكون شاهد زور»، ولذلك رفضوا بإصرار طاعته، وكان هناك على كل حال، بعضاً من رجال الدين من ذوي المراتب العالية، أي بعض الأساقفة ورعاة الديرة، قد خافوا، وضعفوا أمام تهديدات الملك، فوضعوا جانباً خوفهم من الرب، وأظهروا احتراماً نحو الإنسان، أكثر من الاحترام نحو الرب، فوضعوا أختامهم عليها كضمانة، وشهادة على إيمانهم، ورضاهم بقبول بونيفيس ليكون رئيسهم.

ومع أنه كان من أصل نبيل، وصديقاً مقرباً من أمراء المملكتين، وهو شخصياً مكون بشكل جيد، ومؤهل بما فيه الكفاية، فقد كان رهبان كانتربري آسفين إلى أقصى الحدود، لأنهم غلبوا من قبل توسلات الملك، فوافقوا على طلبه في هذه القضية، وبعدما تفكر بعضهم في أنفسهم، وعرفوا الشقاء المخبأ لهم، انسحبوا من كنيستهم، ولكي يقوموا بتوبة دائمة، حملوا أنفسهم وانتقلوا إلى طائفة الرهبان الكارثوسيان Carthusian.

اضطهاد كونت بروفانس

أرسل في هذه الآونة، ريموند كونت بروفانس، والد ملكتي

الفرنسيين والانكليز، عدة رسل خاصين، إلى صهره ملك فرنسا، مع توسلات مستعجلة، حتى يمنحه مساعدة فعالة بحكم كونه ختنه وحليفه، لأن كونت طولوز، قد شنّ الحرب ضده، بناء على أمر من الامبراطور، وضيق عليه حتى أوصله إلى الدمار الشامل، وهو الآن مجرد تماماً من امكانات المقاومة، حيث أنفق المال الذي أرسل إليه من ملك انكلترا، وبناء على هذا، كتب الملك الفرنسي بلطف ظاهري إلى الامبراطور، وكذلك، إلى كونت طولوز، رجاها، صدوراً عن احترامهما له وعاطفتها نحوه، اظهر الرحمة نحو ختنه، وكتب ملك انكلترا، وأخوه رتشارد، إيرل كورنوال رسائل إلى الاثنين نفسيهما من أجل هذه الغاية نفسها، وبهذه الوسائط نال كونت بروفانس، بعد وقت طويل، الهدوء، وسمح له بالتمتع به.

كيف ضايق البنادقة الإمبراطور

أضر البنادقة خلال هذا الوقت كله بعناد على إلحاق كل أذى ممكن لهم، وبكل وسيلة، يمكنهم ابداعها بالبر وبالبحر، للانتقام لرئيسهم عمدة ميلان، الذي كما ذكرنا من قبل، قد أسره الامبراطور، أثناء قتاله ضد ميلان، والذي بعدما أودع السجن، أدين، وأعدم بناء على أوامر الامبراطور.

يقظة الإمبراطور في الدفاع عن نفسه ضد أعدائه المتنوعين

واستولى في هذه الآونة الامبراطور فردريك بالقوة على مدينة فيانزا، وهي التي وقعت تحت الحصار لمدة طويلة، والتي باتت الآن غير قادرة على متابعة الصمود، واستمر الحصار لحوالي السنة، وقد أنفق الامبراطور مبلغاً كبيراً من المال عليه، آه، أي قلق، وأية اضطرابات مضاعفة أثرت على دماء قلب الامبراطور، في الدفاع عن امبراطوريته لأنه امتلك ستة جيوش كبيرة وكثيرة التعداد ومرعبة، وقد قاد هو أولها،

وكان الثاني جيشاً مزدوجاً، موجوداً في الأراضي الجنوبية، أي كان قوة بحرية، لتعترض بالقوة في البحر طريق عبور النواب البابويين والأساقفة، الذي استخفوا بنصائحه، وقوة أخرى عملت بالبر، قرب ساحل البحر، تحت قيادة ابنه هنري ملك غالوري Gallury، وتوري Torres، التي تابعت باستمرار نهب الحقول والكروم التابعة للجنوبيين، وكان هناك جيش ثالث تحت قيادة ابنه كونراد، ولي عهد مملكة القدس، الذي كان قد حشد تحت قيادته جيشاً لا يمكن تعدادهم، من ألمانيا ومن المناطق المجاورة لها والخاضعة للحكم الامبراطوري، وقد أرسله ضد التتار، على أساس أن ابنه كونراد هو القائد الأعلى، غير أنه كان مرافقاً بدوقات النمسا، وسكسوني، وبافاريا، مع نبلاء آخرين، وأساقفة، وآخرين عددهم كبير جداً لا يمكن تعدادهم، وقد تبعهم حشد كبير من الناس تطوعوا لهدف واحد، وبثشوق حملوا الصليب، وكانوا مستعدين للقتال حتى الموت ضد التتار المذكورين، لصالح الكنيسة العالمية، وجرى استخدام الجيش الرابع في تخوم تريفيسو Treviso، وكان تحت قيادة ثيوبولد، الذي قيل بأنه من أصل فرنسي، وكان حليفاً خاصاً للامبراطور، وكان عمل الجيش الخامس في تخوم أنكونا ووادي سبوليتو، وكان الجيش السادس في الأرض المقدسة، تحت إمرة مارشاله رالف، الذي إليه أسند الايرل رتشارد المسؤولية عن الأرض المقدسة، التي استحوذ عليها، أو تهدنت من قبله، وبشكل خاص قلعة عسقلان، التي تولى الايرل رتشارد المذكور تقويتها بشكل فخم على حسابه، وذلك في سبيل تقوية المسيحية ورفع مكانتها بشكل عام.

ثبات رهبان وينكستر والظلم الذي مورس ضدهم

وفي هذه الآونة كان هناك بعض الذين يدورون بفلك البلاط، والواقفين بأوامر الملك، والذين اعتادوا على أن يعملوا من الأشياء

التافهة أشياء عظيمة، وقد ذهب هؤلاء إلى وينكستر، وبرعونة طلبوا الرهبان الذين رفضوا اطاعة أوامر الملك في قضية الانتخاب أو طالبوا بانتخاب أسقف وينكستر، والذين كانوا بشكل وقح غير مطيعين للملك، وعملوا ذلك الطلب إلى وليم دي ريلي Rele، أسقف نورويك، ولم يتنازلوا بالتخلي عن مقصدهم لابلتهديدات ولا بالالتماسات، فهكذا كان فخارهم الرهباني، وهكذا كانت وضاعة هؤلاء الناس الجبناء، وبناء عليه جرى بحث بالقضية من قبل رئيس الرهبان، الذي أرغم من قبلهم، والذي كان أصل هذا الاضطراب كله، والرهبان الذين وجدوهم قد تصرفوا على هذه الصورة، جرى طردهم من الدير، من قبل هؤلاء الرسل، من دون اعطاء تقدير إلى العمر، أو الجنس، أو الطائفة، أو للاحترام المتوجب للكنيسة أو للدير، وسجنوا فيما بعد، وأجيعوا، وتعرضوا لكل نوع من أنواع الملامة، والإهانة، والإذلال، مما سبب إلحاق الإهانة بالنظام الرهباني كله.

استيلاء الإمبراطور على مدينة فيانزا وإظهاره الرحمة نحو السكان

وفي هذه الآونة خضعت أخيراً مدينة فيانزا الملكية، التي كما ذكرنا كانت مطوقة ومحاصرة من قبل الامبراطور فردريك، واستسلمت إليه بتحفظ، فقد أنهكت المجاعة السكان، ورافقها كثير من الاضطرابات المضاعفة، فجاءوا محتشدين، وسقطوا عند قدمي الامبراطور، وهم يتنهدون ويبيكون، ورجوه من أجل الرحمة، وليس من أجل الحساب، وبينما كان هؤلاء الناس الذين أثاروا لمدة طويلة غضب الامبراطور إلى أعلى الدرجات، يتوقعون الموت بأقسى أنواع العذاب، وذلك بسبب ماقترفوه من ذنوب، تمت الإشارة إليها من قبل، وبسبب نفقات طول حصار مدينتهم من قبل الامبراطور، الذي تكبد إنفاق مبلغ كبير من المال، ومع ذلك قام المنتصر، برحمته الكريمة، بالحفاظ عليهم، وبفعله ذلك كسب عواطف الكثيرين، لأنه عندما رأى أنه حقق أخيراً الانتصار

على رعاياه العصاة، مال بدمه الكريم إلى الرحمة، وذلك تبعاً لكلمات الشاعر:

العدو جرى تدميره، والأسد النبيل استراح راضياً،
والمعركة انتهت، وغضبه الناري قد تلاشى.

والذئاب، والدببة، والوحوش الأصغر، اقتادتهم مشاعرهم المتدنية.
بالانتقام فظلوا غير مشبعين لنهمهم من ضحاياهم الميتة.

الانتقام المخيف الذي اقترف من قبل التتار

أثناء هذه الآونة نزل أولئك الناس الذين هم من غير البشر، والمتوحشين، والخارجين على القانون، وغير المدجنين، من التتار، في اندفاعهم وعنفهم الرهيب، على المقاطعات الشمالية للمسيحية، واجتاحوها بشكل مرعب ومدمر، وأوقعوا الخوف والرعب بين جميع المسيحيين، وكانوا قد تمكنوا بطغيان لم يسمع بمثله، من تحويل بلدان كثيرة إلى صحراء مثل فريزلاند، وغوثلاند، وبولاندا، وبوهيميا، وشطري هنغاريا معاً حيث قتلوا الأمراء والأساقفة، وسكان المدن والفلاحين، أو أرغموهم على الفرار، وقد أكدت وقوع هذه الوقائع وشهدت عليها الرسالة التالية، التي أرسلت إلى هذه المناطق.

رسالة كتبت إلى دوق بربانت حول القوم أنفسهم

«من هنري، الذي هو بفضل الرب كونت اللورين، والأمير الملكي لسكسوني إلى مولاه المحبوب جداً، والذي سيظل دوماً محبوباً، وختنه، الدوق المشهور لربابانت، الذي نحن على استعداد لخدمته متى طلب ذلك: إن المخاطر التي تقدم الحديث عنها في الكتابات المقدسة في العصور القديمة، آخذة الآن بالتفجر والتدفق بسبب ذنوبنا، لأن قطيعاً من الناس المتوحشين، الذين لاعد لهم ولا حصر، ومن المتمردين،

والهمج، يقومون الآن بغزو المناطق المجاورة لمناطقنا، والاستيلاء عليها، وقاموا الآن بعدما عاثوا فساداً في كثير من البلدان الأخرى، وبعدها أهلکوا سكانها، فمدوا غزواتهم حتى الأراضي البولندية.

وحصلنا حول هذه القضايا على أخبار كاملة من رسلنا، ومن رسائل من ابن عمنا المحبوب ملك بوهيميا، وقد طلب منا إعداد أنفسنا بكل سرعة للسیر إلى مساعدته، وللدفاع عن المسيحية، ذلك أننا أخبرنا بصدق وبوضوح من قبله، بأن هذا الجنس من الناس، أي التتار، سوف يتولى في حوالي ثمانية الفصح بوحشية وهمجية، غزو الأراضي البوهيمية، وإذا لم تقدم مساعدة في وقتها إلى البوهيميين، سوف تقع مذبحه لم يسمع بمثلها، وبما أن البيت المجاور لبيتنا يحترق الآن، وبحكم أن المنطقة المجاورة عرضة للاجتياح، وفي الوقت الذي فيه بعض المناطق هي الآن تحت الاجتياح، إننا نيابة عن الكنيسة المسكونية، نطلب بقلق، ونرجو المساعدة، والتسديد من الرب، ومن جيراننا الأخوة الأمراء، وبما أن التأخير يولد الخطر نرجوكم القيام بكل يقظة ممكنة، أن تحملوا السلاح، وأن تسرعوا إلى نجدتنا، وكذلك في سبيل حريتنا ومثل ذلك في سبيل حريتكم، وأن تستخدموا مسعى قوياً لإعداد قوة قوية، وأن تثيروا النبلاء الأقوياء والشجعان مع الناس الخاضعين لهم، وأن تحتفظوا بهم مستعدين وجاهزين حتى نرسل إليكم رسلنا ثانية.

ونحن الآن نثير بوساطة جهود أساقفتنا، والمبشرين لدينا، والرهبان الفرنسيين الدعوة إلى حملة صليبية عامة (لأن القضية مرتبطة بالمسيح)، ونبشر، ونصلي، ونصوم من أجل فرضها، وبلادنا بشكل عام قد نهضت واثارت للحرب في سبيل يسوع المسيح.

وإلى هذا يمكن أن نضيف بأن قطيعاً كبيراً من هذا الجنس المقيت من الناس، يقوم الآن بالتعاون مع جيش آخر متحالف معه، باجتياح هنغاريا بوحشية لم يسمع بمثلها، إلى حد قيل فيه بأن الملك قد احتفظ

فقط بقطعة صغيرة من البلاد لنفسه، ولنجمل القضية في كلمات قليلة فقط:

إن الكنيسة والناس في البلدان الشمالية، قد قمعوا وقهروا بكثير من أمثال هذه الاضطرابات الكبيرة والمصاعب إلى حد أنهم لم يعانون قط بشدة من مثل هذا العذاب منذ بداية الدنيا. صدر في سنة النعمة ١٢٤١، في اليوم الذي يرتل فيه ب «دعوا القدس تبتهج».

وأرسلت رسائل أخرى، لها المحتوى نفسه، من قبل دوق برابانت إلى أسقف باريس، وكتب أيضاً رئيس أساقفة كولون إلى ملك انكلترا حول المقصد نفسه.

وبناء عليه، ومن أجل معالجة هذا المرض الخطير، ولتسوية الخلافات التي قامت بين البابا والامبراطور، جرى فرض الصيام، والصلاة، ومنح الصدقات، على الناس في مختلف البلدان، حتى يصبح الرب القدير المخضع لأعدائه، والذي يقاتل مع قلة أو كثرة، راضياً نحو عباده، وأن يسحق شموخ هؤلاء التتار وجبروتهم.

وعندما أخبرت بلانشي المحترمة، وأمة الرب المحبوبة، وأم الملك الفرنسي بهذا العذاب الرباني، الذي نزل على الشعوب وأحاق بها، دعت ابنها قائلة: «الملك لويس، أين أنت يا ولدي؟» وبناء على ذلك اقترب منها ابنها وقال: «ما الذي تريدينه يا أماء؟»، ثم إنها تنهدت بعمق، وانفجرت باكية، ومع أنها كانت امرأة، فقد انكبت على هذه المخاطر العظيمة، ليس كإمرأة، وقالت له:

«ما الذي ينبغي صنعه يا ولدي الحزين تجاه هذه الأحداث المؤلمة، والتي تطايرت عنها تقارير مرعبة وتدفقت على أراضينا؟، وإن دماراً عاماً لنا كلنا وللكنيسة المقدسة، بات الآن وشيكاً في أيامنا بسبب الغزوات الرهيبة للتتار بيننا»، ولدى سماع الملك لهذا، أجاب بصوت

حزين، لكنه تكلم وكأنه تلقى إلهاماً ربانياً: «لعل المواساة من السماء تنهض بنا يأماء، وإذا ما قدم هؤلاء الناس الذين نسميهم التتار، وجاءوا مغيرين علينا، إما سردهم إلى بلاد التتار التي صدروا منها، أو أنهم سوف يرسلون بنا جميعاً إلى السماء»، وهكذا فإنه كان يريد القول: «إما أننا سوف نصدهم، أو أننا إذا ما غلبنا، فإننا سوف نغادر إلى الرب كمعترفين للمسيح، أو شهداء»، وألهم هذا الكلام المدهش والجدير بالثناء، الناس وأثار شجاعتهم، ولم يقتصر هذا على النبلاء الفرنسيين، بل تعداهم أيضاً إلى سكان البلدان المجاورة، ثم إن الامبراطور، عندما سمع بهذه الأشياء، كتب إلى الأمراء المسيحيين، وبشكل خاص إلى ملك انكلترا كما يلي:

رسالة الإمبراطور فيما يتعلق باقتراب المغول

«من فردريك، إمبراطور، إلخ، إلى ملك انكلترا، تحيات:

نحن لا يمكننا الالتزام بالصمت حيال قضية لا تخص فقط الامبراطورية الرومانية لوحدها، التي وظيفتها نشر الانجيل، بل تخص أيضاً ممالك العالم كله، التي تمارس العبادة المسيحية، لأنها تهدد بدمار كامل لجميع المسيحية، ولذلك بادرنا مسرعين بنقل أخبارها إليكم، وإعلامكم بها، علماً بأن الحقائق الصادقة حول الموضوع قد وصلت إلينا مؤخراً.

منذ وقت قصير مضى ظهر عرق شعب متوحش بطباعه وبطريقة حياته (من أي مكان أو أصل أنا لأدري) اسمه التتار، ظهر مؤخراً من مناطق الجنوب، حيث كان مختبئاً منذ وقت طويل، قد أحرقته شمس الإقليم الحار، وزحف من هناك نحو المناطق الشمالية، واستولى بالقوة على المنطقة هناك، وبقي لبعض الوقت، وتكاثر مثل الجراد، وقد جاء الآن متقدماً، ليس من دون قضاء مضى من الرب — لكن ليس كما أمل

مؤجلاً حتى أيام هذه الرسالة — لتدمير المسيحية كلها، وقد تبع وصول هؤلاء الناس، مذبحه عامة، ودمار شامل وبأساء لجميع الممالك، مع تخريب كامل للمناطق الخصبة، التي عاث فيها هذا القطيع من الناس فساداً، دون إبقاء لجنس، أو عمر، أو مرتبة، وهم مايزالون يأملون وهم واثقين، من تدمير بقية الجنس البشري، وهم يسعون إلى حكم البشرية والسيادة عليها لوحدهم، واثقين بقوتهم الهائلة، وبأعدادهم غير المحدودة، فبعدما قتلوا كل من وقع نظرهم عليه، ونهبوا كل مكان وخلفوا وراءهم انعدام كامل للسكان، وصل هؤلاء التتار (أو بالحري سكان تارتاروس) إلى مستعمرة الكومان الكثيفة السكان، ولأنهم لم يهتموا بالحياة، ولأن القوس هو السلاح المعتادين عليه كثيراً، أكثر من غيرهم من الشعوب، وبسهامهم، وبأسلحتهم المقذوفة الأخرى، التي يستخدمونها باستمرار، والتي أذرعتهم مدربة عليها وممارسة أكثر من سواهم، والتي باتت أقوى من الشعوب الأخرى مزقوا ذلك الشعب وأخضعوه، والذين لم يستطيعوا النجاة قد ذبحوا بسيفهم الدموية.

وجعل اقتراب هؤلاء الهمج، مع شيء من الصعوبة الروثينيين Ruthenians، الذين يسكنون على مقربة منهم، يأخذون حذرهم ويستنفرون، ولأنهم كانوا غير معتادين على قتال هذا الشعب غير المعروف، فإنهم تشاوروا حول سلامتهم، وخافوا من غضبهم مثل خوفهم من النار، واتخذوا لأنفسهم احتياطات ضد هجماتهم، وبالهجمات المفاجئة، وحملات ذلك العرق الهمجى، الذي ينقض مثل غضب الرب، أو مثل البرق، فإن كيف المدينة الرئيسية لتلك المملكة قد هوجمت وتم الاستيلاء عليها، وجميع تلك المملكة الفخمة، التي كان من المتوجب توحيد نفسها مع مملكة هنغاريا، من أجل الدفاع عن نفسها، وحمايتها، والتي أهملت ذلك ولم تفعله، تحولت بعدما جرى قتل سكانها، إلى وضع من الدمار الكامل والبأساء.

وكان ملكهم رجلاً كسولاً ومهماً، وقد أمر بوساطة الرسل والرسائل من هؤلاء التتار، أنه إذا أراد الحفاظ على حياته، وعلى حياة رعيته، فما عليه سوى الاستسلام على الفور حتى ينال حظوتهم، غير أنه لم يخف من هذا، ولم يأخذ حذره، وبذلك أعطى برهاناً لشعبه وللآخرين، أنه يتوجب عليه وعلى شعبه، القيام على الفور بالاستعداد من أجل حماية أنفسهم، والدفاع ضد غاراتهم، ولكن في الوقت الذي كان فيه هؤلاء الناس المغرورين، أو الجاهلين مستخفين بأعدائهم، وبكسل نائمين والعدو في جوارهم المباشر، ومعتدين على القوة الطبيعية للمكان وعلى منعته، شق التتار طريقهم إلى المملكة مثل زوبعة ريح، وفجأة طوقهم من كل جانب.

وعندما وجد الهنغار أنفسهم تحت الحصار، قبل أن يتوقعوا الهجوم، وقد فوجئوا عندما لم يكونوا مستعدين، حاولوا الدفاع عن معسكرهم ضدهم، وعندما بات الجيشان المتصارعان، أي جيش التتار، وجيش الهنغار، على مسافة خمسة أميال عن بعضهما بعضاً، اندفع الجزء المتقدم من التتار فجأة نحو الأمام عند فجر النهار، وطوّق رجاله فجأة معسكر الهنغار، فقتلوا الأساقفة ونبلاء المملكة الذين تصدوا لهم، وذبحوا حشداً من الهنغار في مذبحه ما من أحد يتذكر أن مثلها قد وقع في معركة واحدة، منذ زمن طويل جداً.

أما الملك نفسه، فقد نجا بصعوبة، حيث ركب على فرس سريع، وهرب تحيط به حاشية صغيرة، ليشترك في حصّة أخيه ملك ايليريا Illyria. ولكي يحصل هناك على الحماية على الأقل، وفرح المنتصرون بأسلاهم وغنائمهم، ثم إنهم استقروا في معسكر الهنغار المغلوبين، وكانوا في تلك الساعة ينهبون الجزء الأكبر والأجمل من هنغاريا، فيما وراء نهر الدانوب، ويلحقون الأذى بالناس بالنار وبالسيف، ويهددون بإشراك البقية في الدمار نفسه، وذلك كما أخبرنا من قبل الأسقف

المحترم لفاتزن Vatzen، الذي كان سفير ملك هنغاريا المذكور، إلى بلاطنا، والذي أرسل بعد ذلك إلى بلاط روما، وبما أنه كان مجتازاً خلال أراضينا أولاً، فقد قدم شهادة على مارآه، وبياناته صحيحة جداً.

وحصلنا أيضاً على معلومات وافية حول هذه الحوادث، بوساطة رسائل من ولدنا المحبوب كونراد، الملك المنتخب للرومان، وولي عهد مملكة القدس، وملك بوهيميا، ومن دوقي النمسا وبوهيميا، ومن كلام أفواه رسل، أكدوا فعلياً اقتراب وصول العدو، وقد سمعنا بهذا كله، ونحن نشعر بتشوش كبير في عقلنا، ولقد سمعنا —وبحكم أن الإشاعة، عن سيرهم، تسير أمامهم— بأن جيشهم الذي لا يمكن تعدادهم، مقسم إلى ثلاثة أقسام سيئة الطالع، وبسبب تساهل الرب تجاه خططهم الملعونة، قد زحفوا هكذا مقسمين، فواحد من هذه الأقسام قد أرسل خلال أراضي البروكتينيين Pructenian، ودخل إلى بولاندا، حيث سقط أمير تلك البلاد ودوقها ضحيتين لأعمال المطاردة المبيدة، وبعد ذلك استبيحت تلك المنطقة ودمرت من قبلهم، ودخل الشطر الثاني إلى الأراضي البوهيمية، حيث أوقف هناك، لأنه حورب من قبل ملك تلك البلاد، الذي تصدى له بشجاعة بوساطة جميع القوات التي كانت تحت إمرته، وأما الشطر الثالث فهو الذي يعيث فساداً في هنغاريا المجاورة للمناطق النمساوية.

وبما أن الخوف والرعب قد قام بيننا، بسبب شدة هؤلاء الغزاة الجريئين، الأمر الذي نبهنا ودعانا إلى السلاح، والضرورة هي أكثر إلحاحاً، كلما عظم الخطر وازداد، وهي تحثنا على التصدي لهم، وإن التأكد من الدمار الشامل للعالم كله، خاصة للعالم المسيحي، تدعو إلى تقديم مساعدة سريعة ونجدة، لأن هذا العرق من الناس متوحش، وخارج على القانون، وجاهل بالشرائع البشرية، وهم يتبعون سيلاً واحداً، ويعبدونه مولاهم، وهم يعبدونه ويجلونه مع طاعة كاملة، وهم

يطلقون عليه اسم رب الأرض، ورجالهم أنفسهم صغار، وقصار القامة، هذا بالنسبة للطول، لكنهم مندمجون، وأقوياء، وكتلهم ضخمة، ومصممون، وأقوياء، وشجعان، وجاهزون بإشارة واحدة من قائدهم للدفاع للقيام بأي واجب صعب، أو مهمة قاسية، ولهم وجوه واسعة، ونظرات قاسية، ويتفوهون بصرخات مرعبة، تتواءم مع قلوبهم، وهم يلبسون جلوداً غير مدبوغة، من جلود الثيران، والحمير، والخيول، وبالنسبة للدروع هم يحمون أنفسهم وأجسادهم بقطع من الحديد مخاطة إليهم، وقد استمروا باستخدامها حتى الآن.

لكن لا يمكننا أن نقول من دون أسف، إنهم الآن، جهزوا أنفسهم، من أسلاب المسيحيين المغلوبين، بأسلحة أكثر مواءمة، حتى يمكن —من خلال غضب الرب— أن نتعرض للقتل بدناءة أكبر، بوساطة أسلحتنا، وبالإضافة إلى ذلك لقد تزودوا بخيول أفضل، وهم الآن يعيشون على أطعمة أغنى، ويزينون أنفسهم بملابس أكثر جمالاً مما كانوا يرتدونه من قبل، وهم رماة نبالة لا يجارون، ويحملون جلوداً مصنعة، بها يعبرون البحيرات والأنهار الأكثر سرعة من دون خطر، وعندما تنعدم الأعلاف لديهم، لقد قيل بأن خيولهم تكتفي بلحاء الشجر وبالأوراق وبجذور الأعشاب، التي يجلبها الناس إليهم، ومع ذلك يجيدونهم دائماً سريعين جداً، وأقوياء في حال الحاجة.

وكنا على كل حال بوسيلة أو أخرى قد حذرنا سلفاً، ورأينا من قبل متوقعين جميع هذه الأحداث، وطلبنا دوماً بوساطة رسائل ومبعوثين من جلالتيكم، وكذلك من الأمراء المسيحيين الآخرين، ونصحنكم باخلاص، والتمسنا منكم، بالسماح لعدم العدوان، والعواطف، والسلام بالازدهار بين هؤلاء الذين بين أيديهم السلطات العليا، وأن يقوموا بتسوية جميع خلافاتهم، التي غالباً ما تجلب الأذى إلى المصالح العامة للمسيح، وأن نهض برشاقة وإجماع للتصدي لأولئك الهمج

الذين ظهروا مؤخراً، فلقد تبين أن الأسلحة الماضية غير كافية لشفاء الجرح، أي أن لانسمح لعدونا العام بسبب للابتهاج، ولا بمزيد من التقدم، بسبب الخلافات المنبعثة بين رؤساء المسيحيين.

يارب كم مرة، وكم غالباً ما كنا على استعداد للتواضع بأنفسنا، واعطاء منفذ لكل نوع من المشاعر الطيبة، في سبيل التمكن من الحبر الروماني، حتى يقلع عن إعطاء سبب للفضائح في جميع أرجاء الدنيا، وذلك بوساطة عداوته لنا، وأن يضع روابط التسامح فوق النصائح العدوانية المريضة ضدنا، وذلك في سبيل التمكن من تهدئة رعايانا الشرعيين، وأن نحكمهم في حالة من السلم، وأن لا يحمي هؤلاء الذين يتحركون ضد سلطتنا، حيث أن شطراً كبيراً منهم يلقى الرعاية والمعونة منه.

وهكذا بالتمكن من تسوية المسائل بشكل سلمي، وبإعادة إصلاح رعايانا العصاة، الذين ضدهم أنفقنا مبلغاً كبيراً من المال، وأنهنكنا قوانا، إن قدرتنا سوف تتضاعف، وسوف ترتفع بقوة أعظم ضد عدونا العام، لكن بما أن الإرادة هي الشريعة بالنسبة له، وهو لم يستطع التحكم بمسار لسانه المخادع، وقد رفض التمتع عن كثير من النزاعات التي حركها ضدنا، وقد أمر بنشر حملة صليبية ضدنا، ضدي أنا الذي أنا سلاح ومدافع عن الكنيسة، ولقد كان من واجبه، والأفضل له أن يبارس العمل ضد طغيان التتار، أو ضد المسلمين الذي يغزون الأرض المقدسة ويحتلونها، وهو يشجع العصاة من رعايانا، الذين يتآمرون ضد شرفنا وشهرتنا، ولما كان واجبنا الأكثر إلحاحاً العمل على تحرير أنفسنا من الأعداء في الداخل، كيف ستمكن من صد هؤلاء الهمج أيضاً؟، لأنهم اكتشفوا بوساطة جواسيسهم، الذين أرسلوهم في جميع الاتجاهات هذا الخلاف العام، ذلك أن هؤلاء القوم، وإن كانوا يحكمون من دون إعطاء أي تقدير للشريعة اللاهوتية، هم بارعون جداً، في بدع الحرب،

ولقد اكتشفوا الأماكن غير المحمية والضعيفة في البلاد، ولسماعهم بأخبار العداوات بين الملوك، وبصراعات الممالك، لقد تشجعوا، ونهضوا ضدنا بنشاط أعظم، فكم تضيف الشجاعة العالية إلى القوة وتزيدها، وبناء عليه لقد صرفنا اهتمامنا نحو القضيتين معاً، وبعون الحكمة الربانية، سوف نستخدم قوتنا وقدرتنا لتجنب الكنيسة الفضائح، الناجمة من الجانب الأول عن أعدائنا في الداخل، وأن نحميها من الجهة الأخرى من هؤلاء الهمج، ولهذا قمنا بشكل فعال بإرسال ابننا المحبوب كونراد ومقدمين آخرين من إمبراطوريتنا، مع قوة كبيرة للتصدي لحملات ولعنف هؤلاء الهمج ولصدهم، ونحن نناشد باخلاص عظيم جلالتكم باسم الرب يسوع المسيح، الصانع لعقيدتنا المسيحية، مع التوسل الأعظم دقة، وبوساطة التدبر الحكيم، بأن تتخذوا الاحتياطات من أجل وقاية أنفسكم ومملكتم، التي أدعو الرب أن يبقئها مزدهرة، وأن تعدوا بأسرع وقت ممكن قوة كاملة من الفرسان الشجعان والجنود، مع تجهيزات جيدة من السلاح، وهذا ما نرجوكم من أجله، بحق دم المسيح الذي سفك من أجلنا، وبحق روابط القرابة التي تربطنا.

وعليهم أن يعدوا أنفسهم للقتال بشجاعة وبحكمة، بالاتحاد معنا، في سبيل حرية المسيحية، وهكذا إنه باتحاد قواتنا ضد هؤلاء الأعداء، الذين ينوون الآن دخول حدود ألمانيا، التي هي الباب إلى العالم المسيحي، من الممكن الحصول على النصر من أجل كرامة وشهرة رب الحشود، ولعله يرضي جلالتكم، أن لا تمروا بهذه القضايا، من دون تقدير، أو تأخير منحها اهتمامكم، لأنهم — لاسمح الرب — إذا ما غزوا الأراضي الألمانية، ولم يواجهوا اعتراض، فإن بقية العالم سوف يشعر بصوت العاصفة، التي هي مقبلة على الهبوب، والتي نعتقد أنها قامت بقضاء من الرب، لأن العالم ملوث بعدوى مختلف الذنوب، بحكم أن الإحسان قد بدأ يصبح أكثر برودة في كثير ممن ينبغي أن يبشروا بالإيمان وأن يرفعوا

شأنه، وسيرتهم الفاسدة قد لوثت العالم بالربا، وبمختلف أنواع السيمونية والطموح.

ولعله يرضي — بناء عليه — جلالكم، أن تتجهزوا لهذه الطوارئ، وفي الوقت الذي يقوم فيه هؤلاء الأعداء لنا جميعاً في صبّ جام غضبهم في البلدان المجاورة، قم بموجب نصائحكم الحكيمة، فاعملوا الاستعدادات لمقاومتهم، لأنهم غادروا بلادهم، دون الاهتمام بأيّة مخاطر على حياتهم، مع النية (لاسمح الرب بتنفيذها) باخضاع جميع الغرب، وتدمير الإيوان بالمسيح واجتثاث اسمه، وبسبب الانتصارات غير المتوقعة، التي حصلوا عليها حتى الآن — بإذن من الرب — وصلوا إلى حالة من الخيلاء والجنون، أنهم باتوا يعدون أنفسهم قد حصلوا على ملكية جميع ممالك العالم، ويمكنهم اخضاع، وربط الملوك والأمراء الساجدين لهم كما يريدون، وحسبما يشاءون في خدمتهم الشريرة.

هذا ونحن نأمل بمولانا يسوع المسيح، الذي تحت قيادته وتوجيهه، حررنا حتى الآن أنفسنا من أعدائنا، وانتصرنا عليهم، بأن هؤلاء الذين تدفقوا من مناطق تارتاروس، سوف يجدون فخارهم قد أذل، بعد تجريب قوة الغرب، ومن ثم أن يجري صدهم عائدين إلى بلادهم في تارتاروس، وأن لا يعودوا قادرين على التبجح بأنهم جالوا بكل وقاحة خلال عدد كبير من البلدان، وأخضعوا كثيراً من الأمم، واقترفوا كثيراً جداً من الشرور، وذلك عندما اقتادهم قدرهم الذين لم يحتاطوا له، أو بالحري عندما استدرجهم الشيطان نفسه للموت، أمام النور المنتصرة لإمبراطوريتنا الأوروبية القوية.

وعندما تنهض ألمانيا بغضب وحاسة إلى القتال، وكذلك فرنسا، التي هي أم الفروسية وحاضنتها، وكذلك إسبانيا المقاتلة والشجاعة، مع انكلترا الخصب ورجالها البواسل، وهي محمية بأسطولها، وألمانيا المليئة بالمحاربين الشجعان، وداشيا البحرية، وإيطاليا الشرسة غير المدججة،

وبيرغندي التي لم تعرف السلام قط، وأبوليا التي لاتعرف الراحة والاستقرار، مع جزر القرصان والتي لم تقهر، مثل جزر الإغريق، والبحر الأدرياتيكي، وبحر تيرين Tyrrhene، وكريت، وقبرص، وصقلية، مع الجزر والمناطق المجاورة للمحيط، وكذلك عندما تنهض ايرلندا الدموية، مع ويلز النشيطة، وسكوتلندا المحاطة بالبحيرات، والنروج الثلجية، وكل منطقة فخمة ومشهورة، قائمة تحت النجم الملكي للغرب، فعندما يرسل هؤلاء نخبهم مزينين بشعار الصليب المانح للحياة، الذي يسير أمامهم، وقتها لن يصاب بالرعب والقنوط فقط الرعايا المتمردين، بل أيضاً الشياطين المعارضين. صدر أثناء تراجعنا، بعد استسلام فيانزا وإخلائها من السكان، في اليوم الثالث من تموز.

نشر الرسالة المتقدمة

وجرت كتابة رسائل لها المحتوى نفسه، مع تغيير بالعناوين الرئيسية فقط، وقليل من الكلمات في داخلها، من قبل الامبراطور المدافع المواظب عن الصالح العام، لأنه أضاف الكلمات التالية في رسالته إلى الملك الفرنسي، حيث أثار عواطفه بشكل مؤثر حيث قال: «نحن علاوة على ذلك مندهشون —عارفون بحكمة الفرنسيين— كيف أنكم لم تتنبهوا بدقة أكبر لملاحظة الدهاء البابوي، ونهمه أكثر من الآخرين، ذلك أنه بمطامحه التي لاتعرف الحدود، هو عازم الآن على اخضاع جميع الممالك المسيحية إليه، منطلقاً من بادرة وضعه تحت قدميه تاج انكلترا، وقد تجرأ الآن بطيش كبير، وبوقاحة يفكر باخضاع جلاله الامبراطور وجعله رهن شارته».

انتشار الشكوك ورعايتها

ملأت الطبيعة المدهشة هذه الظروف أوروبا كلها، بالعجب

والتساؤل، وانتشر ذلك إلى البلدان الإسلامية وانبعثت مواقف مختلفة بين كثيرين، ورعت مختلف الشعوب آراء متباينة حول هذه القضايا، فقد كان هناك بعض من قال بأن الامبراطور، اخترع على عهده، وتآمر ضاعطاً بحكاية التتار هذه، وأنه بهذه الرسالة البارعة أراد أن يغلف جرائمه الشائنة ويغطيها، وأنه كان بمطامحه الجشعة مثله مثل الشيطان، أو المسيح الدجال، يقوم بالتآمر ضد ملكيات العالم كله، في سبيل تدمير الإيمان المسيحي تدميراً كاملاً.

وقد تبرهن أيضاً أن الرسالة تحتوي على أكاذيب، لأنه قد ورد فيها بأن هذا العرق التتاري غير المعروف، قد تدفق من المناطق الجنوبية للعالم، الواقعة في الإقليم الحار، وهذا زيف واضح لأننا لم نسمع بأنهم عبروا خلال البلدان الجنوبية، لابل ولا حتى من خلال البلدان الشرقية، إضافة إلى هذا لقد تشككوا بأن الخطط السرية، والإجراءات التي لأساس لها، وكثير من مؤامرات هؤلاء التتار كانت تماماً من الاقتراحات الامبراطورية، لأنهم يخفون طريقته بالكلام، وتفاوت تجهيزاتهم، وأنه إذا ما اتخذ أحدهم أسيراً، لا يمكن ولا بطريقة من الطرق استخراج معلومات عن خططهم من الأسير، ولا حتى بأي نوع من أنواع العذاب تعرض لها، وبما أنه هناك سبعة أقاليم في الدنيا كلها، وهي: إقليم الهند، وإقليم الأثيوبيين أو المغاربة، وإقليم المصريين، وإقليم المقدسة، وإقليم اليونانيين، وإقليم الرومان، وإقليم الفرنسيين، وليس هناك من مكان بعيد في جميع أرجاء المسكونة من العالم، لم يجد التجار طريقاً إليه، كما قال الشاعر:

إلى الهند النائية يجد التاجر طريقه

فأين مثل هؤلاء الناس، الذين أعدادهم كبيرة إلى هذا الحد، وما برحوا حتى الآن جالسين مخفيين؟ ولماذا هناك الآن مثل هذا المكر، والتآمر السري فيما بينهم؟ وهناك — كما قالوا — الهيركانيين Hyr-

canians والسكيزيين، المتعطشين دوماً إلى الدماء البشرية، والذين يسكنون المناطق الجبلية والوعرة في الشمال، والذين يارسون حياة حيوانات متوحشة، ويعبدون آلهة الجبال في أيام معينة، وهؤلاء الناس قاموا بوساطة دسائس الامبراطور، مع جيرانهم الكومان، الذين دخلوا معهم بتحالف، فشنوا الحرب على ملك هنغاريا، وعلى بعض النبلاء الآخرين، في سبيل أنهم بإزعاج ذلك الملك ومضايقته، يمكن أن يفر ليضع نفسه تحت جناحي الامبراطور من أجل الحماية، ويقدم له الولاء، لأنه قدم إليه المساعدة، وبما أن هذه الأشياء قد نفذت، فإنها ما أن عملت حتى تراجعت قوى الأعداء، لكن لاسمح الرب أن تكون مثل هذه الشرور الكثيرة قد تأمر على صنعها إنسان واحد.

البابا يحض الأساقفة على ازدراء نصيحة الإمبراطور

ومن ثم القدوم إلى المجمع

أعيق في هذه الآونة، بسبب حوادث غير موائمة، السيد جيمس أوف برانستي Praeneste، الذي كان لبعض الوقت نائباً بابوياً في فرنسا والسيد أوتو كاردينال وشماس في Carcere Tulliano، وبعد ذلك نائباً بابوياً في الدانمارك ومن بعد هذا في انكلترا، وغريغوري أوف رومانا Romagna، الذي كان قد أرسل لتوه بمشابة نائب بابوي إلى الجنوين ليحللهم من ذنوبهم إذا ما أطاعوه، وتأخروا في جنوى، وكانوا يتطلعون إلى أسطول لأنفسهم، وكان هناك أيضاً معهم عدد كبير من رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، الذين كانوا يخافون من الإبحار، بسبب تهديدات الامبراطور، وقد تلقوا بشكل متواصل رسائل مواساة ورسلاً من البابا، وجرى في الوقت نفسه تحريضهم على الإبحار، وأن يسيروا من دون إعاقة من أجل حضور المجمع، لابل جرى حثهم بإصرار على ازدراء تهديدات السلطات العلمانية، وأن يكون استعدادهم أكبر لإطاعة والدهم الروحي.

ثم إنه تقديرًا لمبلغ كبير من المال دفعه هؤلاء الأساقفة، بناء على اتفاقية عقدت بينهم وبين الجنوئين، يتوجب على أساسها على الجنوئين اقتيادهم جميعاً، أي النواب البابويين والأساقفة، وحواشيهم، وهم متحررين من الخسارة ومن الأذى إلى البلاط الروماني، حتى ولو كان ذلك ضد موافقة الامبراطور، وعندما كانوا عاقدين لمناقشات طويلة ودقيقة، حول هذه القضايا، وعندما كان بعضهم في وضع غير المتأكد حول ماهو الأسلم والأعقل لفعله، أرسل البابا رسالة إليهم، أنه سوف —من دون تلكؤ— يرسل إليهم مساعدة قوية وفعالة على شكل أسطول ليلتقي بهم في البحر، لدى مغادرتهم الميناء، وذلك ليتولى قيادتهم وحمايتهم، بشكل لا تكون فيه قوى الأعداء قادرة على اعتراضهم بأي شكل من الأشكال، ولا حتى الامبراطور نفسه، الذي أوكل به صاحب القداسة وعهد إلى جهنم وإلى الشيطان، بحكم أنه موضوع تحت حرمانات وتكفيرات مضاعفة، وبرسالة البابا المقدسة هذه وبمواساته، تحمسوا وصاروا على استعداد لتحمل أي خطر، حتى لو كان الموت نفسه.

الامبراطور يسأل الأساقفة الارتحال إلى المجمع من خلال أراضيهم

وعندما علم الامبراطور بهذه الرسالة، تفهم بشكل واضح وأدرك أن البابا مصرّ تمام الإصرار على السعي لإذلاله، وأنه كان يعمل على جمع الأساقفة الذين لن يقفوا بأي حال من الأحوال ضد إرادته، ولهذا السبب، ولأنه أخذ يشعر بمخاوف كبيرة على نفسه أخبرهم بأنهم يستطيعون السفر من خلال أراضيهم، من أجل أن يعلموا تماماً بالامتيازات التي وضع فيها ثقته، ولكي لايجري فرضهم، أو أن تفرض عليهم تقارير زائفة، رجاهم بعدم الابحار بشكل مفاجيء نحو البلاط الروماني من دون التأكد من وجهات نظره، وبناء عليه أرسل إليهم سفراء خاصين، عندما كانوا قد استعدوا للابحار، وبلفظ وتواضع

أخبرهم أن بإمكانهم الجواز خلال جميع الأراضي التي هي تحت حكمه، بسلام كامل، وأمان تام، شريطة أن لايسافروا بالبحر، أو على طول شاطئ، وطلب منهم التيقن بأن ما من واحد من رعيته سوف يزعمهم أثناء رحلتهم، وقال لهم، بأنهم إذا كانوا غير واثقين بوعوده الامبراطورية، ماعليهم سوى إعداد شكل من أشكال الضمانة، ووعدهم بالالتزام بشروطها بكل تأكيد، والالتزام بجميع الشروط، من جميع الجوانب، وذلك وفقاً لما سوف يكتبونه، كما أنه أعلن أيضاً، أنه بعد قيامه بشرح قضيته شرحاً وافياً إليهم بكلمات الفهم، وبعد اخبارهم بجميع خصوصياتها بالتفصيل، سوف يعهد بكل ثقة واخلاص بأن يحكم عليها بعد فحصها، ومن ثم تسويتها من قبل المجمع، ووعده بالخضوع إلى القرار المستقيم لمثل هذا العدد الكبير من الآباء المقدسين، وهكذا قام بوسائل الاقتناع، وبالتوسلات، وبالأوامر، ورجاهم بوساطة جميع الالتماسات الممكنة لأن يكونوا نوابه، والمحامين عنه، والقضاة في هذه القضية، وجاء ذلك متوافقاً مع قول الشاعر:

بمزيج من الأوامر، والوعود، والأدعية

ظهر المولى على الفور وظهرت التضرعات

وعلاوة على ذلك اشتكى بمرارة حول العنف غير المحدود لاضطهاد البابا له، إلى حد أنه أثار الذين استمعوا إليه إلى درجة البكاء، ذاكراً بأن البابا قد عمل منه بوسائطه أكثر الهراطقة شروراً وأنه عدو حاد ومكشوف للإيمان المسيحي، مع أنه لم يدن بأنه كذلك، كما أنه لم يعترف بنفسه بذلك، كما أنه تسبب بحرمانه كنسياً في بلدان متنوعة، وشوّه سمعته بمختلف الوسائل التي كان بإمكانه ابداعها، وقد شوّه اسمه وسمعته بشكل لايمكن إصلاحه، وهذا أمر ما من شيء يمكن أن يكون أكثر ضرراً منه، وكان يبذل قصارى جهده ليتولى إذلاله، وقال: «فلقد قام مؤخراً بعدما جرت تسوية، واتفاق بشكل عام من طرفه ومن

جانبه، بوجوب عقد مجمع، فيه كنا مستعدين لشرح قضيتنا من على الجانبين، ومن ثم الالتزام بالقرار العام للمجمع، غير أنه غير بطيش صيغة الاتفاق المتقدم الذكر والاجتماع، ووجه الدعوة إلى جميع الأعداء المكشوفين للإمبراطورية، الذين كانوا مستعدين للحرب أكثر من استعدادهم للسلم، وجرى إرسال رجال دين ورجال علمانيين — كما هو واضح من فحوى رسائلتي — إلى ملك انكلترا، وإلى الأمراء الآخرين، التي فيها كشفت بكل تأكيد الشرور الخفية، والمصائد الخبيثة للبابا، وفي تلك الرسائل حذرتهم أنهم إذا كانوا يقدر أنفسهم وممتلكاتهم، أن لا يسمحوا لأساقفتهم بالجواز خلال ممتلكاتي»، وأضاف الامبراطور أيضاً، كما قال في أماكن أخرى، وكما ذكر في رسائله، أنه سوف يكون خطراً، ومضاداً للمنطق العهدة بمثل هذه القضايا الصعبة للبابا الذي هو عدوه المكشوف، وكان الذين اتفقوا بأرائهم معه، قد بدوا أنهم بالحري متأمرين يستهدفون اخضاع الامبراطورية المقدسة، لا أن يكونوا حكاماً بالعدل، وهكذا عهد بالقضية إلى محكمة منحازة، القضاة فيها جاهلون بالسبب الأساسي للخلاف، وبظروف القضية.

الأسباب التي قدّمها الإمبراطور إلى الأساقفة حول عدم حضوره

وبناء عليه التمس الامبراطور بحرارة من الأساقفة للقدوم والعبور بسلام خلال أراضيه حتى يكونوا متعرفين تماماً بقضيته، ولكي يتمكن من إخبارهم بجميع الظروف الخفية للقضية، لأنه أعلن أنه لا يستطيع — بأي حال من الأحوال — القدوم إليهم منه شخصياً، بسبب حاجته إلى المال، الذي أنفق مبالغ كبيرة/ أثناء الحصار الطويل لفيانزا، وأيضاً بسبب قضايا أخرى، القضية الأساسية بينها مرتبطة بالجيش الذي يقوده ابنه، والذي كان مشغولاً آنذاك ضد التتار، وقضايا أخرى، لا بدّ له من إبقائها سراً، وكذلك بسبب العصاة الجنوبيين، الذين لم يختر الوصول إليهم إلا بقوة كبيرة.

النواب البابويون يرفضون الذهاب إلى المجمع من خلال أراضيهم

وتشجع الأساقفة — على كل حال — بوعود النواب البابويين، وبرسائل المواساة البابوية المتوالية، التي وعد فيها بإرسال مساعدة سريعة ومؤثرة تلقاهم في البحر، ولذلك رفضوا أن يتخلوا، ولا بأي شكل من الأشكال، عن نيتهم المقترحة، ذلك أنهم قالوا: «لا يمكن الاعتماد ولا الوثوق بالكلام التافه لرجل محروم كنسياً»، وبناء عليه رفض الأساقفة نصيحة الامبراطور، ومطالبه، ووضعوا ثقتهم بتعداد الجنويين، الذين كانوا مجريين في فن القتال البحري، واستخفوا بتهديدات الامبراطور وبقدراته، وأقلعوا على ظهور سفنهم وسار الجنويون أمامهم، وانخرطوا بتفاخرات كبيرة، وتبجحوا قائلين بأن قوى الذين من الممكن أن يتصدوا لهم، لم تكن مرعبة لهم، ولا بأي حال من الأحوال، وقالوا عن الأساقفة وعن الناس المتعلمين، بأنهم جنباء، ورعايد، لأن تفاخرهم كان أكبر من قوتهم، وعندما كانت غلايينهم وسفنهم مصفوفة بشكل نظامي، شقوا طريقهم خلال البحر التيراني Tyrrhene، وذلك في رحلتهم نحو الشرق، وسط صراخ وضجيج البحارة، وأصوات الأبواق.

الإمبراطور يأمر باعتقال الأساقفة

وعندما علم الامبراطور بهذه القضية، غضب لأنه وجد أنه قد استخف به، وأن انذاراته والتماساته قد رفضت سواء، وبناء عليه بعث إلى ابنه هنري، الذي اعتاد على أن يدعو بابنه الطبيعي، والذي إليه عهد بمهمة حراسة البحر، و السواحل البحرية، مع قوة بحرية، وأمره باعتراض جواز الأساقفة، وأن يعتقلهم من دون خوف وهم مسافرون، أو أن يغرقهم، أو أن يقتلهم.

اعتقال النواب البابويين والأساقفة

ثم إن هنري المذكور، أرسل في طاعة لأوامر أبيه، عشرين غليوناً جددًا، وقد بنوا بقوة، وكانوا مجهزين بشكل جيد برجال مسلحين، تحت إمرة ستولليوس Stollius، وكان ملاحاً بارعاً جداً، وكلفه باعتراض الجنويين، الذين كانوا يقودون الأساقفة بثقة واطمئنان، ثم أعقب ذلك نشوب قتال عنيف ودموي في البحر، بين البيازنه الذين كان يقودهم هنري شخصياً مع ستولليوس المتقدم الذكر، الذي انقض كشهاب عاصف وانخرط بالقتال، هذا من جانب، ومن الجانب الآخر الجنويين، وقد لحقت الهزيمة بالجنويين، ووقع الأساقفة والنواب البابويون بالأسر، باستثناء بعضهم الذين قتلوا أو غرقوا، وكان من بين الجميع رئيس أساقفة فايسنزا Vicenza وكثيرين، عددهم كبير حتى نذكرهم، وكان من بين رعاة الديرة راعي دير سافيني Savigny، فقد نجا مع شيء من الصعوبة حراً، ودون أن يصاب بأذى، بوساطة مساعدة جون أوف لكسنغتون Lexington، وهو أخوه، وكان فارساً شجاعاً جداً، وكان أيضاً رسولاً من ملك انكلترا، وقد حصلنا على معلومات واضحة عن هذه الحادثة التعيسة من خلال الرسالة التالية، ومن خلال تقرير عام يحمل بينة على صدقها.

رسالة الإمبراطور حول الاستيلاء على مدينة فيانزا

وحول أسر الأساقفة في البحر

وإثر وقوع الأساقفة، والنواب البابويين بالأسر ومعهم أدلائهم الجنويين، حملوا وأحضروا أمام الإمبراطور الذي قام على الفور فكتب إلى ملك انكلترا، وإلى الأمراء الآخرين كما يلي:

من فردريك، الإمبراطور، إلى ملك انكلترا، صحة وعواطف مخلصنة:

بمشاعر سارة وعواطف مبهجة تسلمنا رسائلكم ورسلكم الذين بعثت بهم إلينا، وبعناية سمعناهم وفهمنا منهم، وكذلك بالنسبة

لِلرَّسَائِلِ، وَالشَّيْءَ نَفْسَهُ بِالنِّسْبَةِ لِمَا أَوْصَلَهُ الرَّسْلُ إِلَيْنَا بِشَكْلِ شَفْوِيٍّ، مِنْ قَبْلِكُمْ، وَالْآنَ إِنَّهُ بِالنِّسْبَةِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الرَّسْلِ، وَهُمْ جَمِيعًا، وَلِلرَّسَائِلِ كُلِّهَا الَّتِي بَعَثَتْ بِهَا بَوَسَاطَتِهِمْ، سَوْفَ نَقْدُمُ إِلَيْكُمْ أَجُوبَةً كَامِلَةً عِبْرَ مَوْثِقِنَا الْأَمِينِ وَالْمَحْبُوبِ كَثِيرًا لِدِينَا الْمَعْلَمِ وَوَلْتَرِ دِي أُوْكِرَا Ocro، الَّذِي إِلَيْهِ يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَعْطُوا ثِقَةً كَامِلَةً، مِثْلَ الَّذِي تَعْطُونَا إِيَّاهُ شَخْصِيًّا، فِي كُلِّ شَيْءٍ هُوَ سَوْفَ يُخَبِّرُكُمْ بِهِ شَفْوِيًّا بِأَسْمِنَا، وَإِلَيْهِ قَدْ أُعْطِينَا سُلْطَاتٌ كَامِلَةٌ لِلتَّبَاحِثِ فِي الْقَضِيَّةِ، الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا جَاءَ الرَّسْلُ الَّذِينَ تَقْدُمُ ذِكْرَهُمْ، إِلَيْنَا، وَأَنْ يَعْملَ عَلَى إِنْهَائِهَا، وَفَقًّا لِلصِّيغَةِ الَّتِي أُعْطِيَتْ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلِنَا.

بِالْإِضَافَةِ إِلَى هَذَا، إِنَّكَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَبْتَهِجُ فِيهِ مَعْنَا بِسَبَبِ نَجَاحَاتِنَا، وَفِي إِذْلَالِنَا لِرَعَايَانَا الْمَتَمَرِّدِينَ، عَسَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَرْعَبًا وَمَنْذِرًا لِلْآخَرِينَ، نَحْنُ نَبِيحُ إِلَيْكُمْ أَخْبَارًا مَرْضِيَّةً، بِأَنْ مَدِينَةَ فَيَانَزَا، الَّتِي لَمْ تَضَعْ ثِقَتَهَا بِاسْتِحْقَاقَاتِهَا، بَلْ فِي أَسْوَارِهَا، وَبِمَوَاءِهَا فَصَلَ الشِّتَاءُ لَهَا، فَتَجَرَّأَتْ عَلَى الثُّورَةِ عَلَيْنَا، وَأَظْهَرَتْ مَعَارِضَةَ لِقَوَاتِنَا، إِنَّمَا مَعَ عَوْدَةِ الرَّبِيعِ، كَانَتْ تِلْكَ الْمَدِينَةُ قَدْ تَعَرَّضَتْ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَذَى بِوَسَاطَةِ حَمَلَاتٍ وَقَذَائِفٍ مَجَانِيْقِنَا، وَقَدْ تَسَاقَطَتِ الْأَسْوَارُ، وَدَخَلَ لَآغُومُونَا بِوَسَاطَةِ أَنْفَاقٍ وَمِمَرَاتٍ إِلَى دَاخِلِ الْمَدِينَةِ، وَأَعْقَبَ ذَلِكَ قِتَالًا يَدًّا بِيَدٍ بَيْنَ سُكَّانِ الْمَدِينَةِ وَجُنُودِنَا، وَعِنْدَمَا وَجَدُوا الْآنَ أَنْفُسَهُمْ مُضْطَرِّينَ — بِسَبَبِ مَا تَعَرَّضُوا لَهُ مِنْ تَهْدِيدَاتٍ — لَتَعْرِضَ أَجْسَادُهُمْ لِسِيفِنَا، تَشَاوَرُوا بِعَقْلَانِيَّةٍ حَوْلَ سَلَامَتِهِمْ لِأَنْ هَزِيمَتُهُمْ هَدَدَتْهُمْ بِدِمَارٍ مُحِيقٍ، لِذَلِكَ شَرَعُوا بِحُكْمِ الضَّرُورَةِ يَطْلُبُونَ رَحْمَتَنَا، وَفِي يَوْمِ الْأَحَدِ الْخَامِسِ عَشَرَ مِنْ نَيْسَانَ اسْتَسَلَمُوا بِأَنْفُسِهِمْ لِإِرَادَتِنَا، وَأَلْقَوْا بِأَنْفُسِهِمْ وَبِمَدِينَتِهِمْ تَحْتَ رَحْمَتِنَا، وَأَقْسَمُوا بِإِيمَانِ الْوَلَاءِ إِلَيْنَا، وَتَخَلَّوْا عَنْ جَمِيعِ الْأَيَّانِ غَيْرِ الْقَانُونِيَّةِ الَّتِي كَانُوا قَدْ أَقْسَمُوا.

وَلَدَى خُضُوعِهِمْ لِرَحْمَتِنَا، الَّتِي هِيَ رَفِيقُ دَائِمٍ لِلْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ، وَحُكْمِ،

صاحب حكم عادل، قهرنا مشاعر المنتصر، وأقنعنا أنفسنا بالتعامل برحمة مع المغلوبين، كما أننا فكرنا أن نصرنا سوف يكون نصراً أكثر مجداً، بالعطف على هؤلاء الذي عادوا إلينا ثانية، بدلاً من الانتقام منهم في وضعهم الكئيب، وعددنا أنه نوع من أنواع الانتقام، أن نعفو عن المضار، وذلك في الوقت الذي كان في مقدورنا الانتقام لهم بقسوة، وهكذا قمنا بكرم بالعفو عن جرائمهم، مع أنهم كانوا لا يستحقون ذلك، وحللنا جميع الذين كانوا مدانين بالخيانة ضدنا، وبعدما أصلحنا أوضاع المواطنين وأوضاع مدينتهم، تحت سلطتنا، وسلطة الامبراطورية (أكثر من ذلك ما من شيء أعظم سروراً، أو يستحق أكثر) وفقاً لما تسمح به أوضاع الأمور وتتطلبه، صرفنا انتباهنا نحو إفراغ منطقة بولونا Bologna من السكان، ووقتها حدث لسوء حظهم، أن حشدنا من الأساقفة مع أسقف برانستي، وأوتو أوف ثورونجيا، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا في سجن توليان، والذين احتشدوا من مختلف البلدان، وقد قدموا إلى جنوى لمعارضة إجراءاتنا، وقد التحق بهم في هذا المكان غريغوري أوف روماننا، الذي أرسل لمرافقتهم، ولكي يكونوا مرتبطين ببعضهم بعضاً بقوة أكبر، وعقدوا اتفاقاً مع الجنوبيين العصاة علينا، ومع بعض الناس من المملكة الفرنسية، وقد حشدوا قوة بحرية كبيرة، وجعلوا رجال عصاباتهم يسلحون أنفسهم، واتفقوا معهم على الذهاب إلى البابا، من أجل زيادة الخلاف.

وفي سبيل أن نعيق تقدمهم، وأن نمنع وصولهم، تدبرنا احتشاد أسطولنا في بيزا، ذلك أنه كان قد استعد قبل بعض الوقت في الماضي، ووضعناه تحت إمرة ستولليوس المنتصر، وكان أسطولنا هذا مشحوناً من قبل رعايانا المخلصين، وقد علم مسبقاً بأخبار تحركاتهم، فجرى إرساله إلى الأماكن والموانئ التي كان لابد لهم من المرور بها، حتى في أعماق البحار، لأنها قائمة على طريقهم وكانوا مرغمين على الابحار

والمرور بها في طريقهم، وكانت الأوامر الصادرة لأسطولنا هي اعتراضهم بالقوة، وعند ذلك هاجم قائدنا المذكور غلايينهم بغلاييننا، وبالرب ذي القدرات الكلية، الذي رأى وقاتل من عليين، والذي يقضي بين الصبح والخطأ، فهو قد رأى طرائقهم الشريرة، وفساد قلوبهم وبفضله الرباني سلمنا هؤلاء النواب البابويين والأساقفة، وأوقعهم مكتوفين في قبضتنا، فبعدما جرى اغراق ثلاثة من غلايينهم، مع كل شيء كان على ظهورهم، وبعدما خسروا حوالي الألفين من الرجال من دون أمل بالعودة، جرى قهر اثنين وعشرين غليوناً — بعون الرب وحكمته — بوساطة غلاييننا، وبعد ايقاع مذبحة كبيرة بين بحارتهم، جرى أسر الجميع، مع ممتلكات كل واحد على ظهور السفن، وكان في هذه الغلايين النواب البابويين الثلاثة المتقدم ذكرهم، مع رؤساء الأساقفة والأساقفة ورعاة الديرة، وعدد كبير آخر من القساوسة، وذلك إلى جانب رسل، ونواب أساقفة، حيث وصل عددهم إلى حوالي المائة، مع سفارات من المدن اللومباردية العاصية، وتآلف الذين كانوا ذاهبين إلى المجمع المذكور من أربعة آلاف جنوي، إلى جانب الأشخاص الخاصين والمنتخبين من جنوى، والذين تولوا قيادة الغلايين، ومرافقة الأساقفة، بقصد أخذهم من جنوى وإعادتهم إليها، كما جرى لسوء الحظ الاتفاق بينهم، ووقع هؤلاء جميعاً أسرى بين أيدينا، مع أسقف برانستي، الذي غالباً ما أثار كراهية الرئيس ضدنا.

ويتوجب على هذا الرجل، الذي يحمل شكل ذئب، تحت المظهر الخارجي لشاة، التوقف عن الاعتقاد بأنه يحمل الرب في قلبه، لأننا نعتقد أن قضاء الرب الخاص هو الذي وقع عليه، وعليه أن يعرف بأن الرب معنا، وهو جالس على عرشه ليحكم بين الخير والشر، فهو قد قضى بأن لاتحكم آليّة العالم من قبل رجال الدين فقط، بل من قبل الحكام ورجال الدين معاً، وعلينا — بناء عليه — بما أن الرب قد كشف

خططه لنا من السماء، وحول كثيراً من الأماكن الوعرة إلى أماكن سهلة، أن نحاول تجنب عرق الحرب، وغبار الصيف، وأن نوجه خطانا، وتفكيرنا، واهتماماتنا نحوه، وهو الذي منحنا المزيد من زيادة السرور والمجد، لنا وللحكام الآخرين، ونحن نهنيء الأمراء الآخرين، وأنت بشكل خاص، لأنك كنت مسهماً في نجاحاتنا هذه المتقدمة الذكر، والتي نرغب بوحدة المشاعر التي تجمعنا، في أن تشارك في واقعة أية حادثة حسن حظ في المستقبل. صدر في فيانزا» إلخ، إلخ.

كيف جرى حمل الأساقفة إلى نابل للسجن فيها

وأرسلت رسائل بهذا المحتوى إلى الأمراء الآخرين، بغية منحهم السرور، لكنهم لم يكونوا جميعاً مسرورين بالذي حوته، كما قال الشاعر الحكيم:

مامن أحد سوف يمتلك

الفخار الذي نما من الجريمة

وبناء عليه، جرى —بناء على أوامر الامبراطور— حمل الأساقفة وإبعادهم بالبحر، وبعد رحلة لمدة ثلاثة أسابيع تقريباً، جلبوا إلى نابل Naples في أبوليا، حيث أودعوا في سجن أمين، في قلعة كانت محاطة بالمياه، قرب تلك البلدة، هذا ولم يشعروا جميعاً بمصائب السجن في الدرجة نفسها، وكانت أحوال أسقف برانستي تعيسة جداً، مع أن المرض، أو الضعف الشديد قد استبد بهم جميعاً، لأنهم أثناء الرحلة جلسوا مصفدين، ومضغوطين مع بعضهم في أكوام، وترافق هذا مع حر شديد لا يمتثل نزل بهم، وكان الذباب يتطاير من حولهم، ويلدغهم مثل لدغات العقارب، فلقد سحلوا على طريق للشهادة طويل، وجرى تعذيبهم بالجوع والعطش، وكانوا عرضة للإهانات والازعاج حسب رغبات ملاحى القرصان المعادين، وقد تحملوا هذا كله بحكم طاعتهم،

ولذلك بدا السجن بالنسبة لهم مكاناً للراحة، مع أنه لم يقدم لهم أي نوع منها، ونتيجة لذلك أخذوا يتلاشون، ولا سيما الأكثر ضعفاً بينهم، فقد هلكوا تحت مختلف الأمراض، ولفظ بعض رجال الدين، وعدد كبير آخر أرواحهم التعيسة، وغادروا تعاسات هذه الحياة إلى الرب بعدما حصلوا على رمز الشهادة، وبعد وقت قصير أيضاً، عبر أسقف برانستي، في طاعة منه إلى البابا حتى الموت، من هذا العالم الشرير إلى مكان للراحة.

إرسال هنري لمساعدة أخيه كونراد ضد التتار

وبعدما توصل الامبراطور —بعون الرب وإذنه— إلى تحقيق غرضه، أرسل ابنه هنري، الذي كما ذكرنا قد تغلب على الأساقفة ومرافقيهم، للالتحاق بأخيه كونراد، الذي كان قد استعد مع جيش لا يحصى تعداد، قد حشد من مختلف مقاطعات الامبراطورية، ليضبط عنف التتار والكومان، وفي سبيل أن يواسي الأخوان كل واحد منهما الآخر، ويساعده، ولكي يحاطا بقوة أكبر، فقد أخذ هنري المذكور، بناء على أوامر والده، معه أربعة آلاف من الفرسان، وكتلة كبيرة من الجنود الرجالة، الذين عندما اتحدوا مع الآخرين الذين أرسلوا لمساعدتهم، شكلوا جيشاً عملاقاً، ولدى اكتشاف الأعداء لهذا هدأت رعونتهم، وأمكن ضبط شططهم، وأصبحوا أكثر برودة، ذلك أنه وقعت معركة دموية قرب ضفاف نهر دلفيوس Delpheos، ليس بعيداً عن الدانوب، وبعدما سقط عدد كبير من على الجانبين، أمكن صدّ جيش العدو، مع أن تعداده كان كبيراً جداً، لكن قبل أن يتراجع، وقعت حادثة، نجمت عن خداع اليهود، الذين اعتقدوا أن أعداءنا هؤلاء، كانوا شطراً من الجنس اليهودي، ممن كان محبوساً في جبال القوقاز، وأنهم على هذا قدموا لمساعدتهم، في سبيل اخضاع المسيحيين، ولقد رأينا أن هذه الشرور العظيمة جدية بأن نقحم أخبارها في هذا الكتاب.

الشرور الهائلة لليهود

في هذه الآونة، اعتقدت أعداد من اليهود، في القارة، خاصة في المناطق العائدة للامبراطورية بأن هؤلاء التتار والكومان، كانوا شطراً من جنسهم، وهم الذين حبسهم الرب في جبال القوقاز، بناء على أدعية الاسكندر الكبير، وقد اجتمعوا بناء على دعوة عامة، في مكان سري، حيث قام واحد منهم، بدا أنه الأكثر حكمة والأعظم نفوذاً بينهم، فخطبهم كما يلي:

«إخواني، نسل إبراهيم الشهير، وكرم رب السبت، الذين سمح ربنا أدوناي، لأن يعيشوا طويلاً مظلومين تحت حكم المسيحيين، لقد حان الآن الوقت كي نحرر أنفسنا، وأن نقوم بقضاء من الرب بظلمهم بدورنا، في سبيل أن يجري انقاذ بقية بني اسرائيل، لأن إخواننا من أسباط بني اسرائيل، الذين كانوا من قبل محبوسين، قد انطلقوا الآن وتدفقوا لإخضاع العالم كله، ووضعوه تحت حكمهم وحكمنا، وبقدر ما كانت معاناتنا الماضية حادة وطويلة، سوف يكون مجدنا أعظم، وهو المجد الذي سوف يصير إلينا، ولذلك دعونا نذهب إلى استقباهم مع هدايا ثمينة، وأن نتلقاهم بتكريم هو الأعظم، فهم يحتاجون إلى القمح، والخمر، والسلاح».

وسمع الحشد كله كلامه بسرور، وجلبوا على الفور جميع السيوف، والخناجر، والدروع، التي وجدوها معروضة للبيع في أي مكان، وفي سبيل إخفاء خيانتهم، وضعوهم في براميل، ثم إنهم أخبروا المقدمين المسيحيين، الذين كانوا تحت حكمهم، بأن هؤلاء القوم الذين يدعون بشكل عام باسم تتار، كانوا يهوداً، وأنهم لن يشربوا خمر، ما لم تكن معمولة من قبل يهود، فهذا ما أخبرونا به، ورجونا بخرارة أن نزودهم ببعض الخمرة المعمولة من قبلنا، نحن إخوانهم.

ونحن رغبة منا، في إزالة هؤلاء الأعداء غير البشريين العامين من بيننا، وأن نحرر المسيحيين من طغيان الدماء المحيق بهم، أعددنا حوالي الثلاثين برميلاً مليئين بخمور مسمومة مميتة، حتى تحمل إليهم في أسرع وقت ممكن، ولذلك سمح المسيحيون إلى هؤلاء اليهود الأشرار، بتقديم هذه الهدية الشريرة إلى أعدائهم الأشرار، وحدث أنه بعدما قطع هؤلاء اليهود مسافة طويلة من ألمانيا، وكانوا على وشك عبور أحد الجسور مع براميلهم، طالبهم صاحب الجسر — تبعاً للعادة — بدفع الضريبة مقابل جوازهم، ورد عليه اليهود بصلف، ورفضوا تلبية مطالبه، وقالوا بأنهم كانوا مستخدمين في هذا العمل لصالح الامبراطورية، لا بل في الحقيقة لصالح المسيحية كلها، حيث أنهم كانوا مرسلين إلى التتار، بشكل سري لتسميمهم بخمرتهم، وتشكك الحافظ للجسر بتأكيدات اليهود، فأحدث فتحة في أحد البراميل، لكن ما من سائل تدفق منه، وهنا أصبح متأكداً من خيانتهم، فخلع غطاء البرميل، وفتحته بالقوة، فاكشف أنه كان مملوءاً بالسلاح.

ولدى رؤيته لهذا المشهد، صرخ بصوت مرتفع «عجباً، ماهذه الخيانة التي لم يسمع بمثلها لماذا نسمح لمثل هؤلاء الناس بالعيش بيننا؟»، وعلى الفور قام مع آخرين، جمعهم دهشتهم من حوله، فكسروا بقية البراميل، وما ان أنجزوا ذلك، حتى وجدوهم مملوئين بسيوف كولونية Cologne، وبخناجر من دون أغمدة، قد صفت وجمعت بشكل مندمج، وهكذا قاموا على الفور بإظهار الخيانة الخفية، والخداع غير الاعتيادي لليهود، الذين اختاروا مساعدة هؤلاء الذين هم أعداء مكشوفين للعالم، والذين كما قيل، كانوا بحاجة ماسة إلى السلاح، أكثر من مساعدة المسيحيين الذين سمحوا لهم بالعيش بينهم، واتصلوا بهم بكل وسيلة من وسائل الاتصال، ولذلك جرى تسليمهم على الفور إلى منفذي العقوبات، من أجل إما أن يوضعوا بسجن أبدي، أو أن يجري

إعدامهم بسيوفهم.

كيف جرى تحليل الناس من عهودهم بحمل الصليب مقابل دفع مبلغ من المال

وجرى في هذه الآونة، في سبيل سلب بلاد انكلترا التعيسة، ونهب ثرواتها، ابداع ألف طريقة، وذلك من قبل الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، الذين كانوا مدعومين بترخيص من قبل البابا، حيث تولوا أثناء وعظهم منح تحليل كامل من جميع الذنوب إلى جميع الذين سوف يحملون الصليب، في سبيل تحرير الأرض المقدسة، وإثر ذلك، وبعد يومين أو ثلاثة أيام على الأكثر، وبعدما أقنعوا كثيرين بحمل الصليب، قاموا بتحليل هؤلاء من تعهدهم، على شرط الاسهام بدفع مبلغ كبير من المال من أجل مساعدة الأرض المقدسة، وأن يدفع كل واحد، بقدر ماتسمح له إمكانياته، ولكي يجعلوا الانكليز أكثر جاهزية، وأكثر قبولاً بمطالبهم أعلنوا بأن المال سوف يجري إرساله إلى الايرل رتشارد، وعلاوة على ذلك أروهم رسالة منه، وذلك لكي يقدموا ضمانة أفضل، كما أنهم منحوا بعض الغفرانات إلى رجال مسنين، ومرضى، ونساء، ومعتوهين، وأطفال، ممن حملوا الصليب، أو اقترحوا حمله، وتسلموا المال منهم مسبقاً من أجل هذا الغفران، وعرضوا رسائل توثيقية من الايرل رتشارد تتعلق بهذه القضية، وقد جرى الحصول على هذه الرسائل من البلاط الروماني، وبهذه الطريقة أفرغوا محافظ نقود الانكليز، وجرى الحصول على مبلغ كبير من المال، نظراً للحظوة التي تمتع بها الايرل رتشارد، إنما علينا هنا أن نسأل: من الذي سيكون الحافظ الأمين والموزع لهذا المال؟ ذلك أننا لانعرف.

تثبيت المعلم نيقولا أوف فارنهام في أسقفية درم

وفي التاسع من حزيران، في هذا العام، جرى تثبيت المعلم نيقولا

أوف فارنهام Farnham الأسقف المنتخب لدرم، وتكريسه أسقفاً لذلك الكرسي، في كنيسة القديس أوسولد Oswald في غلوستر، وقد تولى تكريسه وولتر رئيس أساقفة يورك بحضور الملك والملكة، مع عدد كبير من الأساقفة ورعاة الدير، لكن فيما يتعلق بالقضية التي نظر إليها والمتعلقة بتكريسه للرهبانية، والتي أثرت بين بعض الذين رغبوا في إثارة الخلاف، رفض نيقولا المذكور المطالبة بأي امتياز ليس له حق فيه، كما أنه لم يظهر نفسه متعجرفاً أو متمرداً، ولذلك جرى أثناء تكريسه، بمشهد عام أمام جميع الأساقفة والنبلاء، وبحضور مطرانيته، أن قام وولتر رئيس الأساقفة المذكور، بمهابة ووضوح بتكريسه رهبانياً بصوت مرتفع، وفقاً للعادة، وكان ذلك كما يلي:

«أنا نيقولا، الأسقف المنتخب لكنيسة درم أعترف بالطاعة القانونية، والاحترام، والخضوع لكنيسة يورك، وإليك أيها الأب وولتر رئيس أساقفتها، وأنا أدون هذا بيدي»، ثم إنه قام على الفور، بحضور جميع المحتشدين، فوضع علامة الصليب بالحبر على رأس الوثيقة، وناولها إلى رئيس الأساقفة كي يجري حفظها لديه في خزانته.

الموت التعيس للإيرل غيلبرت مارشال

في الوقت الذي كانت فيه الأيام تتضاعف، وتلاعب، وتخضع العالم بوقائع متنوعة، أعدّ الايرل غيلبرت مارشال مع بعض النبلاء الآخرين، نوعاً من أنواع مباريات المبارزات، مما كان بعضهم يدعوه باسم «مغامرة»، لابل بالحري ينبغي دعوته «سوء مغامرة»، فقد جربوا أولاً قوتهم على رمايات قوس زيار من هارتفورد، حيث تمكن بوساطة براعته في تكتيكات الفروسية، من الحصول لنفسه على الثناء في العلم العسكري، وأعلن الجميع، أنه على الرغم من صغر حجم جسده، قد نال باستحقاق التميز لنفسه نظراً لشجاعته، وهذا ما كان الايرل المذكور

٢

يهدف نحوه بشكل رئيسي، لأنه كان في المقام الأول، قد أعدّ للالتحاق بطوائف الكهنة، حيث قيل بأنه كان ضعيفاً، وغير بارع في التمارين الحربية، وامتنطى أثناء هذه المبارزة على فرس أصيل، من الخيول الإيطالية لم يكن معتاداً عليه، وكان مجهزاً بدرع جميل، ومحاطاً بكتلة كثيفة من الجنود، الذين مالبنوا أن تركوه بعد ذلك، وتفرقوا، ينوون الحصول على الربح.

وعندما كان الايرل يسلي نفسه بتفقد فرسه أثناء عدوه بسرعة قصوى، ومن دون التوقف عن لكز طرفيه بركابه الحادين، ليحثه على سرعة أكبر، ولأن الوضع اقتضى شد المقود، انقطع المقود من طرفيه بشكل مفاجيء من عند عقدة الاتصال، وأخذ الفرس يهز رأسه نحو الأعلى، فأصابه بضربة قاسية على صدره، وأكد بعض الذين كانوا هناك من دون تردد، بأن اللجام قد جرى قطعه بشكل خياني من قبل بعض الأشخاص الحسودين، من أجل أن يترك هكذا تحت رحمة فرسه، فيمزق إلى قطع ويقتل، أو على الأقل يمكن أسره من قبل خصومه كما يرغبون، وعلاوة على ذلك كان قد أصابه الصمم بسبب الضجة، وصار أعمى تقريباً، بسبب الحرّ، والغبار، والتعرق، وبات رأسه مثقلاً بسبب وزن خوذته الثقيلة، ولم يعد من الممكن له السيطرة على حصانه وكبحه، لا من قبله ولا من قبل أي واحد آخر، وبعد بعض الوقت أغمي عليه، وبدأ يتأرجح في سرجه، ثم مالبت أن سقط شبه ميت، وجاء سقوطه من على ظهر فرسه، وإحدى قدميه معلقة بالركاب، وبهذه الطريقة جرى جره لمسافة ما فوق الحقل، حيث أصيب ببعض الجروح الداخلية، التي سببت موته.

ولقد هلك في مساء السابع والعشرين من حزيران، وسط حزن عميق وصراخ مرتفع من قبل الذين رأوه في بيت الرهبان في هارتفورد، وقبل أن يلفظ نفسه الأخير، حيث كان قد تلقى قربان الموت، عمل

طلباً إلى الكنيسة، كنيسة العذراء المباركة في هارتفورد في سبيل إنقاذ روحه، وجرى بعد ذلك فتح جسده، فوجدوا أن كبده كان أسود وممزقاً من قوة الضربات التي تلقاها، وقد جرى دفن أحشائه في الكنيسة المذكورة، أمام مذبح القديسة مريم، التي إليها عهد بروحه أثناء موته.

وجرى في اليوم التالي حمل جسده — حيث تقدم عليه أخوه، وروفق من قبل أسرته كلها — إلى لندن ليدفن قرب أبيه، وقتل أثناء المباراة نفسها أيضاً، واحد من حاشية الايرل اسمه روبرت دي سي Saye، وأيضاً دفنت أحشائه مع أحشاء الايرل، وأصيب أيضاً كثير من الفرسان والرجال المسلحين بجراحات قاسية بالرمح أثناء المباراة نفسها، لأن حسد وغيره العديد من الأطراف المسؤولة قد حولت الرياضة إلى معركة.

وعانت شؤون الصليب، ومصالح الأرض المقدسة من خسارة كبيرة، بموت الايرل المذكور، لأنه كان قد نوى الانطلاق نحو القدس في الشهر المقبل من دون تقاعس، حيث كان قد جمع مالا من جميع الذين حملوا الصليب في البلاد، فقد دفع مائتي مارك إلى البابا للحصول على إذنه، وبهذا قلد التصرف الحكيم للايرل رتشارد.

**كيف جبا إثنان من كهنة البابا مالا من جميع أرجاء انكلترا
من أجل استخدامات قداسته**

أثناء هذا الوقت كله عندما كان الحظ يلعب بشؤون حشود البشر، استمر شره الرومان ونهمهم ولم يشبع، لأنه بعد مغادرة النائب البابوي، بقي اثنان من كهنة البابا في انكلترا، من أجل القيام بواجبات النائب البابوي، وكان هذان الاثنان هما بطرس الذي كنيته لى روج، وبطرس دي سوبينو Supino، وكانا اثنان لا يعرفان التعب في الجباية، وكانا يحملان ترخيصاً بابوياً من أجل استخراج وكالات، وفرض حرمانات

من شراكة المؤمنين، وحرمانات كنسية، ولقد جيبا الأموال بمختلف الطرائق من الكنيسة الانكليزية التعيسة، من أجل — كما قالوا — أن تتمكن الكنيسة الرومانية، التي أصيبت إصابات مضاعفة بمختلف الطرق، من استرداد أنفاسها، وأن تتنفس مجدداً بشكل حر، وتصرف بطرس لى روج، المتقدم الذكر، الذي وضع نفسه في مقام فوق الرجل الآخر، وفق طرائق النائب البابوي، وكتب رسائل إلى راعي الدير هذا، وإلى رئيس الرهبان ذاك، وتوجه بالخطاب برسائله دوماً هكذا: «من المعلم بطرس لى روج، الصديق المقرب، والقريب لقداسة البابا، تحيات، إلخ، إلخ»، واستمر استناداً على هذه الصلاحيات في فرض الوكالات واستخراج الأموال بمختلف طرائق الجباية، وذهب زميله بطرس دي سوينو إلى إيرلندا، بموجب إذن من الملك، وذلك لصالح البابا، حيث كان يحمل ترخيصاً منه، وبما أنه حصل على المساعدة من السلطة المدنية، قام بطغيان عظيم باستخراج المال من أساقفة تلك الكنيسة، وقدم بعض الذين كانوا معلقين وممنوعين من ممارسة وظائفهم، إلى بطرس المذكور في لندن، لإرضائه بكل ما اختار أن يطلبه، وعاد بطرس سوينو من إيرلندا في الخريف التالي، وأخذ طريقه إلى روما حاملاً معه ألفاً وخمسمائة مارك، وحقائب سرجه كانت مليئة تماماً.

الملك الفرنسي يعطي مقاطعة بواتو إلى أخيه أمفولسوس

في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، في هذا العام، أعطى الملك الفرنسي، بناء على نصيحة الذين يكرهون مملكة انكلترا، مقاطعة بواتو إلى أخيه أمفولسوس Amphulsus وأضفى في الوقت نفسه، وسط أهبة عظيمة، نطاق الفروسية على أمفولسوس المذكور، كما منحه مرتبة كونيتة بواتو، التي كانت كما هو معلوم بموجب الحق هدية الملك الفرنسي الخاصة إلى ملك انكلترا، أو إلى أخيه، كما أنه أوجد في الوقت نفسه عدداً من الفرسان النبلاء لتكريم تنصيب أمفولسوس

المذكور، وبذلك هو قدم قليلاً من التقدير، أو بالحري لاشيء من التقدير إلى إدعاء أو لقب الايرل رتشارد، الذي قاتل باخلاص في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وحرر الأسرى الفرنسيين، ودهش كثيرون إلى حد كبير تجاه أفراد النبالة الفرنسية، التي سمحت بهذا، وبذلك كانوا غير أوفياء، وأعادوا من دون حياء الشر مقابل الخير.

رسالة الإيرل رتشارد الحاوية لرواية عن حجه

وكان في هذه الآونة أصدقاء الايرل رتشارد قلقين حول شؤونه، وقد حصلوا على معلومات وافية عن ذلك في الرسالة التالية التي أرسلت من قبله:

من رتشارد ايرل كورنويل وكونت بواتو إلى النبلاء، وإلى المبجلين والسادة المحبوبين في المسيح ب. B دي ريفر Rivers، وايرل أوف ديفنون Devon، وراعي دير بيولييو Beaulieu وروبرت الكاهن، صحة وكل الرغبات الطيبة، مع عواطف مغلصة:

إنه بالنسبة للشدة العظيمة والأسى الذي تعيشه الأرض المقدسة، وبشأن المشكلة الصعبة المتعلقة بإعادتها وتخليصها منذ الفاجعة عند غزة، لقد وصل رجال عقلاء ومجربين وعارفين بالصدق إلى قرب هذه المواضع، ووصلت أخبار من بعيد، إنها يمكن لرسالتنا الحالية أن تكشف سرنا، وبما أن الطريق مفتوح إليكم، فإنها قد تعطي الفرصة لتفاسير خبيثة، لذلك فإن كثيراً من الأشياء سوف يجري إيضاحها فيها، هي الآن نائمة، والكذب يغطي قعر قلبنا.

فمنذ الوقت الذي ابتعد فيه الملوك والممالك عن القدس، ولأنها كانت مقسمة وهي بأيدي ممتلكين ظالمين وغير عادلين، لقد شعرنا بحزن كبير، ولايمكننا أن نلتزم بالصمت، ولا بد لنا من أن نطلق ألسنتنا بشكاوي مريرة، حيث ليس هناك قضية طيبة نشغلهم بها، لأن سيف

الرحمة قد خرق روحنا، إلى درجة أن روحنا لم تعد قادرة على أن تستوعب ذاتها، لأنه بالفعل منذ بعض الوقت تحكم الخلاف بالأرض المقدسة بدلاً من السلام، وحلّ الشقاق مكان الوحدة، والكراهية محل المحبة، والعدل قد أقصي نهائياً، ومن هذه البذور هناك الكثير من النباتات في تلك الأرض، وصار كثيرون جامعون للشمار التي نتجت عنها، وأنا أمل بأنهم الآن قد اجتثوا، هذا وليس هناك بين جميع محبيها واحد يتولى مواساتها، لأن الأخوين التوأمين غير متفقين وهما على صدر أمهما، والذين كان عملهم الدفاع عنها، أصبحوا متشاكخين بوفرتهن، وقد أكلوا وتقيأوا هذه المكونات حتى الجذور، وتسببوا بجعل أغصانهم تمتد بالطول وبالعرض، لأن كميات وافرة من الأشياء الجيدة تنتج مثل هذه الأشياء المزعجة بعد خلاف متبادل، ذلك أن تأنيبات الأب المترأس لكرسي بطرس، نظر إليها بعدم تقدير مطلق، مع أن الفئة الأقوى قد بهرت العالم بشهرتها، وفي سبيل تهدئة هذه الفئات المتنازعة قد بذلنا جهداً كبيراً، لكن مازالت خطوات السلام لم تترك أي أثر، بقدر ما أن أتباع الخلاف لم يصبحوا معتادين على كلمات السلام، وتمكن الذين لديهم أموال بسهولة من جذب الآخرين إليهم مادامت الأموال موجودة، لكن عندما حلّ وقت صون اعتدال أمهم، تركوا صانعي السلام، واختلقوا مشاغل سرية، ولم يظهروا الاهتمام بجلب المواساة إلى أمهم، ولهذا السبب فإن العدد الأكبر من الفرسان الغاليين، الذين تعدادهم تقريباً ضعف تعداد المسلمين، قد انغمسوا كلياً وهلكوا بالعبادات الشريرة، وتشجع أعداء الصليب بشكل غير متوقع، حتى أن كتلة صغيرة منهم لم تعبأ سوى قليلاً، أو لاتعبأ بالمرّة بالعدد الكبير منا.

وبسبب هذا الوضع، وجدنا عندما وصلنا أولاً إلى هنا، أن النبلاء الذين يمكن أن يقدموا العون لنا، قد شرعوا بالمغادرة، وبدأ أن انقاذ

تجعل الجراحات من دون وسائل علاجهم، والأسف من دون وسائل
المواساة، لأننا عندما كنا متوقعين لدى وصولنا إلى هنا، القيام بالتعاون
مع بقية الصليبيين، ببذل قصارى جهدنا، حسبما هو مفروض علينا،
بموجب عهدنا، بالانتقام للاهانات التي لحقت بالصليب من قبل أعداء
ذلك الصليب، وبمهاجمة أراضيهم، واحتلالها بعد ذلك، وإعادتها بعد
ذلك إلى وضع صالح، رأينا ملك نافار، الذي كان آنذاك مقدم الجيش
ورئيسه، وكونت بريتاني، ووجدناهما على الرغم من أنها كانا على علم
مسبق بموعد وصولنا قبل خمسة عشر يوماً من وصولنا إلى عكا، قد
غادرا مع حشد كبير جداً، وقبل أن يغادرا، وفي سبيل أن يبدو أنها قد
عملاً شيئاً ما، عقدا نوعاً من أنواع الهدنة مع الناصر، صاحب الكرك،
وتم الاتفاق بموجب ذلك بوجوب تخليه عن جميع الأسرى الذين
أسروا عند غزة، الذين كانوا مسجونين لديه، أو تحت سلطانه، وذلك
مع بعض الأراضي المشمولة بشروط الهدنة، وكضمانة على ذلك أعطى
ابنه وإخوانه رهائن، وأثبت شرطاً هو مهلة أربعين يوماً من أجل تنفيذ
شروط الهدنة، والذي حدث أنه قبل انقضاء تلك المدة غادر الملك
المذكور والكونت، دون الاهتمام بالموعد المتفق عليه، أو بشروط الهدنة،
وخلال تلك المدة، وبالتحديد عشية عيد القديس ديونيسيوس
Dionysius، وصلنا إلى عكا، كما كنا قد أخبرناكم من قبل، وقمنا
على الفور، بناء على نصيحة عامة من الجميع، فبعثنا إلى الناصر المذكور،
نسأله عما إذا كان سيستطيع مراعاة الهدنة معنا، وهي الهدنة التي عملها
مع الملك المذكور، وتلقينا جواباً منه، بأنه على استعداد لفعل ذلك إذا
كان ممكناً، وذلك بسبب احترامه لملك نافار المذكور، مع أنه سوف يربح
قليلاً منها، وعلى هذا قمنا بناء على نصيحة النبلاء بانتظار استكمال
الموعد المتفق عليه، لنرى النتيجة، وعند انتهاء الموعد، تلقينا رسالة
أخرى منه، بأنه لا يستطيع بأي شكل من الأشكال الالتزام بالاتفاقية
المتقدمة الذكر، وعند سماعنا بهذا، قمنا بموافقة من الجميع، بحمل

المتقدمة الذكر، وعند سماعنا بهذا، قمنا بموافقة من الجميع، بحمل أنفسنا إلى يافا، لتتولى، مع جميع الخيطة الممكنة، تحسين أوضاع الأرض المقدسة، التي تدهورت كثيراً للأسباب المتقدمة الذكر.

وقدم إلينا إلى هذا المكان رجل صاحب رتبة وسلطة، من قبل سلطان مصر، وأخبرنا بأن مولاه كان راغباً بالدخول في هدنة معنا، إذا أردنا ذلك، وبعد سماع ماتولى عرضه علينا وفهمنا تماماً لذلك، وإثر طلبنا بكل اخلاص نعمة الرب، قمنا بناء على نصيحة دوق بيرغندي، والكونت وولتر دي بريين، ومقدم الاستبارية، والنبلاء الآخرين، لابل في الحقيقة الجزء الرئيسي من الجيش، بالموافقة على شروط الهدنة المتقدم ذكرها، مع أنها بدت عند وصولنا قضية صعبة الانجاز، علماً بأنها هدنة تستحق الثناء، وتقدم منافع إلى الأرض المقدسة، لأنها مصدر للبهجة والأمان للناس الفقراء، وللمسافرين، ومفيدة ومقبولة من قبل الطبقة الوسطى من السكان، وصالحة ومشرفة للأغنياء ولرجال الدين.

كما أنه لم يظهر لنا لدى نظرنا إلى الأوضاع المتدهورة للأحداث المحيطة، أننا لايمكننا آنذاك أن نستخدم أنفسنا بشكل نافع أكثر من العمل على تخليص الأسرى التعساء من الأسر، لأنه كان هناك نقص بالرجال والأشياء (مع أننا وحدنا بقينا ومعنا مال من حولنا) وكان من الممكن الإفادة من أيام الهدنة، بتقوية وتحصين المدن والقلع التي أصبحت مدمرة، في وجه المسلمين وضدهم، ولقد رأينا من الموائم أن نذكر أسماء الأماكن والمناطق التي أعطيت إلينا، بموجب شروط الهدنة، مع أن ذلك قد يكون متعباً لكم، ونحن نفعل ذلك خشية أن يقوم بعضهم بموجب تفسير شرير، فيعزوا أعمالنا المجيدة إلى غيرنا، أو أن يقوم بفساد وتآمر بتشويه سماتهم، لأن هناك بعضاً — مع أنهم قلة — قد رفضوا الموافقة على شروط الهدنة، وهذه الشروط هي كما يلي:

إن الأراضي التي أعطيت بناء على شروط الهدنة مع الايرل رتشارد

هي هذه: المنطقة الجبلية لبيروت، مع الأراضي والأجزاء المفصولة العائدة لها، وجميع منطقة السعيد Said مع متعلقاتها، وقلاع: الشقيف، والقرين، والقلعة الجديدة مع متعلقاتهن، واللقية Lekayt واسكندرون، ولبوة Lebet، وبشيت Becheet (?) والدّد مع متعلقاتهن، وأراضي كل من الجبال والسهول، وقد تخلوا أيضاً عن أراضي بلدة تورون مع متعلقاتها، وطابار Tabar (?) متعلقاتها، وقلعة Benaer، وقلاع Amabel، وراما Rama، و Amost، وكذلك قلعة Hybile، الواقعة فيما وراء النهر باتجاه الشرق، مع جميع متعلقاتهم، كما استسلمت قلعتا صفد والناصره وكذلك جبل الطور، واللجون و Aschalis، وقلعة بيت جبرين مع متعلقاتهم، ومع جميع القرى العائدة إلى بيت اسبتارية القديس يوحنا، وكذلك ماهو معروف أنه عائد إليهم، أي المتعلقات بالقدس وبيت لحم، وكذلك جميع الأرض القائمة على الطريق التي تقود من القدس إلى بيت لحم، ومن القدس إلى لدّ راماء، ومن اللد إلى يافا، مع جميع القرى التي توجب أن تكون في أيدي الصليبيين، وجرى أيضاً تسليم مدينة القدس إلى الصليبيين، ومثل ذلك بيت لحم أيضاً، وجميع الأرض التي من حول القدس وجميع القرى، التي جرت تسميتها في شروط الهدنة، وهي القديس لعازر، بيت عنيا، بيت صيدا، و Wissewurch، و Derphat، وبيت عاموس Bethamus، و Bechele، وبيتك Bethic، وحنون Anon، وكوكبي Kokabi، وبيرسامول Bersamul، وBebrit، و Kikai، وبيت أمي Bethuame، و Bebe، و Kipsa، و Bethit، و حوريب Horeb، و Athacana، و Clepsta، و Tolma، و Argahoga، و Bertapsa، و Bethsaphau، و Tabli، و Sorobooz (1)،

١- لقد تعذر ضبط أسماء هذه المواقع، ولم تذكر المصادر العربية المتوفرة هذه الهدنة

بالتفصيل.

وجميع متعلقاتهم، والأرض المسماة في تقسيمات القدس، وما هو معتمد على الطريق الذي هو هناك، حسبها هو موجود ومشروح في الهدنة الكبرى.

وجميع هذه المناطق، والقلاع الموجودة فيها، التي تقدم ذكرها، مسموح للصليبيين القيام بتحسينها أثناء الهدنة، إذا ما رغبوا، ولسوف تجري إعادة النبلاء الأسرى أيضاً مع جميع الأسرى والفرنسيين فهؤلاء سوف يجري إطلاق سراحهم من على الجانبين، وفور الفراغ من إعداد الهدنة المتقدمة الذكر، أخذنا طريقنا إلى عسقلان، ولكي لا تمر الأيام من دون عمل، قمنا ببناء على نصيحة جميع مقدمي الصليبيين بالشروع بتحسين قلعة كبيرة هناك، وأرسلنا من ذلك المكان، رسلاً إلى سلطان مصر، لإقناعه باقسام يمين بالتعهد بمراعاة الهدنة المذكورة، إذا ما رغب بفعل ذلك، ولكي يرسل في الوقت ذاته الأسرى الذين تقدم ذكرهم، ولقد قام لسبب لا نعرفه بحبس رسلنا لديه، دون إعطاء أي جواب، من عيد القديس أندرو حتى يوم الخميس بعد عيد تطهير مريم العذراء (٢-شباط)، غير أنه خلال هذا الوقت، حسبنا وجدنا في رسائله قام ببناء على نصيحة أعيانه، فأقسم بالمحافظة على الهدنة المذكورة، ولقد بقينا خلال هذا الوقت كله في عسقلان مواظبين على نيتنا في بناء القلعة المتقدمة الذكر، حيث تقدم العمل فيها كثيراً، وذلك بفضل الرب، إلى حد أنه في الوقت الذي نرسل فيه هذه العروض، قد جرى تزيينها، وقد أحيطت كلياً بسور مزدوج، وبأسوار عالية وشرافات، مع أربع أحجار مربعة وأعمدة منحوتة من الرخام، وكل شيء عائد إلى قلعة، ما عدا خندق من حولها، سوف ينتهي بمشيئة الرب، من دون احباط، خلال شهر من عيد الفصح، وهذا لم يعمل لسبب جيد، هو بما أننا لم نكن متأكدين بأن الهدنة سوف تثبت، رأينا أنه من الأفضل شغل وقتنا في البناء وفي تحسين هذه القلعة، حتى إذا ما خرقت الهدنة بموجب أي

حادث، يمكننا أن نمتلك في التخوم وعند المدخل نفسه لأراضيهم، هذا المكان، الذي كان من قبل تحت حكمهم، ويكون لنا مكاناً حصيناً للالتجاء إليه، إذا ما دعتنا الضرورة إلى التراجع هناك، وكذلك الذين سوف يبقون هناك، لن يكون لديهم مسوغ للخوف من نتيجة الحصار، لأنه صحيح أن المحاصرين يمكنهم أن يقطعوا جميع المساعدات والمؤن ويحولوا دون وصولها إليهم، مع ذلك يمكن لجميع الحاجات الضرورية أن تصل إليهم بالبحر، وفي أيام السلم أيضاً، نحن نعتقد أن هذه القلعة لن تكون من دون فوائدها، بما أنها المفتاح والملاجئ في البر والبحر لمملكة القدس، وهي ستكون في الوقت نفسه تخريب وتدمير لمصر وللمناطق الجنوبية من البلاد.

وقمنا بعد هذا في يوم عيد القديس جرجس، بعدما جرى الحلف على مراعاة السلام من الجهتين، وبعدها جرى تثبيت الهدنة، فاستقبلنا —وفقاً لشروط الهدنة— جميع الأسرى الصليبيين، الذين كنا نتوقع وصولهم وننتظرهم منذ وقت طويل، وبعد إكمال جميع هذه المسائل، قمنا بتوديع الأرض المقدسة بسلام، وفي يوم عيد العثور على الصليب المقدس، أقلعنا من عكا للعودة إلى الوطن، لكن لعدم توفر ربح طيبة أثناء الرحلة، ولأننا كنا متعبين كثيراً نزلنا في ترابيني Trapani في صقلية، وكان ذلك في ثمانية عيد القديس يوحنا المعمدان، وسمعنا ونحن في ذلك المكان نبأ اعتقال وسجن بعض الأساقفة، وبالآلام المحزنة الأخرى التي عانت منها الكنيسة، وبناء عليه، وفي سبيل استرداد السلام، ببذل كل ما نملكه من قوة، بين هؤلاء المتخاصمين، ولكي نبذل قصارى جهودنا من أجل إطلاق سراح الأسرى، وفي سبيل تقديم المواساة إلى أمناء، صرفنا وجهة سفرنا، وتحويلنا للذهاب إلى بلاط روما، وحالما يسمح لنا الرب، المقدر لكل شيء ولكل حدث، ننوي العودة إلى انكلترا، بكل سرعة ممكنة».

كان مشتاقاً كثيراً لرؤيته، وذلك بوساطة القيادة والتوجيه المريح لمثل هذا الرجل، الذي كانت تعلوه بحكمة ابتسامة مرّضية، وبذلك اكتشف التأثير القوي، للأدعية المتواصلة، للرجال المستقيمين، الذين عهد بنفسه بتقوى إليهم، عندما كان على وشك الشروع بحجه، لأنه عندما كان على وشك القيام برحلته، جاء إلى كنيسة القديس ألبان، الشهيد الراحل لانكلترا، ودخل إلى بيت هيئة الكهنة، وتوسل إلى رهبان الدير، بأن يسمح له بمشاركة خاصة في منافع صلواتهم، والشئ نفسه قد فعله أيضاً في بعض البيوت الأخرى العائدة لرجال الدين، حيث كان من المعتقد أن القداسة مع نظام الطائفة لهما مكانة عليّة وتقدير كبير، وللعار ولأسف أولئك من طلاب الكنيسة الرومانية، أن الأساقفة والنواب البابويين، الذين أرسلتهم الكنيسة إلى ما بيننا، لجمع المال، والذين انطلقوا بمثابة مرآة ومثل للرجال العلمانيين، أنهم لم يعملوا وفق الطريقة نفسها، عندما كانوا يقلعون للقيام برحلاتهم، في سبيل أن يكونوا مؤيدين في مخاطرهم بصلوات القديسين، لأننا هكذا أمرنا أن نعمل في الكتابات المقدسة، فعندما وضع القديس بطرس الرسول في السجن، عملت له صلوات بلا انقطاع من قبل الناس، وقد أطلق سراحه من قبل الملاك الذي أرسل إليه من قبل الرب.

الإمبراطور يستقبل الإيرل رتشارد بيهجة

وفي الوقت نفسه، عندما كان الإيرل رتشارد على طريقه للالتحاق بالامبراطور، استقبل في مختلف المدن التي اجتازها بسرور كبير، وبتشريف، فقد خرج المواطنون مع زوجاتهم لاستقباله مع الموسيقى والغناء، وهم يحملون أغصان الأشجار والورود، وهم أيضاً يرتدون ثياب العيد وزينته، وكان بعض الفرسان يمتطون على خيول ثمينة، وكان ذلك من صنع دليله، الذي كان قد تلقى أوامر من الامبراطور ليتصرف هكذا، وعندما وصل أخيراً إلى عند الامبراطور، استقبل من

قبله مع التكريم كله، وبعدما تعانقاً، وسط صرخات الترحيب من قبل جميع أتباع الامبراطور، انخرطاً في حديث طويل، كان مرغوباً به منذ زمن طويل، وذلك مع مختلف أنواع التهاني، ومتعا نفسيهما كأصدقاء لعدة أيام، وأمر الامبراطور بمعاملته بلطف ونعومة، مع الفصد، والحمائم، ومختلف أنواع الكمادات الطبية حتى يسترد قوته بعد مخاطر البحر، وامتلك بعد عدة أيام، بموجب إذن من الامبراطور، حديثاً حراً وطويلاً مع أخته الامبراطورة، وبموجب أوامر الامبراطور أيضاً، جرى عرض مختلف أنواع الألعاب وآلات الموسيقى، التي شريت لتسليّة الامبراطورة، عرضها عليه لرؤيتها ولتفحصها، ومنحه هذا سروراً عظيماً وفرحاً.

وكان بين الأشياء المبدعة التي أدهشته، كان هناك لعبة خاصة أثارت إعجابه وثنائه، فقد كانت هناك فتاتان مسلمتان رشيقتان، قد ركبتا فوق أربع كرات مستديرة، قد وضعت فوق الأرض، حيث وقفت الأولى فوق كرتين، والأخرى فوق الاثنتين الأخريتين وقد سارتا نحو الخلف ونحو الأمام، وهما تصفقان بأيديهن، وتحركان بسرور فوق هذه الكرات المتحركة، وتحركان أذرعتهم بحركات معبرة، وتغنيان مختلف الألحان، وتتمايلان بجسديهما وفقاً للحن، وتضربان بالصنوج أو بالكوسات بأيديهن معاً، ويضعن جسديهما في مختلف الأوضاع المسلية، وقد قدمن مع البهلوانات الآخرين، مشهداً ممعناً أن تنظر إليه.

وبعد مرور عدة أيام استراحا فيها من متاعبهما، أرسل الامبراطور، الايرل رتشارد الذي وثق باخلاصه وحكمته، إلى بلاط روما (حسبما وردت الإشارة الموجزة إلى ذلك في الرسالة التي بعث بها الايرل إلى انكلترا) في سبيل إعادة السلام بينه وبين البابا، وأعطى الامبراطور أيضاً، بالإضافة إلى التشرiftات التي أضفاها على الايرل المذكور، ورقة مختومة بالختم الامبراطوري، تعهد فيها بالالتزام بقراره، حول أية

انكلترا، وقدم إليه شكوى جديدة حول هذه الجريمة المنحطة، والتمس من الملك بحرارة العمل على اطلاق سراح غريفين، الذي حبس هكذا سجيناً بشكل غير عادل من قبل حفيده داوود، ليمنع خبر وصمة هذا العدوان الظالم من الوصول إلى البلدان النائية، وإلى بلاط روما، مما سيسبب الأذى إلى كرامته الملكية، وبناء عليه لام الملك بحدة حفيده داوود بسبب خيانتة، وقام بنصيحته وبأمره بتحرير أخيه، وبذلك يسترد السمعة الجيدة لاسمه، والتحليل من قرار الحرمان الكنسي، وهذا — على كل حال — مافض داوود بإصرار أن يفعله، وأخبر الملك مؤكداً، أنه إذا ما أطلق سراح غريفين، فإن ويلز لن تتمتع بعد هذا بالأمان والسلام.

وكان غريفين قد علم بهذا، فأرسل بشكل سري رسالة إلى الملك، أنه إذا ما أطلق سراحه وأخرجته من السجن، سوف يستحوذ في المستقبل على أرضه منه، أي من الملك، وسوف يدفع له بإخلاص مائتي مارك سنوياً مقابلها، مع كثير من الشكر لخدماته اللطيفة، وربط نفسه بيمين بتنفيذ هذا، وأن يعطيه في الوقت نفسه رهينة خاصة، وبالإضافة إلى هذا، هو سوف يساعده بنشاط على اخضاع ويلز والويلزيين حتى الأخير، وهم الذين متمردون ضده، ومازالوا غير خاضعين، وقام مقدم ويلزي آخر قوي جداً، اسمه غريفين بن مادوك Madoch، فوعد الملك أيضاً بتقديم مساعدة موثوقة ومتينة إذا ما قام بغزو ويلز، وشن الحرب ضد داوود، الذي كان رجلاً زائفاً، ويتصرف بشكل غير عادل نحو كثير منهم.

ملك إنكلترا يزحف إلى ويلز مع جيشه

وأثارت هذه الوعود الملك وشجعتة، فعمل ترتيباته للدخول إلى ويلز، وبناء عليه أصدر رسائل ملكية، أمر بها الجميع في جميع أرجاء

انكلترا، المتوجب عليهم أداء الخدمة العسكرية له، بالاجتماع في غلوستر في بداية الخريف، مجهزين بالخيول والسلاح، للانطلاق في حملة، قرر القيام بها، ثم إنه عقد اجتماعاً في شروبري Chrewbury في اليوم التالي لعيد القديس بطرس في الأغلال، وخلال أربعة عشر يوماً رفع رايته، ووجه سلاحه ضد حفيده داوود، حيث اكتشف أنه خائن وعاصي في كل مجال، ولأنه رفض الحضور في أي وقت من الأوقات، إلى مؤتمره السلمي الذي دعاه الملك إليه، حتى مع وعد أمان بالمرور، ولأنه بعناد وبإصرار أجاب بأنه لن يطلق سراح أخيه غريفيين ولا بأي شكل من الأشكال.

ثم قاد الملك جيشه، الذي كان كبيراً، وقوياً جداً، بنظام حسن نحو شيستر، وكأنه يريد أن يشن الحرب مباشرة، وخاف داوود على كل حال من مواجهة عنفه، بسبب الحرارة التي استمرت عالية لمدة أربعة أشهر، والتي جففت جميع البحيرات، وأماكن المستنقعات في ويلز، وبسبب تأييد الملك من قبل كثير من النبلاء الويلزيين، ولاسيما غريفيين القوي والعادل، ابن مادوك، الذي صار حليفاً كبيراً للملك، وأحب غريفيين أكثر منه، أي داوود، ولأنه كان تحت عقوبة الحرمان الكنسي، قد بات خائفاً من أن تتدهور أحواله أكثر، ولذلك بعث رسالة إلى الملك، أخبره فيها، بكثير من المنطق، أنه إذا ما أطلق سراحه، فإنه سوف يثير الحرب ويجدها ضده، وفرض داوود على الملك أيضاً شرطاً، أنه إذا ما استقبله بسلام، فسوف يربط نفسه بيمين، وسوف يقدم له رهائن، على أن لا يجرمه من ميراثه، وعلى هذا وافق الملك بلطف، وبناء عليه أطلق داوود سراح أخيه غريفيين، وبعث به إلى الملك، الذي اعتمد على المشورة الحكيمة، فأرسله لدى وصوله إلى لندن، تحت حماية وكفالة جون أوف لكسنتون Lexington، ليحفظ هناك في البرج، مع بعض النبلاء الويلزيين الآخرين، ورهائن داوود، وأمراء ويلزيين

آخرين، ووقعت هذه الحوادث كلها فيما بين يومي عيد ميلاد القديسة مريم، وعيد القديس ميكايل.

اخضاع ويلز وطاعتها للملك هنري الثالث من دون حرب

وأقسم داوود — كما ذكرنا من قبل — على المثول شخصياً أمام الملك، وبذلك حفظ شخصه وشرفه، وأشخاص وكرامة رعاياه، وأن يكون مثوله في لندن، أو في أي مكان آخر، حسبما سيقرره الملك، وعلاوة على ذلك أعطى رهائن من أجل الوفاء بوعده، وبناء عليه، قدم على الملك، إلى لندن، في اليوم الثامن بعد عيد القديس ميكايل، وبعدما أدى يمين الولاء والتابعة، وقدم جميع الضمانات والمواثيق، سمح له بالمغادرة بسلام، لأنه كان صاحب قرابة وشيعة بالملك، وسمح له بالعودة إلى وطنه، وهكذا بفضل الرب انتصر هنري على أعدائه، وأخضع ويلز من دون سفك للدماء، ومن دون محاولة تجريب الحظ المشكوك فيه للحرب، واكتشفت ويلز في هذه الحالة كلمات ربنا التي ورد ذكرها في الانجيل، ذلك أنها لم تكن خالية من الصدق، وهي قوله:

«كل مملكة منقسمة على نفسها تنتهي إلى دمار».

اكتشاف القصدير في ألمانيا

وتم العثور في هذا العام، على نوع نقي جداً من القصدير، في ألمانيا للمرة الأولى، وبكميات أكبر مما هو موجود في انكلترا، ولقد قيل بأن هذا المعدن لم يتم العثور عليه من قبل منذ خلق الدنيا، في أي مكان، إلا في كورنوال، وقد تدهورت الآن أسعاره كثيراً وتناقصت بسبب الكميات التي أرسلت من ألمانيا إلى انكلترا.

خلاف بين أسقف لنكولن وراعي دير ويستمنستر

وتفجر في هذه الآونة خلاف بين روبرت، أسقف لنكولن، وبين

راعي دير ويستمنستر، وقد نجم عنه نفقات كبيرة، وتسبب بأضرار عظيمة لكل من الفريقين، وازداد يومياً، ذلك أن الأسقف المذكور كان يسعى، مستخدماً كل الوسائل والإمكانات التي قدر على استخدامها لإضعاف الامتيازات الصحيحة لراعي الدير، بتحويله كنيسة هسول Heswell لاستخداماته الخاصة، واستحوذ على تلك الكنيسة بالقوة، وعندما تهيأت له أول فرصة أخذها من الرهبان، ومنحها إلى شخص آخر، اسمه المعلم نيقولا، الذي كان بإذلال قد حرمه من منافعه، وكان راعي الدير، واثقاً من حقه ومن امتيازاته، فقاوم بشجاعة ووقف في وجهه.

الخلاف بين الملك وبين أسقف لنكولن

ونشب في هذه الآونة خلاف شديد بين الملك وبين أسقف لنكولن، وكان ذلك بسبب واحد من الكهنة التابعين للملك، واسمه جون مانسيل Mansel، كان قد جعل ممتلكاً لكنيسة التيم Thame، من خلال فضل الملك ومساعدته، وكذلك بفضل مرسوم تم الحصول عليه من البابا، وكانت هذه الكنيسة عندما غدت شاغرة، أعطاهما الأسقف المذكور، من قبل، إلى كاهن اسمه المعلم سيمون اللندي، وكان كاهناً مكلفاً بالخطايا تابعاً لأسقف درم، ولقد غضب الملك من الأسقف كثيراً جداً بسبب هذا التصرف، ولذلك أرسل هذا الأسقف إلى الملك رسالة بوساطة رئيسي شامسة هنتغدون Huntingdon وليستر عندما كان مايزال في ويلز، وعاتبه ووجه اللوم إليه، لأنه لم يكن حامداً للرب، وغير مقدر للنصر الذي أعطي إليه، وأن عليه التكفير على الفور عن هذا الذنب العظيم، خشية أن يقوم الرب أثناء غضبه بتحويل ابتساماته إلى دموع، وعلى هذه الرسالة ردّ الملك: «إنني أرد بأمان، لأن دعوى استئناف قد عملت، وما من شيء ينبغي أن يتعرض للتغيير، أثناء إجراءات الاستئناف، وأنا لم أحاول شيئاً سوى

أنني تصرفت وفقاً لنصيحة العلماء بالسرعة، مع تأييد من السلطات الرسولية»، وعند ذلك قال واحد من رؤساء الأساقفة: «مولاي الملك، لدى سيدنا، أسقف لنكولن امتياز منح له من قبل البابا، فيه إعفاء له من الاستجابة لأي واحد، وذلك بناء على أمر المقام الرسولي، ما لم تتوفر هناك إشارة خاصة إلى ذلك الامتياز، وبالنسبة لهذا الأمر، الذي قيل بأن جون المذكور قد حصل عليه من البابا، والذي بفضلله فرض نفسه على هذه الكنيسة، معتمداً على مساعدتكم، لم يرد فيه ذكر لذلك الامتياز، وبناء عليه فإن أسقف لنكولن ليس مجبراً على الإجابة عليه في هذه القضية، ولا سيما فيما يتعلق بالتنازل عن كنيسة التيم، التي كانت من قبل، وبشكل عادل، قد أعطيت إلى آخر، ولنفترض أنه لم يكن مثل هذا الامتياز، إنه أمر غير منطقي بالنسبة إلى أي واحد لأن يدفع بنفسه لتملك أية كنيسة من دون استشارة — إن لم نقل ضد إرادة — أسقف المنطقة، حتى وإن كان معتمداً على تفويض بابوي، ذلك أن البابا يرغب أن تعمل جميع الأشياء، وفق نظام صحيح، وما هو السبب الداعي الآن للتسبب بالخلاف، أو بإيذاء أي من الفريقين؟ لأننا إذا قدرنا فضائل جون المذكور، الذي هو رجل حذر، ومتعلم بما فيه الكفاية، ومن الممكن لصاحب الغبطة أسقف لنكولن أن يستجيب بسهولة لطلبك، أو لطلبه شخصياً، فيجهزه بمنفعة مماثلة بالجودة إن لم تكن أغنى، والمنحة سوف تكون قانونية ومشرفة لكلا الطرفين، ويرجو الأسقف بكل تواضع وإخلاص، أن لا تكون الأمور غير ذلك، لأنه على استعداد لإعلان الحرمان الكنسي ضد جميع الذين يسببون الأذى للكنيسة أو يضغطون عليها، ويعتدون على كرامتها».

وعندما سمع جون المذكور، وكذلك الملك ومستشاريه — هذه الرسالة — قال جون:

«ليكن بعيداً عني يامولاي الملك، أن أكون سبباً لأي خلاف، أو

نشوب أي نزاع بين مثل هذه الشخصيات المشهورة، وإنني أتنازل بصبر، والرب سوف يزودني عندما يكون راغباً، مادمت حياً».

وعند ذلك وافق الملك على إنهاء القضية، وبعدما أكمل جميع الترتيبات الضرورية في ويلز، ترك هناك وولتر الألماني، مع بعض آخر من الرجال ذوي الحكمة والنفوذ لبناء القلاع، ولتقوية الأماكن الضعيفة من المنطقة، وأن يشحنها بالسلاح والرجال للدفاع عنها، وذهب هو نفسه مسروراً إلى لندن، وإلى ذلك المكان ذهب الأسقف المذكور، وهو مستعد تماماً للتفوه بقرار الحرمان الكنسي ضد جون المذكور بشكل خاص وضد جميع المؤيدين لكنيسته ولكرامتها، وعندما باتت هذه الظروف معلومة لدى جون المذكور، ذهب متذلاً إلى الملك وقال: «مولاي الملك إن أسقف لنكولن متزعج جداً، ولكي لأكون أنا سبباً لقيام المزيد من الخلافات، أو فضائح تنتشر في الخارج، إنني أستقيل من هذه الكنيسة، ولدى سماع الملك لهذا، كان متزعجاً، خشية أن يقوم الأسقف، الذي كان عنيفاً جداً، بشكل غير اعتيادي، فيذهب إلى المنفى، حيث رآه مستعداً تماماً لفعل ذلك، ومن ثم يضع أسقفيته تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، ولذلك لطف الإجراءات القاسية التي خطط لها، وتوقف عن مساندة جون في معارضته، لأنه رآه قد رفض العمل ضد الأسقف».

ثم إنه بناء على ذلك، استحق جون المذكور نيل جائزة، حيث أضفي عليه بمنفعة أغني، كانت هي كنيسة ميدستون Maidstone، وذلك كهدية من الملك، وأغني في العام نفسه بالاستحواذ على كنيسة هوفدن Hoveden، الغنية، وهكذا هدا الأسقف، وبناء على طلب الملك وعظ بشكل علني، وكأنه واحد صدره مشحون بمفاتيح المعرفة، وعهد بهذا التواضع إلى الفتتين، وبين أشياء كثيرة عمل مقارنة بين أشعة الشمس التي هي مستقيمة، وبين عدالة الملك، التي ينبغي أن تكون

مستقيمة ودائمة، والآن وقد رأى أن خاطر الأسقف بات هادئاً، بات راغباً في تسوية الخلاف المدمر والمهين بينه وبين راعي دير ويستمنستر، حول مايتعلق بكنيسة هسول Heswell، وبناء عليه لم يترك الأسقف ولم يسمح له بالمغادرة، حتى كان كل شيء قد تمت تسويته بسلام وسعادة، وقام راعي الدير نفسه بتقديم جميع التسهيلات حتى تتم التسوية، وبناء عليه وقعت كنيسة هسول في نصيب راعي دير ويستمنستر، حيث استحوذ عليها، مع الاحتفاظ بالتقدمة طوال الحياة، إلى أسقف لنكولن، وحصلت كنيسة ويستمنستر بموجب هذه الترتيبات على زيادة كبيرة في منافعها وكرامتها، لأن الراعي رتشارد، كان، بالإضافة إلى هذه المنفعة التي لم تكن صغيرة، قد زاد من ثروة رعيته بمورد قدره ثلاثمائة مارك، سنوياً وبشكل دائم، بوساطة خدماته.

خلاف بين أسقف لنكولن وهيئة كهنته

ولقد استمر على كل حال هناك خلاف كان مؤذياً جداً، ونزاعاً لم يكن اعتيادياً بين أسقف لنكولن وهيئة كهنة لنكولن، ولقد تعرض بعض الكهنة الذين كانوا موجودين في لندن إلى سوء المعاملة والأذى من قبل الأسقف إلى حد أنهم كانوا مرغمين على اظهار ورقة، وأن يجعلوا محتوياتها معروفة بشكل علني، وذلك خشية أن تخضع كنيستهم إلى بعض الظلم الجديد، وذريعة ذلك أنا سأحكيها الآن.

استرداد كنيسة لنكولن وكرسيها

بما أنه، قبل الاستيلاء على انكلترا، كان الكرسي الأسقفي الموجود الآن في لنكولن، موجوداً في دورشستر Dorchester، وبسبب أخطاء الذي كان وقتذاك متراًساً على الأسقفية وضع ذلك المكان تحت التكفير من قبل البابا، وجرى خلع الأسقف، ولم يبق من آثار هذه القضية الكبيرة أي شيء بعد مرور سنين كثيرة، وكذلك الكرسي وأيضاً

عناية أسقف وولايته بعد نهاية وقت طويل، وحدث بعد ذلك في أيام
وليم روفوس Rufus ابن وليم الأول، أن جرى تدمير كنائس
كثيرة في الغابة الجديدة، بناء على أوامر الملك، لكنه ندم بعد ذلك كثيراً
على ما اقترفه من ذنب، وتلقى نصيحة صحيحة، وقام تكفيراً عن ذنبه،
فأعاد تلك الأسقفية الفخمة وأغناها، وحسّن المكان نفسه، حيث أنه
اشترى، أو أخذ بالتبادل أرضاً من م. M دي غونت Gaunt
وهو نبيل كان قد قدم إلى انكلترا أثناء الاستيلاء عليها، وكان قد تسلم
تلك الأرض كنوع من المكافأة بعد الانتصار، وقام الملك وليم الثاني
المذكور بتأسيس كنيسة، هي الآن كنيسة لنكولن، وعند احتمال هذا
استدعى كاردينالين نائبين للبابا، كانا قد تسلمتا سلطة كاملة، للقيام
بتكريس أسقف، وقد قدما إلى كنيسته من لندن قداسة البابا، ثم إنه دعا
ثمانية رؤساء أساقفة، وستة عشر أسقفاً، وتدبر تكريس تلك الكنيسة
بشكل مهيب، وأمر بتعيين رهبان علمانيين فيها، كما أمر بتعيين موردتهم
المنفرد، وخصصهم الخاصة بهم، وذلك في سبيل أن يتمكنوا تحت سلطة
أسقف وعميد، من القيام بواجباتهم بشكل نظامي وشريف، وذلك وفقاً
لبعض الأحكام والصيغ، ولكي يبقى هذا التكريس الهام، الذي تمتن
بوساطة سلطة مثل ذلك العدد من الآباء المقدسين، وكذلك بوساطة
رسائل من الكرسي الرسولي، ولكي يستمر دون أن يخرق إلى الأبد، كان
التكريس قد عمل وفق صيغة أنه عندما يجري تكريس أسقف، وبعدها
يجري وضع الكهنة في ممتلكاتهم، يمكنهم من ذلك الوقت فصاعداً،
القيام بأداء الصلوات إلى الرب، وإلى أمه المقدسة ليلاً ونهاراً، وفق نظام
صحيح ووقار، وعندما يجيد واحد من هؤلاء الكهنة عن طريق
نظامهم، وبعدها يتلقى اللوم لذلك، ولا يقلع ويقوم طرائقه، يتوجب أن
يتلقى زيارة تفقدية وعقوبة من العميد، لكن من دون الخوف بحمل أي
شيء مسبق ضد هيئة الكهنة، ويتوجب عمل الشكوى ضده وحده
بسبب ما اقترفه، لكنه إذا لم يقوم نفسه بطريقة أو أخرى، يتوجب

حرمانه من منفعة لمدة سنة واحدة أو سنتين، تبعاً لدرجة خطيئته، وإذا ما ثابر على عصيانه، ينبغي طلب مساعدة الأسقف لاستخدام إجراءات تقويمية، لكن مع ذلك إذا ما استمر غير مقوم وفي حالة المعاندة، وتحدى سلطته، يتوجب تجريدته من جميع منافعه، وانزال عقوبة أكثر قسوة به من قبل الملك، وأعطت هذه الأحكام الرضا إلى جميع الفئات، ولذلك جرى تدوينها كتابة، ومن ثم تثبيتها من قبل الكرسي الرسولي، وكتابتها وعند ذلك جرى تكريس الكنيسة، وقام جميع الذين كانوا حاضرين بإصدار عقوبة الحرمان الكنسي بحق كل من يخرق هذه الأحكام.

وبناء عليه قال الكهنة بما أن العميد ليس مهماً أو جاهلاً، وليس ضعيفاً للقيام بزيارة تفقدية للمقصرين، وحيث أن الأسقف قد تصرف بذاته بشكل غير عادل و شائن في استخراج الزيارات، ولم يظهر أنه بريء تماماً من وصمة العقوبة التي صدرت بشكل مهيب من قبل مثل ذلك العدد من الآباء المقدسين، ولدى سماع الملك بهذا، ادعى أنه طرف في هذه القضية، وبالمحصلة فإن فئة الأسقف وهيئة الكهنة قد ضعفت كثيراً، وبسبب مثل هذه المعوقات والاحباطات، كان من غير الممكن جلب القضية إلى النهاية السلمية المرغوبة، لكنها تأخرت، مسببة كثيراً من النفقات وضياح الوقت.

ملك إنكلترا يتدبر عمل مزار ذهبي لعظام القديس إدوارد

تدبر في هذا العام الملك هنري الثالث، على نفقته الخاصة، صنع مزار من الذهب الخالص والجواهر الثمينة، وأن يجري تشييده بشكل محكم في لندن من قبل عمال منتخبين، من أجل الآثار المقدسة للقديس إدوارد، حتى توضع فيه، وفي تشييد هذا المزار، مع أن المواد كانت باهظة جداً، لكن ذلك كان وفقاً لقول الشاعر:

فعل العمال في الحقيقة بتفوق كبير
من المادة الخام شيئاً استثنائياً.

كيف رفض الملك إعطاء ميراث إلى و. W مارشال

أظهر الملك في هذه الآونة نفسه بموقف عدائي نحو وولتر مارشال،
أخي غيلبرت الذي مات دون أن يخلف أولاداً، يتناولون منه الميراث
العائد إليه بموجب حق التوريث، وقال الملك له وهو مغضب:

«لأن والدك وليم، قد وصم بالخيانة، لأنه قد قيل بأنه أنقذ لويس من
أن يقع بالأسر عندما كان في انكلترا، وجرى اعتقال أخاك رتشارد،
وقتله وهو حامل للسلاح ضدي، وكعدو مكشوف وميت لي، وأما
أخوك غيلبرت، الذي توفي مؤخراً، والذي منحه ميراثه بناء على مبادرة
وساطة من إدموند، رئيس أساقفة كانتربري، وذلك كعطاء وليس
كحق، قد قام مؤخراً لسوء الحظ، فعقد مبارزات في هارتفورد، على
الرغم من حظري، وفي هذه المبارزات واجه موتاً مأساوياً، وأنت
يا وولتر أيضاً قد كنت موجوداً في تلك المبارزات، ضد إرادتي، ودون أن
تعبأ بحظري، وتحدياً لي، وأنت الذي بشكل سفسطائي سميتها مغامرة،
فعلت أي أساس أنت تطالب بميراثك، فكيف امتلكت الوقاحة بفعل
ذلك؟»، وفي ردّ على هذه التهم خاطب وولتر الملك كما يلي:

«مع أنني يامولاي الملك، أستطيع أن أقدم جواباً مرضياً على كل
تهمة من هذه التهم، وعليها جميعاً، إنني أنحني خضوعاً لجلالتك، وأنت
قد قمت حتى الآن برعايتي في صدر رحمتك، وعددتني واحداً من
أصدقائك المقربين، وليس على الإطلاق واحداً من ضيوف مائدتك،
وأنا لم أستحق قط أن أفقد حظوتك إلا في قضية واحدة، أنا لا يمكنني
التنصل منها، وهي أنني كنت موجوداً في تلك المبارزات مع أخي،
الذي لم يكن بإمكانني تركه، لكن إذ ما قررت أن جميع الذين كانوا

حضوراً هناك، فإنك بذلك لن تثير اضطراباً قليلاً في المملكة، وبعيد جداً عنك، بحكم كونك أمير عادل، أن تجعلني وحدي أكفر عن أخطاء الجميع، وبعيد عنك يامولاي أن تجعلني الأول في نيل العقوبة بين مثل ذلك العدد الكبير»، ولم يعبأ الملك بهذا، واستمر غضبه، ولذلك حافظ وولتر على الصمت، لأنه رأى بأنه قد فقد حظوة الملك، وذلك وفقاً لنصيحة الشاعر:

عندما تكون الزوابع الثائرة سائرة بسرعة

أذعن لقوة الزوابع الغاضبة

وهكذا غادر على هذه الصورة، وهو يائس.

الملك يعمل من وولتر مارشالاً

وقدم إلى لندن في هذه الآونة نفسها أسقف درم، الذي كان منذ زمن بعيد صديقاً مقرباً من الملك، لأنه كان الوصي على الجسد الملكي، وطيباً ووصياً على الملكة، ومشرفاً مراقباً لخرق الأخلاق، وقد قام بناء على طلب وولتر المتقدم الذكر، بالتعاون مع نبلاء آخرين، ومع الملكة نفسها، ومع جميع الذين عرف بأنهم مقررين من الملك ولهم مكانتهم لديه، فاستخدم محاجة لطيفة، والتناسات عرضت بصورة حكيمة، فتمكن من تلطيف غضب الملك، وجعله يتصالح مع وولتر، وبعدما هدأ الملك، ورضي على هذه الصورة، أضفى في يوم الأحد، قبل عيد جميع القديسين على وولتر المذكور مرتبة الإيرلية، ووظيفة المارشال، وجعله يحتفظ بين يديه بقلعتين هما: كارديف، وكارديغان Cardigan في ويلز، وهما اللتين كان الملك قد عهد بهما من قبل، ووضعهما تحت إدارة وليم مارشال، ثم أعطاهما بعد ذلك إلى هيوبرت، مسؤول العدالة، لأنه قدر أنه من الضروري الاحتفاظ بهما، من أجل تقوية المناطق الضعيفة في ويلز، التي استحوذ عليها مؤخراً، في سبيل تمتينهم بالقلاع والحصون.

الملك يثور غضبه ضد أسقف نورويك

إزداد في هذه الآونة غضب الملك ضد أسقف نورويك، بسبب أن ذلك الأسقف وافق على تسميته لكرسي وينكستر، ولأنه رفض، وأصرّ على الرفض، بالتخلي عن حقه، ومع أن الملك طلب منه اتفاقية مكتوبة بالتخلي عن إدعائه، لكن الأسقف رفض بثبات فعل ذلك، ونتيجة لذلك حدث شقاق كبير في أسقفيته، ترافق أحياناً بالكتابة إلى البلاط، الذي أصيب أخيراً، نتيجة لاغتصابه الطائش بالجراحة، وعانى كثير آخر من الأذى، وفي محصلة ذلك جرى ضرب كثير من رجال الدين ومن العلمانيين بشكل فاجر، وجرحوا، وعانوا من كثير من الضرر على أيدي السلطات المدنية، وأعلن الملك، مرفقاً إعلانه باليمين، أنه لن يتوقف قط عن ممارسة مثل هذا الظلم، حتى يقوم الأسقف المذكور بتوقيع ورقة، يذكر فيها أنه لن يسمح قط لنفسه بالنقل إلى كرسي وينكستر، لكن هذا كان سبباً متنافراً مع المنطق، ومعاكساً للتكريس الأسقفى، لأنه إذا ما أمره صاحب القداسة البابا، بحكم فضيلة طاعته، بأن يفعل ذلك، لا يمكنه، بأية طريقة من الطرق، لأن ذلك يتناقض مع كونه ابناً للطاعة.

تعذيب رهبان وينكستر

وفي هذه الآونة نفسها، شرع البريتاني، الذي وضعه الملك بالقوة على رأس دير وينكستر، وجعله رئيساً للرهبان، في إغضاب المجمع الديرى بمختلف الطرق، لأنه بدسائس هذا المغتصب الزائف، أثرت الخلافات، حتى توفرت أسباب جيدة لإنزال عقوبة الحرمان الكنسي بالرهبان الذين عارضوه، وبعد مرور مدة أربعين يوماً، جمع بعض وكلاء الملك وقال لهم: «اذهبوا وانتقموا للافادات التي وجهت إلى الملك وإلينا من قبل هؤلاء العصاة علينا، ذلك أنهم مجرّسين كنسياً، وإنه لن يكون ذنباً إذا ما ألقيتهم بأيدي العنف عليهم»، واندفع أتباع الملك وخدمه وزحفوا نحو الأمام على شكل عساكر، وبعنف ألحقوا بأيديهم

الآثمة على الرهبان الذين هربوا إلى المذبح الكبير يطلبون الحماية هناك، وقد دفعوا بهم وسحلوهم بعنف شديد، حتى أنهم لطخوا الأرض بالدم، ثم أخرجوهم مطرودين من الكنيسة، وكان ذلك على مشهد من المواطنين، الذين أبدوا دهشتهم، وعجبهم، وحزنهم، وقد دفعوا بهم وسط الشتاء والضربات إلى قلعة الملك في هسفيتري Husvetrey، حيث صفدوهم بالأغلال كل اثنين معاً، وألقوا بهم في سجن مضيقاً عليهم، وهكذا فعل هؤلاء الحراس التابعين للملك، الذين ألقوا جانباً كل خوف من الرب، واحترام للزي الديني، وأنزلوا الظلم بالرهبان وعسفوا بهم، واحتفظوا بهم مسجونين في الظلام، وعذبوهم بالجوع وبالبرد، وعرضوهم لإهاناتهم، مع أنهم حصلوا هكذا على سعة الشهادة، لمعرفةهم بأن جميع هذه الآلام التي أنزلت بهم، كانت لوفائهم بالعدل، وتحملوها كلها بصبر، لابل حتى بسرور، وذلك بقدر ما كانوا مستحقين تحمل التمرد، في سبيل المسيح.

إثنان من وكلاء البابا يستخرجان مالا

من إنكلترا وسكوتلندا وإيرلندا

أمضى بطرس دي سوبينو Supino، الذي كان كاهناً تابعاً للبابا وقته كله بمواظبة كبيرة في جمع المال، باستخراج عشرين جزءاً من الممتلكات من جميع إيرلندا، مدعوماً بترخيص من البابا، وقد أخرج من تلك المنطقة مبلغ ألف وخمسمائة مارك، إلى جانب مختلف الهدايا، وكان بطرس لي روج، الذي جعل من نفسه قريباً للبابا، وصديقاً مقرباً منه، أيضاً محمياً بإجازة من البابا، وشغل نفسه بيقظة في جمع الأموال وتكديسها من المناطق الشمالية من إنكلترا، وبوساطة ارسال الرسل إلى مناطق سكوتلندا، وأخيراً سارا وحقائب سروج خيولها مليئة تماماً، تحت كفالة رهبان كانتبري إلى دوفر، ثم أبحرا فجأة وبشكل سري، لأنها سمعا من رسل أرسلوا بكل سرعة، بأن البابا ما يزال من دون

أمل بالشفاء، أو بالحقيقة هو إما قد مات أو على وشك الموت بالحال، ولذلك قاما بفرار سري ومفاجيء بالبر وبالبحر مع غنيمتهما، لأنهما كانا يخشيان أنه إذا ما علم الملك بوفاة البابا، سوف يقوم بحكمة باستبقاء جميع الأموال التي جمعها، ومن ثم يقدر كيف سيتصرف بها لدى استخلاف بابا آخر.

وماكادا يدخلان إلى فرنسا، حتى —عجبا— وصل المعلم وولتر دي أوكرا، وهو رسول من الامبراطور، وصل بكل سرعة، مع أن ذلك جاء متأخراً، حاملاً رسائل اعتماد من الامبراطور وكذلك رسولا إلى الملك، لإخباره بأحوال الأوضاع في البلاط الروماني، وينصحه إذا ما تم العثور على مثل هؤلاء الناس في انكلترا، بأن يتم الاحتفاظ بالأسلاب، وحبس اللصوص أيضاً، ولكن عندما علم الرسول بأن الاثنين قد نجوا، وجه اللوم إلى تقاعس الملك واهماله، وغادر على الفور وهو غاضب وآسف، لأنه قام برحلته من دون فائدة، وتبع خطواتها بيقظة، وراقب بدقة تسكع هذين الثعلبين حتى يخبر الامبراطور بنتيجة رحلته.

كيف جرى تحويل المال الذي جمع من قبل وكيل البابا

إلى الخزانة الإمبراطورية

وعلم المندوبان البابويان الآن بوفاة البابا، مع أن الخبر ظل مكتوماً عن الناس لعدة أيام، وقد علما أيضاً بأن وولتر المذكور كان يسير خلفهما، فأسرعا بسفريهما، ولم يوفرا فرسيهما، وبعد عبورهما للألب، أخذتا نفسيهما إلى مدن وبيوت أقربائهما، وأودعا المال الذي قدماه وهما محملان به في أماكن سرية، ولم يجعلوا حضورهما معروفاً لدى الجميع، وبما أن وولتر المذكور لم يستطع العثور على أي منهما، أو على المال، سوى سماعه بعض الاشاعات الهامسة، بعث برسالة إلى الامبراطور حول كل شيء، وحول تفتيشه غير المثمر، وعند ذلك أمر صاحب

الجلالة الامبراطورية القيام ببحث دقيق في جميع المدن الايطالية الخاضعة لحكمه، لاكتشاف من هما هذين الرسولين البابويين، وأي تاجرين كانا هما، اللذان كانا يسعىان إلى اخضاع الامبراطورية، وإلحاق الأذى بالمصالح العامة، وإثارة الحرب، وقد جمعوا المال بخداع من مختلف البلدان، ولا سيما من انكلترا، لمنحه إلى البابا، وكانا بذلك يرفعان من جبروته، ويدفعان به لدمار سلام الامبراطورية، ثم أمر بسجنهما بعد اعتقالهما، على أساس أنهما من الأعداء الألداء، ودعوتهما للظهور، ومصادرة أملاكهما وبيوتهما، ومثل ذلك ممتلكات وبيوت أقربائهما.

وهكذا بعدما جرى سجن الرجال الرئيسيين من هؤلاء القوم مع زوجاتهم وأولادهم، أمر باجراء بحث دقيق حول المبلغ المالي الذي جرى جمعه من أجل استخدامات البابا، وأمر بتعداده وكتابة ذلك، ووضع في أيدي تجار المدن، والذين يفهمون بالأعمال، ومن ثم يجري إيداعه كله، وهكذا فإن هذين اللاهوتين، اللذين كان من المتوقع حمايتهما تحت جناح البابا، قد جرى تجريديهما تماماً، وتولى أعداء الكنيسة بجرأة تعذيبهما.

موت البابا غريغوري

وفي الوقت الذي كان فيه دولاب الحظ يدور هكذا بشؤون العالم، تأكد التقرير الذي طار في جميع أنحاء العالم المسيحي، والذي ادعى بأن البابا غريغوري، لم يعد بإمكانه تحمل الأحران التي شعر بها — والتي هو نفسه قد تسبب بها — وقد غادر طريق الجسد في الثاني والعشرين من آب، ليتلقى المكافأة من القاضي في عليين، وفقاً لاستحقاقه، وكان في وقت موته قد بلغ من العمر حوالي المائة سنة، في حين اعتقد عدوه الامبراطور، أنه كان في ذلك الحين ليس أكبر من خمسين سنة، فقد روي بأنه ولد في السنة التي كان فيها رتشارد ملك انكلترا سجيناً في ألمانيا.

السبب الذي عجل بموته

وكان الأسى الرئيسي الذي خرق قلب البابا، والذي أوصله إلى حافة الموت، هو أن الامبراطور، كان قد استولى إثر عيد الصعود على قلعة قرب مونت فورت في كامبانا Campagna كانت عائدة إلى أحفاد البابا وإلى أقرباء آخرين له، وكانت قد بنيت حديثاً بأموال الصليبيين من أجل حماية أقربائه، لأن البابا غريغوري كان يعرف تمام المعرفة بأن الامبراطور يكره جميع أقربائه، ورغب أنه إذا ما قام الامبراطور بغزو كامبانا، أن يحال دون الحاجة لأن يكون معرضاً لحملاته، وكان الامبراطور قد علم بهذه الأوضاع، فقام فجأة بحصار هذه القلعة وبتدميرها وبشنق جميع الذين وجدهم فيها، وكرمز على تدميره لها ترك نوعاً من أنواع الأبراج نصف مدمر، بمثابة ذكرى على اعتدائه، وعلى انتقامه أيضاً، ذكرى لن تموت أبداً، وبالإضافة إلى هذا كان البابا مصاباً بالحمى، كما كان قد تقدم بالسن كثيراً، وقد حرم من استخدام الحمام الذي اعتاد أن يقوي فيه نفسه في فيتربو.

موت إليانور ابنة غيوفري كونت بريتاني

وماتت في هذه الآونة إليانور ابنة غيوفري كونت بريتاني، التي كانت موضوعة منذ زمن طويل في سجن ضيق.

كيف التحق بعض الرهبان بطوائف أخرى

وفي هذه الآونة كان هناك بعض الرهبان، الذين عانوا من التقلبات في عقولهم ومن عدم الاستقرار، فقلدوا مثل أسقف هيرفورد، دون أن يعرفوا السبب (لأنه كان مرتبطاً بنذر)، فتحولوا إلى طائفة غير معروفة، و التحقوا بالدومينيكان وبالفرنسيسكان، ناسين قول النبي: «لقد حدد له الطريق الذي اختاره»، فقد قام راعي دير أوسني Osney بعقله الجبان، فتخلّى عن طائفة أوغسطين المعلم الكبير، وانتقل إلى طائفة

الفرنسيسكان، راغباً بتجريب الجديد، وقام راعي دير وولدن Wal- den أيضاً، الذي حمل صليب ربنا بألم تحت حكم نظام طائفة القديس بندكت، عندما رأى ديرهم مثقلاً بالدين، وقد غرق في أعماق اليأس، قام من دون أن يعرف ديرهم أو رهبانه، فجأة وبلا حياء بالالتحاق بطائفة الدومينيكان، غير أنه ندم على هذا فيما بعد.

الإعاققة التي عملت ضد انتخاب البابا

في الوقت الذي مات فيه البابا غريغوري، الذي ذكرناه أعلاه، كان هناك عشرة كرادلة موجودين في البلاط الروماني، وكان هناك اثنان مازالان في سجن الامبراطور، وبعدما قُتِلَ هؤلاء العشرة ببعض المداولات — كما هي العادة — حول انتخاب بابا جديد، لم يتمكنوا من الوصول إلى قرار مقنع، لأن عددهم قد انقسم على نفسه، وبناء عليه بعثوا إلى الامبراطور، يرجونه بتواضع أن يرسل أخويهم، الكارديناليين، إلى البلاط، حسب ما يختاره من شروط ويفرضه، وذلك في سبيل رفع شأن الكنيسة ولصالحها، التي تعتمد اعتماداً أساسياً على انتخابهم بابا، وأن لا يعاق هذا الانتخاب من قبله، ويلطف منحهم الامبراطور هذا المطلب، لأنه كان قد لان أمام التماسات الايرل رتشارد، على شرط أنهم إذا انتخبوا أوتو بابا، عليهم العودة إلى وضعهم المتقدم، وإلى حالهم في السجن.

وبناء عليه، عندما اجتمعوا كلهم في قصر كان اسمه «قصر الشمس»، وقد انتخب خمسة من الكرادلة سادسهم، الذي كان غيوفري الميلاني، أرضى هذا الانتخاب الامبراطور، الذي قام بتهنئته على ذلك، وانتخب الثلاثة المتبقين رابعهم، الذي اسمه رومانوس، وقد عارض الامبراطور هذا الانتخاب، عاداً إياه رجلاً بلا أخلاق حميدة، وذلك بسبب اضطهاده لجامعة باريس، ولأنه قد قيل بأنه في وقت من الأوقات قد فسق ببلانشي، ملكة فرنسا، وأيضاً بسبب اتهامه بابقائه الخلاف

مشتعلاً بين غريغوري البابا المتوفى مؤخراً، وبينه، أي الامبراطور، وكانت أسماء الذين انتخبوا الأول: جايل أسبان Giles Aspan، وستيفن فتزكونت Fitzkonte أسقف بورتوا Portua، ورينرر أوف فيتربو، وجون دي كولونا Colonna، وروبرت سمركوت وكان انكليزياً، والذين انتخبوا الآخر كانوا: رتشارد هانيبال Hannibal، أسقف أوستيا، الذي كان له تبعاً للعادات، الصوت الأول في انتخاب البابا، وسينبولد Sinibald، أسقف أوف ساينا Sabina، ونشب خلاف حاد بين الكرادلة، بسبب هذا الانتخاب، لأن الذي يتوجب انتخابه بابا، هو الذي يجري انتخابه من مجموعتي المنتخبين، ويوافقان عليه، وذلك وفقاً لمرسوم الاسكندر، الذي يبدأ بالكلمات التالية: «على كل حال، لتجنب الخلاف، إلخ»، وهكذا فإن القضية التي تهم الكنيسة بعمق تركت من دون انهاء، وكانوا منقسمين، أو بالحري متفرقين بالتفكير والجسد.

ومات في هذه الآونة جيمس أسقف برانستي، الذي كان واحداً من طائفة السسترشيان وكان عدواً عنيداً جداً للامبراطور.

عودة الفرنسيين الذين أطلق سراحهم من أسر المسلمين إلى الوطن

وكان الايرل رتشارد قد بقي حتى الآن حوالي أربعة أشهر مع الامبراطور، ولذلك استأذنه وانطلق عائداً نحو الوطن، وكان الفرنسيون، الذين أطلق سراحهم بموجب الهدنة التي عقدها الايرل، قد عبروا البحر الآن، بعدما تأخروا كثيراً بوساطته، ليعيدوا إليه الشكر، وليتسلموا المزيد من الاحسان منه، لأنه كان صديقاً جداً للامبراطور، وكان كأنه امبراطور آخر تقريباً، وكان وافر الثروات، وكان أولئك الفرنسيون في حالة فقر مدقع ويحتاجون إلى المساعدة، وزودهم الايرل رتشارد بكرم بالملابس، وبنفقات السفر وبوسائل مناسبة، كما أنه حصل

من الامبراطور على وعد منه، قبل أن يتركه، بوجوب منح السلام إلى الكنيسة، تحت طائلة عقوبة الموت القاسية جداً، لأي واحد سوف يخرقه، ووجوب الاعلان بصوت المنادي في جميع أنحاء الممالك الامبراطورية، بوجوب عدم اعتداء أي انسان على شخص لاهوتي أو ازعاجه، أو على حاج، ولا سيما على الفرنسيين العائدين إلى بلادهم، وذلك نتيجة لحالة ترمّل الكنيسة الرومانية، بسبب موت عدوه البابا غريغوري، وأمر الامبراطور بوكيل حكيم وصاحب نفوذ بمرافقة الايرل رتشارد، ليزوده بجميع الحاجات الضرورية، وليخدمه بشكل لطيف حتى حدود الامبراطورية، ونتيجة لذلك عندما اجتاز خلال مدن ودول ايطاليا والمناطق الأخرى الخاضعة للحكم الامبراطوري، استقبل بسرور عظيم وبتكريم، وبناء على أوامر الامبراطور استقبل وهو على الطريق من قبل سكان المدن، وهم على ظهور خيول أصيلة، وهم مجهزين بشكل غني، وهم يرتدون الحرير والملابس الثمينة الأخرى، ترافقهم موسيقى آلية وصوتية، وذلك وفق طرائق رفيعة، ولسوف أحذف ذكر جميع الأحداث، وسأتولى ذكر حادثة سارة خاصة في مكان واحد.

فلدى اقترابه من كريمونا، خرج أهل المدينة مسرورين لاستقباله، مع فيل الامبراطور وهو يسير أمامهم، وهو مزين بشكل جميل، وكان يحمل برجاً من الأبراج الخشبية، فيه جلس ساسة الحيوان، وهم يلعبون بالبوق، ويصفقون بأيديهم وهم مسرورين، وكان مع الايرل عدد كبير من النبلاء الفرنسيين، وقد شاركوا في سرور تكريمه، وعند الوصول إلى حدود الامبراطورية، عاد وكيل الامبراطور، وترك بعض الفرنسيون الايرل، بعدما كرروا تحيات الوداع، ورجعوا مسرورين إلى بلادهم، حيث استقبلوا بالمعانقة من قبل زوجاتهم وأولادهم، وآخرين أعزاء عليهم، ونفّسوا أنفسهم باستخدام مختلف وسائل النقاهة، والراحة الممتعة، ثم إن كل واحد منهم حكى وهو مسرور ذكريات المخاطر

العظيمة التي تحملها في خدمة المسيح، وكيف أنهم هجروا بشكل خياني من الذين كانوا ملزمين بتقديم المساعدة إليهم، وكيف جرى بعد ذلك تحريرهم وتزويدهم بحكمة وبكرم الايرل رتشارد وحده:

وأصغت أذن كل ربة بيت

باهتمام، لسماع حكاية زوجها.

نشوب خلاف بين الداوية والاستبارية

وبعد مغادرة الايرل رتشارد، غادر عدد كبير من الحجاج الأرض المقدسة في هذه الآونة، وكان الداوية هم الوحيدين الذين لم يوافقوا على تصرفات الايرل رتشارد، وقد أثارهم لدغات الحسد، فتورطوا في ذمه، وبالنميمة ضده، وبالسخرية منه، وبلاحياء خرقوا الهدنة التي أبرمها، وضايقوا الاستبارية بشدة وآذوهم، لأنهم قبلوا الهدنة، وتولوا مراعاتها تماماً وقد حبسوهم في عكا وكأنهم محاصرين، ولم يسمحوا لهم بالحصول على المؤن، ولا حتى بجلب موتاهم واخراجهم من بيوتهم، التي كانوا فيها محاصرين، وذلك من أجل القيام بدفنهم، وقام الداوية أيضاً نكاية بالامبراطور، فطردوا جميع رهبان كنيسة القديسة مريم الألمانية، وأخرجوهم من المدينة، وتركوا عدداً قليلاً منهم، هم الذين كانوا أصدقاءهم، وخدم الكنيسة، وهرب الرهبان الذين بقيوا إلى الامبراطور وإلى الأعيان المسيحيين الآخرين، وتقدموا بشكوى ثقيلة حول هذه القضية، ولذلك ثارت فضيحة كبيرة، قامت على أساس فكرة أن هؤلاء الذين سمنوا بوساطة عدد كبير من الموارد من أجل محاربة المسلمين بكل قواهم، قد حولوا الآن قوتهم بشكل فاجر، ووجهوا حقدهم ضد المسيحيين، لابل ضد اخوانهم، وبذلك أثاروا غضب الرب بشكل ثقیل أكثر، ولهذا السبب، فإن الايرل عند مغادرته الأرض المقدسة، وكأنه كان متوقفاً مثل هذه الأشياء، لم يعهد بمدينة عسقلان، أو بالمال الذي تركه هناك، من أجل إكمال بعض أجزاء القلعة، إلى الداوية المتعجرفين،

وفي الحقيقة اختار هو أن يعهد بذلك إلى وكيل الامبراطور، لأن الداوية حملوا مشاعر محقد كبيرة ضد الايرل.

وفاة الكاردينال روبرت سمر كوت

وفي تلك الآونة نفسها، غادر طريق الجسد المعلم روبرت سمر كوت، الذي كان كاردينالاً من أصل انكليزي، وكان رجلاً مستقيماً وحكيماً، محبوباً من قبل الجميع، ومحسناً إليهم، وكان في تلك الأثناء محبوباً في قصر اسمه «قصر الشمس»، يتداول مع الكرادلة الآخرين حول انتخاب بابا، وهناك — كما قيل — جرى دس السم له، من قبل منافسيه الذين كانوا من أصل روماني، والذين كرهوه، لأنه بدا رجلاً مناسباً، وأهلاً لشغل الكرسي البابوي، ومات كاردينال آخر بطريقة مماثلة، وكان ضحية لتآمر أشخاص حسودين له، وأما جون أوف كولونا، وكان واحداً آخر، فهو بعدما جرى هدم قلاعه وقصره من قبل الرومان، اعتقل وألقي به في السجن، بسبب أنه بدا مجبداً وميلاً نحو الامبراطور.

موت ستيفن سيغريف

في التاسع من تشرين أول من العام نفسه، مات ستيفن سيغريف Segrave في رعوية دير ليستر، حيث كان قد تمدد متخفياً، لبعض الوقت أثناء اضطهاده، وكان ستيفن هذا أثناء شبابه قد تحول من كاهن إلى جندي، ومع أنه كان من أصل متواضع، فقد تمكن بوساطة شجاعته، في أيامه الأخيرة، من الحصول على الثروة، ومن الترقية إلى منصب، حيث عدّ بين أوائل الرجال في المملكة، وجرى تعيينه مسؤولاً عن العدالة، وقد أدار جميع شؤون المملكة حسب رغبته، وقد نظر دوماً نحو منفعة وتطلع نحو تقدمه، أكثر من تطلعه نحو المنفعة العامة، ونظراً لبعض أعمال العدل التي عملها في حياته، والتي أرضى بها

الرب، استحق السباح له بعمل وصيته وبتقوى تلقى القربان، ليواجه نهاية محمودة ومرضية.

كسوف الشمس

في السادس من تشرين أول من هذا العام، الذي كان يوم عيد القديس إيمان Faith، تعرضت الشمس للكسوف، من الساعة الثالثة حتى السادسة، وبدت السماء وكأن لها شكل الأرض نفسها وكان هذا هو الكسوف الثاني للشمس، الذي حدث خلال ثلاثة أعوام، وهو حادث لم يسمع بمثله حتى الآن.

موت روجر أسقف لندن

وفي تلك الآونة نفسها، وبالتحديد في التاسع والعشرين من تشرين الثاني، مات المعلم روجر، أسقف لندن، وكان رجلاً صاحب حياة تستحق الثناء، وقداسة مدهشة، ومعارف متميزة، وكان فهيماً في وعظه، وصاحب حديث مشرق، مرح عند المائدة، وصاحب ملامح هادئة، وقد وقع مريضاً في ستوبنهام Stupenham، وهي عزبة كانت له قرب لندن، وهناك قال وداعاً لهذا العالم، وغادر إلى الرب، وجلب جسده إلى لندن، ودفن في كنيسة الكاتدرائية.

وفاة غيوفري دي لوسي

ومات في الشهر نفسه المعلم غيوفري دي لوسي Lucy، صاحب الذكرى الطيبة، الذي كان عميد الكنيسة نفسها، وبوفاته رميت كنيسة لندن في لجة فوضى عظيمة لأن الملك لم يسمح بملء أي كنيسة، قبل أن تصبح مدمرة، ولأن الكرسي البابوي كان شاغراً، وكان الكرادلة في حالة اضطراب جسدي وعقلي، ولأنه لم يكن لديهم رئيس أساقفة، الذي من المعروف أن عميده هو أسقف لندن، ولأنها كانت الآن من دون عميد.

عودة أوتو إلى الإمبراطور حتى يسجن

وكان الكرادلة في هذه الآونة في حالة عدم اتحاد تقريباً، وفي حالة خلاف، وجرى تأجيل انتخاب البابا، وكأنهم كانوا يائسين، ولذلك عاد أوتو إلى الإمبراطور، إلى سجنه، من أجل إطلاق سراح الرهائن الذين قدمهم، وليحفظ سمعته من التلطيخ، بأنه خرق وعده، وكان الإمبراطور مسروراً جداً بهذا التصرف الذي تصرفه، ومع ذلك أبقاه في السجن، لأنه كان غاضباً عليه، بسبب أنه عندما كان نائباً بابوياً في انكلترا، قد تولى حرمانه كنسياً، وسمح بإعلان حرمانه كنسياً، وبالتشهير به إلى درجة عالية، لكنه عامله بلطف أكبر، لأنه كان قد فعل ذلك من دون إرادته، بل بالاكراه، بحكم طاعته للبابا.

انتخاب فولك باسيت إلى كرسي لندن

ومع اقتراب عيد الميلاد، انتخب كهنة لندن، أسقفاً لهم وراعياً لأرواحهم هو المعلم فولك، عميد يورك، وكان رجلاً مستقيماً وحكماً، وصاحب أخلاق حميدة، ومن أسرة مشهورة، وجاء هذا على كل حال ضد رغبة الملك، الذي أثار المعلم بطرس دي أوغويبلانشي Aigueblanche، أسقف هارتفورد، ودخل بسرعة إلى بيت هيئة كهنة القديس بولص حتى تجري تسميته أسقفاً لهم، وقد عيّنوا أيضاً في الوقت نفسه واحداً اسمه وليم، ليكون عميداً لهم، وكان كاهناً ومستشاراً لكنيسة القديسة مريم، وكان رجلاً صاحب حياة جديرة بالثناء.

وفاة هوغ دي بيتهل

ومع مرور الأيام، وفي حوالي السابع من كانون الأول مات هوغ دي بيتهل Pateshull أسقف سيستر، وكان رجلاً مايزال في نشاط الحياة وقوتها، وهو بعدما كان قد أمضى حياته بطريقة تستحق الثناء،

انحرف بوساطة مشورة شريرة، وتحول إلى الطرق الشريرة، وصار مطرقة للرهبان، ولاسيما إلى أولئك الذين أوجدوه، وقد مات مع حزن قليل عليه، مع أنه جلس في كرسي الأسقفية لمدة تزيد قليلاً عن سنة واحدة.

وعندما سمع رئيس رهبان كوفنتري والرهبان بهذه الحادثة، جمعوا كهنة ليشفيلد Lichfield وانتخبوا راهباً من كنيسة كوفنتري، كان مدرسهم، أسقفاً لهم وراعياً لأرواحهم، مع أن بعض الكهنة قد عارضوا انتخابه، واختاروا رتشارد راعي دير ايفهام Evesham، الذي كان آنذاك حامل أختام الملك، وكان يمارس واجبات المستشار، ولصالحه كان الملك قد توسط لديهم، ونتيجة لهذا الانتخاب، صار الملك عدواً لكنيسة كوفنتري، وألحق برئيس الرهبان وبالرهبان كل ضرر كان يمكنه فعله في كثير من المناسبات، ولأن الرهبان كانوا هكذا معارضين للملك ولرجالهم، وكذلك بعض كهنة ليشفيلد، ولذلك ارتقى دير كوفنتري في حالة من الفوضى، ونال كثيراً من الأذى، بلغ حداً، أن التجمع الديرى تفرق ينشد المساعدة من الديرية الأخرى، وقام دير القديس ألبان انطلاقاً من عواطف خيرة، وتكرمية، ففتح صدره الرحيم، واستقبل رئيس الرهبان وبعض رهبانه، وخدمهم وحيولهم، بأعظم احترام، وعاملهم بمتهى الكرم لمدة سنة انضاف إليها عدة أشهر.

انتخاب غيوفري أوف ميلان بابا وموته إثر ذلك

وفي هذا العام انتخب الكرادلة بابا المعلم غيوفري أوف ميلان، وجاء ذلك بعد نقاشات كثيرة، وبعد التعرض لمختلف أنواع الأذى، ولخطر الانقسام بين الكرادلة، وهو انقسام زرعت بذوره من قبل الشيطان، وأيضاً بعدما تناقص عدد الكرادلة إلى عدد صغير بوساطة البلايا والأسى، وكان الذي انتخبوه متميزاً بأخلاقه، ومتعلماً، ولكنه كان مسناً

وقد مال نحو الضعيف، وما كاد يشغل الكرسي البابوي لمدة ستة عشر يوماً، عندما قطع بموت قبل أوامه، ودفع دين الطبيعة، وقد قيل بأن السم قد دس له، وهكذا ترك الكرسي البابوي، لابل بالفعل الكنيسة كلها في حالة بائسة، وفي تلك الآونة نفسها، مات واحد من الكرادلة، واسمه رتشارد هانيال.

مؤتمر أساقفة انكلترا

التقى في هذه الآونة رئيس أساقفة يورك، وأساقفة لنكولن، ونورويك، وكارآيل، واجتمعوا مع عدد كبير آخر من رجال الدين واللاهوتيين المتنفذين والمستقيمين، للتداول حول كثير من مصائب الكنيسة المضاعفة، وليتمسوا المواساة الربانية، ثم انهم أمروا بعمل صلوات خاصة وبصوم، وأن يراعى ذلك بشكل عام في جميع أرجاء انكلترا، حتى يقتنع الرب بتحرير الكنيسة الرومانية وبردها إلى العافية، حيث كانت الآن محرومة من راع لها وبابا ليحكمها، وبهذا أخذوا مثلهم من أعمال الرسل، حيث ورد فيها، أنه عندما جرى سجن بطرس، صلت الكنيسة من أجله من دون انقطاع.

وتوصلوا أيضاً إلى قرار جماعي، بإرسال رسل إلى الامبراطور، لحثه بالتماسات باكية، بما أنه يهتم بخلاص روحه، أن يتخلى بقلب مخلص عن جميع مشاعر الغضب والحقد، وأن يهجر جميع أنواع الطغيان، وأن لا يعيق تقدم مصالح الكنيسة ومنافعها، لابل أن يكون بالحري رحيماً بالسماح لها بالتنفس بحرية، مع أنه أثير لدراسة رفع شأنها وتقديمها، لأنهم قالوا بأن الذين أثاروا غضبه، هم الآن أموات، ومن الواضح أنه تصرف طغياني وعمل معارض للمنطق، أن يجعل الأبرياء يدفعون من أجل أخطاء الأموات.

وعندما — على كل حال — شرعوا بالتباحث حول انتخاب الرسل،

الذين كان عليهم السفر من خلال فرنسا والبلدان المجاورة، وأن يسعوا إلى استنهاض أساقفة تلك البلاد، لقد انتقلوا إلى العمل بطريقة متشابهة، وبدأ كل واحد يحتاج بمسوغات تافهة، ورفض أن يأخذ على عاتقه أعباء مثل هذا العمل الكبير والمقلق، ومثل هذه المتاعب الخطرة، حتى وإن كان ذلك لصالح المسيح وكنيسته، وأخيراً كما قال الشاعر:

بحضور اللص يتتهج

المسافر الذي لا يحمل ذهباً.

وبما أنهم لم يجدوا أحداً جاهزاً من بينهم، ليقوم بأعباء الرحلة، اختاروا الدومينيكان والفرنسيسكان لهذا الغرض، لأنهم كانوا جوالين، وكانوا عارفين معرفة جيدة بجميع البلدان، وعندما —بناء عليه— حصل هؤلاء الرسل على مقابلة مع الامبراطور، وقدموا إليه رسالتهم، أجابهم كما يلي قائلاً:

«ومن الذي يعيق تقدم أحوال الكنيسة؟ لست أنا، إنه بالحري التعالي المجنون، والنهم غير المستقر للكنيسة الرومانية.. ومن الذي يمكنه أن يندش إذا ما كنتُ أنا المعيق لتقدم الكنيسة الانكليزية والرومانية؟ لأنها تسعى باذلة كل جهودها لخلعي من عرشي الامبراطوري، ولقد حرمتني كنسياً، وأسأت إلى سمعتي بدرجة عالية جداً، وبالضرورة صبت الأموال لتلحق الضرر بي»، وهكذا أخفقت خطة الأساقفة الانكليز في إحداث أي تأثير في هذه القضية، وبرهنت أحداث هذا العام أنها كانت غير مواتية تماماً للبلاط الروماني، وذلك جزاء —كما هو واضح— على ذنوبه، وأيضاً غير نافعة للأرض المقدسة، بسبب تصرفات الداوية، ومؤسفة وغير سعيدة للنبلاء الانكليز، لأنه بالاضافة إلى الذين هلكوا في البحر، مات في هذه السنة بعض الأساقفة المتميزين، وهما الخبران الرومانيان، مع بعض الكرادلة، وآخرين، قد تقدم ذكرهم أعلاه.

ذكر مختصر للذين ماتوا في هذا العام

وكان بين النبلاء الانكليز الذين ماتوا في هذا العام: وليم دي فوربس Forbes, ايرل أوف ألبارل، الذي وهو مسافر لحجه، وقع مريضاً في البحر المتوسط، وبات غير قادر على الأكل، وقد تحمل آلاماً طويلة لمدة ثمانية أيام، وفي يوم الجمعة التالية قبل عيد الفصح، وهو اليوم الذي أسلم فيه المسيح الروح وهو على الصليب إلى أبيه، هو وفق الطريقة نفسها أسلم روحه إلى المسيح، ومات أيضاً النبيل والقوي وولتر دي لاسي Lacy، الذي قد ذكرناه من قبل، وحدثت وفاته أيضاً في حوالي عيد الفصح، تاركاً ميراثه المبدد إلى بناته، وستيفن سيغريف، الذي ورد ذكره في مكانه من قبل، وهو الذي كان مستشاراً خاصاً للملك، وكانت مستشاريته صالحة وعادلة لانكلترا، وغيلبرت باسيت، قد غادر هذه الحياة، وقد أتينا على ذكر سوء حظه أعلاه، ومات كذلك جون بيسيت المسؤول الرئيس عن إدارة عدالة الغابات، وغادر هناك إلى الرب بطرس مولاك Maulac، وهو غ ويك Wake، وروبرت مارميون Marmion، وبترس دي بروس Brus، وغويسكارد Gusicard، وليديت Laidet، ويوستاس دي ستوتفيل Stutevill، (الذي خلفه في ميراثه زوجة هوغ ويك)، ويودو Eudo، وهامو Hamo، الذي كنيته سن Sin، وبلدوين دي بثيون Bethune، وجون فتز-جون (قهرمان الايرل رتشارد) وغ. G، أخو الايرل المذكور، وجون دي بيوليو Beaulieu، وجيرالد دي فورنيفال Furnival، وعدد كبير آخر من النبلاء الانكليز من كونتية الايرل رتشارد، الذين تسابقوا بشكل مجيد فراراً من هذه الحياة إلى السماء، وذلك تحت حماية المسيح، عندما كانوا يقاتلون في سبيل الرب في الأرض المقدسة، ومات في هذا العام، كما ذكرنا من قبل إلينور ابنة غ. G، كونت بريتاني، وكانت

وفاتها في بريستول Bristol، وكذلك الأسقفان المشهوران: روجر أسقف لندن، وهوغ أسقف شيلستر، فهما أيضاً ماتا في هذه السنة، وعدد كبير آخر من اللاهوتيين المشهورين، ومن الرجال العلمانيين، الذين أسماؤهم كثيرة جداً حتى نأتي على ذكرهم.

موت الإمبراطورة إيزابيلا

وفي هذا العام ماتت أيضاً الامبراطورة إيزابيلا، التي كانت مجد انكلترا وأملها، وجاء موتها أثناء الولادة، وقد علمنا بموتها المحزن كثيراً، بشكل كامل في الرسالة الكثيرة التالية لزوجها الامبراطور فردريك.

رسالة الإمبراطور حول موتها:

من فردريك الامبراطور، إلخ، إلى ملك انكلترا، تحيات:

لقد اعتدنا مؤخراً في رسائلنا، وبوساطة رسلنا على أن نقدم إليكم أخباراً طيبة، غير أننا بسبب سوء الحظ، ولأننا أصبحنا محسودين بنجاحاتنا، قد أرغمنا بالحزن على أن نبوح إليكم بمكرمين خبراً مكروهاً، وذلك بقدر ما نحن نعاني من خسارة لاتعوض، هي وفاة قرينتنا الأوغسطة المحبوبة، وهكذا، أرغمنا بوساطة الموت القاسي على تحمل الانفصام المحزن للروابط الاجتماعية، ووقعت هذه الواقعة ذات الذكرى المرعبة لدينا، في اليوم الأول من الشهر المنصرم، وهو شهر كانون الأول، وذلك عندما استجابت قرينتنا المذكورة الامبراطورة وأختك، إلى الطبيعة، أثناء نداء الرب، الذي يأخذ بعيداً حياة الأمراء، والذي لديه لا يوجد استثناء، أو قبول لأشخاص، لأنه في سبيل شفاء الذين، لو أن المنية رضيت وراعتنا، وأوقفت الطبيعة دفع دين الموت الذي لا بد منه، لما سمح لنا حبنا الثمين وعنايتنا وقرينتنا، بعدم بذل كل نفقة بالمال، والجهد، أو الممتلكات، لكن عندما أخذها ملك الملوك،

ومولى الموالي، الذي يحكم بقدره من فوق قبة السماء، والذي لا يمكن لأحد أن يقاوم إرادته، وأبعدها عن الوحدة مع جسدنا، وعن روابط الأخوة التي كنت بها متحداً معها، لقد قرر بآرائه في عليين، بوساطة ترتيب، أو بالحري بتدبيره، أن تعيش لنا ولكم في ذكرى ولديها، لأنه بمنحة الرب القدير، يعيش أولاد ملكيون، منهما نهض ملك وملكة معاً تحت عيني والدهما، ليحلا محل أمهما ويقفا في مكانها، فبعطائها الخصب تلقينا عهداً نبيلة، هي التي تمتن روابطنا العامة بالمصاهرة، وتربط برباط وشيخ كرسي قيصر وكرسي جلالتك، بامتياز خاص، بدماء البنية والحفادة، وعلى هذا إن حبي لكم قائم على ذريتها، التي بها بدأت، وارتفعت إلى الوجوب، وسمات حلف سوف يدوم طويلاً، ومع أنه بناء عليه إن خسارة قرينتنا الأوغسطة، التي هي أختك، لا يمكن أن تذكر من قبلي، أو تسمع من قبلك، من دون حزن كبير في القلب، وأسى لموتها لا يمكن فصله عن عميق مشاعرنا، ومع ذلك إن ذكرى الأبوين المحبوبين مزدهرة في الولدين، وقد تثبتت علائقنا بشكل لا يمكن فصمه بهذين الحفيدين، الذين حملت بهما أختك الأوغسطة وولدتها طفلين لنا. صدر في هذا اليوم الثلاثين من كانون الثاني، إلخ».

حول أوضاع الأنواء خلال هذا العام كله

وكان هذا العام على العموم وافراً بمحاصيل القمح، لكن من عيد البشارة للعدراء المباركة حتى عيد الرسولين سمعان وجود، استمر جفاف وحرارة لا تحتمل جففت البحيرات العميقة والسباخ الواسعة، وجففت كثيراً من الأنهار، كما جففت المطارد، وأوقفت أعمال الطواحين، وبما أن المراعي قد جفت، فقد ماتت الأعشاب، وبالتالي أخذت الأسراب والقطعان بالهلاك بسبب الجوع والعطش، وفي الشتاء أيضاً، ومنذ ميلاد ربنا، كان هناك جليد وثلج، ترافق مع برد حاد لا يحتمل، وقد غطى وجه الأرض، وجعله قاسياً إلى درجة عالية، وجمّد

في الوقت نفسه الأنهار، حتى ماتت أعداد كبيرة من الطيور، ومثل هذا لم يتذكر الناس أنه وقع من قبل.

بطرس أوف سافوي يعمل استعداداته للعودة إلى الوطن

عام ١٢٤٢، الذي كان العام السادس والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، وفيه عقد بلاطه كما جرت العادة، في عيد الميلاد في لندن، في حال من السلام، وأطال الاحتفالات في الدير لقراءة خمسة عشر يوماً، وخلال ذلك، وبالتحديد في يوم ختان ربنا انتشرت تقارير حول وصول الايرل رتشارد، وعمت جميع أرجاء انكلترا، وفي هذا الموعد أيضاً، قام بطرس أوف سافوي، إيرل أوف رتشموند، الذي كان رجلاً مستقيماً ومحترماً، بتسليم الملك ووضع بين يديه القلاع المتميزة والفخمة للمملكة، التي كان قد تسلم المسؤولية عنهن، لأنه كان يخشى من أن ترقيته المفاجئة، سوف تغضب كثيراً نبلاء انكلترا، وأنه أخذ على عاتقه عبئاً فوق طاقته، في قيامه بوضعه هذه القلاع تحت عهده، بينما الانكليز مهملين ومعتلين، ولكي لا يحدث اضطراب في انكلترا، من خلاله لدى وصول الايرل رتشارد، الذي ربما سوف يستمع إلى شكاوى ثقيلة حول هذه القضية، وبعدما قدر الأمور بعقله بحكمة، ورأى الخطر الكبير والقريب عليه شخصياً، تخلى عنهن جميعاً، وعمل ترتيباته — بعد الحصول على إذن الملك — للعودة إلى الوطن، وبهذا العمل الحكيم الذي يدل على حكمة وحسن سلوك، به سكن مشاعر كثيرين، ولكن بالوسائل نفسها التي حصل بها على إذن بالمغادرة، استدعي على سرعة من قبل الملك، قبل أن يركب السفينة، وبناء على طلبه الملح، حصل — مع أنه لم يرغب — على قلعة دوفر، وتسلم المسؤولية عنها.

رعونة كونت دي لي مارشي

في هذا العام، قام كونت دي لي مارشي، وهو أكثر الكونتات البواتيين

قوة، بتقديم الطاعة وتأدية الولاء إلى أمفولسي [أمفولسوس]، أخو الملك الفرنسي، الذي بموجب مقدمة أخيه غير العادلة، اغتصب ملكية كونتية بواتو، وبدأ ينشط ضد سلطة النبلاء، وبدأ يتمدد بمقاصده، وبعد مضي بعض الوقت، جرت دعوة كونت دي لي مارشي المذكور للقدوم مسالماً لتناول طعام الإفطار مع أمفولسي كونت بواتو المذكور، وذلك أثناء الاحتفالات بعيد الميلاد، لكن في إحدى الليالي، بعد مضي أربعة أيام تقريباً على عيد الميلاد، وكان على وشك الاستجابة للدعوة، وفقاً للوعد، لكنه في الصباح تشاور مع زوجته إيزابيلا، فتوصل إلى قرار بتغيير نيته، وبمعارضة أمفولسي المذكور بالقوة، ولذلك ذهب إلى ذلك النبيل، وقال له برعونة: «لقد نويت، عندما غششت وفرض علي، أن أقدم الولاء لك، لكن الآن غيرت نيتي، حيث أنني لن أرتبط قط بكم بأية روابط طاعة ولن أعترف بأي ولاء لكم، ذلك أنك رجل عدواني، لأنك استوليت من دون خجل على كونتية صهري الايرل رتشارد، عندما كان يقاتل بإخلاص من أجل الأرض المقدسة، وبرحمة يقوم بتحرير الأسرى من أبناء بلادنا، وهكذا رددنا بالشر على الخير»، وهكذا قام وهو محقون بالغضب، وبالتهديد بصوت مرتفع، مع زوجته، وهو محاط بكتلة من الجنود، في حين أعدّ رماة القسي الزيارة من البواتيين قسيهم للرمي، فاندفع إلى وسطهم، فألقى النار في البيت الذي كان ساكناً فيه، ثم امتطى فجأة فرساً، وأخذ بالفرار، الإجراء الذي أدهش أمفولسي وأغضبه، مع جميع الذين رأوا ذلك، وجعلهم يش ملون بالرغبة للانتقام.

تقديم شكوى إلى الملك الفرنسي حول هذا الإجراء

ثم تقدم أمفولسي المذكور بشكوى ثقيلة، ووضعها أمام الملك ضد هذا العدوان، حول كل من هذا الفرار غير المتوقع، وإحراق البيت من قبل الكونت المذكور، الذي كان مثل فأر في كيس طحين، أو أفعى في

صدر انسان، وهكذا ردّ بشكل فاسد على استضافته له، وأثار هذه الشكوى بسبب مسوغ جيد، الملك وكذلك نبلاء فرنسا، لأخذ انتقام عادل.

كونت دي لي مارشي يطلب المساعدة من ملك إنكلترا

وبات كونت دي لي مارشي خائفاً كثيراً من غضب الملك الفرنسي، فحصد قلاعه وشحنها بالسلاح وبالرجال المسلحين، وكذلك بكميات وافرة من المؤن، وأمر بتحويل سكك المحارث إلى رماح، والمناجل إلى سهام، وقدر الشرور التي يمكن أن تقع، ولشعوره أنه لا يستطيع طويلاً مقاومة مثل ذلك الأمير الكبير، ألح بالرجاء إلى ملك إنكلترا، للقدوم إلى بواتو، مع مبلغ كبير من المال، ذلك أنه يستطيع بمساعدة البواتيين والغسكونيين في قوة كبيرة، من استرداد جميع الأراضي التي استولى عليها الملك الفرنسي من دون حق، ووعده بالمشورة الفعالة، ومساعدته الشخصية، مع مساعدة الأعيان الآخرين، وخاصة ملك أراغون، وكونت طولوز، مع آخرين عددهم كبير حتى نذكرهم هنا، ووقتها قدر الملك الانكليزي هذه الأمور كلها وتفحصها بعقله، ووثق بالكلام المخادع لكونت دي لي مارشي والبواتيين الآخرين، الذين ينبغي أن لا يثق بهم.

عقد برلمان كبير في لندن

وبناء عليه، كتب الملك هنري، إلى جميع نبلائه الانكليز، وإلى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والإيرلات، والبارونات، وأعطاهم أوامر دقيقة للاجتماع في لندن يوم الثلاثاء التالي، قبل عيد طهارة العذراء المباركة، للتداول بعناية كبرى حول بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالملكة، والتي لا تحتمل التأخير.

كيف ذهب الملك إلى استقبال الإيزل رتشارد لدى عودته من الأرض المقدسة

وفي هذه الآونة نفسها، كان الملك متوقفاً وصول أخيه الإيزل رتشارد من القارة، وكذلك النبلاء الذين كانوا قادمين من مسافات نائية لحضور المؤتمر، فأطال إقامته في لندن حتى الأول من شباط، أي يوم عيد القديسة هيلاري، لكنه سمع آنذاك بأن الإيزل قد نزل في دوفر، في اليوم التالي لعيد الغطاس، وبناء عليه قام ومعه ملكته، يحيط به كتلة كبيرة من النبلاء، فذهب مسروراً لاستقباله، ولدى رؤيته له، اندفع إلى مابين ذراعيه، واستقبله بكل علامة من علامات البهجة، فقد أثار الدم الأخوي العواطف من على الجهتين، وقد أثقله الملك، وجميع النبلاء تقريباً بمختلف الهدايا، وفي اليوم الثاني لعيد القديسة اغنس، وصل الإيزل إلى لندن، وعند وصوله تزينت المدينة بالأعلام وبالمعلقات، وكأن ذلك كان من أجل العيد، وأقام الأخوان وليمة مع عدد من الضيوف الخاصين الذين دعاهم الملك.

البواتيون يحثون الملك مع أخيه لعبور البحر لمساعدتهم

وعلم البواتيون بوصول الإيزل رتشارد إلى انكلترا، فتابعوا من دون توقف العمل على حث الملك، وكذلك الإيزل المذكور، ليقدموا من دون تأخير، وليحصلوا على امتيازاتهما، وبشكل خاص كونتيه بواتو، وحول ذلك تصوّر الملك خطة ثابتة بالعبور إلى فرنسا، حتى أنه لم يمكن اقناعه بالتسلي عن نيته بوساطة منطق أصدقائه، ولا بوساطة أصحاب الرغبات الطيبة.

تفرق البارلمان الإنكليزي في حالة غضب

ومع اقتراب حلول موعد عيد طهارة العذارى المباركة، اجتمعت النبالة الانكليزية في لندن وكانت هذه النبالة مكونة من الأساقفة،

والإيرلات، والبارونات، وجاء الاجتماع بناء على طلب الملك وأمره، ولأنهم كانوا يعرفون بأن الملك، قد قام غالباً وفق هذه الطريقة، بإزعاجهم وفق هذه الحجة الزائفة، وباستدعائهم بكل سرعة، فعملوا يميناً مع بعضهم، وتوصلوا إلى قرار ثابت، تحت طائلة عقوبة التكفير، أن لا يوافق أحد منهم في هذا المؤتمر، ولا بشكل من الأشكال، على أية جباية للأموال سوف يحاولها الملك، وكان الآن قد بات معروفاً بشكل جيد لدى الجميع بأن كونت دي لى مارشي، قد دعا بإلحاح الملك وحثه على العبور إلى القارة، أخذاً معه من المال كل ما يمكنه استخراجة وجمعه، دون الاهتمام بأي شيء حول قوة الجيش الانكليزي، وبذلك أعطوا قيمة صغيرة للجندية، أو للقوة الاقطاعية للمملكة، عادين الملك بمثابة بائع متجول، الذي همه هو الحصول على المال، يضاف إلى هذا أن الانكليز كانوا مثارين — بشكل محق — ضد الكونت وضد جميع أتباعه من البواتيين، ولم ينظروا نظرة رضا نحو الملك الذي وافق على مثل هذه الأشياء، من دون مشاورة نبلائه، وبناء عليه، عندما جعلهم الملك يعرفون قراره في قلبه الذي لا عودة عنه، أي العبور إلى القارة، استجابة لدعوة كونت دي لى مارشي، ومع مناقشات متنوعة طالب بمساعدة مالية منهم، أجابه النبلاء بحدة كبيرة في نفوسهم، بأنه عمل خطته من دون استشارتهم، وأنه كان خالياً من الحياء بتقديمه بمثل هذا الطلب، ذلك أنه ضيق مراراً على رعاياه المخلصين وأفقرهم، بطلبه المال منهم وكأن المسألة صارت عادة، وكأنهم كانوا أحط أنواع العبيد، وأنه غالباً ما استخرج منهم مبالغ ضخمة من المال، جرى انفاقها من دون فائدة، ولذلك قاموا الآن بمعارضته في وجهه، ورفضوا أن يتم تجريدهم من أموالهم بعد الآن، من دون غاية ولا هدف.

وبناء على ذلك لجأ الملك إلى طرائق الرومان ومكرهم، وأمرهم بالانتظار حتى اليوم التالي لسماع رغباته حول ما يتعلق بهذه القضية

وبقضايا أخرى، وجمعهم في اليوم التالي واحداً، واحداً، وفي أوقات مختلفة، في غرفته الخاصة، مثل دعوة الكاهن المرضى للاعتراف، ولأنه لم يستطع اضعاف تصميمهم عندما كانوا مجتمعين، سعى بدهاء إلى اضعافهم واحداً تلو الآخر، بحججه، ورجاهم القيام بتقديم مساعدة مالية، قائلاً لكل منهم: «إنظر إلى الذي قدمه راعي الدير فلان، ودفعه لمساعدتي، وإلى الذي قدمه فلان الآخر إليّ» حاملاً بيده في الوقت نفسه قائمة، أظهر عليها اتفاقية مكتوبة، بأن راعي الدير فلان، أو رئيس الرهبان قد دفع كذا وكذا، أو أنه على الأقل قد وعد بدفع كذا، وكل هذا مع أن ما من واحد منهم قد أعطى موافقته على شيء من هذا القبيل، أو أنه عرف أي شيء عن ذلك.

فبمثل هذه التصرفات الزائفة، والكلمات المعسولة، تمكن الملك بدهاء من ايقاع عدد كبير منهم بشباكه، ووقف آخرون — على كل حال — صامدين، ورفضوا بتاتاَ التزحزح عن الجواب الذي اتفقوا عليه بشكل عام، وأقسموا على الالتزام به، وإلى هؤلاء قال الملك وهو مغضب:

«هل سأكون أنا على هذا رجلاً حائشاً يميني؟ لقد أقسمت يميناً لاعودة عنه، بأنني سوف أعبر البحر، وأطالب باسترداد حقوقي من الملك الفرنسي بذراع ممدودة، وهذا مالا يمكنني القيام به من دون مبلغ كبير من المال، عليكم تزويدي به بكرم منكم»، وعلى الرغم من لجوئه إلى وسائل الاقناع هذه وسواها، لم يتمكن من ايقاع بعضهم في شباكه، مع أنه — كما ذكرنا من قبل — دعا كل واحد منهم إليه بشكل خاص.

ثم إنه بعث — على كل حال — في المرة الثانية، إلى أصدقائه المقربين وخطبهم كما يلي:

«أي مثل مهلك ضربتموه إلى الآخرين، أنتم الذين ايرلات شجعان، وبارونات، وفرسان، عليكم أن لا تكونوا خائفين، مع أن آخرين، أي

أساقفة الكنائس، قد أظهروا خوفاً، عليكم أن تكونوا، متشوقين أكثر من الآخرين، لاسترداد حقوق المملكة، ولتجريب حظ الحرب ضد أولئك الذين ألحقوا الضرر بنا، وأن نقوم بتقوية قدرتنا ودعم سلطتنا، هو واجب واضح، بموجب الحقوق التي نمتلكها، وأيضاً بموجب الدعوة والوعود التي تلقيناها من النبلاء، وكذلك بموجب مثل ما حدث في ويلز، حيث تمكنا مؤخراً من الانتصار بسعادة، وميول النجاحات الماضية، سوف تقود الطريق إلى نجاحات أخرى، فكيف لديكم قدرة على تركي، وأنا مولاكم، فقيراً، ومهجوراً، في الوقت الذي أنا فيه على استعداد للقيام بهذه المهمة الصعبة، في سبيل الصالح العام، وبما أنني متربط بكل دقة بيمين لأداء وعدي والوفاء به، بالعبور إلى القارة؟»، وعندما سمع النبلاء بهذا أجابوه قائلين:

«إن الكلمات لا يمكنها التعبير عن حيرتنا حول المناهات التي أغرقت فيها مبالغ لا تحصى من المال، التي جبتها جلالتك من الوصايات المتنوعة على النبلاء، ومن مختلف الموارث، واستخراجات متوالية، من كل من الكنائس الشاغرة، ومن أراضي النبلاء، ومن الأعطيات التي قدمت سلفاً، إنها مبالغ كافية لإحداث الدهشة لدى كل من يسمعهم، ومع ذلك فإن هذه المبالغ المالية، لم تجلب قط أية زيادة، أو منفعة للمملكة، يضاف إلى هذا لقد دعوت مؤخراً إلى المملكة بعض النواب البابويين، أو أشخاص مارسوا واجبات النواب البابويين، وهؤلاء عندما كانوا يجمعون عناقيد العنب التي بقيت، جمعوا لأنفسهم المال الذي كان قد بقي، ومجدداً إن جميع نبلاء انكلترا مندهشين كثيراً تجاه توليكم القيام بمثل هذا العمل الصعب والمرعب، من دون أخذ رأيهم وموافقتهم، حيث أنك وضعت ثقتك في أولئك الذين هم بلا ثقة، وأنتك على الرغم من الإرادة الطيبة لرعاياك الطبيعيين، معرض نفسك إلى نصيب مشكوك فيه، ثم إنك أيضاً قمت تعريضاً لنفسك للخطر،

السمعة فخرقت من دون كرامة الهدنة المعمولة بين الملك الفرنسي وبينك شخصياً، وهي التي أقسمت عليها بحق روحك، بمراعاتها دونها احباط، وذلك حتى التاريخ الذي كان قد أعدّه من قبل الايرل رتشارد المشهور، الذي هو أخوك، والايرل ر. R بيغود».

وأضاف الذين هم أكبر سناً، والذين أكثر نفوذاً بينهم قائلين:

«وأنت أيضاً، لخطرك، قد وضعت كثيراً من الثقة، ووعدت بالحضور شخصياً، هؤلاء النبلاء القاريين المشاهير بسوء السمعة، الذين هم قائمين بالتمرد، ورفع أعقابهم، ضد مولاهم، الملك الفرنسي، والذين بناء على هذا بالذات، ينبغي عدم الوثوق بهم، لشهرتهم بأقتراف خيانات مضاعفة، وأنت تعرف أيضاً بأن ملك نافار، الذي وعدوك بمساعدته، قد اقترف مؤخراً جريمة في الأرض المقدسة، ندبة جرحها لم تزل بعد، ولتكن مثل أجدادك المشهورين، وليكن واعظاً لك، وناهيّاً لك ومعيداً عن الذي نويته، أنهم يمتلكون في تلك الأرجاء قلاعاً لا ترام، وكثيراً من الأراضي، وجيشاً كبيراً، ومبالغ لا تحصى من الأموال، ومع ذلك كانوا غير قادرين على صد القوات الفرنسية الثابتة والتي لا يمكن قهرها، ولا حتى القدرة على الاحتفاظ بممتلكاتهم»، ولدى سماع الملك لهذا الكلام انفجر غاضباً بعنف، ودعا القديسين أن يكونوا شهوداً، وأقسم أنه لن يتراجع عن مقصده، بالخوف، أو أنه سيتوقف عند أية خطابات غامضة، ولن يتوقف عما عزم عليه، وأنه سوف يقلع في ثمانية عيد الفصح، وسوف يجرب من دون خوف حظ الحرب في القارة ضد الفرنسيين، وبهذا ارفض المؤتمر بغضب مغروس بثبات، ولكن بشكل سري في عقول الطائفتين.

ردّ بارونات إنكلترا

وبعد مضي بعض الوقت، ولكي لا يضيع مغزى جواب البارونات

ويصبح منسياً، تم وضع هذه الأشياء كلها كتابة، وتدوينها كما يلي:

«بما أن السيد رئيس أساقفة يورك، وجميع أساقفة انكلترا، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، وكذلك الايرلات، وتقريباً جميع بازونات انكلترا، إما قد حضروا شخصياً، أو جرى تمثيلهم بنوابهم، واجتمعوا بناء على دعوة من السيد الملك، في ويستمنستر، في يوم الثلاثاء التالي قبل طهارة العذراء المباركة، في عام ألف ومائتين واثنين وأربعين لتجسيد ربنا، أي في العام السادس والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، وذلك بغية سماع رغبة الملك وإرادته، والأعمال التي من أجلها دعاهم.

وبما أن مولانا الملك قد أرسل إليهم السيد رئيس أساقفة يورك، والنبيل الايرل رتشارد، وولتر أوف يورك، وعمدة يفرلي Beverley، بمثابة رسل خاصين، ليتولوا تبيان رغبته وإرادته وعمله، وقد سأل جميع نبلاء المملكة أن يقدموا مشورتهم ومساعدتهم ليحصل على ملكية ميراثه وحقوقه في القارة، التي هي عائدة إلى مملكته، مملكة انكلترا، وأخيراً بعدما عقد الأساقفة المذكورون، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والاييرلات، والبارونات، مناقشات طويلة، نصحوا الملك في المقام الأول — من خلال النبلاء المتقدم ذكرهم — أن ينتظر حتى انتهاء الهدنة المعقودة بينه وبين ملك فرنسا، لكن إذا صدف وقام الملك الفرنسي بأية مغامرة، متعارضة مع بنود الهدنة، وقتها على ملك انكلترا المذكور ارسال رسل خاصين له لإقناعه بالإعذار وبالانذار، بمراعاة الهدنة، وأن يعيد التفكير في مغامرته، إذا ما كان هو شخصياً أو أحد من نبلائه قد فعل ذلك، وإذا ما رفض الملك الفرنسي أن يفعل ذلك، وقتها سيقومون رغبة منهم بإلحاق أنفسهم برأيه، في سبيل تقديم العون إليه، بقدر ما يملكوه من قوة».

ووافقوا جميعاً على هذا الجواب، وبطريقة مشابهة لهذه، ومنذ أن صار حاكمهم لقد قاموا مراراً، بناء على مطالبه الضاغطة، فأعطوه

مساعدات، منها الجزء الثالث عشر من ممتلكاتهم المتحركة، وبعد ذلك الجزء الخامس عشر، ثم الجزء السادس عشر، وبعد ذلك الجزء أربعين، وأعطوه ضرائب الأرض، وضرائب التخوم، وعدة بدائل عن الخدمة العسكرية، كان آخرها بدل عظيم من أجل زواج أخته الامبراطورة، وما كادت تمر أربعة أعوام بعد ذلك التاريخ، عندما طلب مجدداً المساعدة منهم، وحصل أخيراً بعد التماسات مكثفة وشديدة على الجزء الثالث عشر، وقد منحوه ذلك على شرط، أنه لا هذه الجباية، ولا أية جباية متقدمة ينبغي أن تعدّ في المستقبل عادة منتظمة، وقد أعطاهم صكاً حول هذا الموضوع، يضاف إلى هذا، أنه قام بوعدهم بأن جميع الامتيازات الواردة في الصك، ينبغي من ذلك الحين، كما كان فيما مضى، أن تراعى تماماً في جميع أرجاء مملكته، وحول هذا أعطاهم صكاً صغيراً، احتوى الأشياء نفسها، وهذا الصك هو الآن بين أيديهم.

وبالإضافة إلى هذا، قام الملك عن طواعية من ذاته، وبوساطة نصيحة باروناته، فوعدهم بأن المال كله الذي سوف يجبي من الجزء الثالث عشر المذكور، يتوجب أن يوضع في حرز أمين في قلاعه الملكية، تحت رعاية أربعة من نبلاء انكلترا، هم: إيرل وارني مع آخرين، وبموجب اختياره، ووفقاً لمشورته، الشيء نفسه ينبغي انفاقه عندما تتوفر الضرورة، في سبيل منفعة الملك المذكور والمملكة، وبالنسبة للبارونات هم لم يعرفوا، ولم يسمعوا، بأن أيّاً من المال المتقدم الذكر، قد صرف بناء على اختيار أو مشورة أي واحد من النبلاء الأربعة المتقدمي الذكر، وهم يعتقدون بشكل ثابت — وفي الحقيقة، إنه لمن المعروف تماماً — بأن الملك مازال لديه ذلك المبلغ كله دون أن يلمس، ومن ذلك المبلغ، يمكنه الآن أن يزود نفسه بمعونة كبيرة، وإلى جانب هذا، هم يعرفون بشكل جيد أنه منذ ذلك الحين جمع كثيراً من أموال الموارث، بشكل خاص من رئاسة أسقفية كانتربري، ومن عدد من أغنى الأسقفيات في انكلترا،

ومن أراضي الايرلات، والبارونات، والفرسان الموتى، الذين كانوا ممتلكين من قبله، فمن هذه الموارث لوحدتها، لو أنهم اهتموا بها واعتنوا، لتوجب جمع مبلغ كبير من المال، علاوة على ذلك، إنه من وقت إعطائهم الجزء الثالث عشر المذكور، كان رجال العدالة يرتحلون بشكل متواصل ويدورون خلال جميع أجزاء انكلترا، وهم يجمعون ضرائب الغابات، وجميع الضرائب الأخرى، وعلى ذلك فإن جميع الكونتيات، والمثويات من أجزاء الكونتيات، والمدن، والمناطق، وتقريباً جميع القرى، حتى قرى انكلترا قد غرمت بشكل ثقيل، وبناء عليه إنه من هذه الجولات من المتوجب أن يكون صار لدى الملك مبلغاً كبيراً من المال، إذا ما دفع، وجمع بشكل صحيح، وبناء عليه يمكنهم القول بشكل صحيح بأن جميع انكلترا قد سيمت ظمناً شديداً، وتعرضت إلى فقر شديد بوساطة هذه الغرامات، وبوساطة المعونات التي أعطوه إياها من قبل، إلى حد أنهم الآن قد بقي لديهم القليل من الممتلكات أو لا شيء البتة.

ولأن الملك بعد منح هذا الجزء الثالث عشر، لم يلتزم قط بصكه المتعلق بالامتيازات، لابل ظلمهم أكثر منذ ذلك الحين، مع أنه قد منحهم بصك آخر، ووعدهم بأن استخراجات من هذا النوع يتوجب أن لاتصبح عادة، لهذا كله أخبروا الملك الآن بشكل واضح ومؤكد أنهم لن يمنحوه الآن أية مساعدة في المناسبة الحالية، ولكن بحكم أنه مولاهم، عليه أن يتصرف نحوهم وفق مايلي، بأن يصبر حتى تنتهي الهدنة المتقدمة الذكر، وإثر ذلك سوف يقدمون له النصيحة بقدر ما يستطيعون.

وعندما أخبر النبلاء المذكورون، الذين عملوا بمشابة رسل، هذا الجواب إلى الملك، عادوا إلى البارونات، وقالوا بأنهم جزئياً قد قدموا الرد المناسب إلى الملك، لكنه أراد أن يعرف ماالذي سوف يفعلونه إذا

ما خرق ملك فرنسا الهدنة، قبل انتهاء الموعد، ولقد وعدوا أيضاً باسم الملك بأنه إذا ما اقترف أي أذى ضد أي من نبلاء انكلترا، فالذي عليه هو أن يعمل تكفيراً عن ذلك، وفقاً لتحكيم بطرس أوف سافوي مع آخرين من مجلسه.

وعلى هذه الأسئلة أجاب النبلاء، إنه إذا ما خرق ملك فرنسا الهدنة، فإنهم سوف يشغلون أنفسهم، لايجاد خطط، حسبما قالوا من قبل إنهم سيفعلون، عند انتهاء الهدنة، شريطة —على كل حال— أن يكونوا متأكدين من أن ملك فرنسا قد فعل كذلك، وبالنسبة للتهمة أنهم من جهة الملك قد وعدوا بالتكفير عن الأذى الذي نزل بهم، وقال الرسل بأنهم في الوقت الحالي لن يتجادلوا مع الملك، وكان في أيام منح الجزء الثالث عشر، و. W دي ريلي قد وعدهم باسم الملك، وعداً مؤكداً وصادقاً، كما يفعلون هم الآن، لكن كيف حفظ الملك وعوده، هو نفسه أحسن من يعرف، وأخيراً كان الملك —على كل حال— قد تباحث معهم جميعاً واحداً، واحداً، بشكل أن كل واحد من الجماعة كان جاهلاً بالذي أعطاه إياه الآخر.

عودة إيرل أوف سالسبري من الأرض المقدسة

وفي الوقت الذي كان الزمان يدور فيه هكذا، ويسير على سياقه، عاد إيرل أوف سالسبري، من الأرض المقدسة، ونزل في انكلترا، سالماً وصحيحاً، وكان ذلك في بداية شهر آذار.

اعتقال رئيس أساقفة كولون وسجنه

اعتقل في هذه الآونة رعايا الامبراطور رئيس أساقفة كولون، الذي كان عائداً من روما إلى ألمانيا متنكراً، وكان رئيس الأساقفة هذا قد تأمر مع أساقفة آخرين، من الذين قدموا إلى المجمع العام، من أجل اسقاط الامبراطور، وكان قد سمع بمصير الذين سافروا خلال المناطق

الامبراطورية، ولذلك غيّر طريقه، وعاد عبر طريق جانبي، ذلك أن الكمان قد نصبت في جميع الاتجاهات، ولذلك وقع بالأسر، ووضع بالسجن، والشخص الذي اعتقله، كان — على كل حال — ألمانيا، ومعروفاً بشكل جيد من قبل رئيس الأساقفة، ولذلك سمح لأسيره بالنجاة، بعدما وعده وعداً صادقاً، وأقسم أنه لن يتآمر ثانية ضد الامبراطور، ولن يؤذيه، وحفظ رئيس الأساقفة — على كل حال — وعده بشكل سيء، كما سنحكي في التاريخ المقبل.

الملك الفرنسي يجهز أسطولاً ضد الإنكليز

وما لبثت أخبار هذه الأحداث قد انتشرت في مختلف أجزاء العالم، وفي فرنسا، وعلم الملك الفرنسي باقتراب وصول ملك إنكلترا بطريقة عدوانية ضده، وعلم بتآمر الذين استدعوه لمساعدتهم، فمركز ثمانين غليوناً مسلحين بشكل جيد، أمام روشيل Rochelle لحراسة تلك الأجزاء من بواتو ضد كل من يسعى للدخول إليهم، كما تدبر أيضاً حشد قوة عسكرية، بقدر ما يستطيع الفرنسيون أن يحشدوا، وأن تجتمع مع بعضها بموجب مذكرة ملكية، جرى توزيعها في مختلف المقاطعات الخاضعة له، وأمر عصابات الجماعات المدنية بأن تستنفر أنفسها، استعداداً لدعوته الملكية.

كيف جمع ملك إنكلترا كميات كبيرة من المال

وتسلم الملك الإنكليزي في الوقت نفسه، بشكل متواصل، أكثر الرسائل إلحاحاً من كونت دي لي مارشي، ومن النبلاء الآخرين لبواتو، فصار بذلك ثابتاً على قراره من دون تعديل، معتقداً أنه سوف يتسلم، بدون أدنى شك، جميع الذي وعده الكونت به، وحسبما كانوا قد نصحوه أن يفعل، جمع مبلغاً كبيراً من المال، أما بالنسبة للذين رفضوا تقديم المساعدة المالية إليه، فقد عدّهم إما أعداء مكشوفين له، أو

ضايقتهم بكل وسيلة من الوسائل بوساطة أذنا به، وقام أثناء الصوم الكبير بصرف انتباهه من دون كلل إلى هذا العمل، لأننا كما ذكرنا من قبل، أرسل كونت دي لي مارشي رسالة إليه، بأن يجمع فقط المال، ويحلبه معه، لأنه هو سوف يزوده بقوة عسكرية كافية، وبهذا القول الذي قاله الكونت من دون حياء، قد تجاوز حدود الصدق، حسبما سترهن نتائج الأحداث فيما يلي.

ملك إنكلترا يحث كثيرين على الالتحاق بالحملة معه

وحاول الملك بدهاء، أن يستميل قلوب الذين كانوا مختارين برغبتهم، بوساطة هدايا ثمينة أضعفت ثبات كثير من النبلاء، ولقد تمكن بوساطة الوعود المغرية، أن يربح إلى جانبه أخيه الايرل رتشارد، حتى يرافقه في حملته، تحت أمل مكافأة وافرة، وتوصل إلى غرضه هذا بسبب أن الملك الفرنسي، قام بعمل طائش، قبل وقت قصير، وحسبنا ذكرنا من قبل، فمنح كونتية بواتو إلى أمفولسي، أخيه، وبذلك حرم بشكل غير عادل الايرل رتشارد من ممتلكاته، وقد وعد البواتيون بشكل أكيد بعودتهم جميعاً إليه، لدى وصوله إلى هناك.

إرسال سفراء بشكل مسبق للإعلام بوصول الملك

وجرى الآن إرسال بطرس أوف سافوي، ايرل ريشموند، وبترس أوغويبلانشي، أسقف أوف هيرفورد، اللذان كانا المستشارين الخاصين للملك، إلى القارة لطمأنة أصدقاء الملك في بواتو بأخبار، بأن وصول الملك بات وشيكاً، وبهذا ارتفعت آمالهم، وشرعوا على الفور بالحرب، وطالبوا بإعادة الحقوق لصالح ملك إنكلترا، وألحقوا أضراراً كبيرة بالملك الفرنسي، وبعد إيصال الرسائل، نجح بطرس أوف سافوي بصعوبة من كمين نصب له، وعاد إلى الملك في لندن، قبل وقت قصير من عيد الفصح، وهو صحيح الجسم، لكن ليس من دون خسائر، أما

بطرس، أسقف هيرفورد، فقد أخذ طريقاً جانبياً غير الطريق المعتاد إلى الوطن، حتى يصل سالماً، وبذلك نجا من كمائن الذين استهدفوا حياته، وذهب وهو على طريقه إلى بروفانس، وطلب من كونت بروفانس، والد الملكتين: الفرنسية والانكليزية، ابنته الثالثة سينشيا Cincia للزواج من الايرل رتشارد، وتجاه هذا استثيرت الجماعة الانكليزية كثيراً، وبدأ أفرادها ينجشون من أن تصبح جميع شؤون المملكة تحت إرادة الملكة واختها سينشيا المذكورة، عندما ستصبح زوجة الايرل رتشارد، التي سوف تكون بالفعل ملكة ثانية.

ملك إنكلترا يعمل استعداداته من أجل عبوره

في هذه الآونة كان الملك قد أكمل جولة على بعض كنائس القديسين، وعهد بنفسه إلى صلوات رجال الدين، وودع المواطنين، وفي اليوم التالي لعيد الفصح أخذ الطريق إلى بوررتماوث، ليركب السفينة من هناك، وقد أسرع إلى اتخاذ هذا الإجراء بوساطة الرسائل الملحة والمتواصلة التي أرسلت إليه من القارة، وأثارت محتويات هذه الرسائل غضب وخجل بعض الانكليز، الذين يتعلقون بالكرامة، ذلك أنها هدفت إلى القول بأنهم قد بدأوا الحرب بشكل موائم، وأن عليه القدوم مسرعاً، ودونها خوف، إلى مساعدتهم، مع مبلغ كبير من المال، وأن لا يهتم بجلب حشد كبير من الجنود، وكأن ملك إنكلترا قد كان مصرفياً، أو صرافاً، أو بائعاً بالمفرق، وليس ملكاً، وقائداً نبيلاً، وأمراً للفرسان، حيث أنهم وضعوا ثقتهم بالمال أكثر من وضعها في القتال، وليس من المعتاد إثارة ملك ودعوته إلى الحرب بهذه الطريقة، وأظهر البواتيون بهذه الطريقة خيانتهم المعتادة، لأنهم آثروا إهلاك أموال الملك وفضلوا ذلك على وجوب تشجيعه بالتكريم المناسب، وأن يكون محاطاً بنبلائه، وفقاً لكلمات الفيلسوف سينكا Seneca، عندما تحدث عن زيف النساء بقوله:

عندما يتبدد غضب المرأة المكشوف

وقتها تكون ممتازة جداً

وفي هذا برهنوا — على كل حال — عن أنفسهم أنهم خونة غير
بارعين، لأنه عندما:

شبكة الطائر تواجه العين

الطائر الحذر يحتاط لأن يطير

تعيين رئيس أساقفة يورك نائباً للملك

عندما بات الأسطول الحربي جاهزاً ومستعداً، عهد بشؤون المملكة
إلى رئيس أساقفة يورك، وأعاد رتشارد راعي دير ايفهام، والأسقف
المنتخب لشيستر، الختم الملكي، الذي حمّله لمدة ثلاثة أعوام بطريقة
مرضية، وعاد الملك إلى صداقة أسقف شيستر، الذي لم يستحق مطلقاً
فقدانها، وكذلك أصغى ر. R مستشاره، ورالف فتز — نيقولا،
وغودفري كروكومب Crowcombe وبعض الآخرين المعزولين
إلى إطراءات المداينة.

إقلاع الملك ووصوله إلى روان

ثم إنه في الخامس عشر من أيار، أقلعت العساكر، ومعها ثلاثين
صندوقاً مليئة بالمال المتشوق إليه كثيراً، وركب الملك في سفينة تصاحبه
زوجته الملكة ويصاحبه أيضاً أخوه الايرل رتشارد، مع سبعة ايرلات
آخرين، وحوالي ثلاثمائة فارس، وأبحر مع ريح طيبة نحو بوردو، لكن
قبل أن يتعد كثيراً عن الساحل، توقفت الريح، فعاد إلى بورتماوث، وفي
اليوم التالي، بما أن الريح هبت بشكل موائم، أقلع ثانية، ووصل إلى
القديس متى دي فينيستير Finisterre في بريتاني، ومكث هناك يوم
الأحد لسماع الصلوات المقدسة، وأقلع في يوم الاثنين ثانية، وأبحر في

المياه العميقة فوصل في يوم الثلاثاء إلى رويان Royan، عند مصب
غيروند Gironde، وذلك حيث يصب في البحر مقابل القديسة
ماري دي سولاك Soulac في غساكوني، ونزل هناك، ومكث لعدة
أيام، ومن هناك مضى إلى مدينة بونز Pons الفخمة، حيث تقابل
مع رينالد دي بونز، صاحب ذلك المكان، وبعض نبلاء آخرين من
سانتاغيو.

الترتيبات الأولية للزواج فيما بين ملك سكوتلندا

وابنة ملك إنكلترا

أثناء وقوع الحوادث التي تقدم ذكرها أعلاه، تمّ عقد القران بين
الاسكندر الابن الأكبر لملك اسكوتلندا، ومرغريت ابنة ملك إنكلترا،
من خلال وساطة أسقف درم، وذلك في سبيل أن تكون المملكة أثناء
غياب الملك أكثر سلاماً بشكل مؤكد، وكان هذا قد جرت الموافقة عليه
من قبل، بناء على رغبة كل من ملكي إنكلترا واسكوتلندا، وقد عهد
بالجزء الانكليزي المحازي لسكوتلندا إلى عناية ملك الاسكوتلنديين،
أثناء بقاء الملك الانكليزي في القارة.

كيف نهب وليم مارش جزيرة لوندي

وفي أثناء وقوع هذه الأحداث، عسكر وليم مارش، ابن غيوفري
مارش، فوق جزيرة قريبة من بريستول اسمها لوندي Lundy،
وكان مكاناً حصيناً لا يرام بسبب وضعه الطبيعي، وقد عاش هناك مثل
قرصان مع عدد من الرجال المنفيين والأشرار، وقد تورط في أعمال
النهب والسلب، وقام بمرافقة أصحابه بالعيث فساداً بالشاطئ
المجاور، وسلبوا من السكان ممتلكاتهم، لاسيما الخمرة والامدادات
الأخرى، وبوساطة غارات مفاجئة حملوا كميات كبيرة من الأسلاب،
من المنطقة الواقعة قرب الجزيرة، وألحقوا أضراراً بالغة بطرق مختلفة،

بمملكة انكلترا في كل من البر والبحر، وسببوا خسائر كبيرة إلى كل من التجار الوطنيين والأجانب.

وذهب بعض نبلاء انكلترا وايرلندا، الذين لم يكن بإمكانهم البقاء بشكل مشرف في بلادهم، أثناء غياب الملك، وتعرضه لمخاطر الحرب في القارة، ذهبوا في جولة إلى قرب الجزيرة المتقدمة الذكر، فاکتشفوا بأن وليم المذكور وأتباعه لا يمكن اعتقالهم من دون خيانة، فأخبروا الملك، بأنهم ينبغي أن لا يعملوا بالقوة، بل بشكل حكيم، في سبيل اعتقال هذا اللص، وعند ذلك أمر الملك رعاياه — مع وعود بجوائز كبيرة — بأن يسعوا بكل يقظة لاعتقاله، وتحرير البلاد منه، لأن وليم هذا كان مكروهاً جداً من قبل الملك، حيث قيل بأنه قام، بتحريض من أبيه غيوفري، بالتآمر على حياته، ولذلك بعث بذلك المجرم، الذي قدم ليلاً، ليقوم بقطع عنقه، عندما كان في وودستوك، وبذلك استحق الإدانة بالخيانة، وبعد ذلك قتل واحداً من الكهنة، وكان رسولاً من نبيل ايرلندي، كان في حضرة الملك في لندن، وبجرأة أنكر وليم المذكور جميع هذه التهم، ومع ذلك لم يحصل على أي تصديق، كما أنه لم يلق أذناً صاغية، ولذلك قام — على كل حال — بحمل نفسه إلى أماكن بعيدة عن الطريق، وصار هارباً وخارجاً على القانون.

وفاة بعض النبلاء

وفي حوالي هذا الوقت نفسه من العام، مات النبلاء: غيلبرت دي غونت، وبلدوين واك Wac، وفيليب دي كايم Kime، وكان ذلك في المناطق الشمالية، وروجر بيرترام Bertram، وبعض النبلاء الآخرين، الذين غادروا هذه الحياة، ومات أيضاً إيرل أوف وورويك Warwick، وفي هذا العام أيضاً، مات هنري، الذي كان واحداً من أبناء الامبراطور، والذي لذنبه قد أودع لوقت طويل في السجن بناء على أوامر أبيه، وهناك أنهى حياته البائسة، ولقد قيل بأنه مات بيديه نفسه.

الأوضاع البائسة للكنيسة الرومانية

وكان البلاط الروماني في هذه الآونة في وضع فوضوي كبير، وفي حالة بائسة ومتهالكة، حيث كان قد بقي هناك ستة أو سبعة كرادلة في روما، وقد بقي الكرسي البابوي شاغراً، وكان بعض الكرادلة قد انتقلوا من هذا العالم، وبعضهم مازال مريضاً، وكان آخرون قابعون متخفين مع أصدقائهم وأقربائهم في مناطق نائية حيث كانوا قد ولدوا، وبذلك كانوا متفرقين في أماكن مختلفة، وكانوا يعانون من اضطراب في عقولهم، وقد انطفأ شعاع العاطفة فيما بينهم، وأصبحوا كأنهم رمل من دون كلس، وعلى هذا فإن بيت الرب الذي احتاج إلى الوحدة ليضمن القوة، لم يعد قادراً على تلقي الدعم بشكل صحيح منهم.

استعدادات الملك الفرنسي للتصدي إلى ملك إنكلترا

وعلم الملك الفرنسي في الوقت نفسه، بأن ملك إنكلترا قد نزل إلى اليابسة لشن الحرب عليه، معتمداً على مساعدة البواتيين، وعلى وعود من الغسكونيين، ولمعرفته بأن كونت دي لي مارشي قد شرع بالحرب ضده، استدعى بوساطة إعلان ملكي جميع القوة العسكرية الفرنسية، وأمر بتزويد قطار العصابات بالسلاح والإمدادات، من أجل أنه عندما تستدعي المناسبة لدعوتهم، يمكن أن يجدهم جاهزين، وتوفر لديه حوالي ألف عربة، فأمر بأن تكون جاهزة لحمل الخيام، والمجانيق، والإمدادات، والسلاح، والأشياء الضرورية الأخرى، ثم إنه أعد قواته، التي كانت أفضل ما يمكن لفرنسا أن تنتجها، ووضعها في نظام حسن، وانطلق زاحفاً نحو بواتو، ليصد بالقوة هجمات ملك إنكلترا وأعدائه الآخرين، وكان هناك حوالي أربعة آلاف فارس مسلحين تمام التسليح وبشكل فخم، وذلك إلى جانب أعداد من الآخرين الذين قدموا من جميع الاتجاهات، وتدفعوا نحو الجيش، مثل تدفق الأنهار، حين تصب في البحار، وقيل بأن عدد الأتباع ورماة القسي الزيارة قد بلغ نحواً من عشرين ألفاً.

اعتقال وليم مارش ومعاقبته في لندن

وفي هذه الآونة، حدث للفارس وليم مارش، الذي أتينا على ذكره، أنه بعدما أمضى بعض الوقت، في الجزيرة المتقدمة الذكر، متورطاً بأعمال السلب والنهب، أنه فوجيء من قبل بعض عملاء الملك، وجرى اعتقاله، وحمله إلى لندن، حيث سجن مضيئاً عليه في البرج، وفي يوم عيد القديس جيمس، وبناء على أمر من الملك، جرت محاكمة وليم المذكور مع ستة عشر من أصحابه كانوا قد اعتقلوا معه، وقد أدين وأدينوا، وقضي عليه بموجب أوامر الملك بموت مهين، وبناء عليه جرى سحله أولاً من ويستمنستر إلى برج لندن، ومن هناك حمل إلى آلة العقوبة التي اسمها المشنقة، وبعدها جرى تعليقه عليها لفظ أنفاس حياته الشقية، وبعدها صار جسده متيبساً قاسياً بعد الموت، أنزل هذا الجسد وجرى تجويفه، وجرى على الفور احراق أحشائه في البقعة نفسها، ثم جرى تقسيم جسده الشقي إلى أربعة أقسام، أرسلت إلى المدن الأربعة الرئيسية في المملكة، حتى يمكن أن يدخل رؤيتهم الرعب إلى الذين سيشهدونهم، أما بالنسبة لأصحابه الستة عشر، فقد سحلوا في أرجاء لندن، بعد ربطهم إلى ذيول الخيول، وبعد ذلك جرى تعليقهم على المشانق.

وبعدما أدين وليم المذكور، وعندما كان على وشك سماع قرار الإدانة، دعا العدالة الربانية لتكون شاهدة عليه، وأعلن بجرأة بأنه كان بريئاً تماماً وليس مجرمًا ولا مقترفاً لجريمة الخيانة التي ألصقت به، وكذلك بالنسبة لمقتل الكاهن كليمنت المتقدم ذكره، وأكد أيضاً بأنه حمل نفسه إلى الجزيرة المتقدمة الذكر، ليس إلا لسبب واحد هو أن يتجنب غضب الملك، وهو الغضب الذي حاول دوماً، وفوق كل شيء، أن يهدئه بالخضوع إلى أي نوع من المحاكمة، أو إلى أي نوع آخر من التذلل، لكنه بعدما التجأ إلى الجزيرة المذكورة، وعاش هناك لاجئاً، كان

مرغماً على إطالة أمد حياته التعيسة بالاستيلاء على الامدادات، حيثما استطاع أن يجدهم، ثم إنه لفظ روحه بالاعتراف أمام الرب، إلى ج. ل دي سينت جايلز، الذي كان واحداً من رهبان طائفة الدومينيكان، واعترف بذنوبه وهو شديد الندم، دون أن يسوِّغ نفسه، أو التفوه بكلمات شريرة، بل بالحرى اتهم نفسه، ثم قام عندها هذا الدومينيكاني المستقيم والمتلقي للاعتراف، فأعطاه شيئاً من الترضية اللطيفة، وصرفه بسلام، وأقنعه بأنه ذاهب إلى الموت الذي قضي به عليه بمثابة تكفير، وهكذا عانى كما ذكرنا من قبل، وهو أمر فظيع أن تحكيه، ليس من موت واحد، بل من عدة ميتات مخيفة.

نصر الداوية في الأرض المقدسة

وحصل الداوية في هذا العام في الأرض المقدسة —بوساطة معجزة أكثر منه بوساطة القوة الإنسانية— على نصر مجيد، وغير متوقع، على آلاف كثيرة من المسلمين، كانوا قد قدموا من مناطق قريبة من مصر.

البواتيون والغسكونيون يحصنون أنفسهم ضدّ الفرنسيين

في ذروة الصيف، عندما جففت حرارة الشمس كل شيء، وكل شيء ذبل وتلاشى، قام البواتيون، وهم في حالة خوف عظيم من هجوم الفرنسيين، الذين كانوا الآن يزحفون مسرعين ضدهم، قاموا بتحصين قلاعهم، ومدنهم، وأغلقوا ممرات الجبال، التي كان من الممكن للعدو أن يمر من خلالها إلى بلادهم لإلحاق الأذى بهم، واستخدموا كتلاً ضخمة من الحجارة مع جذوع الأشجار الساقطة، وحولوا الطرقات والممرات إلى أماكن يتعذر عبورها، وسدّوها بكل نوع من المعيقات، وقطعوا أشجار التفاح والعنب التي اعتقدوا أنها سوف تفيد الأعداء، وطمّوا الآبار، وأفسدوا الينابيع والأنهار التي تسيل منهم، لابل إنهم سمّموا بعضها، واجتشوا النباتات التي كانت مفتوحة أمام أعدائهم،

ودمروا تدميراً كاملاً كل نوع من الإمدادات، وكذلك خربوا الأماكن التي كان من الممكن أن يحصلوا فيها على الراحة، آملين بذلك أن يكونوا قادرين على الحيلولة دون وصول الفرنسيين إلى أراضيهم، لأنهم سوف يعانون من الحاجة إلى كل شيء ضروري، وبالفعل لم يكونوا كليا مغشوشين في توقعاتهم، لأنه في أيام الشعري [ماين أوائل تموز وأوائل أيلول] هوجم الفرنسيون بموت خطير، إلى حد أن الملك فقد ثنائين نيلاً، كانوا يحملون أعلامه، حيث أنهم هلكوا في أوضاع بائسة هناك، أو أنهم نقلوا وهم يتلاشون، على محفات إلى بيوتهم، وعلى العموم، سقط الجنود الرجال، وكانت أعدادهم كبيرة، ضحايا للأمراض، حتى أن الأحياء باتوا في خطر عظيم على أنفسهم، وبصعوبة بالغة كان بإمكانهم دفن الموتى، كما سوف نرى في سياق الرواية.

كيف جرى اعتقال التجار وتجريدتهم من مقتنياتهم

في كل من فرنسا وإنكلترا

وفي تلك الآونة نفسها، ومع اقتراب حلول فصل الخريف المجهد، أقدم الملك الفرنسي على إجراء غير معتاد، فأمر باعتقال أشخاص التجار الانكليز، الذين كانوا يتنقلون مع بضائعهم في جميع أرجاء مملكته، وبذلك أنزل أذى عظيماً على الكرامة القديمة لغاليا، التي وفرت من قبل ملجأ أميناً وحماية إلى جميع المنفيين والمحكومين، ولاسيما المسلمين منهم، فمن هذه الظروف كسبت بالأصل اسم فرنسا بلغتها خاصة، ووصلت بالحال أخبار هذا الإجراء غير الشريف والوحشي إلى مسامع ملك إنكلترا، وإلى مشاعره، وبناء عليه أعطى هو أيضاً أوامر قضت بأن أي تجار فرنسيين وجدوا في أي جزء من أجزاء إنكلترا، يتوجب تعريضهم إلى انتقام عادل مماثل، وأرسل في الوقت نفسه إلى الأوصياء على مملكته، أي إلى رئيس أساقفة يورك وزملائه، يطلب إمدادات من المال ونجدات من العساكر، وبناء عليه وفي طاعة منهم إلى

أوامر الملك، أرسلوا من دون تأخير خمسين من رماة القسي الزيارة، ومبلغاً كبيراً من المال، مع كميات جيدة من الإمدادات، وبعض الجنود مع أسلحة تحت توجيه الموانئ الخمسة ولدى رؤية هذا من قبل بعض النبلاء الانكليز، رأوا أنه عملاً غير مشرف الانخراط في الراحة، بينما كان ملكهم منشغلاً بالحرب فوق القارة، ولذلك أعدوا أنفسهم للالتحاق بالحملة وبرجالها، وقد تجهزوا بشكل جيد بالخيول والسلاح، وقام بعض النبلاء الايرلنديون، وبالتحديد رتشارد دي بيرغ، وبعض الآخرين، بناء على اقناعهم من قبل المستقيم موريس، مسؤول العدالة في ايرلندا، فجهزوا أنفسهم بالسلاح، وشحنوا كميات من الإمدادات، وأسرعوا متشوقين إلى مساعدة الملك، وتكوّن من هؤلاء أسطولاً كبيراً، وشكلوا قوة بحرية مرعبة، وعندما علم بهذا البحارة والقرصان، الذين أقاموا حراسة يقظة على الشاطئ الفرنسي المقابل، أعدوا، بناء على أوامر الملك الفرنسي، قوة بحرية، وسلحوا أنفسهم. وأقلعوا في البحر على ظهور سفنهم، وكانت غلايينهم مشحونة بأعداد كبيرة من المجذفين، وكانوا يريدون مهاجمة القوة البحرية المقبلة، في البحر، أو إخافة رجالها حتى يتراجعوا إلى شواطئهم، وعندما اقترب الأسطولان من بعضهما، هبت فجأة عاصفة قوية، ولذلك تفرقوا، بعضهم باتجاه، وبعضهم الآخر باتجاه آخر، ونشد قادة السفن سلامتهم فقط، وكانوا محمولين تحت رحمة الرياح، وعرفوا أخيراً بصعوبة أصحابهم، أو ميزوا سفن أسطولهم على حده، والفرنسيون الذين كانوا أقرب إلى ساحلهم، أكثر من الانكليز أو الايرلنديين إلى سواحلهم، أخذوا طريقهم بكل سرعة إلى الجزء الأقرب من الساحل، ولأن الرياح لم تكن قوية جداً ضدهم، وصلوا إلى مكان سليم وملجأ، لابل إن بعضهم وصلوا إلى موانئهم الخاصة بهم، بينما شعبنا الذي خاف خوفاً عظيماً من غضب الرياح ومن غضب الفرنسيين، فقد شتتوا أنفسهم وهم هاربون، وملاحقون بالخوف، والعار، والحزن في القلب، ودفعوا إلى الشاطئ،

إلى أجزاء بعيدة، وغير معروفة من الساحل، وبسبب هذه الانتكاسة، فإن راعي دير ايفهام، ورتشارد دي بيرغ، وكثيراً آخرين، الذين كانوا في موقع القيادة للحملة، لم يتعافوا بعد هذا، ولم يعودوا إلى الوضع الصحي السليم، لابل إنهم تلاشوا رويداً رويداً، حتى باتوا أخيراً غير قادرين على استرداد قوتهم، بعد كثير من العناء والانهك في أرض أجنبية، وفي ظل مناخ غريب، ولذلك لفظوا أنفاس حيواتهم المرهقة، وبهذه الانتكاسة نال الملك خسارة كبيرة لا يمكن تعويضها، تمثلت بفقدان رجال حكماء وأقوياء، وأسلحة وعتاد، وبشكل خاص القمح الذي كان قد جمعه من رئاسة أسقفية كانتربري، ومن الأسقفيات الأخرى، والمال الذي كان قد جمعه من جميع الجهات.

موت مرغريت بيسيت

ماتت في هذا العام، في هذه المناطق، واحدة اسمها مرغريت بيسيت، وكانت امرأة من أسرة مشهورة، ومتميزة بأخلاقها، حيث أنها رفضت تماماً معانقة الرجال، وأسست على حسابها، الذي لم يكن صغيراً، ديراً جيداً للراهبات، وذلك على الرغم من رغبات جميع أصدقائها الدنيويين، وأصبحت المنفقة عليه والراعية، ونالت هذه السيدة شهرة عظيمة، لأنها في إحدى الليالي، في وودستوك، عندما كانت تمضي الليل في غناء الترانيم الدينية، وفي السهر وفي الصلاة، أنقذت الملك، من أيدي القاتل، بصراخها، وقد جرى من قبل شرح ظروف هذه الحادثة.

الجريمة المريعة لولتر بيسيت

وفي تلك الآونة، عقدت مبارزات سيئة الحظ في المقاطعات الشمالية، وفي إحداها التي عقدت على حدود انكلترا وسكوتلندا، أبدع واحد اسمه ولتر بيسيت، وكان شجاعاً وفارساً بارعاً، وقد هزم من قبل خصمه، وهو واحد اسمه باتريك فتز - توماس أوف غالوي

Calway، ولذلك أبدع جريمة لم يسمع بمثلهما، من أجل أن ينتقم انتقاماً غير عادل من المتغلب عليه، فبينما كان باتريك المذكور، مقيماً مع بعض النبلاء الآخرين الذين كانوا برفقته في ادمونتون Edmonton، اتخذ مكاناً لنفسه لإمضاء الليل في نوع من أنواع الهري، وعندما كان غارقاً في نوم عميق، قام وولتر بيسيت المذكور، فأغلق الباب من الخارج ببعض جذوع الأشجار، وإثر ذلك دس النار من عدة أماكن في الجدران، بوساطة بعض العصي المحترقة، وأحرق بذلك تقريباً جميع الذين كانوا في الداخل، وهكذا مات لذلك باتريك المذكور مع بعض رفاقه الشجعان والمشهورين، ولكن عندما وصل خبر هذا العدوان إلى مسامع الايرل باتريك والنبلاء الآخرين لسكوتلندا، استعدوا للانتقام لهذه الجريمة الكبيرة، وهاجموا وولتر المذكور، وهم راغبين في تمزيقه إلى قطع، وقد هرب — على كل حال — إلى ملك اسكوتلندا، وطلب العدالة والرحمة منه، ذلك أنه أنكر الشر الذي اقترفه، وعرض أن يبرهن على براءته أمام الملك وأمام بلاطه كله، بعرض جسده ضد أي واحد مهما كان قديراً في السلاح وقوياً، ورفض خصومه — على كل حال — هذا، حيث أعلنوا أن الجريمة الكبرى لا تحتاج إلى برهان إيجابي، ولذلك طلبوا من الملك، بحدة وبسرعة كبيرة، وبمشاعر الكراهية، عدوهم المعلن، الذي كان ما يزال ملطخاً بجريمة القتل الحالية، وملوثاً بجريمة غير اعتيادية تماماً، واستطاع الملك بشيء من الصعوبة تهدئة غضبهم، ولطف انتقامهم، بأن وعد بوجوب حرمان وولتر المذكور، وأيضاً بوجوب مغادرته سكوتلندا، وأن يرسل إلى منفى دائم، وبعد شيء من الصعوبة وافقوا على اقتراح الملك، وكانوا واثقين بأنهم سوف يصطادونه عندما ينتقل من حماية الملك، وأن يعاقبوه بموت عادل، ووصلت أخبار هذه الخطة إلى علم الملك — الذي كان رجلاً رحيماً وعادلاً — فأخفى بعناية وولتر المذكور لمدة ثلاثة أشهر، في أماكن لا يستطيع أعداؤه الوصول إليه فيها، وعند انتهاء هذه المدة، هرب من البلاط بشكل

سري، في إحدى الليالي المظلمة، وهو محكوم بالنفي ورجل محروم من ميراثه، ولم يعد ثانية، وكان النبلاء السكوتلنديون، الذين كان كثير جداً منهم يطلبون حياته، كانوا جاهلين تماماً بنجاته، أما بالنسبة لـ وولتر، فإنه مع أنه أقسم بالمضي إلى الأرض المقدسة، وأن لا يعود ثانية، وذلك في سبيل خلاص روحه وأرواح الذين هلكوا بالحريق، مع أنه قال بأن ذلك لم يكن من خلال وسائله، إنه مع ذلك غيّر اتجاهه، وبادر مسرعاً ليتقدم بشكوى أمام ملك انكلترا، حول الأذى الكبير الذي لحق به، وبناء عليه أعلن بأن ملك سكوتلندا، قد حرّمه بشكل غير عادل من ميراثه، لأنه لم يستطع بأي طريقة أخرى تهدئة غضب الذين كانوا ثائرين ضده وغاضبين، مع أنه، أي وولتر، كان جاهزاً لتبرئة نفسه، والبرهنة على أنه كان بريئاً من الجريمة التي ألصقت به، بوساطة محنة مبارزة واحدة، وقد أضاف علاوة على ذلك، أنه بما أن ملك سكوتلندا كان تابعاً إقطاعياً لملك انكلترا، لا يمكنه من دون موافقة ملك انكلترا، حرمان رجل نبيل من ميراثه، ونفيه من بلاده بشكل أبدي، خاصة إذا لم يكن قد أدين بجريمة، وبالإضافة إلى هذا، قال بأن ملك سكوتلندا، قام بإذاء منه لولائه ولتابعيته التي هو مرتبط بها إلى ملك انكلترا، فاستقبل في أراضيه وقدم الحماية، فهو في هذا الوقت بالذات يقدم الحماية إلى غيوفري مارش، الملتجئ من إيرلندا، والمتورط بالجرائم الخيانية لابنه وليم، الذي حكم عليه مؤخراً بالموت، وشنق في لندن، وبهذا ثار غضب ملك انكلترا إلى درجة عالية ضد ملك اسكوتلندا، لكنه احتفظ بغضبه حتى حلول وقت مناسب للانتقام، كما ستظهر ذلك الرواية المقبلة.

ملك انكلترا يلغي الهدنة ويعلن الحرب ضدّ ملك فرنسا

خلال هذه الآونة، أرسل ملك انكلترا رالف فترز — نيقولا، ونيقولا دي مولي Molis كرسولين خاصين إلى الملك الفرنسي، ليعلنا قراره

—إذا لم يوافق الملك الفرنسي على طلبه— بإلغاء الهدنة، والشروع بالحرب ضده، وعند وصول الرسولين، وجدا الملك الفرنسي يحاصر قلعة فرونتني Frontenaye، التي كانت عائدة إلى كونت دي لي مارشي، والتي قاتلها من دون كلل نهاراً وليلاً، وذلك بحملات عساكره، وبقصف الأسوار بالقذائف من أدوات رمي الحجارة، وبوساطة رمايات متواصلة بالنشاب، كما أنه أخاف المحاصرين وضيق عليهم، حتى أنهكوا تقريباً، ولم يعد بإمكانهم تحمل شدته وحملاته غير المنقطعة، وكان في هذه القلعة واحداً من أبناء كونت دي لي مارشي من زوجته الماضية، وكان فارساً شجاعاً، ومعه أكثر الأصدقاء قرباً من الكونت المذكور، الذين وضعهم هناك للدفاع عن هذه القلعة القوية والجيدة التحصين، وكان الملك متشوقاً كثيراً لاعتقالهم، حتى يلقي الرعب في قلوب الآخرين.

ولدى وصول رسولي ملك انكلترا، استقبلهما الملك الفرنسي بالتشريف والاحترام، وبأدب دعاها لتناول طعام الافطار على مائدته، وبناء عليه، قدما في الصباح التالي نفسيهما ومثلاً أمامه، وببراعة وبنظام، كشفا عن الرسالة التي فرضت عليهما بالكلمات التالية:

«لقد بعث ملك انكلترا، الذي هو قريبك، رسالة إليك، بأنه مندهش إلى أبعد الحدود لأنك من دون حياء خرقت الهدنة المبرمة بينك وبينه، والمثبتة بيمين من على الجانبين، والتي من المتوجب أن تظل سارية لمدة ثلاثة أعوام أخرى، وبهذا العمل ظهر غير ما هو متوقع منك، فقد هززت أركان استقرار الثقة الملكية»، وعلى هذا ردّ الملك بنظرة هادئة:

«الهدنة أنا لم أخرقها قط، كما أنني لا أرغب بأن أفعل ذلك، وفي الحقيقة إنني محافظ عليها دون أن تحرق، وإذا مارغب ملك انكلترا فإنني سوف أطيل مدتها، من دون أي تعويض، وهو أمر أنا لأفعله، لأنه بعيد عني، كملك لفرنسا، أن أخرق بأي طريقة من الطرق هدنة،

أو أي معاهدة دخلت فيها بيني وبينه، لأنني بذلك ألقى جانباً كل تبجيل للرب، واحترام للانسان، ولأظهر احتراماً لروابط القرابة، وأخبراً مولاكم بأنني سوف ألتزم بالهدنة خلال هذه الأعوام الثلاثة، وسوف أمددها، إذا ما رضي، لمدة ثلاثة أعوام أخرى، أي أن تقول لمدة ستة أعوام من الآن من دون أي تعويض يقدم إليّ، علاوة على ذلك أنا على استعداد للتخلي عن مقاطعة بواتو، والجزء الأكبر من نورماندي، الذي هو ليس مصدرراً للشك أو الخوف من قبلي، ففي هذين البلدين، هو يقول بأنه يمتلك حقاً وتوقعات، تماشياً مع اليمين الذي أداه والذي لويس، عندما كان في انكلترا، وبموجب منحة قديمة وإذن من أجدادي، على شرط، أن يكون مسموحاً لي، من دون أية معارضة من جانبه، وذلك كمطالب عادلة، بأن أعاقب أي ضرر ألحق بي أو بمملكتي، من قبل أعدائي، والخونة لي، مهما كانت ثقتهم به من أجل مساعدتهم، إلى جانب هذا، عليّ أن أخبر ملك انكلترا، بأنها مسألة مذهشة بالنسبة لي، وأسأله: بأي روح اقتنع، أو على أي أساس أنا لأعرف، قد قال بأنني خرقت الهدنة بيني وبينه، إذا ما هاجمت أنا قوماً يسكنون قربي أو بجوار مملكتي، وهم ليسوا عائدين إليه بحق الولاء، وذلك إذا ما آذوني، أو تمردوا عليّ، دون أن أقول: الذين هم خونة لي، ماهو شأنه بالنسبة لشؤون كونت دي لي مارشي؟ لابل بأي حق قد تدخل في مسألة كونت طولوز؟ إنني لم أعمل هدنة معهم، كما أنه لم يرد ذكرهما في الهدنة، وعلاوة على ذلك إنه بالحقيقة ذاتها وهي حمايته، ودفاعه عن أعدائي، قد برهن بالحري بأنه قد خرق شروط الهدنة المذكورة، وكذلك لما يتعلق بالعواطف التي ينبغي أن تتوفر بين الأقرباء، وإنني قد اقترحت — على كل حال — بأن أتصرف بشكل أحسن، وبلطف أكبر مع الاحترام نحوه، ومازلت معطياً له العرض الذي تقدم ذكره أعلاه، حول شروط الهدنة.

وقال الملك الفرنسي هذا كله بأعظم اعتدال، ومن دون أي خداع، لأنه كان خائفاً كثيراً من خيانة ملك أراغون، وملك قشتالة، اللذان كانا من أقرباء ملك انكلترا، كما أنه كان يخاف من كونت طولوز، الذي كان منذ زمن طويل يكره الفرنسيين، الذين نكلوا به، وكان يخاف أيضاً من كونت دي لي مارشي، الذي كان محمياً بقلاعه التي لا ترام، والذي سمن بأموال ملك انكلترا، ويخاف أيضاً من تقلبات النورمان الذين كانوا جيراناً لانكلترا، ومرتبطين بها بنوع من النسب، وخاف فوق كل شيء من خرق يمين أبيه لويس، الذي أداه قبل مغادرته انكلترا، والذي ربط به نفسه بأن يعيد إلى ملك انكلترا حقوقه، إذا ما عاش بعد والده، وكان أبوه، عندما كان على وشك الموت في أفينون قد أوجب عليه، بحكم أنه أبيه، أن يفي بذلك اليمين، وهو لذلك عدّ الأمر مسألة عادلة وتقوية أن يقوم بتحرير روح والده من مثل هذا الرباط.

تسليم رسالة الملك الفرنسي إلى ملك إنكلترا

وما أن تسلم الرسولان جوابهما، حتى عادا على الفور، وباخلاص روياء لملك انكلترا كل الذي رأياه وسمعاه، لكنه — على كل حال — لم يكن على استعداد، ولا بشكل من الأشكال، أن يصغي بإيجابية إلى الرغبات المسالمة لملك فرنسا، أو أن يقبل عرضه النبيل، الذي عرض عليه بكل ميول مسالمة، لأنه كان قد تشجع، وتغيرت مشاعره، بمهارة الخونة البواتيين، الذين أغلقوا عينيه عن رؤية عظمة المنافع المعروضة عليه، وقد وعدوه، أنه بمساعدتهم، فإن جميع تلك المناطق، وأكثر بالاضافة إليها، يمكن الاستيلاء عليها بالقوة، وانتزاعها من يدي الملك الفرنسي، وبناء عليه قام من خلال بعض الاستتارية بتهور بتحدي الملك الفرنسي، لأنه شن الحرب على كونت دي لي مارشي، الذي بحكم العادة كان يدعوه بأبي، مع أنه كان زوج أمه فقط.

بداية الحرب بين الفرنسيين والإنكليز

وعندما سمع الملك الفرنسي بهذا، ندم لأنه عرض مثل تلك الشروط المذلة للسلام على ملك انكلترا، وقال لنبلاته:

«أنا آسف أن ملك انكلترا، الذي هو قريبي، والذي رغبت في أن يكون أعظم صديق لي، هو مفتون، ذلك أنه يصغي أكثر إلى الإثارة الخادعة لكونت دي لي مارشي، ولكونت طولوز، ولأعوانهما، فالأول بينهما مشهور بخيائته، والثاني مشهور بهرطقته، فقد أصغى إليهما أكثر من اصغائه إلى رسائلي الصديقة، وأنا آسف لأنني أهملت، لكنني غير خائف منه، ولست خائفاً من قواته، بل خوفي على اليمين المؤكد لأبي الذي عمله في انكلترا»، ثم إنه تابع نحيبه من دون مواساة حول هذا، وقام واحد من نبلاته بتهديته قائلاً ببراعة: «مولاي الملك، إنك لا تحتاج أن تكون خائفاً حول هذا الأمر، لأنه عند مغادرة أبيك من انكلترا، عمل يميناً غير قابل للخرق من على الجانبين، بأن لا يقوم أي منكما في حالة نشوب حرب، بتسبب أي أذى إلى مغامراتكما على الجانب الأول أو الجانب الثاني، وهذا يمين قد خرقه ملك انكلترا من دون حياء، عندما شنق ظملاً، وبوحشية قسطنطين فتز — ألوف Aluph، الذي كان مواطناً لندياً، وذلك لمجرد أنه تحدث عن شرف والدك، وهكذا اقترب الملك الانكليزي اثم الحنث باليمين، في حين أنك بريء من ذلك».

الاستيلاء على قلعة فرونتني

شعر الملك الفرنسي بوساطة هذه المناقشات على ثقة أكبر، وبناء عليه ضغط بشدة على قلعة فرونتني وضيق الحصار عليها، وجمع بالوقت نفسه جيشاً أكبر عدداً، ووزع المدفوعات على جنوده، وبناء عليه هاجموا القلعة بشدة أعظم من المعتاد، ورموها من دون توقف بالقذائف من

مجانيتهم ومن الآلات الأخرى، وفي الوقت ذاته أصيب عدد كبير من المحاصرين بالجراحة من نشاطهم، حتى أن هذه القلعة التي كانت واحدة من أقوى القلاع قد جرى الاستيلاء عليها خلال خمسة عشر يوماً، وذلك على عكس توقعات البواتيين، ووقع ولد كونت دي لي مارشي مع حلفائه بالأسر، وجرى احضار ابن الكونت وأتباعه الأسرى، على الفور، حيث مثلوا في حضرة الملك، والتمس عدد من الفرنسيين، بإلحاح، وجوب شفقهم، في سبيل رمي الرعب في قلوب الآخرين، غير أن الملك صار بالفعل محامياً مخلصاً عن أسراه حيث قال:

«إنه لا يستحق الموت، إذا كان قد أطاع أوامر والده حتى الموت، وكذلك المشاركين له، الذين أطاعوا سيدهم وخدموه باخلاص، ولنرسلهم على كل حال إلى باريس ليسجنوا هناك»، وهذا ما حدث.

استيلاء الملك الفرنسي على عدة قلاع أخرى

ونزل الآن خوف عظيم من الملك الفرنسي على سكان المناطق المجاورة، وصاروا مرعوبين من أنهم إذا ما ثاروا ضده، فإنهم سوف يتورطون بمصيبة مماثلة، لابل حتى أسوأ منها، لأن القلعة التي رست عليها آمال الجميع، قد جرى الاستيلاء الآن عليها بالقوة، وكان ذلك في وقت قصير، وذهب الذين كانوا مسؤولين عن القلاع العائدة إلى كونت دي لي مارشي من حوله، إلى الملك وسلموا مفاتيحهم إليه، في سبيل التوصل إلى شروط للمصالحة أفضل، وقام الملك في الوقت نفسه باستباحة المناطق المجاورة، واستولى على عدد كبير من القلاع والبلدات، وأخضعهم لسلطانه من دون أية صعوبة، وهدم القلاع الضعيفة وسواها بالأرض، والقلاع التي كانت قوية في وضعها وفي بنائها، زادها تحصيناً، ووضع بعضاً من أتباعه الفرنسيين المخلصين بها، ثم تابع من هناك زحفه نحو الأمام، فاستولى بطريقة مماثلة على قلعة فخمة، هي قلعة فونتني.

استسلام قلعة فوفانت إلى الملك الفرنسي

ووصل الملك الفرنسي الآن إلى قلعة فوفانت Vouvant الفخمة، والتي كانت عائدة إلى كونت دي لي مارشي، وعندما كان يقوم بعمل الاستعدادات لحصارها، عقد القسطلان الذي كان مسؤولاً عنها مؤتمراً مع أصحابه، وبعد ذلك أرسل بعضاً منهم مع رسالة سلام إلى الملك، لأنه كان خائفاً أنه إذا ما أسر بالقوة، لن تظهر العدالة الفرنسية نحوه أية رحمة، وقام بناء عليه بسرعة وبشكل سري، فتشاور مع الكونت مولاه حول هذه المسألة، وأرسل في الوقت نفسه رسالة إلى الملك الفرنسي، أنه إذا ما منحه سلاماً غير مبطن، نال هو —القسطلان— بموجبه والذين معه الحفاط على حياتهم وعلى سلاحهم، هو سوف يسلم القلعة إليه، على شرط، أنه —على كل حال— إذا ما أعيد السلام بين ملك فرنسا، وكونت دي لي مارشي، في خلال ثلاثة أعوام يتوجب على الملك الفرنسي أن يعيد القلعة إلى مولاهم، كونت دي لي مارشي، من دون خلاف، وبناء عليه فُصل الملك الاستحواذ على القلعة سالمة من دون أي تأخير، على أن يتسلمها في حالة تخريب من رمايات قذائف المنجنيقات، أثناء حصار طويل، ولذلك منحه مطالبه، وهكذا خضعت القلعة على الفور، ومن دون أية مشاكل، إلى سلطانه.

كونت دي لي مارشي يندم على إقدامه على هذه العملية

ومع انتشار هذه الأخبار، استولى الخوف واليأس على كونت دي لي مارشي، وعلى جميع البواتيين، وكذلك على جميع سكان غاسكوني، وعلى الذين انشغل ملك انكلترا في الدفاع عنهم، وندم الكونت بمرارة لأنه اندفع بطيش، فثار ضد مولاه، الملك الفرنسي.

لكن عندما على الرأس وضع الخوذة البراقة

بات وقتها متأخراً جداً حتى ينسحب من القتال.

سادة المواني الخمسة يتحولون إلى القرصنة

عندما سمع ملك انكلترا بنجاحات الملك الفرنسي، أرسل أوامر إلى سادة المواني الخمسة للقيام بالحقاق الأذى، بكل طريقة من الطرق، بالتجار وبالأخرين العائدين إلى المملكة الفرنسية الذين يتولون السفر بالبحر، وقام هؤلاء الرجال على الفور بتنفيذ أوامر الملك، وانخرطوا مثل قراصنة، بأعمال السلب والنهب، بوحشية تجاوزوا فيها الحدود التي وضعها الملك، وذلك شرهاً منهم للكسب، ذلك أنهم سلبوا حتى مقتنيات الانكليز، وجيرانهم، والذين كانوا معروفين من قبلهم، عندما كانوا عائدين من حجهم، دون إعطاء أي اهتمام إلى الصداقة أو القرابة، وقتلوا بعض الفرنسيين بشكل وحشي، وعندما سمع الملك الفرنسي بهذه الإجراءات، كتب إلى كونت بريتانى، وإلى سكان ساحل البحر من تلك المقاطعة، وإلى والي روشيل وتلك المناطق، وأيضاً إلى البحارة في ويسانت Wissant، وكالي، وإلى الذين كانوا يتولون حراسة سواحل نورماندى، يأمرهم بصد هجمات الانكليز، وبذلك أعطاهم منفذاً للتنفيس عن غضبهم في البحر، وأمرهم أن لا يوفروا أشخاصهم أو بضائعهم، ونتيجة لهذا الأمر، وبسبب القوات التي أرسلت بدون توقف، ضد الانكليز، عانى سادة المواني الخمسة من خسائر كبيرة، وغالباً ما هزموا بشكل مشين، ونتيجة لذلك أرغموا على طلب المساعدة من رئيس أساقفة يورك.

وصول الملك الإنكليزي إلى مدينة تيلبيرغ

وكان الملك الانكليزي في هذه الآونة مع جيشه قرب قلعة توني Tonnaye، في السهول القريبة من نهر تشارنتي Charente، وفي ذلك المكان منح مرتبة الفروسية إلى أخويه، أولاد كونت دي لى

مارشي، وعيّن لهم مبلغاً من المال، يتسلمونه سنوياً من الخزينة، وقد أعطى إلى الأول منها خمسمائة مارك، وإلى الثاني ستمائة مارك، وذلك إلى أن يتمكن من تزويدهما بمبلغ ثابت ومتساوي بالقيمة، في الأراضي والموارد، ثم إنه غادر ذلك المكان مع جيشه، وسار إلى حقول قائمة أمام مدينة تيليبورغ Talleburg، على نهر تشارنتي نفسه، وبقي هناك لمدة ستة أيام.

فرار الملك الإنكليزي

وكان الملك الفرنسي قد تلقى في الوقت نفسه خضوع عدة اقطاعيات مع قلاعهم، فأصبح أكثر وثوقاً في رفع رايته، ووجه زحفه نحو مدينة تيليبورغ، وكانت هذه مدينة جميلة، غنية بكرومها الخصب العظيمة، وكان لديها نهر جميل على مقربة منها، وهو نهر تشارنتي العميق والذي بلا مخاضات، وكان محاطاً بمروج غنية، وكان يعبر عليه بوساطة جسر قوي، وعند اقتراب الملك الفرنسي من هذه المدينة، كان السكان غير راغبين بمعارضته، كما أنهم كانوا أيضاً غير قادرين على مواجهته بالقوة، فتبنا خطة حكيمة، حيث خرجوا إلى استقباله بسلام، وسلموا أنفسهم ووضعوا مدينتهم تحت سلطانه، وذلك مع جميع مقتنياتهم وامتيازاتهم، وعند ذلك استقبلهم الملك بالترحاب، ووضعهم تحت حمايته، ودخل إلى المدينة على الفور، واتخذ مقامه فيها مع بعض نبلائه، ونصب البقية خيامهم في الحقل قرب المدينة، وفي اليوم التالي، الذي كان يوم الأحد التالي قبل عيد القديسة مريم المجدلية، عبر الجسر، وعمل الترتيبات للزحف مع جيشه إلى أقصى مناطق بواتو، ووصلت أخبار عن زحفه المنوي وحملت إلى ملك انكلترا، وإلى نبلائه، الذين كان كونت دي لي مارشي هو الرئيس بينهم، وقام ذلك الملك، بناء على نصيحة الكونت، فسحب قواته أثناء الليل، ووصل فجأة مع جيشه إلى حقل مرتبط بالجسر، ونصب خيامه هناك، وعمل مقراً لنفسه في مقابل المدينة،

وبذلك صار من الممكن لكل واحد من الجيشين أن يراقب الآخر، وتألف جيش الملك الانكليزي من ألف وستمائة فارس، وعشرين ألف جندي من الرجال، وسبعمائة من رماة القسي الزبارة، وكان هناك ملك على هذا الطرف من النهر، وملك آخر على الطرف الثاني مثله قريباً من النهر، وشاهد الملك الانكليزي في الصباح الباكر العلم الحريري الأحمر للملك الفرنسي، وخيام ورايات جيشه، وكان الطرف الآخر من النهر مغطى بحشود من الخيم، بدت وكأنها مدينة واسعة ومكتظة بالسكان، ولدى رؤية ملك انكلترا لهذا المشهد، ولأنه كان يتوقع لاشيء سوى القتال، وأنه سوف يفاجيء الفرنسيين بحد السيف، حتى أنه مركز بعض الانكليز ليتولوا حراسة عبور الجسر، عند هذا قال لكونت دي لي مارشي: «أين هي الآن وعودك، يا مولاي وأبي؟ فعندما كنا في انكلترا، أنت وعدتنا، مراراً عدة، بوساطة عدد من الرسل، وأكدت لنا برسائلك الموثقة، أنك وقت الضرورة سوف تعدّ قوة من أجلنا تكون كافية من دون خوف، للتصدي للملك الفرنسي، وأخبرتنا بأن نهتم فقط من ناحيتنا حول المال»، وعلى هذا أجابه الكونت: «إنني لم أفعل ذلك مطلقاً»، فتدخل الايرل رتشارد مقاطعاً إياه قائلاً: «لابل فعلت، وأنا معي الآن رسائل معتمدة حول هذه القضية»، ثم أجابه الكونت: «إنها لم تكتب من قبلي، أو وقعت مني»، وعند ذلك قال له الملك وهو مندهش: «وما هذا الذي أنا أسمع منك، يا أبي؟ أولم ترسل مراراً إليّ، لابل رجوتني بإلحاح لأن أقدم إلى هنا، بوساطة رسلك، ورسائلك المعتمدة، وكنت تشكو في الوقت نفسه من التأخير؟ أين هي الآن وعودك؟» وعند ذلك قال الكونت، مع يمين مخيف: «إن هذا لم يفعل قط من قبلي، وجه اللوم لا لأحد، إلا لأملك، زوجتي»، ثم إنه أضاف بعد أداء يمين آخر: «بحق عنق الرب، هي التي دبّرت هذا كله دون معرفتي»، وعند سماع الايرل رتشارد لهذا الكلام، جرد نفسه من السلاح، وحمل عصا في يده، وعبر الجسر، للترتيب لهدنة، لأن ملك

انكلترا كان في خطر عظيم، وقد بات أسيراً، وقد حدث هذا في يوم أحد، ولدى وصول الايرل إلى الجيش الفرنسي، استقبل من قبل الفرنسيين بتشريف عظيم، وعدد كبير منهم دعونه باسم منقذهم، لأنه بوساطة السلم الذي عمله في الأرض المقدسة، كان قد حررهم من الأسر، ثم إنه استدعي باحترام إلى حضرة الملك، وعندما أعلمه برغبته في الحصول على هدنة، منحت إليه، بعد شيء من الصعوبة حتى الغد، وقد حصل على هذا لعدة أسباب، لأنه كان انساناً لديه حظوة كبيرة لدى الفرنسيين، لقيامه بتحرير نبلائهم في الأرض المقدسة، الأمر الذي ذكرناه من قبل، وثانية لأنه كان قريباً للملك الفرنسي، وكذلك لأن اليوم كان يوم الأحد، ولدى قيام الملك الفرنسي بوداعه، عندما كان مغادراً قال له: «مولاي الايرل، مولاي الايرل، لقد منحتك هذه الهدنة طوال هذا اليوم واللييلة، في سبيل التداول حول الذي هو أفضل لصنعه في المستقبل، لأن الليل يجلب المشورة معه»، وعلى هذا أجاب الايرل: «لهذا السبب طلبت الهدنة التي حصلت عليها»، ثم إنه عاد على الفور إلى ملك انكلترا، وهمس في أذنه بهدوء: «أسرع، أسرع، دعنا ننقل أنفسنا من هذا المكان، لأننا في خطر عظيم، حيث أننا وقعنا بالأسر»، ثم إنهما تناولا وجبة سريعة (لأن الوقت كان ظهراً) وعند غروب الشمس، شغل كل انسان نفسه في جمع أثقاله مع بعضها، وعند حلول الظلام، قام الملك الذي جرب الآن اخلاص، أو بالحري، انعدام اخلاص البواتيين، فانسحب بشكل مهين، ولم يتهاون بالسرعة، وقد تبعه جيشه كله، لكن ليس من دون خطر على الخيول وعلى الرجال، لأن كثيراً منهم كانوا لم يتناولوا الطعام، كما كانت خيولهم مرهقة، وكان الملك ممتطياً فرساً سريعاً، لذلك لم يرخ عنانه حتى وصل إلى سانتاغيو.

المعركة التي نشبت بين الفرنسيين والإنكليز عند سانتاغيو

وعندما سمع الملك الفرنسي بهذا الخبر، كاد أن لا يصدق، ومع ذلك

قام في الليلة نفسها بعبور الجسر بكل هدوء، وقام الفرنسيون في الصباح الباكر من اليوم التالي بنصب خيامهم فوق البقعة نفسها التي كانت القوات الانكليزية مقيمة فيها، وقد ازداد الآن جيشهم بوصول قوات جديدة، وعربات وشاحنات تحمل آلات الحرب والامدادات، وكان عددهم حوالي ألف وستمائة، وقد امتد قطارهم حوالي ثلاثة أميال على الطريق، وفي يوم الثلاثاء التالي انطلق الملك الفرنسي مع قواته ليتولى مطاردة ملك انكلترا، وعند الوصول إلى سانتاغيو، كان بعض الفرنسيون يتجولون، عازمين على جمع المؤن (وهو ما يسمى عادة الاحتشاش) فتواجهوا مع كونت دي لي مارشي وهوجوا من قبله، من دون استشاره ملك انكلترا، أو جيشه، وهاجمت كل فئة الفئة الأخرى، وارتفعت صرخات عالية «رجال الملك، رجال الملك» من الجهة الأولى، ومن الجهة الثانية «جبل البهجة، جبل البهجة»، وكانت هذه صرخة جميع الجنود لدى الملكين، ووصلت أصوات الصراخ وقعقة القتال إلى الملك الانكليزي في سانتاغيو، وقد أخبر بأن كونت دي لي مارشي، بشروعه بالقتال، هو قد رغب إما أن يفقد حياته، أو أن ينقذ سمعته، ونهض الجيشان من على الجانبين، وأعقب ذلك قتال عنيف، وقع خارج بلدة سانتاغيو، في الطرقات الضيقة بين كروم العنب، وقاتل الانكليز وهم على حنق، وحاربوا الفرنسيين بحد السيف، وقاتلوا وهم يائسين جداً، حتى أنهم لو عادلوا أعداءهم بالعدد، لنالوا بنجاح نصراً مبيناً على الفرنسيين، الذين هم أنفسهم كانوا شهوداً على ذلك بعد المعركة، وفي هذه المعركة نال: سيمون دي مونتفورت، إيرل أوف ليستر، مع إيرلي: سالسبري، ونورفولك، وروجر بيغود، ووارن دي مونتشنيل Montchesnil، وهيوبرت فتر— ماثيو، ورالف فتر— نيقولا، وعدد كبير آخر من الشجعان الانكليز، وحصلوا على شهرة سرمدية، وذلك حسبما تحدث خصومهم، ومن الجانب الفرنسي، وقع جون دي بارى Barres، مع ستة فرسان أسرى، بيد وليم دي سي، لكن

جرى فيما بعد مبادلتهم بعدد مساوي من الأسرى الانكليز، وكان هناك عدد كبير آخر من الفرنسيين قد أخذوا أسرى، وكان من بينهم بيتر أورغي Orige، قهرمان كونت بولون، وكان أسرهم جون مانسيل Mansell، وكان محاسباً ومستشاراً خاصاً للملك انكلترا، وقد عدّ هذا بين الرجال الشجعان، ومن جيش ملك انكلترا وقع هنري هيستنج Hastings بالأسر، مع حوالي عشرين فارساً، ومجموعة كبيرة من الرجال، وقد قدموا هؤلاء جميعاً بدلاً عن جون دي باري، والذين أخذوا أسرى معه.

كونت دي لي مارشي يسعى للتصالح بشكل سري مع الملك الفرنسي

وبما أن جيش الملك الفرنسي قد ازداد يوماً مثل بحيرة تضخمت بمياه سيول الأمطار، بدأ كونت دي لي مارشي يشعر بالخوف بشكل جدي أكثر من ذي قبل، لأن التقارير الشريرة المتأخرة جرحت قلبه يوماً، وكان أولها الاستيلاء على قلعة فرونتني، التي فيها وقع ابنه مع أربعين فارساً وذلك إلى جانب عدد كبير آخر من الأتباع قد وقعوا بالأسر، وجرى أيضاً الاستيلاء على كميات كبيرة من السلاح، ففي تلك القلعة كان قد مركز جميع آماله وثقته، ثم إنه فقد بعد ذلك قلعة فوفانت، التي كانت مشحونة بمائة وأربعين فارساً مع حوالي ستمائة من رماة القسي الزيارة المسلحين، ثم أعقب ذلك سقوط قلعة فيلير Vilers مع عدد آخر من القلاع والبلدات مع اقطاعياتهم وحصونهم، وأخيراً جرى الاستيلاء على فونتني مع المناطق المجاورة لها، ولذلك قام وهو محرض من الألم الداخلي في قلبه، ومدفوع بالخوف واليأس، مع أنه أخفى اضطراب تفكيره، تحت ملامح هادئة، قام الكونت المذكور فشرع بالتقلب، وبتقدير من الذي يمكنه بوساطته أن يقبل ثانية في حظوة الملك الفرنسي الذي هو مولاه، والذي نال باستحقاق غضبه، وبعد

بعض التقدير للأمور، بعث بشكل سري إلى كونت بريتاني، وكان صديقاً قديماً له — وكان هو نفسه خائناً يرأسل خائناً — ورجاه أن يعمل بالتعاون مع أسقف سانتاغيو، بكل يقظة ممكنة، بشكل سري وحذر، وأن يسعى إلى إعادته إلى حظوة الملك الفرنسي، وبناء عليه ذهب كونت بريتاني مع أسقف سانتاغيو إلى الملك، وقالوا له وهما يتسلمان: «لقد توقفت الحرب لأنها انقطعت بوساطة واحد متقلب»، وبعد التفوه بخطاب أكثر نعومة وفيه المزيد من الإطراء والإثارة، تابع الكونت حديثه، وذلك على مسمع من الأسقف المتقدم ذكره، وعدد قليل آخر من النبلاء الفرنسيين، الذي كان قد بعث خلفهم للاجتماع به والتشاور معه، وقال: «مولاي الملك، إن رعيتك، كونت دي لي مارشي، الذي اعترف بأنه أذنب بشكل خطير نحوك ونحو تاجك، لايسأل الآن العدالة بل الرحمة، كما يقول المثل العام: «إلى الشقي الرحمة ضرورية، وإلى المذنب علينا منح الشفقة»، وهو قد أرسل بي إليكم، بحكم أن روحه يمكن أن تثق بي، ولهذا أتوجه بالالتماس إليكم بكل اخلاص، وإلى لطفكم الأصيل، وإلى جلالكم، وأرجوكم تقبله بصدركم الرحيم المفتوح، فهو رعيتكم، وقد أصبح الآن مخلصاً إلينا من دون أي من تعليقاته المعتادة»، ثم إنه غمز بعينه نحو الملك، وقال بصوت خافت: «إنني أنصحك بعدم رفض طلبه، لأنك تستطيع أن تضعه وسيلة ضغط لصالحك حسبما تشاء في المستقبل».

كونت دي لي مارشي يصبح متصالحاً مع الملك الفرنسي

وجرى بناء عليه استقبال كونت دي لي مارشي بالحظوة من قبل الملك الفرنسي، على شرط أن يتنازل — أي الكونت — له عن ملكية جميع القلاع التي استولى عليهن الملك مؤخراً بالقوة، وأن يكون ذلك حق دائم، وفي سبيل منفعة المملكة، جرى تجريد الكونت مع ورثته منها بموجب قرار قضائي، وأضاف الاشتراط أيضاً بأن جميع قلاع الكونت

المذكور، وهي كوغناك Cognac، ولوزغنان Lusignan، وميربن Merpins، والقلاع التي يظن أنها عائدة إليه، سواء التي هي ملكه، أو التي هي ملك لأصدقائه الذين يستطيع أن يسوغهم، ينبغي أن توضع تحت سلطات الملك، وبناء عليه ينبغي أن تبقى تحت سلطانه، في سبيل إبقاء الملك تحت المراقبة، وأن يرغم، وإن كان بغير رضاه، بأن يكون مخلصاً إلى الملك، والمسألة سوف تتوقف بعد مضي ثلاثة أعوام على إنعام الملك، وذلك إذا ما خدمه باخلاص، فمن الممكن إعادة القلاع المذكورة إلى الكونت، وعلاوة على ذلك، يتوجب، خلال الأعوام الثلاثة، أن يخدم الملك الفرنسي، إذا ما دعاه بمائتي رجل مسلح على حسابه، وأن يقاتل باخلاص لصالح الملك المذكور، ضد كونت طولوز، أو أي ثائر آخر ضده، أو ضد الكنيسة، وعلاوة على ذلك أضاف الملك الفرنسي: «إن الصك الذي ناله آباءه من أجدادي منذ زمن طويل مضى، والذي مازال حتى الآن يمتلكه، وينال عنه ألف باوند سنوياً من خزينتي، في سبيل حراسة هذا الجانب من حدود مملكتي، والذي غالباً ما أسيء القيام به، لاسيما الآن، إن هذا الصك، أنا أقول عليه التخلي عنه لي من دون أية معارضة، والتخلي في الوقت نفسه عن الدخل السنوي المتقدم الذكر»، ولهذا ابتسم كونت بريتاني، وكشر مقطباً، وهمس في أذن الملك قائلاً: «أنا أنصحك بالاحتفاظ بالقلاع والمورد، وأن تستحوذ من الآن فصاعداً شخصياً المسؤولية عن التخوم»، ثم إنه غادر أخذاً بيد الأسقف حيث قال: «لقد استكملت»، وعندها سأله الأسقف: «ما الذي استكمل؟» فأجابه: «العمل الذي جئنا من أجله وعند ذلك قال الأسقف: «أنت تتولى رعاية ذلك، فأنا لم أسمع همساتك السرية».

كونت دي لي مارشي يوافق على الشروط مع أنها شروط قاسية
وعندما باتت هذه الشروط والمفروضات من أجل الحصول على

حظوة الملك معروفة من قبل الكونت المذكور، أي كونت دي لي مارشي، حيث حملها إليه كونت بريتاني، حزن حزناً عميقاً، وظل لوقت طويل رافضاً الموافقة عليهم، لكنه وافق أخيراً عليهم، بناء على نصيحة كونت بريتاني المذكور، وأصدقائه السريين الآخرين، الذين كان يثق بهم، لكن موافقته لم تكن من دون ألم بالقلب، وفعل ذلك للحيلولة دون وقوع أي شيء أسوأ إليه، وبناء عليه ترك ابنه ملك انكلترا، الذي كانت أمواله قد استهلكت الآن إلى أبعد الحدود، وهرب إلى الجيش الفرنسي، حيث رمى بنفسه على ركبته أمام الملك، فحصل على حظوته، التي لم يستحقها، ثم جرى إرساله على الفور مع كونت بريتاني نفسه، لشن الحرب على كونت طولوز، لأنه كان متحداً مع ملك انكلترا بروابط القرابة، كما أنه كان حليفاً، بناء على قسم، وكان متابعاً الحرب ضد الملك الفرنسي، ولهذا السبب، شغل كونت طولوز، منذ ذلك الحين، نفسه بالنظر إلى أمور دفاعه، وبات غير قادر على مساعدة ملك انكلترا، الذي إليه وعد بتقديم مساعدة فعالة، لدى تسلمه المال سلفاً.

وبالطريقة نفسها، لم يعد بإمكان ملك انكلترا الحصول على المساعدة من ملك أراغون، لأن الطرق كانت مغلقة ضده، ولا كذلك من أي واحد آخر، كان قد وضع فيه ثقته، وقدم في الوقت نفسه كونت طولوز سراً إلى ملك انكلترا، وبعدهما سوغ نفسه واعتذر قال: «لاتيأس يامولاي الملك، وابن عمي، لاتيأس أيها الأمير الأعظم قوة من أن لا تكون قادراً على صد الملك الفرنسي، بما أنك تتذكر أنني وحدي، مع مساعدة البابا، قد صدته، وحالما أتمكن من طرد هذين الخائنين لي من أراضي التي هي الآن تحت احتلالهم، سوف أقدم إليك بكل سرعة، لتقديم المساعدة»، وبعد قليل من المحادثات الأخرى، غادر ذلك الكونت، وهو يحمل بالهدايا.

سبب فقدان الملك لسانتاغيو

وبينما كان كونت دي لي مارشي يتابع تنفيذ خططه الخيانية المتقدمة الذكر، من دون معرفة ملك انكلترا، كان آنذاك ملك انكلترا مقيماً لبضعة أيام في سانتاغيو (التي كانت معروفة بموجب الحقوق القديمة ملكاً خاصاً، ومسكناً للملك انكلترا) وقد قام فيما بعد من دون مشاورة المواطنين، لابل ضد رغباتهم، فأعطى تلك المدينة، وثبت منحه بوثيقة إلى هوغ برن Brun، ابن كونت دي لي مارشي، وأخاً أصغر له شخصياً، وقد كره المواطنون هوغ هذا المذكور، لأنه كان متعجرفاً، ورجلاً شريراً، وغالباً ما قام بتهديدهم بالضغط عليهم، ونتيجة لهذه المنحة، لم يعد المواطنون ينظرون بعين الحظوة نحو ملك انكلترا، كما أنهم لم يعودوا يوافقون على سلوكه وأعماله.

فرار الملك الإنكليزي إلى بلي

ومع اقتراب حلول شهر آب المجهد، وفي الوقت الذي كان فيه ملك انكلترا يظن أنه آمن، ولديه مكان التجاء مضمون في سانتاغيو، وكان يفكر بالبقاء هناك لعدة أيام قليلة، حتى يحصل على وقت يسترد فيه أنفاسه، أرسل فارس فرنسي، كان واحداً من الذين حررهم في الأرض المقدسة الإيرل رتشارد، وكان مطلعاً بشكل سري على خطط الملك الفرنسي، أرسل رسالة سرية مستعجلة إلى الإيرل المذكور، بأن ملك فرنسا قد أبدع خطة سرية واستقر رأيه عليها، حيث سيقوم فجأة بتطويق ملك انكلترا في مدينة سانتاغيو، مع حفر خنادق من جميع الجهات، ومن ثم حصاره هناك، فهو ما أن يكمل حشد قواته بقدر ما تستطيع فرنسا تقديمه كما هو معلوم، سوف يتابع الحصار، ولن يتخلى عنه حتى يأسر جميع الإنكليز الذين هم هناك، مع ملكهم، وأن يحملهم أسرى مغلولين إلى باريس، وأضاف الرسول نفسه على سرعة، أو وهو مقطوع الأنفاس تقريباً، بأن كونت دي لي مارشي قد تحول، أو بالحري

تبدل وانقلب من كونه صديقاً الى أنه بات العدو الأعظم للملك إنكلترا —ومن كونه أباً زائفاً الى صيرورته زوج الأم— وأنه لا يمكنه أن يتأمل أي شيء آخر من نبلاء بواتو الآخرين، وما كاد يتوقف عن الحديث، حتى وصل رسول آخر الى الملك، من أخيه الأصغر هـ . H المتقدم ذكره، ومن غي دي لوزغان —أخيه الأكبر— يعلن أن الانكليز إذا ما بقيوا في البلدة تلك الليلة، هم سوف يقعون جميعاً بالأسر مع ملكهم ومع السكان، أو أنهم سوف يحاصرون حتى يمكن أسرهم، وحدث هذا في اليوم التالي لعيد القديس بانتاليون Pantaleon، عندما جاء الملك من بونز Pons خلال آركيك Archiac، ثم إلى هيربيزي، ثم وصل إلى سانتاغيو، داره كما كانت، لكن عندما كانوا على وشك اتخاذ مقرات لهم هناك، وكان وكلاؤهم قد تقدموا عليهم، وكان المراقبون والمارشالات قد أعدوا جميعاً طعام افطارهم، وكان الملك نفسه على وشك تناول طعام افطاره، وصل رسول ثان أكد بينة الرسول الأول، وبذلك لم يترك أي مجال للشك في هذه القضية، وبناء على ذلك غادر الملك المدينة على الفور، معطياً أوامر باحراقها، لأنه كان قد سمع من الرسول المتقدم الذكر، بأن المواطنين قد أعدوا شروطاً للسلام مع الملك الفرنسي، وأباحوا بشكل خيافي أسرار خططه إلى ذلك الملك، وعند ذلك لم يوفر هنري مهمازه، أو لكز جانبي فرسه، بل إنه هرب من دون توقف حتى مدينة بلي Blaye، وكان صائماً وجائعاً، ولم يهتم سوى قليلاً بقواته التي تبعته، وعندما علم نبلاؤه بفراره، تركوا فجأة طعامهم نصف المطبوخ، وركبوا خيولهم السريعة، ولحقوا ملكهم، وهم يرجون إيجاد ملجأ لأنفسهم معه في مدينة بلي.

وسار خلفهم حشد كبير من الانكليز، على أقدامهم، وهم في حاجة شديدة، وكانوا يتساقطون من الجوع والضعف، وقد فقدوا عدداً كبيراً من الرجال المرضى، والخيول المحملة، والعربات والشاحنات، حتى أن

الدموع عطفاً عليهم تدفقت من أعين جميع الذين شاهدوا أوضاعهم، لأنها كانت رحلة عشرين ميلاً، وفقاً لتقديرات تلك المنطقة، لكنها كانت حوالي الأربعين أو قريباً من الخمسين وفقاً للحسابات الانكليزية، ولولا أنهم قسوا أنفسهم، وهم على الطريق، بأكل التفاح البري والتوت، لتخلت قواهم عنهم نهائياً، ووصل الملك الفرنسي في الوقت نفسه إلى سانتاغيو، حيث جرى استقباله باحترام من قبل رجال الدين والمواطنين، واسترد سلطاته من دون صعوبة على تلك المدينة النبيلة، وبعد فرار مهين ومدمر، وصل الانكليز المنهكون وغير القادرين على التنفس إلا بصعوبة، إلى مدينة بلي، وبعدما مكث الملك هناك لبضعة أيام للراحة ولاسترداد قواه (لأنه كان لم يأكل أية وجبة ولم ينم منذ يومين وليلتين)، قرر أن يغادر ذلك المكان أيضاً، بحثاً عن مكان أكثر أمناً للالتجاء إليه، ولذلك عقد مؤتمراً مع نبلائه، ثم إنه قرر الانطلاق نحو الأمام إلى بوردو، وفي هذا الفرار فقد ملك انكلترا بيعته مع جميع تزييناته المقدسة بالإضافة إلى الآثار وأشياء أخرى كثيرة، عددها كبير جداً حتى نتولى ذكره، وأثناء فرار الملك الانكليزي إلى بلي طارده الملك الفرنسي بحرارة حتى وصل إلى مكان اسمه كارتليو Carleigue، حيث أرغم على التوقف بسبب المرض.

استسلام مدينة بونز إلى الملك الفرنسي

وعند سماع رينالد دي بونز بهذه الأخبار، طار على الفور نحو جناحي الملك الفرنسي، ونشد السلام من خلال وساطة بعض الأصدقاء، وقد حصل عليه مع بعض الصعوبة، وسلم نفسه والمدينة إلى سلطات الملك الفرنسي.

الملك الفرنسي يشحن بالجند مدينة بونز وبعض القلاع

وبعدما أعيدت مدينة بونز على هذه الصورة إلى الطاعة، وكذلك

بعض القلاع من حولها، قام الملك الفرنسي على الفور بطرد البواتيين، ووضع بعضاً من الفرنسيين المخلصين هناك.

رئيس الأساقفة وليم يلتحق بالملك الفرنسي

وعندما وصلت أخبار هذه الحوادث إلى الذي يدعى برئيس الأساقفة وليم، قرر هو العمل بطريقة مماثلة، لكنه عزم أولاً أن يضمن نفسه على مقتنيات ملك انكلترا، ولذلك قام بشكل مخادع فأرسل رسالة سلام ومواساة إلى الملك المذكور، معلناً وداعياً القضاء الرباني أن يكون شاهداً، — مع أن جميع البواتيين ينبغي عليهم الانحناء، وإبعادهم من دون كرامة عنه، هو، أي رئيس الأساقفة — أنه طالما نفس الحياة موجود في صدره، لن يتخلى عن ملك انكلترا، الذي أضفى عليه ثروات عظيمة، ولن يفر إلى الملك الفرنسي، الذي داس بعجرفته التي لا تحتمل — والتي جاءت بعدما ربحوا القدرة — على جميع رعيته، وكأنهم كانوا وحلاً في الشوارع، وبناء عليه التمس من ملك انكلترا، أن يرسل إليه من دون تأخير، بحكم كونه مولاه الطبيعي، الذي عنه لا يمكن أن ينفصل بنفسه، بعض الفرسان الشجعان، المجهزين بجميع الحاجيات الضرورية إلى مدينة بارثني Parthenaye التي كانت مدينته، وذلك مع المال لتحسينها، وإلى هذه الكلمات الناعمة والمعسولة أصغى الملك برغبة كبيرة، وتصرف وفقاً لطلبه، لكن لدى وصول الفرسان الذين أرسلوا من قبل ملك انكلترا إلى مساعدته، طردهم بالقوة من المدينة، واحتفظ لنفسه بالمال الذي أرسل إليه للدفع إلى عساكره، ثم إنه طار مع جميع أعوانه والمواطنين للجوء تحت جناحي الملك الفرنسي، لعمل سلام معه، لكن الملك الفرنسي ضايقه ووجه الملامة إليه، وقطع لسانه، وأشار إليه باصبعه، موجهاً الملامة إليه بسبب سلوكه، ووبخه ووسمه بأنه خائن، وإنسان موسوم بعلامة قابيل.

عمدة طولوز يتحول عن جانب الملك الإنكليزي

وبات في هذه الأثناء، عمدة طولوز أيضاً على بينة بأوضاع القضايا، وكان رجلاً كدس عليه ملك انكلترا أكواماً هائلة من المنافع، وقد رفع من شأنه في كثير من الطرق، لكنه عندما وجد جيوب سرج خيوله مليئة بأموال استيرلينية جيدة، جاء رده على ذلك خيانتته، وبوساطة أصدقائه عمل سلمه مع الملك الفرنسي، وأعيدت مدينته إليه مع البلدات المجاورة، والتحق هو بالجيش الفرنسي، مظهراً بذلك أي نوع من الثقة ينبغي أن توضع في البواتيين.

البواتيون جميعاً يتحولون إلى الملك الفرنسي

ثم إن المواطنين وحراس البلدات، رأوا هؤلاء الأعلى مرتبة منهم أنفسهم قد تحولوا، وأن ملك انكلترا، الذي كان من المتوقع أن يقدم الحماية إليهم، قد هرب، مثل ملاح يهجر سفينة غارقة، تبارى أحدهم مع الآخر في الفرار إلى الحكم الفرنسي المعروف جيداً، وقام أتباعهم في المقاطعات أيضاً، بالتخلي فوراً عن أنفسهم وعن ممتلكاتهم إليه.

إخلاص هارتأولد قسطلان قلعة ميربو

وعندما كانت أخبار هذه الأحداث ومايائلها تنتشر لتعم مناطق بواتو، كان هناك واحد اسمه هارتأولد Hertold، كان القسطلان المخلص لقلعة ميربو التي لا ترام، وقد شعر بحزن عميق، وكان يشعر بشكل مؤكد أنه عندما يحرم من مساعدة ملك انكلترا، هو لم يرغب — على كل حال — بذلك، بل يرغب بالتصدي للهجمات الصادرة عن الملك الفرنسي، وقد قال لرفاقه في السلاح: «أصدقائي، ورفاقي الحقيقيين، إن جميع منطقتنا هذه، وبالأأسف، عرضة للخراب والدمار، فما الذي ينبغي فعله؟ إن بني قومنا مختلفون فيما بينهم أنفسهم، وهم منقسمون، وهم بالتالي في حالة اضطراب، وإننا سوف نتحول إلى درجة

العبودية من قبل أعدائنا»، وقرر أخيراً، بعد كثير من البكاء، في قرارة نفسه، أن يذهب إلى ملك انكلترا، الذي هو مولاه الطبيعي، ليتشاور معه حول هذه القضية، وعندما وصل إليه، كانت الدموع مبللة وجنتيه، والتنهدات قطعت كلامه، حيث قال: «مولاي الملك، إن جلالتك ترى بأن الحظ مضاد لنا في كل شيء، وأنا رجل تعيس إلى حد أنني لأدري ما الذي عليّ أن أفعله؟ هل يمكنك مساعدتي في هذا الخطر العظيم، وإذا ما كان عليّ صد المحاصرين بالقوة إذا حدث وحوصرت؟ وهل سوف أنا أتورط مثل جيراني، في المأساة العامة، وأن أرغم بالأخير على تحمل النير الفرنسي، الذي رفضه آبائي دوماً حتى الآن، وصدوه، وقذفوا به»، وعلى هذا رد عليه الملك وهو مكتئب قائلاً: «أنت ترى ياهارتأولد، مقدار قوتي، التي هي بالكاد كافية لتأمين نجاتي، وإن مولانا ومخلصنا يسوع المسيح، قد جرت خيانتة من قبل تلميذه يهوذا، وبناء عليه من الذي يمكنه أن يتوقع أن يكون آمناً؟ لقد تركني كونت دي لي مارشي، الذي عددته وأحبيته بمثابة أب، وقد ضرب مثلاً مدمراً لكم جميعاً، فلقد اعتمدت على قصبة وجعلتها بمثابة عصاي، فجرحتني شظاياها، وأنت وحدك عملت بطريقة محمودة، بقيامك بمشاورتي في هذه القضايا، وبناء عليه إن جميع ماتملكه باسمي، أنا أمنحك إياه بحرية، بمثابة هدية مني، وبناء عليه، افعل الذي تراه أكثر مواءمة لك ولحقك»، ثم إن هارتأولد غادر حضرة ملك انكلترا وهو آسف، وذهب على الفور بشعر مشعث، وعينان حمراوتان من البكاء إلى الملك، الفرنسي الذي إليه توجه بالخطاب قائلاً كما يلي: «مولاي الملك، لقد كدس الرب الغاضب أكواماً هائلة من الشرور عليّ، حتى بت مرغماً — مع أنني غير راغب — بأن أطيّر إلى رحمتك. حتى أنال الحماية والملاجئ، لقد تركت إلى نفسي، ولذلك طرت إلى جلالتك، وبناء عليه تسلم قلاعي، وتقبل في الوقت نفسه خدمتي»، وعلى هذا رد الملك الفرنسي بنظرة هادئة: «ياصديقي لقد عرفت معرفة جيدة بأنك قد ذهبت إلى ملك انكلترا،

وأنا أعلم الذي قلته له، فأنت وحدك قد عملت باخلاص، وأنا على هذا عن رضا أتقبل القيام بحمايتك أنت والذين أتباع لك، وكما أنت، أنا أتقبلك، ولذلك فإن صدر الرحمة هو مفتوح لك دوماً، ولذلك تخلى هارتأولد عن قلعة ميربو الفخمة، ووضعها بين يدي الملك الفرنسي مع جميع متعلقاتها، لكن ذلك الملك قام على الفور، إثر تلقيه يمينه بالتابعة، بإعطائه المسؤولية عنها ثانية، وكذلك معها جميع جزء تلك البلاد، باستثناء مونتوبان Montouban، وعدد قليل من الأماكن، فهذه جرى تسليمها إلى سلطات الملك الفرنسي.

ولادة ملكة إنكلترا لطفلة في بوردو

وبقي ملك انكلترا في بلي حتى عيد صعود العذراء المباركة، عندما جاء المخاض ملكته التي كانت مقيمة في بوردو — وكانت خيامه منصوبة في حقول جميلة قرب تلك المدينة — وكان مستعداً لأن يطير على الفور، إذا ماسمع من جواسيسه بأن الملك الفرنسي قد اقترب من بلي، وفي يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، ولدت زوجته، الملكة إليانور — كما ذكرنا من قبل — بنتاً في بوردو، وقد منحت اسم بيترايس Beatrice، الذي كان اسم أم الملكة.

قدوم كونتيسة بيرني إلى ملك إنكلترا في بلي

وفي الوقت نفسه، قدمت كونتيسة بيرني Biarne، التي كانت بمفردها ذات حجم كبير إلى الملك مع ابنها غاستون Gaston، وكان برفقتها ستين فارساً، وقد اقتنعت بفعل ذلك برغبتها بالحصول على بعض المال، حيث كانت تعرف بأن ملك انكلترا كانت لديه كميات وافرة منه، وبعدها دخلت معه في اتفاقية من أجل الدفع، بقيت مع الملك، وهي تسلم منه يومياً مبلغ ثلاثين باونداً استيرلينياً، ولكنها كانت ذات موقف معادي منه، وقد تخلت بالنهاية عنه كلية، أو بالحري خائته وأفقرته.

انتشار وباء بين الفرنسيين

ورأى الملك الفرنسي في الوقت ذاته أن الحرب متطورة لصالحه بين يديه، فعقد مؤتمراً مع نبلائه، وقرر أن يلاحق الملك الانكليزي بعدوانية إلى بلي، لأنه كان يعرف بأن هذا الملك كان قد حرم من مساعدة البواتيين، وكان الآن غارقاً في وضع ميؤوس منه، وقرر أيضاً أن يطارده من بلي إلى بوردو إذا ما تراجع إلى هناك، وهكذا تصور أنه يمكنه بيقظة غير متوانية، أن يجلب الحرب إلى نهاية، غير أن الرب «الذي يمنح الخلاص إلى الملك كما يريد» امتلك رحمة نحو الملك ونحو مملكة الانكليز، ففرق بين قلوب الفرنسيين المتعجرفين الذين لا يعرفون التهاون، بإثارة الشقاق والخلاف فيما بينهم، وعلاوة على ذلك، فإن جيشهم الذي كان كبيراً جداً، كان مرهقاً يعيش تحت نقص الامدادات، ولذلك فإن الجوع والعطش قد استبد بهم، وأخذ الناس يتلاشون بوساطة الأمراض، ولإصابتهم بمختلف الآلام، لفظوا حيواتهم الضعيفة، لأن السكان المحليين كانوا قد أغلقوا أفواه الآبار، وسمموا وأفسدوا الأنهار والينابيع، وفلحوا المروج، ونقلوا القمح، ونتيجة لذلك هلكت الخيول لحاجتها إلى الماء، وفي أيام الشعري (مايين أوائل تموز وأوائل أيلول) التي كانت آنذاك في ذروتها، التزم الناس بمضاجعهم وهم مرضى، ولأنهم كانوا غير قادرين على الحصول على الراحة وعلى الدواء ماتوا، ومات من الجيش الفرنسي، ثمانون نبياً ممن كانوا يحملون الرايات، ومن الجنود الرجالة وقع حوالي العشرين ألفاً ضحايا، وفي هذه الآونة، وقع الملك نفسه مريضاً مرضاً خطيراً، ووقع على الفرنسيين خوف عظيم وقنوط كبير، ذلك أنهم خافوا أن يفقدوا ملكهم بين يدي الموت، الموت الذي لم يوفر أحداً، وذلك وفق الطريقة نفسها التي فقدوا فيها والده الملك لويس فجأة، ومات بسبب المرض نفسه كثير من الفرسان الشجعان الذين لامثيل لهم، وكان من بينهم روبرت مالت

Malet, وكان نورماندياً، ورجلاً استحق التميز بالثناء، ورتشارد بيومونت Beaumont, وكان رجلاً من أصل نبيل، ومتميزاً بين الفرنسيين لأعماله النبيلة، وكان واحداً ممن حرره الايرل رتشارد في الأرض المقدسة، ولذلك أرغم الملك الفرنسي، بسبب الظروف المعاكسة، على الموافقة على هدنة لمدة خمسة أعوام، وهي التي طلبها الملك الانكليزي، ثم إنه عاد إلى فرنسا إلى مناخه المعتاد عليه، ولذلك منحت الهدنة إلى الملك الانكليزي عن رضا، لابل مع سرور عظيم.

الملك الفرنسي الذي وقع مريضاً يبرم هدنة مع ملك إنكلترا ويعود إلى فرنسا

وبناء عليه، قام الملك الفرنسي، فجأة بتغيير خطته، وعاد إلى فرنسا، من أجل أن يمتلك وقتاً للتنفس، ولأن ملك إنكلترا كان مستعداً للانتقال إلى أقصى منطقة من البلاد، وكان من الصعب مطاردته في أراضيه، ولأن فصل الشتاء الممطر بات قريباً جداً، وهكذا أخذ طريقه مروراً بمدينة سانتاغيو، التي كان قد استرد ملكيتها، فأمر بتحصينها، في سبيل تقدم المملكة الفرنسية، بأسوار جديدة، وبتحصينات خارجية، وبترميم الأسوار القديمة، وأعطى الأوامر نفسها فيما يتعلق بالمدن الأخرى، وتلقى يمين الاخلاص، والرهائن، من الذين تركهم مسؤولين عنهم، وقام بشحن القلاع بشحن فرنسيين، وبالذين كانوا مخلصين له، وتراجع ملك إنكلترا في الوقت نفسه، من دون خطة بذهنه، إلى غسكوني، حيث أمضى أيامه من دون نشاط مع ملكته، وأثناء ذلك أظهر الغسكونيون مع (الكونتيسة، دي بيارد) Biard قليلاً من الرحمة نحو أمواله، وفي ثمانية القديس متى الرسول، وصل الملك الفرنسي إلى فرنسا، والذين زرعوا بذور الفوضى في المقاطعات البواتية قد اعتقلوا مع الاهانة، بعدما عادوا إلى فرنسا، وبعد آلام طويلة غادروا جميعاً طريق الجسد.

الملك الفرنسي يطلب الحصول على مساعدة مالية من اللاهوتيين
وبعد مضي وقت قصير دعا الملك الفرنسي وأمر أساقفة المملكة
الفرنسية بالاجتماع بباريس، وهم:

رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الدير، ورؤساء الرهبان
السود من طوائف السسترشيان والبرامونستريت، ورؤساء هيئات
الكهنة الكاتدرائية، وطلب مساعدة مالية منهم، ولكي لا يعطي
فرصة يمكن أن تتخذ ذريعة لرفض طلبه، أعطى سبباً بأنه يرغب
في مهاجمة الهرطقة الألبينيين، لأنه اتهم كونت طولوز بجريمة
الهرطقة القديمة، وكبرهان على ذلك قال بأن ذلك الكونت قد قتل
مؤخراً، بشكل دنيء، بعض الرهبان الدومينيكان، ونظراً لإدراك
الأساقفة أنهم كانوا محرومين من حكومة البابا، ومع أنهم لم يكونوا
ملزمين بحق الاسهام بأي شيء، بناء على أمر أي علماني، حتى لا تنظم
الكنيسة، ومع ذلك مقدرين أن الزمان كان زماناً سيئاً، وبما أنه كان
هناك عدداً داخلين في اطار الخطر، كان لابد من إعطاء بعض المرونة
للأحكام القاسية، ووافقوا بالاجماع على عمل تسوية للقضية، بمنح جزء
من عشرين من مواردهم لذلك العام، وأن يجري دفع ذلك في وقت
قصير.

تكريس الكنيسة في وولتهام

وفي اليوم التالي لعيد القديس ميكايل في هذا العام، جرى تكريس
كنيسة ديرية تابعة إلى كهنة وولتهام Waltham، بشكل مهيب من
قبل وليم أسقف أوف نورويك، وقد ساعده في ذلك عدد كبير آخر من
الأساقفة المحترمين والنبلاء، وقد حدث هذا فوراً، إثر تكريس كنيسة
القديس بولص في لندن في سبيل أن يعبر الحجاج ثم يعاودوا العبور من
الأولى إلى الثانية من دون زيادة تأخير.

استخراج ضريبة بدل الخدمة العسكرية من قبل الملك

في هذا الوقت نفسه أمر الملك باستخراج ضريبة بدل الخدمة العسكرية من جميع أرجاء انكلترا. وفي هذا العام جرى تثبيت آدم راعي دير ويردون Waredon، أسقفاً على كونور Connor، وهو كرسي موجود في انكلترا، خاضع إلى المطرانية الأسقفية العائدة لرئيس أساقفة أرماغ Armagh.

بعض نبلاء إنكلترا يطلبون الإذن بالعودة إلى الوطن

وفي الوقت نفسه، جاء إلى الملك إيرل بيغود، وإيرل روجر أوف وينشستر، وعدد آخر من النبلاء، واشتكووا إليه بمرارة، بأنه جرهم بشكل غير معقول من بيوتهم إلى المقاطعات النائية لهؤلاء الخونة له، من دون أن يقدموا إليهم أية مواساة أو مساعدة، ولذلك عندما تراجع الملك الفرنسي مع جيشه إلى داخل فرنسا، من أجل تجنيد قواهم، هم سألوه أيضاً الإذن بالمغادرة والعودة إلى انكلترا من أجل الغرض نفسه، فسألهم الملك: «هل الطريق آمن؟» وعلى ذلك أجابوا: «إننا سوف نسأل»، ثم إنهم طلبوا ممراً حراً خلال فرنسا من الملك الفرنسي، فمنحهم إياه قائلاً: «دعوهم يغادرون بحرية، ويسافرون من دون اعتراض خلال أراضيتي، وأنا أمل أنهم لن يعودوا مطلقاً، وعندما ليم على هذا من قبل نبلائه، قال: «بودي لو أن جميع أعدائي يرتحلون بعيداً عني، وأن لا يعودوا مطلقاً»، وبناء عليه أخذ الانكليز طريقهم بسلام خلال فرنسا — ليس على كل حال من دون نيل الأذى من السكان — وعادوا إلى انكلترا، وقد حدث في حوالي الوقت نفسه، أن واحداً من النبلاء الانكليز، واسمه وليم دي روز Roos، وكان قد جاء من المناطق الشمالية لانكلترا، لم تتوفر لديه الامكانيات للمكوث أية مدة أطول مع الملك في القارة، ولذلك أمر الملك بتهور أن تنتزع منه أراضيه من دون حكم صادر عن نظرائه، وقد بدا هذا إلى الجميع أنه عمل غير

عادل، وتصرف طغياني، لأنه بسبب أن وليم دي روز المذكور كان رجلاً فقيراً، قال للملك: «تقبل أراضي تحت اسم تعهد، وامنحني الوسائل لكي أخدم بشكل موائم كفارس، ومن ثم سوف أقيم»، ولدى سماع الايرل رتشارد بهذا الإجراء وبإجراءات أخرى مماثلة، وجه اللوم إلى أخيه بحدّة، ونشب خلاف بينهما نتيجة لذلك، وقد ترك أخاه وهو متألم بروحه كثيراً، وقرر العودة إلى الوطن، ولذلك استدعى بعض النبلاء، وعمل الاستعدادات من أجل الابحار.

ثم إن الملك، تصرف فجأة بشكل غير حكيم، فانفجر غضباً مههدداً ضد الايرل، ولكي يخفي الايرل عنف أخيه وغضبه، كظم مشاعره، وبقي معه، ولكن عندما رآه قد تصرف بشكل مضاد مباشرة لنصيحة شعبه، قام مع وليم، الايرل مارشال، وايرل هارتفورد، وعدد كبير آخر من النبلاء، وترك الملك، الذي كان قد أسلم نفسه تماماً لرغبات أهل بوردو، مع الغسكونيين، وازدرى نصيحة رعيته الطيبين، ولذلك أخذ سفينة وعاد على الفور إلى الوطن، وشغل الملك نفسه وتمتع بالراحة مع ملكته إليانور، التي جلبت له بنتاً، فأطال إقامته في بوردو من دون عمل، وبدد أمواله في مختلف الطرق غير النافعة.

المخاطر التي واجهها الايرل رتشارد ورفاقه في البحر

أقلع النبلاء الذين تقدم ذكرهم في البحر في يوم عيد القديس لوقا، وبعدها عانوا من كثير من المخاطر والعديد من الاضطرابات أثناء رحلتهم، وصلوا مع كثير من الصعوبة إلى كورنوول، وبعدها عمل ايرل رتشارد نذراً بزيارة أحد الديرة من أجل الحفاظ على حياته، تمّ انقاده بعد صعوبات جمة من فكي الموت، ونزل على جزيرة قرب كورنوول، أما السفن الأخرى، التي كانت قد غادرت الساحل الفرنسي، في الوقت نفسه الذي غادرت فيه سفينة الايرل رتشارد، فقد تفرقت بعنف العاصفة، وحملت إلى شواطئ أخرى.

عاصفة وأمطار غزيرة

في يوم عيد القديس إدموند، من العام نفسه، كان هناك رعد متميز مترافق ببرق، مع نذير شؤم عن وصول عاصفة طويلة، مخيفة للقلوب والأذان للأحياء، ولم يكن الانذار زائفاً، لأنه تبعه أنواء متواصلة في غير وقتها، وبأوضاع للرياح مزعجة ومضطربة، استمرت لعدة أيام، وتساقطت آنذاك أمطار غزيرة جداً، حتى أن نهر التيمز فاض عن حدوده المعتادة، وعن شواطئه القديمة، وأظهر نفسه فوق المنطقة الممتدة نحو لامبث امتداداً حتى ستة أميال، وغمر المنطقة بالطول وبالعرض، واستحوذ على البيوت وعلى الحقول في تلك المنطقة، ونظراً لفيضان المياه، ركب الناس في القاعة الكبرى في ويستمنستر على ظهور الخيول.

إرسال مؤن من إنكلترا إلى الملك

وأرسل الملك في تلك الآونة رسالة إلى رئيس أساقفة يورك، الذي كان وصياً على المملكة، آمراً إياه بارسال القمح الذي نما في أسقفية كانتربري، وفي العزب الأخرى التابعة للأسقفية نفسها، وكانت آنذاك فارغة، إليه إلى بوردو من دون تأخير، ومع القمح لحم خنزير وملح والأشياء الأخرى اللازمة والامدادات من أجل الشتاء، وكذلك أقمشة من أجل صنع ملابس، ونتيجة لذلك جرى إرسال عشرة آلاف عبوة من القمح وكثيراً من لحم الخنزير، إنما وهي مرافقة بمبلغ كبير من المال، وكان إنكلترا كانت بئراً لا ينضب.

أوامر غير صحيحة للملك إنكلترا

وأرسل الملك أوامر دقيقة إلى رئيس الأساقفة المذكور، كي يصادر أراضي وممتلكات الذين هجروه على القارة، وتركوه بلادفاع وعرضة لتقلبات الأحداث، وعندهم خونة، وبشكل خاص ممتلكات وليم دي روز، وبعض النبلاء الآخرين، العائدين إلى المناطق الشمالية من إنكلترا،

وقد عانى هؤلاء، نتيجة لهذا الأمر من خسارة كبيرة، وكان رئيس الأساقفة على كل حال، رجلاً حكيماً، ومقدراً للأمر، وكان يعرف أنهم ينبغي عدم لومهم، إذا كانوا قد تركوا الملك لبعض الوقت، بعد إبرامه لهدنة، وقد تركوه بسبب الفقر الذي استبد بهم، أو تركوه لكي يستردوا صحتهم، ولذلك لم يرغب، لدى صدور هذه الأوامر الطغيانية، أن يُلطخ أخلاقه وسمعته، من أجل رسالة ليست ذات قيمة، بل فضل أن يتركها تمر بصمت، لاسيما وأن الملك كان مرغماً على الموافقة على المشورة الحكيمة لكل من أخيه الإيرل رتشارد، ولرعاياه الآخرين الموثوقين، بأن عليه والأفضل له العودة إلى مملكته، لكنه اختار الكلام الناعم للغسكونيين، وبقي في بورديو مع مملكته وسط سخيرية ومزاح الفرنسيين، الأمر الذي لم يكن لمصلحته تماماً، هذا وبقي مع الملك سيمون دي مونتفورت، إيرل أوف ليستر، وإيرل وليم أوف سالسبري، وعدد كبير آخر من النبلاء الانكليز، لكن ليس من دون المعاناة من خسائر كبيرة، مع تعريض أنفسهم للأذى، حيث أثقلوا بالديون، وعانوا من جميع أنواع الشدائد، وكانوا يقضون أوقاتهم من دون عمل ونائمين بشكل مهين.

تزايد خزي ملك انكلترا وعاره

وفي الوقت نفسه وصم الملك نفسه بوصمة من غير الممكن إزالتها، بسبب أنه رفض نصيحة مستشاريه الطبيعيين، حيث أذعن مراراً، وبطريقة صديقة تماماً واستجاب لرغبات كونت طولوز، وكذلك لرغبات ملك أراغون، وكانا صديقين هشين من القصب، حيث لم يقدموا له في وقت الحاجة أي عمل جيد، لابل بالحري عارضاه ووقفاه ضده، فقد كان أولهما هرطقي، وكان الثاني ملطخاً بعار عدم المحافظة على معاهداته وخرقها، لابل لئلا يحاولا زرع بذور الخلاف بينه وبين رعاياه الاقطاعيين، لاسيما الإيرل سيمون دي مونتفورت، على أساس

الكرامية السالفة لأبيه، الذي كان من قبل قد ألحق هزيمة شديدة، بملك أراغون والألبينين، ولم يقم الغسكونيون إلا الآن، ولا من قبل، لا بتدليل ملك انكلترا، ولا بإطرائه، الأمر الذي عندما أخبروا به ملك فرنسا، من أجل أن يفرح لدى سماعه له، قال: «كونوا هادئين، كونوا هادئين، ولا تسخروا منه، أو أن تحاولوا جعلي أكرهه، لأنكم تكرهونه، إن صدقاته وقداساته، سوف تنقذه من جميع المصائب والمخاطر»، ولقد سمعت أيضاً أن رأياً مماثلاً صدر بشأنه عن اللويلين، أمير شمالي ويلز، الذي كان عدواً له.

وفاة رتشارد دي بورغ

وفي هذه الآونة نفسها، مات رجل نبيل، هو رتشارد دي بورغ، وكانت لديه أراضى كثيرة وممتلكات في أيرلندا، كان قد ورثها من أعمال التوسع لأبيه المشهور.

موت هيوغ دي لاسي

وفي هذا العام نفسه، غادر هيوغ دي لاسي هذه الحياة، وكان مقاتلاً صاحب شهرة كبيرة، وحاكماً مشهوراً لشطر كبير من أيرلندا.

روبرت أسقف لنكولن يترجم أناجيل البطارقة الاثني عشر

وفي هذه الآونة أيضاً، ترجم روبرت، أسقف لنكولن، وكان رجلاً بارعاً جداً، إلى اللاتينية، من الاغريقية، ترجمة صحيحة جداً أناجيل البطارقة الاثني عشر، وكانت هذه الأناجيل غير معروفة منذ سنين طويلة، ومخفية من خلال حسد اليهود، لأن النبوءة المتعلقة بمخلصنا موجودة فيهم، لكن الاغريق الذين هم أكثر المتقنين بحثاً من دون ملل عن جميع الكتابات، كانوا أول من علم حول هذا الموضوع، فترجموهم عن العبرية إلى الاغريقية، ولم يكونوا معروفين في أيام القديس جيروم، أو من قبل أي مترجم آخر للكتابات المقدسة، ولم

يصلوا إلى معرفة المسيحيين، بأي شكل من الأشكال، بسبب الخطط التآمرية لليهود، وبناء عليه، قام الأسقف المذكور بالترجمة، يساعده نيقولا، وكان اغريقياً، وكاهناً في دير القديس ألبان، وجاءت الترجمة إلى اللاتينية، واضحة، وكلمة مقابل كلمة، لتلك الرسائل المجيدة، في سبيل تمكين الإيمان المسيحي، ولتسبب الإرباك الكبير لليهود.

وفاة راعي دير إيفهام

وفي هذه الآونة، أنهى أيامه، راعي دير إيفهام، وأسقف كوفنتري، في غسكوني، بعدما شغل دوراً كبيراً أساسياً في انكلترا، وبعدها أمضى كثيراً من الأيام المجهدة في خدمة الملك، وحدثت وفاته في منطقة اسمها ريغيولا Regula أو لي ريولي Reole، في اليوم الثامن من كانون أول، وتولى أسقف تلك المنطقة دفنه بكل احترام.

وفي هذا العام نفسه، في التاسع والعشرين من تشرين الثاني، مات جوسلين، أسقف باث، عن عمر مديد، وكان متميزاً بحياته الجديرة بالثناء وأخلاقه.

إنهاك خزينة ملك انكلترا وطلبه المال

وفي هذه الآونة أيضاً ضلل ملك انكلترا من كل جانب، أو بالحري خدع من قبل البواتيين والغسكونيين، وبات فقيراً، وسيء السمعة، لأن بدلات الخدمة، والاستخراجات، وجميع الخزائن والهدايا التي جمعت من أجله، جرى تبديدها من دون فائدة، فضلاً عن هذا عاد إلى ممارسة الاستخراجات، وفرض الضرائب، والطرائق الأخرى، فبعدها فقد أراضيه وكرامته في بواتو، وجد الآن نفسه في غسكوني مثقلاً بالدين، مع أنه ببذل الخدمة استخرج — لكن ليس من دون مصاعب حمة سببها للانكليز — ثلاثة ماركات عن كل بدل، وقال بعضهم لابل استخرج عشرين شلناً.